

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف
الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الرابع عشر

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وناشر طبعه محمد أمين عمران

محرم سنة ١٣٤٨ هـ

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص وهى مكية

(إلا من قوله — واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين — الى قوله — إنك لاتهدى من أحببت ولكنّ الله يهدى من يشاء وهوأعلم بالمهتدين — فمدنيه ، وآية — وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب إلارحمة من ربك فلاتكونن ظهيرا للكافرين — فبالجحفه أثناء الهجرة وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل)

ولأقدّم قبل تفسير السورة مقدّمات ثلاثا قد كنت كتبتها فى كتابى ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفى كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وقد كانت تدرج فى جريدة المؤيد وغيرها قبل وضعها فى الكتاب ، تلك المقدّمات ذات علاقة بالقصص القرآنية المذكورة فى هذه السورة وغيرها

﴿ المقدّمة الأولى . نموذج فى فهم كيفية قصص القرآن ﴾

(التربية والآداب فى قصص القرآن)

طال الأمر على أمّتنا فأهملت مافى غصون كتابها من أساس التربية والحكمة وكيف تنتقى الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال ، ياليت شعرى ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها وأهملت أمرها وظنّ أهلها انها أمورتاريخية لاتفيد إلا المؤرخين ، القصص فى كل أمة عليها مدارارتقائها سواءاً كانت وضعية أم حقيقية على ألسنة الحيوان أوالانسان أوالجماد ، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها وناهيك بكتاب كليلة ودمنة وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الاسلام ككتاب فاكهة الخلفاء ومقامات الحريرى وان حاد بعضها عن سواء الصراط والجادّة وطغى خلط الجدّ بالهزل ككتاب (ألف ليلة وليلة) الذى استحلس ربدته العرسون ، كل نعلم ما صنعت الروايات فى عقول العربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال وكيف يسمعون و يعقلون ، جاء القرآن بقصص الأنبياء وهى لاجرم أعلى منالا وأشرف

مزية كيف لا وقد جمعت حسن الأساليب واختيار المقامات المناسبة لما سيقت اليه والقدوة الحسنة بالكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم وتحققها فى أنفسها لوقوع مواردها وأن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الانسان لاسيا لمن يقتدى بهم ، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت فى سواها ككتاب كليلة ودمنة منتقى كتب الهند وترجمة الفرس والاسلام جاء على ألسنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده والروايات المنتشرة فى الغرب أكثرها ايهاما لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لأنفسهم لما تضمنته من النصائح فى بواطنها مع زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب . أليس من العيب الفاضح أن تقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر ومالنا ولها إذن ؟ تالله ان هذا لهو البوار ، وما نحن إلا كما حكى فى هذه الأيام عن فلاح بوبرى فقير بنى منزله الحقير من حجا مسنون مرصع بقطع من الماس الجيل المقدر بمئات الالوف من الجنيهات جهلها الرجل وعرفها سائح أوروبى فكان ذلك من أهم الاكتشاف فى تلك الأقطار . كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول فى نفسه تارة وعلى الملإ أخرى ياليت شعرى كيف توافق التاريخ وهل الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة فى الاهرام والبرابى والهياكل تؤيده ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتا مندهشا وقد يعثر على قول فلان الفرنسى والانجليزى بما يؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحا ويظن أن هذا مستند للدين وفاته أنه ان وافقه كتاب فقد يخالفه كتب إذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهارير . لعمر العلم لم يكن هذا إلا الجهل بالمقصود من قصصها وانها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر ، أما الرجوع الى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم وماسطره الأقدمون على مبانيهم ومايقوله القاصون فى خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضل فيه الماهرون ، يرشدك لذلك ماتسمعه من نبأ فتية الكهف وكيف يقول — سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل —

فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعوّل على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل فان قال خمسة قالوا ستة وان قال أربعة قالوا سبعة فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص وما المقصود منها وليكون عبرة . وبالاجمال فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها والعبر المبصرة للسامعين — لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب — ولسنا ممن يتبجح بالقول للايمان فلا نعتمد إلا على البرهان ، تأمل ياصاح هذا القصص تجده لايذكر إلا مايناسب الارشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لا لزوم لها ولامعوّل عليها فلاترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جميلة تلذ العقلاء ، ولأقتصر من تلك القصص على ماحكاه عن النبى يوسف الصديق عليه السلام وكيف جاوز فيها كل مالاعلاقة له بالأخلاق من مدنية المصريين وأحوالهم الى الخلاصة والثمرة الخ اهـ

﴿ المقدمة الثانية ﴾

لأذكر لك نموذجا آخر لذلك وهى محادثة جرت بينى وبين فتى فى حديقة الجيزة إذ قال انى اعتقدت أن القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناسا يقولون

(١) إن الدين لاعلاقة له بالكون وهؤلاء علماء أوروبا تراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون فاخبرنى رعاك الله أين أنت من قصة سليمان وماحكاه الله فى القرآن ولقد سئلت أسئلة فلم أقدر على الاجابة عليها فها أناذا أعرضها الآن

(٢) كيف سمع سليمان النملة وهى تتكلم — حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون — وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات

(٣) وكيف يقول الرب — وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق وأوتينا من كل شئ —

وكلم الهدهدفقال ـ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ـ الآية .

(٤) وكيف يقول ـ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ـ وكيف يقول ـ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك

(٥) وماتلك الأبنية العظيمة المسماة بالمحاريب التى كانوا يعملونها له ـ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ـ الآية

(٦) وماتلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان ، وما تلك القدور الراسيات العظيمات

(٧) وكيف تسيل المعادن من الأرض المرموزلها بقوله ـ وأسلنا له عين القطر ـ أى أسلنا له النحاس كالعين ينبع

(٨) وماهى دابة الأرض التى أكلت عصاه فى قوله ـ مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لوكانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين ـ

(٩) وكيف سخرت له الريح حتى قال ـ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ـ شهر أول النهار وشهر آخره

(١٠) ماهذه المحاورة التى بين بلقيس وقومها واستشارتهم فى الامور العامة والسياسة عند وصول كتاب سليمان اليها ـ قالت ياأيها الملؤا أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون * قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ـ وهذا السؤال الأخير ليس فيه اشكال وانما سألتكم فيه تكميلا للمقام وانى أعتقد أن هذه لاعلاقة لها بالعلوم لبعد منالها عن الافهام ولا ينبغى أن يفهمها إلا العامة ، أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتلوا الحقائق فالأجدر بهم أن يكفوا عن هذا وسكت . فقلت أيها الفتى إن لكل أمة وجهة تولها وتناسب حالها والأمم التى ذكرت لم يكن فى دياناتها علوم وانما هى مواعظ وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم فنحن على هذا نقر لهم بالعلم والحكمة وانما كان هذا شأنهم لأن عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد عما عداها ولم يلتفت قط فى خطابه الى غير ذلك وموسى قبله أخذ بالجسمانيات وأما القرآن فجمع بين الأمرين وتكلم على الجسمانيات والروحانيات وأشار الى العلوم اجمالا فاذا قلدناهم فى ذلك ساءت العقبى لأن المسلمين أمة عودها دينها أن يتكلم عن جميع شؤنها اجمالا حتى انه يعلمهم المواريث والأحكام ويفصل بينهم بالحق فاذا جاؤا الى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا فى شؤنهم ولم يجتمعوا على رأى واحد فالقرآن جامع بينهم . وأما مسألة نبى الله سليمان عليه السلام فانى أرى انك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدهد وخطابه والأرضة وأكلها العصا مع نبى الله سليمان ويلوح لى أنك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات ، ولنقدم لك مقدمتين قبل الخوض فى الجواب عن أسئلتك العشر . فقال نعم هات . فقلت تعلم أيها الفتى أن الأمم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والانسان ، ألم تر الى كتاب ﴿ كليلة ودمنة ﴾ تحفة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله فى الاسلام وقد علمت هذا المقام فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلاأطيل بالاعادة

إن الحيوانات على ﴿ قسمين ﴾ حكيمة تعمل الأعمال العجيبة كالنمل فى بناء المساكن والادخار والأرضة فى الهندسة والاتقان والنحل وغيرها ، فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتها ﴿ والقسم الثانى ﴾ حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس فلاقدرة لها على أعمال النمل ولاالنحل ولادود القز فهى حيوانات عاملة لاعالمة فأعطيت الضعيفة العلم والقوية العمل . قسمة عادلة ، وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معلمة للانسان ـ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون

مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي -

اذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم أن قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الأنبياء وهم أشرف مايعلمه الانسان وهذه أول مزية واضحة الظاهر حقيقية وهي مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والأخلاق ، وهي مرتبة ثالثة خالصة مما لاعلاقة له بذلك وهي مرتبة رابعة ، وهــذا نبي الله سليمان عليه السلام لم يذكر معــه إلا النمل والهدهد والأرضة وهي دابة الأرض ، فظاهر هذه الألفاظ أمور سهلة بسيطة وكلم الهدهد وسمع النمل وأكلت الأرضة عصاه ، فأما الجاهل فتى سمع هذه اكتفى بها وقال كفى بهذه معجزة ويقف عند هــذا الحد ويظن أن هذا غاية مافى القرآن وهذا فى الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ فى المدارس فانه يقرأ الحكاية ويقول مامغزاها وما المقصود منها ، ولما علم أهل أوروبا أن التاريخ جعل للعظة والاعتبار وجهوا اليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علما منهم أن المدار على ثمراته لاسرد حكاياته . ثم ان علماء الاسلام ماوضعوا علوم البلاغة إلا لخدمة القرآن ، ومن أجل تلك العلوم فن البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التى تشمل جميع الروايات والخيالات وماجاء على ألسنة الحيوان والنبات ومنه مقامات الحريرى واعترضوا عليه بأن هذا خيال يلتبس بالحقيقة ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة فى زماننا هذا ، فأما مثل ﴿ كليلة ودمنة ﴾ الذى جاء على ألسنة الحيوانات فقد قبله جميع علماء الغرب والشرق لظهور أن القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية وهناك نوع يسمى الكناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع ارادة المعنى الأصلى فيكون المعنى الأصلى صحيحا واللازم هو المقصود بالذات وعلى هذا جاء قصص القرآن فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ماوراء ذلك المعنى ، فالعامى يقف عند مجرد الحكاية ، فاذا سمع مسألة الهدهد مع سليمان والنمل وحد الله وأخلص له وعبده وأخذ يسبح بكرة وأصيلا ، أما العالم فاذا سمع هذا قال ليس القصد من هذه القصة مجرد الخطاب فان النمل ومسألته والهدهد وخبره والأرضة وأكلها أمور تشير الى ماهو أدق من ذلك وأرقى وكون نبى الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير صحيح فى نفســه ولكــن الطير ليس عنــده من العلم إلا مقادير محددة تناسب مأكله ومشربه . إذن هذه الامور تستلزم بطريق الكناية معانى أرقى من هذه مرادة ومقصودة ، واذا كان كل كلام عربى وأعجمى له مغزى فكيف يحرم من هــذا كلام الله ولأجله دون فن البــلاغة ، إن هذا هو الخسران المبين ، ومن ادعى أن المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من أن يكون تلميذا بل هو حيوان فالأولى أن يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامة فليس له فى العلم من نصيب . فقال الفتى مامثال الكناية من كلام العرب ؟ فقلت أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء ، وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح فجيده عاطل من حلى البلاغة ، ولأذكر لك مثالا واحدا لتقيس عليه ماسواه ﴿ دخل صخر أخو الخنساء عليها يوما واستشارها فى أن تتزوج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب فقالت فى أبيات لها

معاذ الله يرضعنى حبركى * قصير الشبر من جشم بن بكر

فالجاهل اذا سمع مثل هذا يقول أين المناسبة بين السؤال والجواب فهو يقول لها تزوجى دريدا وهى تقول أعوذ بالله أن أرضع طفلا قصيرا شبره قصيــر ، أما العالم فانه يعرف اللازم والملزوم ويدرك سرا فهمه العربى فى البادية بدون تعلم بل بالفطرة والمنحة الإلهيــة وهوانها ان تزوجت فلابد من الاقتراب والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالبا وأبوه قصير فيكون قصيرا والأعضاء على حسب الجسم ومنها الشبر فيكون قصيرا فاذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمها أن لاتزوج أباه المربى على زواجه مابعده فهذه لوازم وملزومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الأقوام بفطرهم واذا كان هذا كلام اعرابية فى البادية وقد تضمن هذه الحكم وذكرت أمرا صحيحا وهو الامتناع من الارضاع ولكن أرادت ماهو أرقى من ذلك عند الفطن وهو عدم التزوج بدريد بن الصــمة وهو المقصود بالجواب وقد

عدّ هذا من أجل طبقات البلاغة فمابالك ياسيدى بالقرآن الذى هو سيد الكلام فكيف لا يكون فيه كنايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم وعجائب وغرائب ، ولو نظرت فى كلام العرب بإمعان لرأيت فيه كثيرا من ذلك جدا فمابالك بكلام الله جل جلاله . الله أكبر كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر المدقق ، ومامثل الكلام السهل الممتنع إلا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفا عنده لشدة وضوحه ، فاذا نظر العالم فيه و بحث عنه وقف على كنهه ، وهاهم العلماء قديما وحديثا يبحثون عن كنهه ولا يزالون مختلفين الى يوم الدين ، العلماء ﴿ ثلاثة ﴾ عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيرا بسيطا كل لفظة بما يراد منها وهذا فى طبقة العامة لم يترعنهم والعامة بمثل هذا مولعون وهو وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرف فيه بالمجاز تارة والكناية أخرى والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه وهذا متوسط فى العلم وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل و يركب فى المعلومات وهذا هو العالم حقا وهو الحكيم الذى يأخذ بأمته الى العلا وهو الذى أشار له الله فى قوله ـ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ـ فتأمل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله فى الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه وعجائبه والى هذه الطبقات الاشارة بقوله ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم ـ اشارة الى الطبقة الأولى ـ والذين أوتوا العلم درجات ـ اشارة الى الطبقتين بعدها وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس « بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض اشارة الى تفاوتهم فى الفهم كما هو مشاهد محسوس فى كل فن من الفنون ، فاذا لم يمكنك أن تكون من الحكماء فاجتهد أن تكون من علماء البلاغة وهم أوساط الأمم الذين الذين يناط بهم التحرير والانشاء ومن سمع آية من القرآن فان كان من الفريق الأول وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم إلا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة فان ترقوا قليلا للبلاغة فياحبذا ، ولقد أصبحت الأمم جمعاء تنحو هذا النحو فى تعليم صغار تلامذة المدارس وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهود ، فمن ظن أن القرآن لا يفهم فالأجل به أن يصمت و يعتزل العلماء . عجبا أن يكون لكل حكاية فى العالم مغزى يراد منها و يسلب هذه المكرمة أبلغ الكلام ، أين البلاغة إذن ؟ فقال الفتى كفى هذا وأرجو أن أسمع ماترمز اليه هذه القصة فأجلته الى الغد ، رجعنا الى الحديقة ، فقلت يابنى إن هذه القصص تشير الى مدنية كانت عند نبى الله سليمان فان مدار المدنية الآن على

(١) سرعة نقل الأخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلاسلك

(٢) وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية (البالون) الذى سيخلف السكك الحديدية الأرضية بواسطة تبخير الغازات التى هى أخف من الهواء

(٣) وانشاء المبانى العظيمة

(٤) وفن النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة

(٥) واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها

(٦) والتدبير والاحكام والهندسة

(٧) والسياسة بالتشاور وجعل الأمر بيد الأمة وأن لا يستبد الحاكم بالرأى

(٨) والاعتماد على النفس

(٩) والتحلى بالعلوم والمعارف

(١٠) والاقتداء بالصنعة الإلهية

فهل

فهل المدينة غير ماذكرت لك الآن ؟ فقال الفتى هذه أمور عامة داخل تحتها فروع كثيرة . قلت الهدهد اشارة الى أن النبي سليمان عليه السلام أعطي سهولة نقل الأخبار بأى طريقة من طرق النقل والهدهد رمز لذلك وقد أعطى حكمة ورثها عن آبائه وأيدها الوحي بها فنقل الأخبار بسرعة ليس خاصا بالهدهد بل به و بغيره ولعل عنده ماهو أرقى مما عندنا على سبيل الكناية . وتسخير الريح له اشارة الى أن وسائل النقل متوفرة عنده عليه السلام حتى وصل الى استخدام الريح الذى يبحث عنه الاورو بيون الآن بالطيارات المعروفة وان كان للنبي معجزة لايصل لها البشر ولغيره بالعمل وهو أقل وأضعف ويقال ان النقل فى مستقبل الأمم يكون بها لتخلو الأرض للزراعة والمنافع الأخرى ويشارك الانسان الطير فى الطيران وهذا كان سرا لايعلمه إلا ذلك النبي معجزة له ، ذكره الله فى القرآن ليجدّ الناس فى العلوم لعلهم يصلون الى بعضه ، أما الوصول الى غايته فلن يصل أحد اليه ، وأشار الى المباني العظيمة بقوله ــ يعملون له مايشاء من محاريب ــ . وأما فن النقش والتصوير ففي قوله ــ وتماثيل ــ وأما استخدام المعادن فهي قوله ــ وأسلنا له عين القطر ــ وهو النحاس فقط وهو رمز الى المعادن على اختلاف أنواعها من اطلاق اللفظ وارادة لازمة أو الجزء وارادة الكل إذ المدنية الهائلة العظيمة تستلزم الترقى فى استخراج المعادن ، وأما التدبير والاحكام فى الصناعات واتقانها فاليه الاشارة بفهم كلام النملة وسماعها ولذلك يقول ــ وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ــ فأطلق وأريد به لازم معناه وهي الحكم والمعارف والعلوم والنظامات التى أودعت فى الطير والحيوان وليس القصد مجرد تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على أشياء لاتخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان من مأكل ومشرب لاتعني نبيا من الأنبياء إلا للاعجاز والتحدى والا فهو أرقى وأوسع علما ، فنبي الله سليمان أوتى الحكمة والعلم أشار له بقوله بعد ذلك ــ وأوتينا من كل شئ ــ ثم أخذ يسرد حكايات النمل والهدهد ليدلك على الحكمة التى أعطيها حتى لم يذكر فى قصته إلا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقر فى قصته إذ هو عليه السلام نبي وحكيم ورث بعض العلم عن آبائه الذين ألقيت اليهم النبوّة والحكمة ، أما سيدنا ونبينا محمد ﷺ فلم يكن علمه ميراثا وانما جاء كله بطريق الوحي فهو أمىّ لأمة أمية جاء فى جزيرة العرب لهم خاصة وللناس عامة فأمرهم بالتوحيد والنظر فى الكون والأخذ بأحاسنه ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له ــ فبهداهم اقتده ــ فأمره بأن يقتدى بهم ومنهم نبىّ الله سليمان وقد أوتى الحكمة والعلم فوجب إذن على أتباعه أن ينظروا فى قصته ويطلبوا العلم الذى يرقى مدنيتهم من الأمم حولهم فان بعض العلوم التى عند نبىّ الله سليمان ورثها عن آبائه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان ، وقد كان فيثاغورس تلميذا لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام كما قيل وقد انتشر علمه فى اليونان والهند كما فى كتاب ﴿ الملل والنحل ﴾ ومنهم الى الرومان فالعرب فأهل أوروبا فكان أدوارا شتى وطرقا مختلفة فقصة سليمان اشارة لمدنية قديمة معلوم عهدها مجهولة آثارها إذ سندهم متصل بقدماء المصريين وكان بيت بنى اسرائيل مجتمع الحكمة من الأمم الغابرة ودام ملكهم قرونا متطاولة ولذلك لما خرجوا من مصر أمرهم موسى بذبح البقرة لأن أذهانهم قريبة عهد بالعجل المسمى ابيس وعبادة المصريين له ولهذه الحادثة سميت بها أكبر سورة فى القرآن فقيل سورة البقرة وكان بنو اسرائيل إذ ذاك غلاظا شدادا لايفقهون الحكم فأمروا بذبح البقرة التى على هيئة عجل (ابيس) معبود المصريين ولما كثر فيهم الأنبياء وتمادى الزمان رقت أذهانهم وجاء فيهم نبىّ الله سليمان عليه السلام وأوتى الملك والحكمة وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وذكر حديث النمل وغيره ، فتأمل رعاك الله تجد الأمم المتأخرة الآن تبحث عن هذه الحيوانات وتتأملها حتى فى أصغر كتاب للتلامذة ، فيزان الأمة نظرها فى الكون ، فكلما دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الأشياء ترقوا فى المدنية والعكس بالعكس وهذا هو المقصود بذكر هذه الحيوانات فى قصة ذلك النبي ، ومن العجيب أن السورة التى ذكر فيها النمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة

وانى لا أزال أيها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات فى قصة سليمان ولم يقل تخاطب البقرة والخيل والحكمة ما علمت . فقال الفتى كفى فى هذا السؤال . فقلت وأما التشاور فى الأمر فهو ظاهر من محاورة بلقيس لقومها واستشارتهم فى الأمر وآدابها وآدابهم وهذا ظاهر لايحتاج الى ايضاح . وأما الاعتماد على النفس فهو ماذكره من مسألة العفريت من الجن وادّعاء الجن انهم يعلمون الغيب فقال تعالى — قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك — فبهذا هداية للانسان انه متى حاز النهاية فى العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات إذ هو خليفة فى الأرض وهو أقوى من الجنّ ، فهذه أوّل داع لذوى العقول أن يتقدموا فى العلوم والمعارف وقال — ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين — فهذه كلها تريك أن الاتكال على الاخبار بالغيب عجز وجهل بل الاهتداء بالامور المعهودة والتأمّل فى أعمال الخليقة يهدى الانسان الى الطريق الأقوم فان كثيرا من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعوّل عليهم ماعدا المعصومين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين والعفريت والجنّ فى هذه الآية يناسب ما انتشر فى أوروبا الآن من ظهور عالم الأرواح وتكليمهم إياهم عما هو شائع مستفيض والجنّ والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين فى أوروبا وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الانسان لايلتفت الى كل خبر منهم بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضح من هذه الآية ، ونتيجة ذلك أن الاعتماد على النفس والعقل فى كل شئ علوّ للهمة فى العلوم والمعارف وأن الانسان فى علمه فوق الجنّ مكانة كما فى مسألة دلالة دابة الأرض على موت سليمان وجهل الجنّ به والانسان أسمى قوّة كما فى نقل عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر . فقال الشاب وكيف انتقل سريعا وبين الشام واليمن شهر . فقلت ذلك اشارة الى أن فوق هذه المدنية الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى وان كان ذلك معجزة للنبى سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن يطلب الأخذ بالأسباب لكل مايسهل وسائل النقل والاسراع فيها . أما الاجتهاد فى العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله — قال الذى عنده علم من الكتاب — وأما الاهتداء بالكون والصنعة الإلهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمّل فى النمل وانظر . فقال الشاب مارأيت أعجب من هذا البيان ثم قال الفتى أخبرنى عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله فى القرآن ومالنا بهم من علم وفى أى زمن خروجهم ؟ فقلت أيها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه فى ﴿ مجلة الهلال ﴾ وهى فى نظام العالم والأمم وقد تقدّم فى سورة الكهف

﴿ المقدمة الثالثة ﴾

(أحوال الدول فى قصص فرعون وموسى عليه السلام)

الانسان فى حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم فاما مكبا على وجهه أو سويا على صراط مستقيم . كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أو الأقربون أو الاخوان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير أو الشر ، ويقال آخران هؤلاء مثل ضرب له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء ، والتاريخ مثل واضح يتمثل به الانسان سيره فى نفسه وأهله ومدينته متى عقل وعمل وحوادث الاصحاب والاخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان ولاجرم انه يسدّ عوز الحكيم اذا عقل فى سيرته الشخصية والمنزلية ، أما سيرة المدن وتقلبها فرجعها الى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم العابرة فهى المناظر المعظم تدرس بها الأخلاق فى شكل بهيج جميل . لعمرك ليس كل تاريخ يغنى « وما كل مصقول الحديد يمانى » فقد يستسمن ذوالورم وينفخ فى غير ضرم ، يسرد المؤرخ حكايات الأوّلين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر إلا فى آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج ونواتجها طاهرة واضحه خيرا أوشرا فيخرج القارئ من بساتينها

مقتطفا من رياضها أزهارا وجالبا من أشجارها أثمارا ، ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ ان عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة . نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين وقد كان فرعون يقول — أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون — ذلك تذكرة للكاتب والقارئ لأنا نعلم انه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارئ نفسه كما يشعر به قارئ رواية أو يقتل به الزمن كلا . كيف وهو سبحانه وتعالى يقول — لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب — والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارئ التاريخ حال غيره الى نفسه ويعبر به على سفن الألفاظ الى الحقائق ويقول تعالى — ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت — ويقول جل وعز — كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم — ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام « ماتحت الشمس من جديد » ويقول علماء العصر « التاريخ يعيد نفسه » غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد وخبلا عن الفحوى ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة . جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ ولكل مثل مورد ومضرب وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بها ، فمن أجهل ممن جد على الألفاظ دون معناها والمعانى دون مغزاها ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام « شيبتنى هود وأخواتها » وترى كثيرا من الأدباء اذا أزمع هداية انسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيرا من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية واقداما أوخيفة واحجاما فزال المراء ورفع الغطاء ، إن الخبر فى مغزاه كالسهم فى مرماه فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الأمم فى قصص فرعون وموسى عليه السلام

أشرنا فيما تقدم الى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين ونحن لانعلم من تاريخ دولهم إلا انهم كانوا فى ليل الجهل الدامس حتى بعث لهم نبى الله ادريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان طبيبا ومهندسا وإلهيا ، وورد انه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن فى النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتاهوا فى ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثارا لجلاله ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن وبقى التوحيد سرا مكتوما عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبى موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجح فى الخاصة وهم القليل وآمن بنو اسرائيل وبقى المصريون فى عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم — فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين — فأغرق فرعون وجنوده وأما بقية الشعب فاجتاحتهم جماعة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الاشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ماسدد عليهم فأصماهم وأقصد القلب الابقوس من شعارديتهم . عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين الجيشين فتحرج المصرى عن قتلها فأصابها وأصابه قمبيز فلك وقتل وسبى وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين وكان ماكان من هلكته

مضت دولة الفرس فورثهم اسكندر المقدونى وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ماحرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من الايمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوسمه بما وسم امام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى ، كل هذا وحال المصريين تنادى

وانك عادل ياعمرو فينا * ولكن جئت فى الزمن الأخير

فأكثرهم أبيد بيد الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب مصداقا لما روى عن ادريس عليه السلام

﴿ يامصر ، يامصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب زينتك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحجارك ﴾ والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون ـ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين * ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ـ

العبرة فى هذا أن الأمم لها باب ترتقى فيه وآخر فيه تضعف قوتها واذن لابد لها من اصلاح فاما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين والافلامناص لها من السير على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم المصمية المهينة الفاتكة وأن الأمة اذا ظلت عاكفة على مجهول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد ، طفلة كل مرب ، زوجة كل بعل ، وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والاشوريين والفرس واليونان والرومان بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار ، فهكذا ياقوم فليكن حالنا اليوم فادمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القانصين ولوساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا فى ذلك مصلحة خاصة فرجة الله انما ينزلها للمحسنين عملا ـ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ـ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم مايشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ـ إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماسحقتهم الأمم الجائرة بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض ، فانظر كيف كان عاقبة الجامدين

أما أهل مصر الحاضرون فـاغشيهم ماغشى أهل فرعون فان أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا اليها ، وهم وان نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية وتقل فى الفلاحين وتضعف فى أهل الامصار والمدن الكبار إلا فى أناس أرجعها لهم التعليم إن صح فلاحكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولاأرى أن يسام الحاضرون بالعابرين

هذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمنا زمنا زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين الى نحو القرن السادس الهجرى وأن مافى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين ، كيف وقد غلبت صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم ، فاذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما عليا ، كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون وعليه فان أمتنا قابلة لاسراع الرقى فى أقرب الأزمنة متى تعلموا ، وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهى جنين ، وكيف تشب وهى طفلة لعوب

﴿ انشاء الأمم ﴾

سبق القول انا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لامحيص عنها ، للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالانسان طفل فشاب فشيخ فميت ، وكالسنة ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت كسير القمر توليد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل مائد مما ذكرنا يخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الأفلاك أو بالولادة فى العناصر والرجحان من الانسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلامناص منه للجمهور رشاؤا أم أبوا ، فهكذا الأمم تراها مقهوره مسخرة على كماله سواها مما تحت سيطرتها . ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلاتلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفه فيسود الضعفاء ويحكم المقهور ـ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ـ وناهيك بما وقع للمصريين من السودان وهم عبداهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون وما كان من عرق الرومان بأيدى

الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول ، هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى أعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالاسم والغلبة والقهر — وتلك الأيام نداولها بين الناس —

هذا وليس رقى الأمم بلا موجب فالرقى أسباب وللتدلى أسباب ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا وموطنا ومهاجرا وقدمنا انها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصا ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة — وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وانه لغفور رحيم — وقد استخلصنا أسباب الرقى اذا هى عشرون عشرة منها بكسب الانسان وعشرة من الله ، ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ماعنده من الهبات والمنح العشرة الاولى أن تمنح الامة رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه فأخلصوا فى أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا رياء ولاسمعة بحيث يكون ذلك كأنه حاسة فيهم هبة لهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام فى سقى الغنم إذ — قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير — فرفع الحجر عن البئر — فسقى لهما ثم تولى الى الظل — وكان ما كان من زواجه باحدى الابنتين ورعيه الغنم (١٠) سنين ، وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بانطاكية وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته لا أجر ولا شكور

(١) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة المغيرة وافهامها حاجات الأمة المغلوبة بما فى الامكان واجتذابها اليها بما جل من العلم والمعرفة كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب — اذهب أنت وأخوك بآياتى ولاتنيا فى ذكرى * اذهبا الى فرعون انه طغى * فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى — الى أن قال — فأرسل معنا بنى اسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى — فجمع بين الارشاد واللين فى القول أو الشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعا على كل من أوتى حكمة فى القول وجاها وعلما وقدرة أن يتذرع بها الى الأمم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته ، لهذا نزل القرآن لاتعنيا أواعرابا خسب أوتاريخا ، ومن أعطاه الله حكمة اوجاها فاتخذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفا حكمة عامة الأديان

(٢) القوة العلمية واقناع الخاصة بمايلائمهم والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدإ واحد ، يشير الى الأول قوله تعالى فى موسى — قال فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى — وقوله — الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا * وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى — فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والأنفس الراقية وهى تشير الى مايعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء ثم تلقفت عصاه إفك السحرة وأخرج يده فاذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة

(٣) الأنفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الدمار وخوف العار بازالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى — فوكزه موسى فقضى عليه — وان ندم بعد ذلك وهكذا ان أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه فراسة بنور النبوة والعلم انه سيصل به الوالدان ، فهذه اشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والاصلاح ، فهذه أشجار هذا زهرها وأثمار هذا طعمها وفاكهة هذا حلوها

(٤) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى أحسن كما احتال

الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها ـ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا ـ وهكذا أم موسى وضعته فى التابوت لنجاته قال تعالى ـ فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخاف ولاتحزنى إنارادّوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ

(٥) الثبات على المبدأ والصبر أمد العمر ، ألم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق ـ وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ـ الخ هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له ـ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون * قال ربّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ـ وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام فقال والله لأقاتلنهم ولووحدى وليس قصدنا من هذا إلا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتى صحّ لديك البرهان فكن على مبدئك ولاتبال بعاذل أولائم

(٦) اشعار النفوس بالشهامة وعلوّ النفس وأن لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى اسرائيل فى القرآن بهذه العبارة ـ وانى فضلتكم على العالمين ـ تذكرة لهم فى زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى ، كيف وهذه الأمة عموما وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الأرض مدنوا العالم ، منا الأمويون والعباسيون والفاطميون ، وما الطولونيون والاخشيديون إلا موالى آبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوّخوا هذه البلاد إلا من موالى أسلافنا ، ولقد أدركت القوم فى القرى إبان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف وينشدون الأشعار الحماسية ، وماعهد اكتساح التتار بمائتى ألف من المصريين أيام المظفر من نحو سبع قرون ببعيد ، ولعمرى لأن تملئ النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب اقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الأعلام مرتاعة الأفئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أوذرات الهباء خائرات القوى

(٧) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع لبنى اسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة ـ قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ـ

(٨) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم الى هاوية العذاب الى حال أخرى كالخروج من أرض الى أرض وأن ذلك يسهل متى أراد الانسان وهو أبو العجب ، ألم تر الى موسى عليه السلام كيف مرّ ببنى اسرائيل من أرض فرعون الى أرض كنعان

(٩و١٠) ازدواج اللين والشدة وقد كان للاولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام

هذه العشرة متى ظهرت فى أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة وهى عشرة سنذكرها فى مقال آت إن شاء الله تعالى

قلنا فيما سبق ان الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال « اخلاص العمل لأمتهم والحنوّ والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم ، ومامن أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر ان كانوا أوساطا فى العلم أوالثواب الجيل والشوق الى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب أجر ان كانوا حكماء واقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام ، فلأمة تفعل مافعلت الفراعنة فى بنى اسرائيل ومع هذا لم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة

والثبات

والثبات على المبدإ مهما عارضه الأقربون والأدنون واشعار النفوس بمكانتها وشرفها فلا ينبغي أن تصغى الأمة الى من يصغرها فى عينها . ولقد قال ابن خلدون رحمه الله « إن هؤلاء الذين يسكنون الخيام فى البادية هم أبناء ملوك الأعصر الغابرة وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم وأنا أقول اننا قبائل نزحنا الى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال قريبة العهد لاتقتضى بأن يضرب علينا الذل والمسكنة ولا يقال فى مصر « هى لمن غلب » فانما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت ــ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولاتسألون عما كانوا يعملون ــ وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أوصفات أوأخلاقا أوملكا الخ »

هذا ملخص ماذكرناه أمس ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التى قلنا انها هبات من الله وهى تساوقها بلاترتيب ولاتعقيب فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم واحسانا

(١) الإلهام وذلك يكشف الغطاء عن القول فتظهر لهم وجوه المنافع ومساوى المضار فان النفوس اذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول الى الحكمة فأدركوا مالهم وما عليهم واليه الاشارة بقوله تعالى ــ وأوحينا الى أم موسى ــ وهذا وان كان بلاكسب ففيه اشارة الى مانحن فيه

(٢) اجابة الدعاء والنصر ــ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ــ

(٣) شد الازر وتقوية الأفئدة بالاخوان والأنصار ــ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلايصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ــ

(٤) و (٥) النصر والنجاة من الضر ــ ولقد مننا على موسى وهرون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم ونصرناهم فكانوا هم الغالبين ــ

(٦) الهداية الى الطريقة المثلى ــ وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم ــ

(٧) حسن السمعة والذكر والصيت ــ وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهرون * إنا كذلك نجزى المحسنين ــ

(٨) القربى من الله تعالى ــ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ــ

(٩) التمكن من الخلافة فى الأرض ــ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ــ

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ــ ألم تر الى حديث رجل من آل فرعون ــ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ــ فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة أن قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه ولعمرك إن فى هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق ان من أعطى فصاحة أوجاها أوحكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أوجاهه أوقلمه فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى بلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادى مواليا وهذا يتم بصبر كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورقى أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها ــ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين ــ ولما جاهد بنواسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصرفى التلاشى إذ ذاك ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة ــ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ــ انتهت المقدمات

﴿ تفسير السورة ﴾

(هي أربعة أقسام)

﴿ القسم الأول ﴾ في قصص موسى عليه السلام من أول السورة الى قوله ـ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ـ

﴿ القسم الثاني ﴾ من قوله ـ ولولا أن تصيبهم مصيبة ـ الى قوله ـ فعسى أن يكون من المفلحين ـ

﴿ القسم الثالث ﴾ من قوله ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ الى قوله ـ وضل عنهم ما كانوا يفترون ـ

﴿ القسم الرابع ﴾ من قوله ـ إن قارون كان من قوم موسى ـ الى آخر السورة

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا
يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا
أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ
مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ
النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ
تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً
مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ
يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ
مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ
إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ
إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ
آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ
جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ
رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ
أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ

يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا
أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ
عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ
لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلٰهِ
مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا
أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
* وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا
لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا
الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ
قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا
كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) تقدّم فى أوّل سورة آل عمران (تلك آيات الكتاب المبين) إن هذه السورة آيات القرآن المبين يقال بان الشئ وأبان بمعنى واحد . ويقال أبنته فأبان لازم ومتعدّ والمعنى مبين خيره وبركته أومبين للحلال والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد (نتلوا عليك) نقرأ عليك أى يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو قوله (من نبأ موسى وفرعون) أى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال كوننا محقين (لقوم يؤمنون) لأنهم هم المنتفعون به ، وههنا ذكر ﴿فصلين﴾ فصلا يدل على علوّ فرعون فى الأرض وظلمه وفصلا يدل على أن المظلومين نصرهم الله ليفهم المسلمين انهم ان كانوا مظلومين والناس تؤذيهم كما كانوا فى مكة فان الله ينصرهم كما حصل بعد ذلك وهكذا اليوم هم أذلاء بظلم الأمم لهم وهوالآن يريد نصرهم لأنهم مستضعفون وأيضا يريد الله أن يفهم المسلمين أنهم ان ملكوا الأرض لا يطغون والا دالت دولتهم كما حصل سابقا لهم ولأمم بعدهم . إنهم أسرفوا فى الشهوات وهم فى الأندلس فأذلهم الأسبان فأخرجوهم أجمعين والأسبان طاردوا المسلمين فى أصقاع أفريقية ولكن الله يريد أن يمنّ على الذين استضعفوا فى أرض أفريقية من المغاربة المسلمين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، ولقد ابتدأ ذلك بقتال أهل الريف ورئيسهم عبد الكريم جنود

الأسبان ، ولقد قتلوا منهم مابين أربعة آلاف وعشرة آلاف فى الحقول والقفار حتى ان مكاتبا أفرنجيا وصف ذلك وصفا مريعا فقال انه عدّ فى عشرين دقيقة (٣٥٠) قتيلا وأن القتلى فى طول الحقول والقفار وعرضها لاتجد من يدفنها ولامقابر لها إلا بطون الغربان والجوارح الحائمة والكلاب العاوية وهذا من أسرار هذه الآية ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ ولكن بعدهذا نفى عبدالكريم ولم يتم الاستقلال اهـ وهاك ذكر الفصلين

﴿ الفصل الأوّل ﴾

قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) وهذا تبيان لبعض نبأ موسى وفرعون والمراد بالأرض أرض مصر (وجعل أهلها شيعا) فرقا وقد استعمل كل صنف فى عمل وجعلهم احزابا أغرى بعضهم ببعض كيلايتفقوا عليه كما هى سياسة الأمة الانجليزية وعنوانها فرّق تسد (يستضعف طائفة منهم) وهم بنواسرائيل وأبدل من ـ يستضعف ـ قوله (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين) ذلك لأن كاهنا أخبره أن مولودا يولد من بنى اسرائيل يذهب ملكه على يده فلذلك اجترأ على القتل ، فلخص هذا الفصل

(١) أنه علا فى الأرض

(٢) واستضعف حزبا من أحزاب مصر

(٣) وقتل الأبناء

(٤) واسترق النساء

(٥) وانه مفسد

﴿ والفصل الثانى ﴾ ذكر فيه سبحانه انه قابل الخمسة الأولى بخمسة وهى

(١) يمنّ أى يتفضل ـ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ بانقاذهم من بأس فرعون

(٢) قال ـ ونجعلهم أئمة ـ مقدّمين فى أمر الدارين

(٣) ـ ونجعلهم الوارثين ـ لأرض الشأم

(٤) ـ ونمكن لهم فى الأرض ـ أرض الشأم فسلطهم عليها

(٥) ـ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ـ من بنى اسرائيل ـ ماكانوا يحذرون ـ من ذهاب ملكهم وهلاكهم بالاغراق

هذان الفصلان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار قال تعالى ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ ولقد حصل هذا فى كل زمان ومكان ، أفلاترى كيف أحاطت أوروبا بالأمة التركية فقضت على ملكها ثم قام طائفة منهم بالأناضول فأزالوا الظلم وأرجعوا الملك وتمّ نظيره فى بلاد الفرس و بلاد الأفغان ، ولقد كانت الدولة الروسية قائمة بالقياصرة فاستمدّوا بنحو مائة وعشرة ملايين من الناس وكانت البلاد بأيدى أفراد من العظماء والثروة كلها فى أيديهم فقتل القيصر وبدد وشرد جميع الاغنياء واقتسم الناس تلك الثروة فى تلك الأصقاع وصارت الأمة بلشفية ، فهذا هو ما قاله الله هنا ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ فهذا هو الحاصل الآن ، أصبح المساكين الصعاليك فى يدهم مقاليد الحكم فى تلك البلاد و يودّون أن يعمموه فى سائر الاقطار وهم لذلك ساعون

(رأى سقراط فى السياسة)

(١) يرى سقراط فى السياسة أن الحكم يكون بأيدى قوم يصطفون من الشعب تعلمون تعليما أرقى من سائر الناس مع التعليم العسكرى

(٢) فاذا انقرض هؤلاء تولى الحكم قوّاد الجيوش وهم أقل ممن قبلهم رتبة

(٣) فاذا تمادى الزمان قام بالأمر أبناؤهم الذين لاهم حكماء ولاقوّاد ولكن ميزتهم انما هو المال

فكل عملهم لأجل المال
(٤) ويعقب هؤلاء أن الأمة تقوم فتقسم مالهم وتزيل ملكهم ويصير الحكم فوضى لارابط ولارادع
(٥) ثم يتولى فرد يقهرهم ويسخرهم ويذلهم
فالحكومات عنده ﴿خمس درجات﴾ أرقاها حكومة الحكماء والفلاسفة وأدنى منها الحكومة العسكرية ويليها حكومة ذوى المال والشهوات والترف ، ثم حكومة المجموع الذى هو أشبه بالفوضى ثم حكومة الفرد ، فالحكومة الرابعة لامناص منها اذا استبدّ الأغنياء وأرباب الشهوات بالأمر فأخذوا المال وحدهم وسخروا الأمة لمطالبهم ، وهذا هو الذى حصل فى بلاد الروسيا إذ قام الشعب فأزال القياصرة وأرباب الأموال وهذا من قوله تعالى ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ـ اللهم إن الشرق الآن ضعيف فليقم فيه قائمون ليرجع اليه مجده ويزيل الظالمين من أرضه
وهنا أذكر لك ﴿حادثتين * الحادثة الأولى﴾ وقعت أيام الفراعنة فقد جاء فى بعض المجلات فى بلادنا وهى مجلة «كل شئ» مانصه

(البولشفية فى مصر قبل ٤٠٠٠ سنة)

كلما تفاقت الشرور وتعاظم الناس أمرها شعروا كأن نهاية العالم تداقتربت وهذا ماشعر به المسلمون عند قدوم التتار عليهم وماشعر به الأقباط عند ما اضطهدهم (دقلديانوس) وهذا أيضا ماشعر به النبلاء فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٩١٧ عند نشوب الثورة ولعلّ فى هذا الشعور رحمة للمضطهدين لأنه يعزيهم عن فقدهم مجدهم ويوهمهم أن العالم كله سيذهب بعدهم بقليل
وقد حدث سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ثورة بولشفية فى مصر تغلبت فيها الكثرة من العامة على القلة من الخاصة وطردتهم من الأرض والمسكن واحتلت مكانهم وكان ذلك فى الأسرة العاشرة ، والغريب فى هذه الثورات القديم منها والحديث أن يسبقها على الدوام ثورة فكرية تهيئ الأذهان للانقلابات القادمة ، فأدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر طبخوا الثورة طبخا فى أذهانهم قبل وقوعها ، وأدباء روسيا هم الذين أحدثوا الشيوعية فى كتبهم قبل أن يقتل الثائرون القيصر وأسرته ، وكذلك الحال فى مصر فى الأسرة التاسعة كانت مشهورة بكثرة المفكرين حتى اذا جاءت الأسرة العاشرة كانت العقائد قد تزعزعت وزالت من النفوس تلك الكرامة التى كانت للحكام والأخلاق ، وكانت الاسرة العاشرة تحكم الوجه البحرى وجزأ من الوجه القبلى وكان فى طيبة أمام الاقصر أسرة فرعونية أخرى تحكم جزأ صغيرا من الصعيد ، وفى هذه الاسرة العاشرة انهزم سلطان فرعون وأخذ كبار القوّاد والاعيان يؤلفون الجيوش يقاتل بعضهم بعضا حتى ساءت ادارة البلاد وكثر اللصوص وعمّ القحط فقام العمال فجأة وهجموا على الاغنياء فقتلوهم واستولوا هم على الارض والمنازل
ونحن نعرف خبر هذه الثورة من كاتب مصرى يدعى (ابور) رأى بعينيه هذه الثورة وكان أمينا لفرعون يواليه وكان فرعون قد فرّ من أعدائه الى مكان خارج مصر فأرسل اليه (ابفور) خطابا يستحثه على الرجوع لكي يعيد النظام الى نصابه ومما قاله فى خطابه هذا ﴿إن الناس قد ثاروا على التاج وقامت منهم طائفة قليلة العدد لانظام لها تريد التخلص من الملوكية ، وقد ذهب النظام القديم وهدم البلاط فى لحظة وطرد العمال الملك وأصبحت خزانة الدولة ملكا لكل انسان﴾
وبعد ذلك يصف أحوال الناس فى تلك الفوضى فيقول ﴿إن من لم يكن يملك شيأ قد أصبح الآن غنيا فأثرى فقراء البلاد وبات الأغنياء لايملكون شيأ ، ومن كان قبلا خادما قد صار الآن مخدوما وكفّ الخدم عن تأدية المهام التى يكلفهم بها أسيادهم وصاروا لايخشون مخالفة أوامرهم وانطلق لسان الخادمات حتى صرن

لايطقن كلة من سيداتهنّ وهؤلاء الخادمات يزين نحورهنّ بالذهب والجواهر ومع أن البلاد لاتزال غنية فان ربات البيوت يقلن « ليتنا نجد شيأ نأكله » وذلك لأن الفقراء قد امتلكوا البلاد ﴾

ثم يقول ﴿ إن من كانوا يلبسون الملابس الفاخرة قد صاروا الآن يلبسون الاهدام البالية ، ومن لم يكن يجد الخبز قد صار له بيدر وامتلأت خزائنه بأموال الناس ، ومن لم تكن ترى وجهها إلا فى الماء قد صارت تقتنى المرآة ، فالأغنياء فى حزن ومن كانوا فى فقر يفرحون الآن ، ومن كان له أب عظيم صار لايعرف الآن أو يميزمن لم يكن له أب مثله لأن عائلات النبلاء طردت من بيوتها الى الشوارع ، وقد جاع الأمراء والأميرات وصارت أجسامهنّ فى حال محزنة للخرق والاسمال التى يلبسونها ﴾

ثم يقول (ابفور) أيضا ﴿ لقد حدثت حوادث مدهمة فملت أطفال النبلاء وضربوا بالحائط ، وفتحت المحاكم و بعثرمافيها من الكتب وداس عليها الناس فى الأماكن العامة وسرقت مصالح الحكومة وذبح الموظفون وأخذت أوراقهم وكل شئ صار فى خراب وجميع البلاد تقول هلموا نذل الولاة والحكام وذوى السلطان بيننا ومع ان الناس ينادون بالحق بأفواههم فان مايفعلونه هو الباطل ﴾ ثم يصف بعد ذلك ثمرات الثورة يقول ﴿ إن وجوه الناس شاحبة لأن المجرمين مطلقون ولم يبق أحد من ذوى السلطان فاذا قصد الفلاح الى حقله حمل معه سلاحه و يقول الخدم هلموا نسرق شيأ ، والأب يقاتل ابنه و يعدّ أخاه عدوّا له ، وقد قست قلوب الناس والدم يسفك فى كل مكان والموت يحصد الناس وليس بالبلاد صناع يعملون الآن ، وكف الناس عن حرث الأرض وصارت المواشى ترعى هاملة سائبة ليس لها راع ، والناس يأكلون العشب و يشربون عليه الماء وتؤخذ الأعمدة والبوّابات والسياجات للحريق والصناديق المصنوعة من الأبنوس تحطم ﴾ انتهى

﴿ الحادثة الثانية ﴾

إن الأمة الانجليزية التى تحكم بلادنا قد انتصر العمال فيها ولكن هذا الانتصار مبنى على العقل وعلى الحكمة لاعلى الظلم والفتك كما فعل الروس والمصريون القدماء وهذا ماجاء بجريدة الاهرام يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ عند طبع تفسير هذه الآية

(فى بريطانيا العظمى)

« انتخبت (مس بوند فيلد) وزيرة العمال وهى أوّل امرأة فى تاريخ الانجليز ذكية الفؤاد كفء تشترك مع الرجل فى تخطيط سياسة الامبراطورية ومصير بلادها ، فهى تفتخر كذلك بأنها كانت عاملة فى دكان كما يفتخر رئيسها المستر (ماكدونالد) بأنه لما وصل الى لندن لأوّل مرة فى حياته كان لايمتلك أكثر من شلنين ونصف وكان يستبدل الشاى بالماء الساخن فى شربه ولاتزيد مصاريف يومه عن ثمانية بنسات ، هذا هو المستر (ماكدونالد) مدير الأمبراطورية اليوم ، وهذه مس (بوند فيلد) يوضع اليوم فى يدها أهم مشكلة تعانيها الامبراطورية منذ ربع قرن ، ولم تكن (مس بوند فيلد) شديدة التأثر والانفعال بل كانت أشدّ من زملائها الوزراء من الرجال حينما ذهب أعضاء الوزارة الجديدة الى قصر وندسور لمقابلة جلالة ملك الانجليز فقد كانت تسير بين الجمهور بجنان ثابت وعزيمة قوية إذ ابتسمت وهزّت رأسها حينما سئلت عما اذا كان المركز يثقلها وقالت لا ياعزيزى لست كذلك بعد مجهود أربعين عاما ، إنى مفتخرة بأن أكون أوّل امرأة تصل الى كرسى الحكم وأشعر بسعادة لأن الفرصة قد هيأتنى للعمل فى مسألة كانت ولاتزال موضع اهتمامى ، والواقع فان (مس بوند فيلد) كانت فى مجلس العموم المنحل كثيرة الاهتمام بمسألة العمال وعائلاتهم فقد قدمت فى دوره الماضى مشروعا لحماية أطفال العمال باعانة الحكومة لهم وشراء الأحذية اللازمة لهؤلاء الاطفال وهذا المشروع معروف بمشروع أحذية الأطفال » اهـ

﴿ اللطائف الإلهية والتدبير لانقاذ بنى اسرائيل من الذل ﴾

ولما أتم الله هذين الفصلين شرع يبين للناس لطائفه وتدبيره فى ابراز ماأراده لتستيقظ الأمة الاسلامية

اذا ضعفت ولتعلم أن الله ماأنزل القرآن إلا لاسعادهم ، علم الله أن أمة الاسلام سيحل بها ماحل بالأمم قبلها من عز وذل وقد أخذت حظها من الرفعة ثم سقطت الى الحضيض فأنزل هذه القصة ليبين انه يلهم أناسا اسعاد الأمة فيقتضى ألا ييأسوا وليعلموا أن الله الذى نجى بنى اسرائيل هونفسه حى ينجى المسلمين متى صحت العزائم والقلوب لاتزال قابلة للالهام والله لايخلف وعده فلنذكر الآن الحوادث المتتابعة التى انتهت بانقاذهم ثم نتبعها بما يناسبها من حوادث العصر الحاضر ثم نذكر المسلمين أن الله معهم — وان الله لمع المحسنين — وتلك الحوادث (١٣)

﴿ الحادثة الأولى ﴾

قال تعالى (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن أرضعيه) أى بأن أرضعيه ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بأن يعلموا به (فألقيه فى اليم) فى البحر وأراد به النيل (ولاتخافى) عليه من الغرق (ولاتحزنى) على فراقه (إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين) ✽ يروى انها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بنى اسرائيل فعالجتها فلما ولد موسى أحبته حبا جما فأرضعته أمه ثلاثة أشهر ولما أحست بالارصاد والعيون وضعته فى تابوت وألقته فى اليم ، هذه هى الحادثة الأولى

﴿ والحادثة الثانية ﴾ إلتقاط آل فرعون له ﴿ والثالثة ﴾ رضاع أمه له ﴿ والرابعة ﴾ نبوغه فى العلم ﴿ والخامسة ﴾ قتله القبطى ﴿ والسادسة ﴾ و ﴿ السابعة ﴾ و ﴿ الثامنة ﴾ فراره الى مدين ، وسقيه للبنتين ، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام ﴿ والتاسعة ﴾ نزول الوحى عليه ﴿ والعاشرة ﴾ ظهور المعجزة ﴿ والحادية عشرة ﴾ كفر فرعون ﴿ والثانية عشرة ﴾ هلاك فرعون وجنوده أئمة الضلال ﴿ والثالثة عشرة ﴾ خطاب النبى ﷺ بذلك لاستيقاظ أمته

﴿ الحادثة الثانية ﴾

قال تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّا وحزنا) اللام للتعليل بحسب الأصل وجعلت هنا للعاقبة لأن آل فرعون لم يريدوا أن يكون عدوّا وحزنا بل هذه هى العاقبة (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) مذنبين يقتلون أبناء بنى اسرائيل ويستحيون نساءهم فلابدع اذا ربى موسى بين ظهرانيهم وصار عدوّا فاقتص منهم لأن هذا هو العدل (وقالت امرأة فرعون) لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرّة عين لى ولك) لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه (لاتقتلوه) خطاب بلفظ الجمع للتعظيم (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع ✽ يقال انه كان لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها وكان بها برص وقد وصف لها الأطباء ريق مخلوق يشبه الانسان يخرج من البحر فى ساعة كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم جلس فرعون على شفير النيل ومعه آسية امرأته وابنة فرعون معهما فظهر التابوت فلم يقدر على فتحه إلا آسية لأنها هى التى رأت النور مشرقا منه فظهر منه صبى صغير وجهه منير وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبنا فأحبه فرعون وآسية فأما ابنته فانها عمدت الى مايسيل من أشداقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته الى صدرها ، ولما قال له القوم اقتله قالت آسية لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكانت لاتلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال لها أما أنا فلا حاجة لى فيه ✽ قال رسول الله ﷺ « لوقال يومئذ قرّة عين لى كما هولك لهداه الله كما هداها » وقيل لآسية سميه ، قالت سميته موسى لانا وجدناه فى الماء والشجر لأن « مو » هوالماء و « سا » هوالشجر ، هذا قول بعض المفسرين وأقول لكن قال أساتذة علم قدماء المصريين الذين يقرؤن الخط الهيروغليفى ان « مو » هوالماء كما قال هؤلاء أما « سا » فمعناه ابن أى ابن الماء ، فهذا قوله تعالى — فالتقطه آل فرعون — الى قوله — عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا — أى نتبناه فانه أهل له (وهم لايشعرون) حال من الملتقطين

﴿ الحادثة الثالثة ﴾

(خوف أم موسى عليه وفزعها وارجاعه لها وارضاعها إياه)

قال تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون وهذا كقوله تعالى ـ وأفئدتهم هواء ـ أى خلاء لاعقول بها (ان كادت لتبدى به) أى لتصرح بأنه ابنها من شدة وجدها وتقول « وا ابناه » (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والتثبيت (لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعدالله إياها فلما ربط الله على قلبها وصدقت وعدالله أخذت فى الأسباب لحفظ ابنها (وقالت لأخته) لمريم أخت موسى (قصيه) اتبعى أثره وتتبعى خبره (فبصرت به عن جنب) عن بعد * وقرئ ـ عن جانب ـ وهو بمعناه (وهم لايشعرون) انها تقص أثره وانها أخته (وحرمنا عليه المراضع) أى حرمنا عليه أن يرتضع من المرضعات جمع مرضع (من قبل) من قبل قصها (فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) لأجلكم (وهم له ناصحون) لايقصرون فى ارضاعه وتربيته فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمها وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه فقد أبى كل ثدى إلا ثديك فقالت إنى امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن لا أوتى بصبى إلاقبلنى فدفعه اليها وأجرى عليها فرجعت الى بيتها من يومها وهذا هوقوله (فرددناه الى أمه كى تقر عينها) بولدها (ولاتحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعدالله حق) علم مشاهدة (ولكن أكثرهم لايعلمون) أن موعده حق فيرتابون فيه وقوله ـ ولتعلم أن وعد الله حق ـ فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون . انتهت الحادثة الثالثة

﴿ الحادثة الرابعة نبوغه فى العلم ﴾

قال تعالى (ولما بلغ أشده) مبلغه الذى لايكاد يزيد عليه نشؤه يقال انه فى نحو ثلاث وثلاثين سنة (واستوى) أى بلغ أربعين سنة ويقال انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) عقلا وفهما فى الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) أى مثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه نجزى المحسنين على احسانهم

﴿ الحادثة الخامسة ، قتله القبطى ﴾

قال تعالى (ودخل المدينة) ودخل مصرآتيا من عين شمس (على حين غفلة من أهلها) فى وقت لايعتاد دخولها ولايتوقعون فيه يقال انه وقت القيلولة (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنواسرائيل والآخر من مخالفيه وهم القبط (فاستغاثه الذى من شيعته) وهو الاسرائيلى (على الذى من عدوه) أى القبطى فسأله أن يغيثه بالاعانة ولذلك عدى بعلى (فوكزه موسى) فضرب القبطى موسى بجمع كفه (فقضى عليه) أى فقتله وأصله فأنهى حياته (قال هذا من عمل الشيطان) لأنه لم يؤمر بقتل الكفار ولأنه كان مؤمنا فيهم فلم يكن له اغتيالهم ولايقدح فى عصمته قتل الخطأ (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة (قال رب إنى ظلمت نفسى) بقتله (فاغفرلى) ذنبى (فغفرله) باستغفاره (إنه هو الغفور) لذنوب عباده (الرحيم) بهم وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفرمنه لأن المقربين يستعظمون كل مافرط منهم ولوخطأ (قال رب بما أنعمت على) أى أقسم بانعامك على بالمغفرة وغيرها لأتوبن (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) فلن أكون معينا لمن أدت معاونته الى جرم * قال ابن عباس انه لما لم يستثن ابتلى به مرة أخرى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة (فاذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) يستغيثه مشتق من الصراخ (قال له موسى إنك لغوى مبين) مبين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما) لموسى والاسرائيلى ، ومعلوم أن القبط أعداء بنى اسرائيل (قال)

الاسرائيلى (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) ولم يكن أحد يعلم من قوم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى عليه الاسرائيلى فسمعها القبطى فأتى فرعون فأخبره وانما قال الاسرائيلى ذلك لأنه ظن أن موسى يقتل القبطى عمد اليه هو لما سمع من قوله ـ إنك لغوى مبين ـ فقال ماتقدم وتمامه (إن تريد) أى ماتريد (إلا لماهم أن تكون جبارا فى الأرض) تطاول على الناس ولا تنظر العواقب (وماتريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا أن موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال له سمعان وهو قوله تعالى (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) يسرع فى مشيه حتى سبق الى موسى فأخبره وأنذره بما سمع (قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك) يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج من المدينة (إنى لك من الناصحين) أى فى الأمر بالخروج (فخرج منها) موسى (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) ينتظر لحوق طالب فيأخذه ثم لجأ الى الله تعالى لعلمه أنه لاملجأ إلا اليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم

﴿ الحادثة السادسة ، والحادثة السابعة ، والحادثة الثامنة ﴾

(أنه ورد ماء مدين وسقى لابنتى شعيب وتزوّج باحداهما)

قال تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها والتوجه الاقبال على الشئ ومدين قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن ابراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه وانما توجه نحوها لأنه وقع فى نفسه أن بينهم و بينه قرابة لأن أهل مدين من ولد ابراهيم وموسى من ولد ابراهيم ومدين ابن ابراهيم ولما خرج لم يكن معه زاد ولاظهر ولاطعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض وماوصل الى مدين حتى وقع خف قدميه و بين مصر ومدين كما قيل ثمانية أيام * قال ابن عباس وهو أوّل ابتلاء ابتلاه الله لموسى (قال) موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) قصد الطريق الى مدين فهداه الله اليها (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) على الماء (أمة) جماعة (من الناس يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) سوى الجماعة (امرأتين تذودان) تمنعان أغنامهما من الماء لئلا تختلط بأغنامهم تحبسان غنمهما عن الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم (قال ماخطبكما) ماشأنكما تذودان غنمكما (قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء) يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذرا من مزاحمة الرجال فاذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل مابقى فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) لايقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن الى سقى الغنم اضطرارا لذلك قيل أبوهما شعيب أو ابن أخى شعيب بعد ما مات شعيب أو رجل ممن آمن بشعيب فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ، فلما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لايرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده وسقى الغنم بالدلو كما سقى الرعاء وذلك قوله تعالى (فسقى لهما) مواشيهما رحمة ورأفة (ثم تولى الى الظل) (فقال رب إنى لما أنزلت الى من خير) قليل أو كثير والمراد به الطعام (فقير) محتاج * قال ابن عباس سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه ، فلما رجعتا الى أبيهما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه الى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) مستحيية متخفرة واسمها صفوراء وهى التى تزوجها موسى (قالت إن أبى يدعوك ليجزيك) ليكافئك (أجرماسقيت لنا) جزاء سقيك لنا فأجابها تبركا برؤية الشيخ وليستظهر بمعرفته لاطمعا فى الأجر ، فلما قدم له الطعام امتنع عنه وقال « إنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا » فقال الشيخ هذا عادتنا مع كل من ينزل بنا (فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين) كما دعا موسى ربه إذ قال ـ رب نجنى من القوم الظالمين ـ أى فرعون وقومه (قالت إحداهما) التى استدعته (ياأبت استأجره) لرعى الغنم (إن خير من استأجرت القوى الأمين) فقال الشيخ وماعلمك بقوته وأمانته فذكرت إقلال الحجر وانه صوّب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشى خلفه

(قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتىّ هاتين على أن تأجرنى) أى إنى أريد أن أزوّجك صفوراء التى طلبتك علىّ أن تكون أجيرا لى (ثمانى حجج) أى ثمان سنين (فان أتممت عشرا فمن عندك) أى فان أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أى أن ألزمك تمام العشر فى مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال (ستجدنى إن شاء الله من الصالحين) فى حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة (قال ذلك بينى و بينك) أى ماشرطت علىّ فلك وماشرطت من تزوّج احداهما فلى والأمر بيننا على ذلك (أيما الأجلين قضيت) أى أىّ الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أوالعشرة (فلاعدوان علىّ) أى لاظلم علىّ بأن أطالب بأكثرمنه (والله على مانقول وكيل) شهيد بينى و بينك * قال ابن عباس « قضى أكثر الأجلين لأن رسول الله اذا قال فعل » ويقال إن شعيبا بكى ثم عمى فردّ الله بصره وكرر ذلك ثلاث مرات يعمى ويرد الله بصره عليه فقال الله له ماهذا البكاء أشوقا الى الجنة أم خوفا من النار فقال لا يارب شوقا الى لقائك فأوحى الله اليه هنيئا لك لقائى ياشعيب لذلك أخدمتك كليمى موسى * و يقال ان العصا كانت عند شعيب ورثها عن الأنبياء فسلمها الى موسى

﴿ الحادثة التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة ، والثانية عشرة ﴾

(ارسال موسى وظهور المعجزات على يديه وكفرفرعون وجنوده وهلاكهم وانهم أئمة الضلال)

قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله) قاصدا مصر بامرأته بعدأن استأذن من شعيب (آنس) أبصر (من جانب الطور نارا) من الجهة التى تلى الطور (قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) بخبر الطريق (أوجذوة) عود غليظ سواء أكانت فى رأسه نار أم لم تكن ولذلك بينه بقوله (من النار لعلكم تصطلون) تستدفئون (فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن) يعنى من جانب الوادى الذى عن يمين موسى (فى البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك و بعثه نبيا (من الشجرة) أى من ناحية الشجرة وكانت من العليق ومن الشجرة بدل اشتمال من شاطئ (أن ياموسى) أى ياموسى (إنى أنا الله رب العالمين) وقد خلق الله فى نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالى وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى (وأن ألق عصاك) فألقاها فصارت ثعبانا واهتزّت (فلما رآها تهتزّ كأنها جانّ) أى حية صغيرة فى سرعة حركتها (ولى مدبرا) هاربا منها (ولم يعقب) ولم يرجع فنودى عند ذلك (ياموسى أقبل ولاتخف إنك من الآمنين) من المخاوف فانه لايخاف لدىّ المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أدخلها (تخرج بيضاء من غيرسوء) عيب وبرص ، والمعنى انه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ، ولما اعترى موسى الخوف تارة من العصا وتارة من الدهشة بشعاع يده أمره الله أن يتجلد و يظهر الثبات والجرأة بقوله (واضمم اليك جناحك من الرهب) من أجل الرهب أى الخوف مأخوذ من حال الطائر فانه اذا خاف نشرجناحيه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه ، ويجوز أن يراد واضمم يدك الى صدرك يذهب ما بك من فرق حتى قال ابن عباس رضى الله عنهما «كل خائف اذا وضع يده على صدره زال خوفه » ولاغضاضة فى ارادة المعنيين معا أى انه يتجلد بقلبه و يضع يده على صدره ليكون تأكيد الزوال الرعب (فذانك) أى العصا واليد (برهانان) حجتان (من ربك الى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) فكانوا أحقاء بأن يرسل اليهم (قال ربّ إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بها (وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا) معينا (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهات (إنى أخاف أن يكذبون) ولسانى لايطاوعنى عند المحاجة (قال سنشدّ عضدك بأخيك) سنقويك به وكان هرون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) حجة وبرهانا (فلايصلون اليكما) بقتل ولا سوء نسلطكما (بآياتنا) فهومتعلق بقوله سلطانا أوفلايصلون اليكما بسبب آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لفرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا

سحر مفترى) أى سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله وليس معجزة (وماسمعنا بهذا) الذى تدعونا اليه (فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) العاقبة المحمودة (إنه لايفلح الظالمون) أى ربى أعلم منكم بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبيا ووعده حسن العقبى يريد بذلك نفسه وهولايرسل الكاذبين بل يخذلهم ولاينبئ الساحرين والمراد بالدار هى الدنيا والعاقبة المحمودة أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران (وقال فرعون ياأيها الملؤا ماعلمت لكم من إله غيرى) إن قدماء المصريين كانوا يجعلون الأمة ﴿ ثلاث طبقات ﴾ عليا وهم الكهنة ووسطى وهم الجيش وسفلى وهم بقية الطبقات وفرعون مصر من صف يشرف على الكهنة وكانت لهم قوانين يتبعها الملوك والرعية وكان الملك مطاعا سواء أكان عادلا أم جائرا ولكن اذا مات حاكموه فان كان عادلا دخل المقبرة التى له والا فلا وكان الملوك على كل حال مقدسين منزهين متصلين بالآباء و بالآلهة ، هذا كان اعتقادهم وليس يعتقد فرعون إنه هوالرب وحده وإنما كانت الالوهية هنا كالربوبية فى قوله تعالى ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ــ وفسرها ﷺ بأنهم يشرعون لهم الشرائع كما تقدم ، فبهذا يقول فرعون تارة ــ أنا ربكم الأعلى ــ وتارة ــ ماعلمت لكم من إله غيرى ــ ولقد كان الكهنة يحرمون على الشعب أن يعرف الحقائق وعلى تمادى الزمان قدسوا الأشخاص الانسانية و بعض أنواع الحيوان والفراعنة كانوا أكبر المقدسين عندهم فيكونون أكبر الآلهة لأنهم متصلون بالآلهة الذين فوقهم ، ولاتظن أن هذا بعيد غاية الأمر أن كثيرا من الناس غافلون . إن أمة اليابان لها ملك يزعمون أن أجداده منذ أربعة آلاف سنة جاؤا من نسل امرأة من السماء أى من الآلهة فهوعندهم كأنه نصف إله ، وعلى ذلك تجد أن القائد اليابانى الذى غلب دولة الروس فى الحرب بينهما ويسمى « توجى » لما مات الملك تقرب الى الله بالا نتحار هو وزوجته العجوز وانما انتحرا ليدفنا مع الملك وذلك على حسب القاعدة الدينية من قتل نفسه عند موت الملك كان الله راضيا عنه مع أن هذا القائد يعرف جميع العلوم العصرية ، ولاتظن أن المسلمين والنصارى وسائر الأمم خلو من هذه الفكرة فان كثيرا من مشايخ الطرق يفهمون تلاميذهم انهم ينفعونهم ويضرونهم ، وهذه الفكرة عامة فى كل طبقة جاهلة من أى نحلة وأى دين على وجه الأرض ، وترى كثيرا من أتباع الشيوخ أحياء أوأمواتا متى سمعوا لهم أمرا التزموه كأنه منزل من الله بل بعض الصوفية فى عصرنا وفى غيره يقدسهم تلاميذهم و يلوون وجوههم عن كل مايقال فى الدين ، فاذا أعطوهم وردا انكبوا عليه وان كانوا جهلاء بهذه الدنيا و بنظام السكون ، ومنهم من يحرم عليهم النظر فى العلوم والمعارف ، ومنهم من يقول لهم إن الفقهاء قوم لايعرفون إلا القشور و يقولون دعوا علم الفقه واتبعوا الذكر وحده وهكذا تنوعت الطرق وتنوعت الاعتقادات فتفرق أهل الاسلام وأخذهم الفرنجة ، كل هذا لأن كل ذى طريقة أوفكرة يفهم أتباعه أنه لانجاة إلا بما عرفوه منه و يتركون بقية الدين ، وكل ذلك كقوله تعالى ــ ماعلمت لكم من إله غيرى ــ فلافرق بين أتباع فرعون فى الجهالة و بين أتباع أى دين اذا جمدوا على قول شيخهم وانما دينا هوما أوضحناه فى هذا التفسير بحيث يكون المؤمن عارفا بربه ناظرا فى الطبيعة من حيوان ونبات وانسان وفلك فان لم يعلم ذلك فليلم به وليأمر المتعلمون الجهال بالنظر على قدر الامكان ، ولعلك تقول إذن جميع الأمم وجميع أهل الطرق بل جميع المسلمين كافرون ، أقول لك . كلا . المسلمون جميعا ناجون لا أفرق بين جماعة وجماعة هذا اعتقادى الذى ألقى الله عليه ولكن الكلام فى النقص ، ففرق بين من ينجو وهو ناقص و بين من ينجو وهو كامل ، والتعاليم الاسلامية اليوم فى غاية النقص والجهالة ، فاذا لم يتعاضد جميع الشيوخ على تعليم الشعب النظر فى هذا الوجود فلافلاح لهم فى الدنيا وهم فى الآخرة ناقصون حقا ، إن من لم يفتح أبصار المسلمين من السنيين والشيعيين والزيديين وغيرهم الى ما نقوله فى هذا التفسير وقد اطلع عليه فان الله سبحانه يعاقبه لأنه علم وكتم . إن الله يعاقب المسلمين اليوم

جميعا فى الدنيا على جهلهم و يعاقب الرؤساء اذا لم يفتحوا عيون تلاميذهم الى ماأبدع الله فى السموات والأرض ليفتح المسلمون المدارس فى الأرض وليعلموهم العلوم تعليما اجباريا لينظروا صنعة ربهم . وحرام ثم حرام على كل الشيخ أن يأمر تلاميذه بالجهالة وحسبنا الله ونعم الوكيل . اذا عرفت هـذا فقد عرفت قول فرعون هنا ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ فله السلطة الدنيوية والقوّة الروحانية فى نظر الشعب الجاهل والآلهة كلهم منى أشار باشارة أنفذوها فى الشعب . هذا هو الاعتقاد الذى كان سائدا وترى نظيره فى الأرض

﴿ حكاية ﴾

قد تقدّم فى هذا التفسير لاسيما فى آخر (النساء) أن حكايات جرت لى مع الفلاحين وفيها أن المرحوم عمى الشيخ محمد شلبى سأل القائم بحديقتـه المسمى (أبا جوده) أن يحلف بالله على العنب فحلف ولما قال له احلف على أبى مسلم قال لا إنى أخاف منه ، فانظر كيف جعـل الشيخ أبا مسلم الذى له ضريح يزوره الناس فى بلادنا بالشرقية قادرا أن يؤذيه فأما الله فانه رحيم ، وأى ألوهية أكثر من ذلك ، افلا يكون فرعون عند المصريين قديما كالشيخ أبى مسلم عند أبى جوده ، واذا قال ﷺ « إن تشريع الشرائع وتحليل الحلال وتحريم الحرام أوجب أن يسمى الأحبار والرهبان أربابا » فكيف اذا انضم الى ذلك عقائد التصرّف فى أنفس الأحياء بالنفع والضرّ ، أفلا يحق لفرعون إذن أن يقول ـ أنا ربكم الأعلى ـ وأن يقول ـ ماعلمت لكم من إله غيرى ـ يقول المؤلف وأنا أحمد الله على هـذه المعانى فى هذا المقام لأن هذا يوافق العلم المنتشر عن قدماء المصريين وسيزيد هذا العلم وضوحا وانتشارا بين المسلمين فتى عرفوه وقرؤا هذا التفسير وجدوه مطابقا لما قرؤه فى الرسائل وعلى الأحجار وفى الأوراق البردية وفى القبور والبرابى والاهرام ، ولما كان هذا شأن فرعون وأنه سلط تسلطا ماديا وروحيا على الناس أخذ يتمم تعاليمه فطلب من وزيره أن يطبخ له الطين فيجعل اللبن آجرا أى طينا محروقا ويبنى له منارة عالية جدا ليرصد منها أوضاع الكواكب ويحسب حركاتها وينظر هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدّل حال الأمم وهـذا قوله تعالى (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اتخذ لى الآجر واطبخه (فاجعل لى صرحا) منارة (لعلى أطلع الى إله موسى) أى الى فعله هل فى الأفلاك الدائرات وحركات الأجرام التى خلقها دليل على انه اختار موسى للنبوّة أوهل هناك إله غير من نعرفهم من آلهة المصريين (وانى لأظنه من الكاذبين) فى زعمه أنه نبىّ عن إله العالم الذى يغاير من نعرفهم فى أرض مصر ونحن نفعل كل شئ ونتصرّف بامدادهم (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا أنهم الينا لايرجعون) بالنشور (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) كما تقدّم فى التفسير (فانظر) يامحمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك أن يكونوا مثلهم (وجعلناهم أئمة) قدوة للضـلال بالحمل على الاضلال (يدعون الى النار) الى موجباتها من الكفر والمعاصى (ويوم القيامة لاينصرون) لايدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا من الرحمة (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين أوممن قبحت وجوههم

﴿ الحادثة الثالثة عشرة ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) أقوام نوح وهود وصالح ولوط (بصائر للناس) حال من الكتاب والبصيرة نور القلب الذى يبصر به الرشد والسعادة كما ان البصر نور العين الذى يبصر به الأجسام أى آتيناه التوراة أنوارا للقلوب لأنها كانت عميا لاتستبصر ولا تعرف الحقائق (وهدى) من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) لمن آمن (لعلهم يتذكرون) بما فيه من المواعظ أى ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر (وما كنت) يامحمد (بجانب) الجبل (الغربى) وهو المكان الواقع فى شق الغرب منه وهو الذى وقع فيه ميقات موسى (إذ قضينا الى موسى الأمر) أى كلمناه وقرّبناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحى اليه حتى تقف بالمشاهدة على ماجرى من أمر موسى فى ميقاته (ولكنا

أنشأنا قرونا) بعد موسى (فتطاول عليهم العمر) أى طالت أعمارهم وفترت النبوّة فنسوا عهد الله واندرست العلوم ووقع التحريف والتحريف فى كثير منها فأرسلناك مجدّدا لتلك الأخبار مبينا ماوقع فيه التحريف فلذلك أعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى ، يقول الله أنت يامحمد ما كنت مشاهدا ماحصل لموسى من الوحى وطالت الفترة فكان ذلك سببا لارسالك فالاستدراك بين به سبب الوحى الذى يفهم من السياق ، ومثل ماقيل هنا يقال فى قوله (وما كنت ثاويا) مقيما (فى أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرؤها عليهم تعلما منهم أى لم تقرأ الآيات التى فيها قصة شعيب (ولكنا كنا مرسلين) أى ولكنا أرسلناك واخبرناك بها وعلمناكها بعد مامضت قرون اندرست فيها العلوم فأرسلناك لتبين للناس ما اندرس منها وتذكر الحقائق وتدحض المحرّف منها (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى لما أخذ الكتاب بقوّة (ولكن) أعلمناك وأرسلناك بعد ما اندرست العلوم وحرفت القصص (رحمة) للرحمة (من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) فى زمان الفترة بينك وبين عيسى (لعلهم يتذكرون) يتعظون بما سمعوا من هذا القصص . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة

هاأنت ذا اطلعت على الحوادث التى عددناها (١٣) التى منها اثنتا عشرة حادثة حصلت لتمام أمر موسى ونجاة بنى اسرائيل وهلاك أعدائهم ، ابتدأت هذه الحوادث بفكرة خطرت لأم موسى أن ترضعه وألهمت أو رأت فى المنام انه محفوظ لها وسيرجع ، لم تكذب هذا الإلهام ولم تيأس من رحمة الله ، فكم فى أمة الاسلام من رجل ومن امرأة ومن شاب ومن شيخ ومن عالم ومن جاهل تخطرلهم خواطر تحثهم على خروجهم من مأزق الذلة والهوان ومن اقتناص برائن أوروبا لهم ، تخطرلهم هذه الخواطر فلايعيرونها التفاتا ، يقولون الأمر انقضى والاسلام انتهى والدنيا أدبرت والآخرة أقبلت والعالم سيزول والأرض ستذهب

هذه هى الأراجيف والأكاذيب والوساوس التى تقوم فى عقول المسلم الجاهل ، لماذا ؟ لأنه لم يعرف القرآن لماذا ؟ لأنه لم يعرف هذه القصة إلا كما يعرف الطفل جمال الزهرة وجمال الورق وجمال الشجر ولكن أباه يعلم أن الزهرة ذابلة والورق انما خلق للمساعدة على تغذية الشجرة والأغصان والقضبان والجذوع انما هى وسائل للثمرات والثمرات هى المقصودة ، أكثر المسلمين هكذا يقرؤن هذه الآيات ويمرّون عليها كما يمر الطفل بالزهر والورق فى الحقول والبساتين ولايفكر فى الثمر ، أما أبوه فان قلبه معلق بالثمر ، يظنّ المسلم أن المقصد من هذه القصة أن يفرح بزهراتها فيقول ماأعجب هذه القصة ، انظر أيها الأخ الى موسى كيف وضع فى التابوت وكيف حفظه الله ، وكيف تعلق بالشجرة فى البحر ، وكيف اتفق أن فرعون وزوجه وبنته كانوا يشاهدونه وقت طلوع الشمس ، وكيف شفى الله بنت فرعون بريقه ، وكيف ظهر نوره فأحبه فرعون وآسية ، فياعجبا لذلك ، وكيف رجع الى أمه ثانيا فأرضعته ، وكيف أيد الله أخته فدلتهم على أمه ، وكيف كتم الخبر وربط الله على قلب أم موسى ، وكيف جاء رجل من شيعة موسى يقول له اخرج نصيحة له ، وكيف قدر أن يرفع الحجر الذى لايرفعه إلا عشرة وما أشبه ذلك . فهذه العجائب يقف عندها أكثر الناس وهم فى ذلك أشبه بالاطفال يفرحون بالزهرات أما العقلاء فانهم يقولون ياقوم لاتقفوا موقف الاطفال ، فكما أن الزهرات مقدّمات للثمرات هكذا هذه العجائب مقدّمات لما هو أهم منها ، إن جمال تلك القصص مسوق لما به السعادة ومابه السعادة اما حفظ الأخلاق للأفراد واما حفظ الأمم للجماعات . هذا هو المقصود . فاذا قرأ القارئ ان موسى كان عفيفا حين رأى بنت شعيب وانه كان أمينا عليها حتى أمرها أن تمشى خلفه وأن هذه العفة وهذه الأمانة رفعته فى عين شعيب وابنتيه تشوّق القارئ الذكى أن يكون كموسى أمانة وعفة وكذلك يقلده فى العطف على كل ضعيف ويقول إن هذه الأخلاق انتهت بالنبوّة ، فهكذا كل الأخلاق الفاضلة تنتهى بجلال المرء وبالفتوح الذى يفتحه الله عليه

﴿ نظرة المسلمين فى هذا الزمان ﴾

واذا نظر المسلمون هذه القصة فى هذا الزمان علموا انها مسوقة لاسعادهم واعزازهم واخراجهم من المآزق والهلاك . إن المسلمين اليوم فى ذل وجهل مابعده جهل ولكن عقول المسلمين أشبه بأرض خصبة تحتاج الى البذر وانزال الماء فيخرج نبات حسن منها ، هكذا اذا عرف المسلمون مقاصد أمثال هذه الآيات خرجوا مما هم فيه من الذلة . علم الله أن المسلمين سينامون وسيمر عليهم مامرّ على الأمم قبلهم وسيذوقون السوء فأنزل لهم هذه القصة ، يقول أى عبادى إن نجاة بنى اسرائيل كان مبدؤها فكرة خطرت لأم موسى وإلهاما ألهمته لها فلم تنبذ الإلهام وتبع ذلك أمور وأمور أخذت هذه الصالحة تفكر ؟ ففيم فكرت ، فكرت فى نجاة ابنها ونجاة فرد من مجموع نافعة للمجموع فأرسلت ابنتها تدلهم على من يكفله وكتمت السر وظهرت لفرعون كأنها ليست أمه وهكذا ، كل ذلك بعد الفكرة الأولى لم تيأس من رحمة الله

أيها المسلمون أتدرون لم وقعتم فى الذل ، إنكم يئستم من رحمتى فى الدنيا ولم تيأسوا منها فى الآخرة وهذا خطأ محض ، أنا رحيم فى الدنيا ورحيم فى الآخرة ، إن يأسكم فى الدنيا من نصرى لكم أقعدكم عن التفكير فى الخروج من الذل وأنا لا أعطى إلا من فكر ، كم من رجل منكم خطر له أن ينفع أمته ، كم من شاب ، كم من امرأة ، كثير جدا منكم يفكرون كل يوم فى الخروج من الذل ولكن اذا جاء لهم الفكر طردوه كأنه من كلام الأبالسة ، كأنه من كلام الشياطين ، أى عبادى إن الفكر الصالح موجود يمرّ بخواطركم ، أنا لم أمنعه ، أنا لم أقصّ عليكم هذا القصص لأقول لكم إن الإلهام خاص بمن مضى أو بأم موسى ، كلا . إن إلهام الخير موجود مستفيض كما يستفيض ضياء الشمس على أرضكم وقد يحجبه ليل أو سحاب ولكنه لايزال موجودا ولكن خطباؤكم والجهال من شيوخكم قالوا لكم إن الزمان قد قرب والدنيا ستخرب فصدقتموهم مع أنى لم أطلع أحدا على غيبى فكيف تحرمون من السعادة ، كلام هؤلاء الشيوخ هو السحب المانعة لضوء شمس العلم التى ألقيها على قلوبكم ، هو الليل البهيم الذى تنام فيه الناس وتقفل أبصارها لذلك حرمتم من النصر وحرمتم من السعادة . أى عبادى إن حرمانكم من الرقى هذا هو سببه والا فان خطرات السعادة محيطة بكم . فاياكم أن تسمعوا لكلام هؤلاء الشيوخ المثبطين فاذا خطر لكم خاطر النصر وأن تقوموا باسعاد هذه الأمة أو باسعاد أنفسكم أو بحفظ بلادكم أو بطرد العدوّ منها . فلتعلموا أن هذا الخاطر بذر يجب أن يسقى بماء الفكر والسعى والجدّ والكتمان وحفظ السرّ كما فعلت أم موسى فان فكرتها نمت وترعرعت وكان من نتائجها أن موسى قوى وكبر وتعلم وابتلى بقتل القبطى وهذا الابتلاء كان سبب نعمة لانقمة لأنه به خرج الى أرض مدين وقابل شعيبا وتزوج ابنته ورجع فأوحى اليه فرجع الى فرعون فأخرج بنى اسرائيل . يقول الله لاتدعوا أيها المسلمون خواطر الاصلاح فليس انعامى محجوبا عن عبادى . أنا اليكم ناظر ومن خطر له خاطر الاصلاح فليعلم أنى معه لاسيما الاصلاح العام فانى مع المحسنين ودعاء من يدعو الى اصلاح الجميع مقبول نافع وكلما كان المرء ساعيا فى مصلحة العموم كنت معه مؤيدا وحافظا وناصرا . كم من المسلمين من أضاعوا حياتهم سدى يقرؤن هذه الآيات فلا يزيدون على التعجب ولايزيدون على أن فرعون ادّعى الالوهية ويذمّونه وليس لهم وراء ذلك مطلب بل المتعلم الذى قرأ علوم قدماء المصريين المنتشرة حين يقرأ هذه الآية يقول ﴿ كيف يقول فرعون — ماعلمت لكم من إله غيرى — مع انهم كانوا يعبدون آلهة مثل (سيزوستريس) و (ايزيس) وما أشبه ذلك ويظنّ أن القرآن غاب عنه ماقرأه هو فى أوراق البردى أو تلقنه ممن قرأه ويقول مالى ولهذا القصص وهو غافل عما ذكرناه من معنى الالوهية والربوبية فيما تقدم بأوضح مقال وذاهل عما سيق له الحديث الذى نحن بصدده حديث رقى الأمم وخروجها من الذل والاستعباد . هكذا فليخرج المسلمون اليوم أو غدا وهذا أمر محقق لاشك فيه عندى وسيقرأ هذا المسلمون بعدنا ويرون أنهم نالوا ماذكرناه . وستشيع أمثال هذه الآراء فى الاسلام

وسيكونون — خير أمة أخرجت للناس — وكيف لايصيرون كذلك وقد تقدم فى (سورة النمل) أن الله يقول — وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها — أليس هذا وعدا لنا بأن تناسعرف العلوم وعجائب الأرض والسموات وهل وعد الله يخلف ؟ أليس نبينا محمد ﷺ له المقام المحمود ويعطى لواء الحمد ؟ أوليس الحمد إنما يكون على نعم ؟ أوليس أهم النعم هو العلم ؟ أوليس حمد الأولين والآخرين له على العلم الذى ترقى به أمته ، فاذا كان مقامه محمودا وهو رافع لواء الحمد فنتيجة ذلك كله أن تكون أمتم أعلم الأمم ، واذا كان شافعا لأمته فان الشفاعة على مقتضى الهداية ولاهداية إلا بعلم فالعلم سيعم الأمة الاسلامية وسيخرجون من الذل وسيفكرون فى اخراج أنفسهم من الهوان والجهل كما فعلت أم موسى إذ انبعث الالهام بأن ابنها سيرجع لها بالعمل وتسلسلت حوادث كانت نتيجتها خروج أمتها من المذلة . وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن الناس يعجبون من أمر أم موسى و يتعجبون من أمر موسى وكيف نجا وكيف خرج بنو اسرائيل وهم فى كل وقت يشاهدون أمثال هذا ولايتعجبون . أليس الانسان يأكل الفاكهة مع ان حصولها بين يديه عجيب كأم موسى وموسى وخروج بنى اسرائيل . أليست الفاكهة من البستان فهل كان الحداد الذى يصنع المحراث يقصد الشجرة التى منها فاكهتك وهل كانت البهائم التى خرج منها مابه تسمد الأرض تقصد أن تنال أنت الفاكهة . وهل كان الذى يستخرج الليف من النخل لصنع حبال البهائم التى تحرث الأرض يقصد فاكهتك . انظر حوادث كثيرة من بخار وسحاب ومطر وحديد وخشب تجمعت من أقطار شتى ونتيجتها وصول الفاكهة اليك . إن المفكرين يعجبون من الطبيعة وغرائبها كما تعجب أنت من قصص موسى وأمه وخروج بنى اسرائيل ولكن لما كان هذا القصص غائبا حلا فى السمع ، أما عجائب الطبيعة فان اللطائف الموجهة من الله اليها أعجب وأعجب والافأين دوران الشمس فى فلكها ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس بحساب بديع . أليس ذلك من أسباب هذه الفاكهة . ولوأن حساب الشمس والأرض اختل ماأمكن ظهور هذه الفاكهة لأنها تحتاج الى حرارة بمقدار فتى اختلت الشمس فى سيرها اختلت الحرارة فى نزولها على الأرض فذهبت المنافع ولكن هذه العجائب يجهلها أكثر الناس — ولكن أكثر الناس لايعلمون —

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

لعلك تقول من لى بأن اعتقد ما اعتقدته أم موسى ، ومن لى بذلك ، ومن أنا ان ذلك فى زمان مضى وانقضى . فأين البرهان على ذلك فى هذا الزمان ؟ أقول على رسلك ، أليست الحرب العظمى قلبت الكرة الأرضية . أليس سببها أن عالما يسمى (ماركس) وهو ألمانى أخرج كتبا للناس قائلا يجب ازالة هذه النظامات الأرضية ومن هذه الفكرة تعلم الروسيون وبها وحدها انقلبت الدولة فصارت بلشفية . ألم تكن دولة الفرس مقسمة بين الانجليز والروس . أفليست الحرب العظمى جعلتها حرة مطلقة من كل قيد . انظر أين فكرة ماركس الألمانى وخلاص الفرس . أليس ذلك من قوله تعالى — إن ربى لطيف لما يشاء — وأى لطف أعجب من هذا . تلطف فى خلق الأفكار وبثها بين الناس حتى عمت الكرة الأرضيه وانتهت باستقلال الروس وتبع ذلك بلاد الفرس . أليس هذا كمسألة أم موسى قصدت انقاذ ولدها فأنقذ بنو اسرائيل وكدوران الشمس بحساب بلاخطأ فى سيرها فكانت الحرارة منتظمة على قدر انضاج الفاكهة ولولا ذلك ليئس الفلاح ولم يزرع . أليس ذلك كما فعل الله فى ماء النيل . أنزله فى الأرض كل عام فيصل ما بين (٤١) مليارا من الأمتار المربعة و بين (١٠٠) مليار . ونتيجة ذلك ظهور المزارع . ولاينزل ذلك الماء إلا بالبخار ولابخار إلا بالحرارة ولاحرارة منتظمة إلا بانتظام سير الشمس فأين سير الشمس وأين الفاكهة . هناك سلسلة منتظمة انتهت بالفاكهة . وهناك سلسلة منتظمة انتهت باستقلال الفرس . وهناك سلسلة منتظمة انتهت بخروج بنى اسرائيل ومبدؤها إلهام أم موسى

وهناك سلسلة منتظمة بها استقلت دولة الأفغان لما قام الأفغان فحاربوا الانجليز أيام الحرب العظمى واستقلت البلاد الى الآن . وهناك سلسلة منتظمة ستحصل بعد قراءة هذا الكتاب فينظر المسلمون ويقرؤن قوله تعالى هنا ـ وما كنت ثاويا فى أهل مدين ـ الى قوله ـ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ـ فهذا الذى قررته هو الرحمة وهذا هو التذكير، يتذكر المسلمون هذا القصص فيستخرجون منه خلاصة وثمرة هي أن يفكروا فى الخلاص ويستمروا فينجحوا ، يفكر المسلمون فيقولون نحن ـ خير أمة أخرجت للناس ـ فكيف كانت هممنا منحطة لنرجع الى القرآن وليعرف الناس أنه يأمرنا أن نعشق جمال الله فى العوالم العلوية والسفلية وهذا الجمال لاحد له والعمر كله مدة دراسة والارتقاء لاحد له وهذه القصة وأمثالها انما هى كشجرة فلنأخذ ثمرها ولانكتفى بظلالها والثمرات إما أخلاق كعفة موسى واما إيمان بالله خيفة الهلاك كما هلك قوم فرعون ، يقول المسلم أنا مسلم فكيف أهلك ؟ نقول له ولكنك ذليل بعيد عن العلم ، فانظر كما نظرت أم موسى وخلص أمتك من الذلة والهوان ، قل لها كونى منتظمة ، كونى مفكرة ، تعلمى ، اسعى للرقى والنجاح ، اجتهدى ، انشرى العلوم ، إن العلوم بها محبة الله ، إن الانسان لاخير فى حياته بدون النظر فى هذا الجمال . إن العقول اذا وقفت تقهقرت واذا تقهقرت انحطت واذا نزلت هلكت وبئس المصير

سيقول المسلمون بعد هذا التفسير وانتشاره ان شاء الله مالنا قد امتزنا فى جميع الكرة الأرضية بالجهالة ، فى بلاد الشرق والغرب أصبحنا عالة على الأمم ، لماذا نرى المسلم فى بلاد سيام كما يقول رجالها لايرتقى عن الفلاحة إلا قليلا فأما غيره فانه يمسك بعنان السعادة ويسافر للعلم ويحظى بالخير والعز ، مالنا نرى المسلم الصينى شاذا بعيدا عن العلم والوثنى هو القائم بالعلم وبالحكمة وبشؤن الدولة ، مالنا نرى المسلم أينما حللنا أوارتحلنا واقفا فى مكانه . ومتى قال من بعدنا هذا القول تجلت لهم الحقائق وأظهروا مكنون العلم وأيقظوا الأمة ونشروا فيها ما كتبناه فى القرآن وما يكتبه غيرنا وانقلب الأمر فأصبح المسلم أقوى من غيره فى العلوم والمعارف لما يرى من عجائب القرآن التى شرحناها وشرحها المتقدمون والمتأخرون

هذا بعض مايقصد من هذا القصص ومن قول الله تعالى ـ ولكن رحمة من ربك ـ الى قوله ـ لعلهم يتذكرون ـ هذا هو القصد من انزال هذا القصص فالقصد الرحمة والتذكر أى ان الله يرحمنا بالتذكر فيما أنزل على رسول الله ﷺ وذلك هو المذكور فى الحادثة الثالثة عشرة ليرينا أن القرآن لهذا أنزل فليس يقصد أن نفرح ببنى اسرائيل بل نفرح بما نتذكر وبالرحمة التى نالها من التذكير فلاخير فى شجر لاثمر له . ولاخير فى علم لانفع له . ولاخير فى أمة لاهمة لها . ولاخير فى قراءة دين لايعقله قارئوه . ولاخير ولارحمة إلا لمن يتذكرون ويعقلون والحمد لله رب العالمين

﴿ البلاغة والعلوم ﴾

ينظر قوم الى القرآن من جهة البلاغة ويظنون انهم اذا عرفوا الجناس فى قوله ـ الى إله موسى ـ وعرفوا ماسأقصه عليك وهو قول الأصمعى حكاية عن فتاة غربية قالت إن فى قوله تعالى ـ وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولاتخافى ولاتحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ قالت الفتاة إن فيها أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . فالخبران أوحينا وخفت . والأمران ألقيه وأرضعيه . والنهيان لاتخافى ولاتحزنى . والبشارتان ـ إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ـ

أقول . ينظر قوم الى القرآن من هذه الوجهة فيطربون لعجائب التركيب والبلاغة ولهم الحق فى ذلك ولكن هل لهذا أنزل القرآن . إن البلاغة علم يرجع الى تركيب الألفاظ ونسق الكلام فهل هذا كاف ؟ كلا ثم كلا . إن المقام ليس مقام استدلال على أن القرآن معجز فليس هذا نهاية العلم . إن نهاية العلم أن يدرس

ويستخرج منه مايجب علينا دراسته فى هذه الحياة

﴿ قصص موسى أيضا ومناسبة قوله تعالى ــ ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾

لقد عرفت آنفا مقاصد البلاغة وانها لقوم مبتدئين فى العلم وانها مفتاح الفهم ، أما الفهم فانه وراء ذلك فالبلاغة مفتاح خزائن العلم والعلم فى نفس الخزائن وفرق بين مفاتيح الخزائن و بين المخزون ، هل أنبئك بشئ من المخزون فى هــذه السورة ؟ أنت تعلم أن قصص موسى قد كرر فى القرآن وتكراره يصعب على كثير من الناس ادراك سببه . فأما عالم البلاغة اذا كان حادّ البصيرة فانه يقول الاطناب فى مقام والايجاز فى مقام لمراعاة المقامات وهذا لابأس به وهو حق ولكن أين الفائدة الحقيقية ؟ فعالم البلاغة لاقدرة له على الاجابة ولكن انظر مخزون العلم ومكنون الحكمة ، انظر وتعجب ، ذكرت قصة فرعون وموسى فى (طه) وفى (الشعراء) وفى هذه السورة . لقد اطلعت على (طه) فانظر ألست ترى أنه فيها شرح مسألة العصا ومسألة عجل السامرى وأطنب فيهما ليرينا أن المدار على العلوم العقلية فأما خوارق العادات فانها تنفع مؤقتا فالايمان بها كأنه ظل لاثبات له وذلك لأن الصور المادّية ظلال الحقائق فيكون الايمان بها ظلا لاثبات له . وملخص ذلك انه يراد أن تكون الأمّة الاسلامية أمّة علم وحكمة لا أمة خوارق عادات للصالحين ولا للطالحين وقد تقدم هذا

ولقد ذكر فى تلك السورة عجائب الأرض والسماء ليتم القصــد من هذه الموازنة . هذا فى (سورة طه) وليكون ذلك تبصرة وتذكرة للمسلمين . أما فى (سورة الشعراء) فقد أطال القول فى السحرة وشرح المقام شرحا وافيا فأوجب ذلك النظر فى السحر وحده وشرحه كما فعلنا هناك وذكرنا سحرهم على قدر مايسعه المقام

أما فى هذه السورة فان القصة أتت لغرض آخر كأنها شرح لقوله ﷺ فى الصحيح ﴿ بدأ الاسلام غريبا وسيعود كما بدا ﴾

إن الأمة الاسلامية فى أوّل أمرها كانت قليلة العدد وكانوا مضطهدين من الكفار وهاجر بعضهم الى الحبشة ثم هاجروا جميعا الى المدينة ثم أعزّهم الله فبدؤا بدأ غريبا لم يكن له نظير فى سرعة الرقى والانتشار والمنعة بعد الخوف والقلة والضعف ، ثم ماذا ؟ انهــم انتشروا فى الأرض وترجموا علوم الأمم فتحقق بذلك كونه ــ رحمة للعالمين ــ لأن أمته حفظت العلم وسلمته الى أمم الغرب والشرق . والبرهان على عموم رحمته للشرق والغرب الألفاظ الآتية فى العلوم فانها تنطق بلسان فصيح أن محمدا ﷺ رحمة للعالمين فى جميع الكرة الأرضية لأنه لولا أمته ماحفظت هذه العلوم

﴿ الألفاظ العربية فى العلوم العصرية ﴾

(علم الفلك)

السمت والنظير

﴿ الكيمياء والطب ﴾

الانبيق . الالكحول . القلى . البورق . الشراب . الجلاب . الاكسير . اللعوق . السنا . الكافور

﴿ الموسيقى ﴾

العود . الطبل . الطنبور

﴿ فن الملاحة ﴾

أمير البحر . الترسانة . الحبل . الجلفاط . الرصيف . الموسم . الفلك

﴿ فن التجارة ﴾

التصريف . الديوان . المخزن . البازار . القيروان . الترجمان

هكذا

هكذا أخذ الاوروبيون عن المسلمين الأرقام الهندية وأصول الجبر والهندسة والنقوش و بناء الحصون والقلاع والسفن الحربية والجزة والمناور وكثيرا من الفوائد الصناعية والزراعية التي هدت أوروبا الى الحال الحاضرة من العمران والتقدم ، وانما نقلت لك هذا لتفهم هنا قوله تعالى ــ ولكن رحمة من ربك ــ وتفهم أيضا ــ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ــ هذا هو معنى هذه الرحمة ، فانظر كلمات العلوم العربية التي لاتزال تنطق بلسان فصيح بهذه الآية وبقوله تعالى ــ وانه لذكر لك ولقومك ــ هذا ماحصل في الزمان الماضي ولكن هذه السورة جاء فيها ذكر قصص فرعون بطريق آخر كما قدمنا لم يقصد فيها شرح السحر ولا الموازنة بين عصا موسى وحبل السامري بل أريد أن تجعل القصة بابا للحرية ولخروج الأذلاء من ذلهم فذكر الحوادث الثلاثة عشرة التي بها خرج بنو اسرائيل . يقول للمسلمين اذا وقعتم في الذل فلتخرجوا منه كما خرج بنو اسرائيل وسيكون شأنكم غريبا بعد ذلكم كما كان غريبا في أول أمركم ، فاذا تقهقرتم أيها المسلمون ولامناص من تقهقركم ــ وتلك الأيام نداولها بين الناس ــ لافرق بين الأمم والديانات في الأرض كلها فإن الباب مفتوح لخروجكم من ذلكم وانظروا قصص بني اسرائيل فلتخرجوا كما خرجوا ولترجعوا المجد الذي فقدتموه ولتكونوا رحمة للعالمين كما كنتم سابقا ، واذا كنتم في مجدكم الأول حفظتم العلوم وسلمتموها للأمم فاذا رجعتم هذه المرة فاقرؤا العلوم وعلموا الأمم كيف يكون العدل وعمارة الأرض لأنكم كنتم رحمة أولا لمناسبة ذلك الزمان فلتكونوا رحمة على حسب الزمان المستقبل ولهذا كله يشير قوله تعالى ــ ولكن رحمة من ربك ــ بعد ذكر انتصار بني اسرائيل فيكون الاسلام غريبا في سيره اليوم بأن ينتشر أهله بسرعة غريبة لانظير لها كما انتشر في المرة الأولى انتشارا لانظير له ، وكما حفظ المسلمون العلوم أولا ونفعوا الأمم فليرثوها من أهلها ثانيا وليرقوا النوع الانساني . هذا مافهمته من قوله تعالى ــ ولكن رحمة من ربك ــ وفي التعبير بمعنى التربية اشارة الى ماذكرناه ــ ولله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ــ

﴿ جوهرة في قوله تعالى ــ إن فرعون علا في الأرض ــ الى قوله ــ إنه كان من المفسدين ــ ﴾

اللهم إنك أنت المنعم المتفضل الملهم ، أنت الرحيم ، رحمت الجنين في رحم أمه ، ورحمت الحشرات في الفلوات والأنعام في المراتع ، لم تذر عالما من العوالم إلا شملته برحمتك . اللهم اننا في هذه الأرض قد غمرتنا رحماتك وشملتنا أنوارك ظاهرا و باطنا كما قلت في سورة الروم ــ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ــ ولكننا محبوسون في حواسنا مغمورون في ذنوبنا وعواطفنا ومطالبنا فصرفنا عن فهم النعمة وحولنا عقولنا الى أمور غير عظيمة تحويلا مزريا بانسانيتنا و بشرف أصلنا في العالم العلوي فكأننا بهذا الصرف معذبون ونحن غير عالمين

أنت رحمن رحيم للأفراد وللأمم ، وهذه أمتنا الاسلامية المترامية الأطراف قد بذرت بذور العلم والرقي في الأمم شرقا وغربا ثم دالت دولتها ونامت آمادا وآمادا ، وهاهي ذه تريد الرقي كرة أخرى وهذا كتابك بين يدي الآن أكتب هذه الكلمات في تفسيره ، وقد قدرت في علمك القديم أن يكون هذا التفسير في زمان نطلع فيه على عمل سياسات الأمم الاسلامية القديمة والحديثة وعلى سياسة الأمم المحيطة بنا . فهانحن الآن ننظر فنرى آباءنا العرب ومن اهتدوا بهديهم من الأمم بدين الاسلام قد سلطتهم على أرضك وخولت لهم ممالكك وأودعتهم ودائعك فقاموا بالأمانة ماشاء الله أن يقوموا ثم خلع الأبناء عن أنفسهم فضائل الآباء وتركوا مواهبهم وناموا وكسلوا و بطروا ولم يقوموا برعاية عبادك كما وصيتهم في كتابك فأخذت منهم أرضك وأعطيتها لغيرهم وقرأنا تاريخهم وعرفنا مدى رقيهم ومدى ضعفهم وتبين ذلك فيما تقدم في (سورة النمل) عند آية ــ إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ــ ومابعد ذلك من أن بيوتهم خاوية بما ظلموا . إذن هذا التفسير اليوم قد جاءت فيه ملاحظات على الأمم الاسلامية السابقة وأن ماتم لهم كله مصداق للقرآن الكريم

ياسبحان الله و ياسعدانه ، فكيف نسمع الله عز وجل يقول في (سورة النمل) ماتقدم من إفساد الملوك

للأرض اذا دخلوها ، وكيف يذكر أن بيوتهم خاوية بما ظلموا ثم تأتى هذه السورة فيكون مبدؤها فيه هذا هذا المعنى نفسه ونهايتها فيه مصداقه فكان فيها ردّ العجز على الصدر المذكور فى علم البديع . إن تفسير القرآن على هذا النمط فى زماننا مرآة ترى فيه آثار الأمم والدول المصدّقات لكتابنا المقدّس . أوّل هذه السورة ﴿أمران * الأوّل﴾ علوّ فرعون فى الأرض مع استضعاف أهلها وجعلهم شيعا وتذبيح أبنائهم ﴿الثانى﴾ انه مفسد من المفسدين . هذا هو الذى جاء فى أوّل هذه السورة . فانظر أيها الذكى الى ماجاء فى آخرها ، ماهو ؟ هو ذكر قارون وانه كان من قوم موسى ، فماذا فعل ؟ بغى على قومه وفرح بماله الوفير ونصحه الناصحون فقالوا له ـ ولاتبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين ـ وهذه القصة القارونية تضمنت ان الله لايحب الفرحين ولايحب المفسدين ، ومعلوم أن الفرح صفة لمن يعلو فى الأرض . إذن هذه القصة تضمنت النهى عن العلوّ المذكور فى أوّل السورة وعن الفساد . إذن قصة فرعون جاءت فى أوّل السورة لذم العلوّ والفساد ومثلها قصة قارون فى آخرها . ثم انظر كيف قال فى آخر السورة ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين ـ جلّ الله وجلّ العلم وجلت الحكمة . هذا معنى قول الله تعالى ـ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ـ

انظر لحكم الله عزّ وجل فى القرآن ، أيها الذكى انظر الى القرآن فى ظاهر الأمر بغير هذه المباحث ، إن الناظر للقرآن نظرا سطحيا لايتخيل هذه الحكم ، العربى فى البادية عرف تأثير القرآن بغريزته وفطرته ولكننا نحن الآن نقف على جوهره وبدائعه وحكمه . جلّ الله . إن مانعرفه الآن فى حكم القرآن وبدائعه أجلّ وأرفع مما عرفه علماء البلاغة السابقون . إذن كأن هذه السورة يقصد بها ألا نعلو فى الأرض وألا نفسد فيها

المفسدون فى الأرض هم الذين يغلبون الأمم ويحكمونهم ليكونوا عالة عليهم ليذلوهم وليكونوا أشبه بالنمور والاسود والذئاب والناس أمامهم كالغزلان والأرانب . وهذه الصفة هى التى وصفها ابن خلدون فيما نقلناه عنه فى سورة النمل فى الآية المتقدّمة فى صفة الأمم العربية المتأخرة التى تركت دينها فكان ذلك مصداقا لتخوّف النبى ﷺ من فتوح البلدان ومصداقا لقوله تعالى ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ـ ولما ظهر من سورة الأنفال تلك السورة التى جاء نظمها فى الحكمة أشبه بما جاء فى هذه السورة . ألاتراه تعالى يقول فى أوّل السورة ـ وان فريقا من المؤمنين لكارهون ـ الى قوله ـ واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ـ الخ وملخص المعنى هناك أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يريدون أن يستولوا على العير التى مع أبى سفيان ويتركوا الجيش الكبير الذاهب الى بدر لحاربتهم لأن العير التى مع أبى سفيان غنيمة لاتحتاج الى قتال وأما الجيش المتوجه الى قتالهم فانه يحتاج الى قتال وعمل شاق فاختار الله لهم مواجهة الجيش لأن المال ليس هو المقصود بل المقصود اعلاء كلمة الله لاغير واعلاء كلمة الله لاتكون بالاستيلاء على الغنائم بل بمحاربة الرجال والطعن والنزال . وجاء فى آخر السورة قوله تعالى ـ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله ـ فتأمل فى هذه الآيات وتعجب ، حذر الله المسلمين فقال ـ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ـ ثم ذكر العذاب وأبان انه ملازم لعرض الدنيا غاية الأمر ان الله أباح الغنائم لنا لأجل حفظ بلاده فهذه الغنائم يلازمها العذاب ولكن الله لم يعذب المسلمين ولم يمنعهم من الغنائم ذلك لأنهم بها كانوا نعمة على الأمم ولكن المفسدون فى الأرض من الأجيال التى جاءت بعد القرون الثلاثة لم يجعلوا الغنائم لحفظ الأمم بل جعلوها لشهواتهم وهذا هو الذى يهلك الأمم . فالدمار الذى حلّ بأمم الاسلام كله تطبيق على القرآن . فاذا رأينا أهل الأندلس كما تقدّم فى السورتين السابقتين لهذه صاروا (٢٠) مملكة فاقرأها فيما تقدّم . واذا رأينا بنى العباس فى آخر

أمرهم تفرّقت دولتهم شذر مذر فى أيام خلافتهم . وإذا رأينا أمّة الترك بعد ذلك كانت تفعل تحت خلافة بنى عثمان ما كانت تفعله الأمم العربية بعد الصدر الأوّل أيقنا أن هذا كله تفسير لهذه الآية وأن مال الغنائم المستعمل فى غير موضع له يجعل الأمم التى ملكته فرحة به مفسدة فى الأرض والله لايحب الفرحين ولايحب المفسدين ، وانما فرح هؤلاء بالمال لأنهم وجدوا أن القصد من الحياة هى اللذات والنوم والكسل بلا عمل وهذه صناعة الديدان فى الأرض ، فالله ينتقم من هـذه الأمم بالاذلال ، ومن تأمّل أوّل القصص وآخرها وجدهما مطابقين لأوّل (الأنفال) وآخرها . وماالقصص فى القرآن إلا إيضاح للحكم المودعة فى القرآن ، فالله أبان فى الأنفال أن عذاب الله يمس من يأخذون الغنائم ولكنه أباحه لكم بمقتضى ماسبق فى علمه القديم وهو أن أمثال أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة والتابعين لم يجعلوا المال وجهتهم فكان عمر يخطب على المنبر بثوب مرقع وأبو بكر يحرّم على أهل بيته أخذ شئ من الغنائم إلا للضرورة فهؤلاء هم الذين فهموا القرآن وفهموا فعل النبي ﷺ وفهموا قوله تعالى ــ إن فرعون علا فى الأرض ــ وفهموا قصة قارون ومافيها من ذم الفساد فى الأرض وذم الفرحين ، لذلك تبرؤا من المال . أما ملوك الاسلام فأكثرهم جهلوا هذه المعانى فانحطت عزائمهم وخارت قواهم وذهبت دولهم لأنهم لم يفهموا لم أحلت الغنائم ولم يفهموا قوله تعالى ــ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ــ فكأن قصة فرعون فى هذه السورة وقصة قارون ايضاح لماتقدم فى سورة الأنفال من المذكور فى أولها والمذكور فى آخرها ، ثم انجب من قول قارون ــ قال انما أوتيته على علم عندى ــ والرد عليه من الله بقوله ــ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون ــ الخ فهذا مثل قوله فى (الأنفال) ــ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ــ ثم انظر الى قوله تعالى ــ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولايلقاها إلا الصابرون ــ فهذا فتح باب للعلم والحكمة والعلم هو الذى شرح أمر المال ، فترى الفيلسوف (قابس) قبل الميلاد بنحو (٥٠٠) سنة ألف الكتاب المسمى ﴿ لغز قابس ﴾ وفيه أبان أن السعادة ليست هى المال وحده ولا الملك ولا الأدب المزوّر ولاغيرها من عرض الدنيا وانما السعادة ترجع الى كمال النفس بالصبر والوقار والحلم فاقرأ ملخصه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى ــ و بشر الصابرين ــ الخ وترى كتاب ﴿ الكوخ الهندى ﴾ المؤلف حديثا ينحو هذا النحو . وترى أفلاطون فى جمهوريته يبين طبقات الحكام والمحكومين ويذكر أن الأمة اذا حكمها أهل الطمع فى المال وجمعه أحاط بها وبهم الذل . فالأغنياء يجمعون المال والشعب يذل وكل منهم فى شقاء . والأغنياء مهـددون من الفقراء لقلة الأوّلين وكثرة الآخرين

ونظرة فيما تقدّم فى (سورة النمل) عنـد آية الملوك المفسدين وغيرها تعرف أن المال آلة للشقاوة عند قوم وللسعادة عند آخرين فهو تابع لعقول المستعملين له شرفا وضعة . إن القرآن لم يهمل نظام الأفراد ولانظام الأمم بل سلك كل سبيل لاسعادهما وانما هـذه الأمم الاسلامية حيل بينها و بينه فهو كتاب يفسره كل علم فى الأرض قبله و بعده . ومن عجب أن أكبر الفلاسفة جاء بحثه على مقتضى هذه الآيات . ولقد قرّر أفلاطون وقبله سقراط أن هذه الحياة الدنيا أشبه بالعدم لأن المادّة فى نظرهم ليست شيأ مذكورا . لماذا ؟ لأنها متغيرة وكل متغير متقلب غير ثابت لايستحق اسم الوجود بل الذى يستحق اسم الوجود انما هو الدائم والدائم انما هى النفوس والعقول وفوقهما الله . و بناء عليـه وجهوا عقول الناس الى مبـدع الكون وازدروا بالدنيا ازدراء تاما بهذا البرهان مع أنهما وضعا أشرف النواميس والقوانين للحكومات وللجيوش وللأمم ليعيش الناس بسعادة . اللهم إنى لأعجب من كتابنا كيف يكون هذا هو مشير به ثم يجهله المتأخرون . ياسبحان الله . كيف يختم الله السورة بهذه الآية ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ وكيف يكون نفس هذا القول ملخص آراء أكابر الحكماء فى العالم وعلمه يجب علىّ أن أكتب فى سورة القتال عند آية ــ فاعلم أنه لا إله إلا الله ــ تلك الرسالة

السماء (مرآة الفلسفة) ليطلع المسلمون بعدنا على ملخص فلسفة الأمم قديما وحديثا ويفهموا كيف يقول أولئك الفلاسفة ان المادة غير موجودة وأن هذه العوالم أشبه بالخيال ، وكيف يتجه أفلاطون وسقراط الى الخير المحض (الله) وكيف يقول علماء أوروبا الحاليين ان علومهم في هـذا المقام ليست شيأ مذكورا بالنسبة لعلوم علماء اليونان المذكورين ، وكيف نرى ألمانيا تتبع مذهب (كنت) الألماني فمذهبه يقرب من رأى أفلاطون إن المسلمين يجب أن يطلع كبراؤهم وعظماؤهم على هذا وواجب علىّ أن أكتبه لهم لينظموا دولهم وعقولهم ومدارسهم على نهج علمي وليكونوا بمنجاة عن الافساد فى الأرض الذى ورد فى (سورة القصص) هنا وفى (سورة النمل) ولايدخلوا فى زمرة من نهاهـم الله فى (سورة الأعراف) فقال ـ ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ـ فان الافساد فى الأرض انما يفعله الجاهلون الذين ورد ذكرهم فى آية ـ إنّ الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ـ الخ وفى آية ـ وكان فى المدينـة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولايصلحون ـ وفى آية ـ إنه كان من المفسدين ـ وفى آية ـ ولاتبغ الفساد فى الأرض ـ

إن قرّاء هذا التفسير حينما يطلعون على هذا بمجرد اطلاع يدخلون فى زمرة قال الله فيها فى آخر هذه السورة ـ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا ـ ولولا أن الله علم أن الأمم العربية التى حملت هذا الدين سيكون من ذرّيتهم قوم فرعون بالمال وملوك مفسدون فى الأرض ماصرّح لهم بالنهى عن الافساد فى آية ـ ولاتفسدوا ـ ولاعرّض لهم فى آية ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض ـ

علم الله عزّ وجل أن آباءنا سيكون هذه حالهم فملأ القرآن بهذه الحكم التى تقرّ بها وتشهد بها تلك العقول الحكيمة أيام اليونان وبعـدها ثم غشى على عقول أمم اسلاميه فجهلت ذلك واستحلت مرعى البغى والإثم فأذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وجعلنا نحن أبناءهم وعلماء خطأهم وبصرنا وأفهمنا الحقائق فكتبناها واقتبسناها من القرآن وانشرحت بها صـدورنا فسيكون خلفنا إن شاء الله خلفا شريفا صالحا نافعا لعباد الله مستخرجا لكنور الله التى خبأها فى الأرض رؤفا بالأمم عاطفا على الانسانية كلها لأنهـم عباد ربه وهو يحبه ويحب عباده والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٦ يونيو سنة ١٩٢٩

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

وَلَوْلاَ أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِـعَ ءَايَاتِكَ وَنَـكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ * قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْـكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا

وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ * إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) الى قوله (ونكون من المؤمنين) أى لولا قولهم اذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت الينا رسولا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين ما أرسلناك . وملخص الآية انا أرسلناك قطعا لعذرهم وإلزاما للحجة عليهم * روى أن مشركى العرب بعثوا الى رؤس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فأخبروهم أن نعته فى كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا وهذا قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) أى هلا أوتى الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها مما اقترحناه تعنتا قال تعالى (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) ومعنى هذا أنهم سألوه الآيات التى اقترحوها كما كان يفعل موسى من خوارق العادات فرد عليهم بأنكم قد كفرتم بموسى كما كفرتم بى و بين ذلك بقوله (قالوا ساحران تظاهرا) أى محمد وموسى ساحران تعاونا يقوى كل واحد منهما الآخر . ومن قرأ - سحران - فهو بمعنى ساحران وعبر بالمصدر مبالغة (وقالوا إنا بكل كافرون) أى بكل منهما (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما نزل على وعلى موسى (أتبعه ان كنتم صادقين) أنهما ساحران (فان لم يستجيبوا لك) دعاءك الى الاتيان بالكتاب الأهدى (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) فانهم لو اتبعوا العقل لأتوا بحجة (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام بمعنى النفى

حال كونه كائنا (بغير هدى من الله إنّ الله لايهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك فى الشهوات (ولقد وصلنا لهم القول) أتبعنا بعضه بعضا فى الانزال ليتصل التذكير ووصلنا خبرالدنيا بخبرالآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة فى الدنيا (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون ويتعظون ويقيسون أحوالهم بأحوال الأمم * روى انه آمن أربعون من أهل الانجيل منهم اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفرمن الحبشة ومنهم ثمانية جاؤا من الشام فهذا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) والضمير للقرآن (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به) أى بأنه من كلام الله تعالى (إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) فقوله ــ إنه الحق من ربنا ــ علة لقولهم ــ آمنا ــ وقولهم ــ إنا كنا من قبله مسلمين ــ أى ليس إيماننا به مستحدثا بل إنا كنا به مسلمين من قبل لأنا قرأناه فى كتبنا الدينية (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) إحداهما على إيمانهم بكتابهم ، والثانية على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الايمانين (ويدرءون بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية كما قال ﷺ « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ويدفعون ماسمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) فى سبيل الخير (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرما (وقالوا) للاّغين (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا (لانبتغى الجاهلين) لانطلب صحبتهم ولانريدها أولانريد أن نكون من أهل الجهل والسفه لأنا نترفع عنهم (إنك لاتهدى من أحببت) لاتقدر أن تدخله الاسلام (ولكنّ الله يهدى من يشاء) فيقذف فى قلبه نورا يشرح صدره للاسلام (وهوأعلم بالمهتدين) المستعدّين لذلك * روى مسلم قال نزلت فى رسول الله ﷺ حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام إذ قال النبى ﷺ له عند الموت « ياعم قل لااله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرنى قريش يقولون إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » وهذه وان كان نزولها على ماترى ليست خاصة بذلك ، انها قاعدة عامّة ، فتجد المستعدّين للحكمة والعلم والهدى أناسا لا تجمعهم رابطة ولابلد ولاأمّة ، فتجد أن المستعدّين للفنون والعلوم والحكمة يخلقون ونفوسهم قابلة لذلك فالمدارعلى الفطرة الأصلية لا على القرابة وأمثالها * جاء الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف الى النبى ﷺ فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا فنزل قوله تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا) أى أولم نجعل مكانهم حرما ذا أمن فان العرب كانت فى الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون أنى كانوا وذلك لحرمة الحرم فهو مكان منعنا عنه الأذى ممن عداه وأغدقنا النعم على أهله ، فالشرّ عنه مدفوع والخير اليه وارد وهذا قوله (يجبى اليه) يحمل اليه ويجمع فيه (ثمرات كل شئ) من الشام ومصر والعراق واليمن (رزقا من لدنا ولكنّ أكثرهم لايعلمون) أى جهلة لايتفطنون ولايتفكرون فى أن حرمهم آمن من الغارات تجبى اليه الثمرات فالشر عنه نازح والخيراليهم وارد وهم فى ذلك على طريقة أكثرالنوع الانسانى جهلوا ماهم فيه من نعمة العقل والأعضاء والجوارح والسموات والأرض والأنهار والجبال والنعم التى لاحصر لها فكلّ يجهل النعم العامّة . فاذا قال الله فى أهل مكة ــ ولكنّ أكثرهم لايعلمون ــ قال فى الانسان كله ــ إنّ الانسان لفى خسر ــ واستثنى بعضه وقال ــ إنّ الانسان لظلوم كفار ــ وقال ــ قتل الانسان ماأكفره ــ فهذا هوالكفر وهذا هو الجهل . فلافرق بين جهل الجاهل بنعمة الحرم وجهل الجاهل بنعمة المال والولد والجسم والعقل والحواس والسموات والأرض . لافرق بين الكل والجزء فالناس إلاقليلا يجهلون هذه النعم لا أهل مكة وحدهم ــ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم ــ ثم أشار الله لذلك فقال لم يختص أهل مكة بهذا البطر بل سبقتهم أمم فبطروا فهلكوا وهوقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكم من أهل قرية أثرت وطغت وبطرت أى ساء احتمالها للنعمه كحالكم فى ذلك فخرّب الله ديارهم (فتلك مساكنهم)

خاوية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى لم يعمرمنها إلا أقلها وأ كثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) أى لم يخلفهم فيها أحد يتصرّف تصرّفهم فى ديارهم وسائر متصرّفاتهم (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا) أى ما كانت عادته سبحانه أن يهلك القرى حتى يبعث رسولا فى أكبرها وأعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل كـثرة وأهلها (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) بتكذيب الرسل أو الجهل والمعاصى و بطر النعمة وما أشبه ذلك ، وكيف قصرتم نظركم على الحياة الدنيا ، أفلا تعلمون أن للنفوس الانسانية حياة ودواما (وما أوتيتم من شئ) من أسباب الدنيا (فتاع الحياة الدنيا وزينتها) تتمتعون به وتتزينون مدة حياتكم المنقضية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) فى نفعه من ذلك لأنه لذة لا يخالطها كدر (وأبقى) وأدوم لأنه لا آخر له (أفلا تعقلون) فتستبدلون الفانى بالباقى (أفمن وعدناه وعـدا حسنا) وهو الجنة (فهو لاقيه) مدركه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بالآلام الـكدر والانقطاع (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) للحساب والعـذاب وثم للتراخى فى الزمان وهذه الآية زيادة بيان لما قبلها والاستفهام بمعنى النفى أى لا يستويان فان الحسن الباقى خـير مما ليس بحسن وهو منقطع * ثم أخذ يبين ما يلاقونه يوم القيامة بيانا لقوله ــ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ــ واظهارا لما ناقشتهم الحساب (و) اذكر (يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) بثبوت مقتضاه وهو قوله تعالى ــ لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين ــ (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هؤلاء هم الذين أغويناهم ثم استأنف فقال (أغويناهم كما غوينا) أى أضللناهم كما ضللنا فنحن لم نفعل إلا ما هو من عادتنا وسجيتنا ولم نغوهـم إلا لما وجدناهم قابلين كما لا يقع الذباب إلا على عين قـذرة فليس ذنبهم علينا وانما عيبهم عليهم هم لأنهم مشاكلون لنا ولو كانت نفوسهم أرقى ما أضللناهم ولا أغويناهم لعـدم المناسبة والمشاكلة ، فاذا فعلنا ما كان من طباعنا فهـم فعلوا ما كان من طباعهم فلا يلوموننا وليلوموا أنفسهم (تبرأنا اليك) منهم فليس علينا ذنبهم (ما كانوا إيانا يعبدون) وانما كانوا يعبدون أهواءهم وهل الذنب على الذباب اذا وقع على العين القذرة انما العيب على صاحب العين لأنه لم ينظفها ولو نظفها لتباعد الذباب عنها طبيعة فهكذا هؤلاء هم الملومون لا نحن ، هكذا الأمم الاسلامية اليوم لقلة العلم فيها يرسل أهل أوروبا لهم أقواما من العظماء منهم يعطونهم أموالا ليثبتوا فيهم أن هؤلاء يحمونهم ويحفظونهم من غوائل الأمم ويدخلونهم تحت حمايتهم ورحمتهم فيطيعهم هؤلاء فيقول الاوروبى ليس الذنب علىّ انما أنت جاهـل ومن طبعك أنك ضعيف ولا تفهم إلا الحياة الحيوانية فأنا استعبدتك لأنك جاهل ، ولوكنت متعلما ناظرا فى هـذه الدنيا وفيما خلق الله فى السموات والأرض حافظا لثغورك متسلحا بالأسلحة التى تقيك ما تجاسرت أن أكلمك ، وكيف أجسر أن أكلم من هو مثلى أن يدخل تحت حكمى فليس العيب علىّ فى استعبادك ولكن العيب عليك لأنك أهل أن تخضع للأقوى لضعفك وجهلك (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهـم) من فرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) لعجزهـم عن الاجابة ورأوا العذاب لو أنهـم كانوا يهتدون) أى لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما رأوا العـذاب فى الآخرة ، ثم ان هؤلاء يسألون ﴿ سؤالين ﴾ سؤالا عن اشراكهـم بالله وسؤالا عن تكذيبهم الأنبياء ولما ذكر الأوّل أتبعه بالثانى فقال (ويوم يناديهـم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أى ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين (فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى خفيت واشتبهت عليهم الأخبار والأعذار والحجج ولم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لا يتساءلون) لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة فهم إذن يسكتون (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) عند الله ، ثم ان عسى تحقيق على عادة الـكرام . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ــ ولقد وصلنا لهم القول ــ الخ ﴾

(حديث بينى وبين العالم صديق الذى اعتاد أن يباحثنى فى هذا التفسير)

بعد أن كتبت مانصه ﴿ ان توصيل القول لهم فيه معان غزيرة وعجائب وحكم ﴾ حضر صاحبى فقال أتريد أن تولد هنا معانى من هذه الجملة ، هذه جملة مفهومة بنفسها وانك بهذا تطيل التفسير إطالة ربما لاتكون مجدية وربما يسأم منها كثير من الناس . فقلت له إنى أرى أن هذا غير إطالة انما التطويل هو القول الذى يكون أشبه بالمكرر وما سأكتبه هنا ليس بالمكرر بل هو حكمة ازينت للناظرين ، وحسناء أسفرت للعاشقين ، وحوراء برزت للمحبين

كأنما تبسم عن لؤلؤ * منضد أو برد أو اقاح

جمعت الى اعتدال قوامها وحسن شكلها زينة حلاها وفصاحة لسانها وجمال جنانها وحسن خلقها ورجاحة عقلها ، بها هام العاشقون ، وبحديثها طرب السامعون ، ألا فلأكشف لك عنها القناع بعد أن تنقد مهرها ، فقال وما مهرها ، قلت أن تشعر أن جسمك وروحك قد أحضرت صورتهما أمامك وأخذت تدرسهما ومتى فهمتهما فهمت معنى التوصيل وهنالك يتم لك الوصال . فقال إذن توصيل القول فى الآية يعوزه دراسة جسمى ودراسة روحى . فقلت نعم . فقال إذن هــذا تطويل لأنه تكرار كما قلت لك أولا لأن دراسة الروح قد تقدمت فى مواضع كثيرة . فقلت له لكل مقام مقال والحديث ذو شجون والكلام ذو ألوان

فلا تدوم على حال تكون به * كما تلون فى أثوابها الغول

هــذه الدنيا عروس ذات ألوان ونحن خلقنا فيها فعلينا أن نبرز علومها بــبدائع الألوان وأفانين الصور ومختلف الأصباغ . فقال وكيف ذلك . فقلت إن ذلك منا انما هو نسج على منوال مانرى فى وضع الحكمة فى خلق أجسامنا ، نحن نأكل ونلبس لمنافعنا وهذه المآكل والملابس والأصباغ والزينة والأزهار والطيور المغردة . لم يكن شعورنا بها ولاعلمنا بمحاسنها من طريق واحد بل الطرق لعلمها مختلفة . فهذا التفاح نلمسه بأيدينا ونذوقه بألسنتنا ونشمه بحاسة الشم ونسمع صوت وقعه على الأرض بحاسة السمع ونرى شكله بحاسة البصر ، فهذه طرق خمس لنعرف ثمرة التفاح ، إن الحكمة قضت أن لا يكون العلم بالتفاحة عن طريق واحدة بل نرى لنا حاسة تلمسه من قرب وحاسة ذوق تحس بحلاوته فاحساس الحلاوة غير احساس النعومة فالحلاوة بالذوق فتحت الباب لأكلها وتمثلها بأجسامنا ، فأما الحرارة والبرودة والنعومة والثقل والخفة التى عرفناها باللمس فهى أقل درجــة من الطعم الذى هو أقرب الى استعمالها من الثقل والخفة ، وحاسة الشم وظيفتها انها تنقل ذرات دقيقة منفصلة عن التفاحة واصلة الينا من الهواء فنشوقنا لاجتنائها

أما حاسة السمع فالواصــل لها من التفاحة اذا سمعت وقعها انما هو الحركات الآتية فى الهواء فهى حاسة ألطف من سوابقها . فأما حاسة البصر فانها ألطف وألطف لأن الرسول الموصل لها انما هو الضوء وهو ألطف من الهواء الذى استعمله الشم والسمع

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذه أقوال غريبة . ان المقام مقام سؤال منى لك فى مسألة التوصيل فى الآية فأجبتنى بدراسة الجسم والروح . فقلت أنا فيه تكرار فأجبتنى قائلا إن العلم يجب أن يتنوع ويكون أصباغا وألوانا ثم أخذت تقول إن الله جعل العوالم التى حولنا تصل لنا من طرق شتى وضربت مثلا بالتفاحة فانا نعرفها بلمسها وذوقها وشمها وسمع صوتها ورؤية شكلها فهل ذلك القول هو نفس المقصود من تفسير الآية ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ هو نفس الأسلوب الذى نتوصــل به الى معنى التوصيل فى الآية أم هو تبيان نظام الله فى تعلمنا الذى نقيس عليه تعلم أنما العلوم من حيث المعانى . إنى أرى أن هذا الذى تكتبه يظهر لى انه شروع فى الأمرين معا أى انك أردت أن تضرب بحجر واحد طيرين فبينما أنت تميل لتنوع المناهج فى تعليم الناس العلوم بما فعله الله

فى جسم الانسان من الحواس التى تدرك التفاحة بأنواع من الادراك رحمة من الله بنا أن يرينا بطرق مختلفة لازدياد العلم . إذ أنت بنفس هذا المثال أخذت تشرح المقصود وهو الجسم والروح اللذان أردت أن أتصوّرهما أمامى وأفهمهما و بهذا الفهم أصل لمعنى التوصيل فى الآية و بعض سرّه . فقلت لقد أحسنت . نعم انى بهذا التمثيل أبين الأمرين معا . أبين أن تعليم الأمم الاسلامية وغير الاسلامية يجب أن يكون على طرق شتى وكلها ترمى الى غرض واحد كما أن الله لما خلق العالم وخلق الانسان فيه جعل علمه بما حوله بطرق مختلفة ليحيط به علما على مقدار طاقته ويكون من نتيجة هذا أن أفهمك معنى ـ ولقد وصلنا لهم القول ـ قال فاضرب لى مثل ذلك حتى أعقله . فقلت انما مثل الانسان فى هذه الأرض كمثل ملك عظيم الشأن رفيع المقام عالى المنزلة واسع الملك كثير الجنود والأعوان . ولاجرم أن مثل هذا الملك له عاصمة يعيش فيها وله بلاد نائية عن العاصمة ، فنها ماهو قريب من العاصمة ومنها ماهو بعيد عنها ، فأهل العاصمة يمكنهم المثول أمامه بأنفسهم ورفع قضاياهم له بدون رسول . قال نعم . قلت وسكان القرى المتوسطة فى البعد يمكنهم أن يرسلوا نوّابا عنهم قال نعم . قلت وسكان القرى التى هى فى أقاصى بلدانه يقدرون على محادثة الملك بارسال رسائل كتابية بطريق البريد المعروف أو بطريق الحمام الزاجل أو بطريق البرق (التلغراف) قال نعم كل هذا ممكن . قلت هذه صفة الانسان فى هذه الدنيا . إن الملك فى عاصمته له أعوان يحيطون به فى نفس قصره وله خواصّ يعيشون فى عاصمته . قال نعم . قلت فالأعوان المحيطون به من خدّام قصره يراهم كل حين . فأما ضواحى المملكة فانه يراهم حينا بعد حين لصالح المملكة . قال نعم . قلت هكذا هذا الانسان هو هذا الملك والعاصمة هى جسمه فاما الحرّ والبرد والثقل والخفة والنعومة والخشونة وماأشبهها وهى ﴿عشرة أحوال﴾ من أحوال المادة فانها تحيط بالجسم وهى تعرف بحاسة اللمس فقد أشبهت أعوان الملك المقيمين معه بقصره . وأما طعم التفاحة وطعوم المآكل المختلفة من الحلاوة والملوحة والحرافة ونحوها فالقائم بها حاسة الذوق التى هى أرقى من حاسة اللمس لأن حاسة الذوق هى أشبه بوزراء المملكة الذين يتردّدون عليها آنا فآنا ليتشاوروا معه فى حياتها واصلاحها ثم إن المشمومات والمسموعات أشبه بسكان المملكة الذين ابتعدوا عن عاصمة الملك ، فأما المشمومات فانها ترسل ذرات دقيقة جدا كذرات المسك التى تتطاير فى الهواء كل حين ولشدّة دقتها لايظهر أثر النقص فيه على طول الزمان فهذه الذرات التى تخللت الهواء لم تخرج عن كونها نماذج من جرم التفاحة المخلوقة فى الشجرة أرسلت مع الريح يشمها الانسان فهى أشبه بالوفود التى أرسلها سكان القرى المتباعدة عن المملكة ليعرف الملك مقدار طاعتهم ممن حضروا منهم ونابوا عنهم فى الخضوع أمام الملك وتقول تلك الذرات التى نسميها رائحة أيها الملك انا طائعون لك فهل ترغب أن يحضر بقية الجماعة ليكونوا خدما لك وعبيدا بل سيصبحون جزأ من جسمك ولحما ودما وعظاما ومخا وعينا وأذنا . ولاجرم أن هذه الذرات أغلظ من الحركات لأن الحركات عرض والذرات جسم ثم إن حركات تلك التفاحة فى الشجرة وهى تترنح يمينا وشمالا وتعانق الأوراق وتضاحك القمر والنجوم وتفرح وتمرح وترسل تلك النغمات فى أمواج الهواء فيسمعها صاحب البستان تعطى نفسه شوقا وتوقا الى احضارها والتغذى بها وهذه أشبه بارسال البريد بالخط والرقم فى القطرات أومع الحمام الزاجل

ولاجرم أن الحركات فى الهواء وسماعها ألطف من الذرات المشمومات فى الهواء كما أن حاسة السمع أشرف من حاسة الشم فتلك أقرب الى عالم الروح وهذه أقرب الى عالم المادّة ، ثم إن صورة تلك التفاحة لايحملها النسيم ولكن يحملها عالم الأثير الذى يتموّج و يتموّجه آلاف آلاف المرات فى الثانية يحدث لنا مانسميه ضوأ فهذا الضوء يحمل تلك الصورة و يدخلها فى حدقات الأعين المركبات من أغشية متناسقة معدّة لقبول تلك الصورة فتعجبنا مناظرها . هذه هى الفنون وأنواع الطرق وألوان لطرق العلمية التى أبدعها المبدع الحكيم فى صورة الانسان

فلم يقتصر الانسان على

(١) لمس التفاحة

(٢) ولا على ذوقها

(٣) ولا على الاحساس بأجزاء منها بحاسة الشم

(٤) ولم يقف عند سماع حركات الهواء بسبب تحركها

(٥) بل تعالى الى عالم الأثير وضوئه فارتقت هذه النفس الى عالم الأفلاك ، لماذا ؟ لتعرف التفاحة فهى إذن استعانت بكل ماحولها ، استخدمت اللمس مباشرة والهواء والضياء وهذا الضياء مسافرها من أقاصى العوالم التى و بما كان ضوؤها قد سافر إليها منذ مائة مليون سنة نورية (اقرأ هذا فى سورة الفرقان عندقوله تعالى ــ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ــ فانك ترى هناك هذا المقام مشروحا وأن من الأجرام السماوية مابعده عنا مائة مليون سنة نورية) هذه مراتب العلم عند الانسان

(٦) إن العين كما تدرك صورة التفاحة بنفسها تدرك اللفظ الدال عليها مكتوبا بصناعة يدها

(٧) وتدرك صورة رسمها بالآلات المصوّرة فهى إذن تعرف من ﴿طرق سبعة﴾ ثلاث منها بطريق البصر والأربعة الباقية بطرق الحواس الباقية

ثم إن الحواس الثلاث الأولى أقرب الى العالم الأرضى فلذلك كانت صناعاتها سهلة قريبة المنال . أما حاسة السمع والبصر فانهما أقرب الى عالم الأرواح ولذلك ترى أن حاسة السمع تسمع كل ماحولنا قريبا وهذا المسموع يشمل كل ماهو قريب وكذا ماهو بعيد باللفظ لأن الكلام يعبر عن كل موجود قريبا أو بعيدا

والبصر كما يدرك نفس الأشياء يدرك صورها التى صوّرت بآلات التصوير . هذا هو الشرح الذى أردت أن أبينه لك أيها الصديق . وههنا ﴿نتيجتان * النتيجة الأولى﴾ ان العلوم والمعارف فى هذا النوع الانسانى يجب أن تنوّع وتكون لها طرق مختلفة ، وقد عرف هذا علماء البيداجوجيا كما تقدّم فى تفسير سورة الفاتحة فانهم يقولون للمدرسين ليسمع التلميذ القول وليكتبه هو بيده وليكن مكتوبا بخط جميل ولتكن صور الأشياء مرسومة أمامه إذن يشترك السمع من المعلم و بصر المتعلم وكلام نفس المتعلم وكتابته للكلمة وصور الأشياء المرسومة أمامه كلها تشترك فى تفهيم التلميذ . إذن علماء تعليم الأطفال أخذوا يدركون الحكمة الأولى وهى حكمة صانع العالم انه أرانا ماحولنا بطرق مختلفة . فهاهم أولاء أخذوا يسيرون على منواله ومن ضلّ طريق الصانع الحكيم عاش جاهلا ، هذه هى النتيجة الأولى التى جاء الكلام عليها عرضا . أما ﴿النتيجة الثانية﴾ وهى المقصود من أصل المقال فهى ان الله عزّوجل جعل جسم الانسان كأنه النور أوكأنه بطارية كهربائية وخلقه مناسبا لما حوله ومهدالسبيل لانتفاعه بكل ذلك ، فالنور والهواء ونفس الأجسام كلها مستعدّات لابلاغه العلم ولمنفعته . إن الله لما خلقه أراد أن يرفعه الى عالم أعلى ولا طريق الى رفعه الى عالم أعلى إلا العلم فخاطه بطرقه وأكثر منها وابتلاه بالآلام واللذات والمرض والصحة والموت والحياة . كل ذلك ليوقظه للعالم الذى هو مسوق اليه فأكثر من الطرق ليزعجه ليخرجه من هذه الأرض الضيقة وجعل فى الأرض حكماء وعلماء وأنبياء فهؤلاء زادوا فوق الحواس وانما زادهم فى الأرض ليساعدوا هذه الحواس وهذه المزعجات من حوادث الأيام والليالى على خروج الانسان من مضايق الأرض فأسمعوهم أقوالا توقظهم الى عوالم عرفوها تارة بعقولهم كالفلاسفة وتارة بالوحى كالأنبياء فهؤلاء استعملوا حاسة السمع فسمعوا الكتب السماوية ومنها القرآن . ان البصر ازداد قوّة برسم صور الأشياء بعد رؤية نفس أجسامها و بنظر الألفاظ الدالة عليها بوضع اللغات المختلفات شرقا وغربا وهكذا السمع فضلا عن سماعه حركات المخلوقات سمع الألفاظ الدالة عليها ثم هو فوق ذلك سمع ماأنتجته العقول أوجاء به الوحى . كل ذلك تكميل للنفوس لارتقائها الى العالم العلوى وارعاجها عن هذا العالم الضيق فقوله تعالى ــ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ــ تبيان لآخر مايترقب من حاسة السمع وهو سماع

الوحى الذى يأتى للنفوس بما يحدث فيها حكمة فتستيقظ بعد الغفلة وتتاق أشعة من نور الحكمة والعلم فتنبعث لدراسة ماحولها ، وهذا الذى كتبته الآن لم ينبعث فى نفسى إلا عند قراءة ـ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ـ فهاهى الذكرى التى وصلت الينا من هذه الآية

فقال صاحبى هذا بيان حسن و يظهرأن هذا الجسم الانسانى مستودع علم فعليه نظام الدول الأرضية كما فى كتابك ﴿أين الانسان﴾ وبه علم (البيداوجيا) أوعلم تعليم الأطفال ، وبه الازدياد فى الحكمة ودراسة العلوم الطبيعية وعلم الفلسفة . فقلت نعم إن نوع الانسان بعدنا سيكون فيهم أناس أبرع من العلماء فى زماننا أما الأمم الاسلامية فان حوادث الدهر ومزعجات الليالى والأيام وأمثال هذا التفسير كلها متعاونات على اخراج أجيال منهم يكونون ـ خيرأمة أخرجت للناس ـ وسينهجون منهج ما أكتبه فى هذا التفسير وسيكون منهم حكماء وعلماء يبتلعون علوم الشرق والغرب بعشق وغرام وحب ولايثنيهم عن ذلك الجمال عائق وهم الذين يقولون إن الله قد جعل أجسامنا مستمدة من كل ماحولها ، فعلينا أن نستمد من كل مخلوق فنتعلم كل علم وندرس كل موجود ، ومتى قصرنا فى أى عالم من العوالم التى حولنا فالله لنا بالمرصاد و يقول لنا أيها الناس أنا لم أترك فرصة إلا انتهزتها لتعليمكم ولم أقف عند اللمس ولاالشم ولاالبصر بل خلقت لكم اللغات المعبرات عن صور الموجودات ووصلتها لكم تكثيرا للعلم ، فاذا أغمضتم العين ولم تشموا ولم تلمسوا أرسلت المعانى بطرق الألفاظ حتى ان هذه الحاسة كأنها جميع الحواس ، فاذا كانت هذه أعمالى فعليكم أن تتخلقوا بأخلاقى ولاتدعوا فرصة إلا انتهزتموها فانتفعوا بكل شئ بالهواء و بالماء و بالضوء و بكل موجود فهذا هو التوصيل وهذا هو حديث حجة الوداع ﴿ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع﴾ وهؤلاء هم الذين يعقلون قوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ـ فهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النبى ﷺ ومن على شاكلتهم هم الذين يتذكرون . انتهى صباح يوم الجمعة ٢٥ ينايرسنة ١٩٢٩ والحمد لله رب العالمين

واعلم أن هذا القسم إلزام للكفار واحتجاج عليهم وقطع لأعذارهم بعدأن مهد لهم السبيل بذكرقصص موسى حتى يكون مدخلا للكلام معهم ومخاطبتهم وقطع أعذارهم ، ثم أعقبه بالقسم الثالث وهومن قوله تعالى ـ وربك يخلق مايشاء ويختار ـ الى قوله ـ وضل عنهم ماكانوا يفترون ـ وهوتذكير بآيات الله سبحانه فى الأرض والسموات كما ذكرهم فى القسم الأول بآياته فى الأمم الماضية حتى تتضافر الدلائل وتتحد الحجج فأخذ يذكر أنه سبحانه هو وحده مصورالصور باختياره يخلقها كما يشاء لاراد لقضائه فلاشريك له كما يزعمون وعلمه محيط بما ظهر ومابطن وهو محمود فى الدنيا والآخرة وقضاؤه نافذ ، ومن أعظم نعمه أنه لم يجعل ظلام الليل دائما ولانورالنهاردائما بل أدارالأفلاك فكان ليل ونهارلينام الناس ليلا و يعملوا للرزق نهارا ، واليك بيان القسم الثالث

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) أى وربك يخلق مايشاء ويختار مايشاء لاموجب عليه ولامانع منه ولذلك كان هـذا العالم على غاية النظام والاتقان والابداع فليس لأحد من المخلوقين اختيار فى شئ من ذلك (ما كان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير فليس لهم أن يختاروا على الله شيأ مّا وله الخيرة عليهم ومما يدخل فى هذا أنه له أن يرسل من يشاء رسولا فلايجعـل ذلك منوطا بمـال أو بجاه فيسقط بذلك قولهم ـ لولانزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ـ وهما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى فالله مطلق التصرّف وهو أعلم بمن استعدادهم قابل لذلك (سبحان الله) تنزيها له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره فاذا أراد النبي ﷺ أن يهدى أحدا من أحبابه أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله ليس لك من الأمر شئ ، فلاالنبى يهدى عمه ولا أهـل مكة ينالون أن تكون الرسالة فى عظمائهم تنزيها لله (وتعالى عمـا يشركون) عن اشراكهم . ولما كانت القدرة المسبوقة بالارادة المعـبر عنها بالاختيار يتقدّمها العلم الذى هومقدّم على الارادة أعقبه بقوله (وربك يعـلم ماتكنّ صـدورهم) تخفى (وما يعلنون) يظهرون فلما اختص بالعلم اختص بالاختيار فخلق مايشاء كما يشاء (وهوالله لااله إلاهوله الحمد فى الأولى والآخرة) ذلك انه يحمده المؤمنون وأولياؤه وأنبياؤه فى الدنيا و يحمدونه فى الآخرة مثل قولهم ـ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ـ وقولهم ـ الحمد لله الذى صدقنا وعده ـ (وله الحكم) القضاء النافذ فى كل شئ (واليه ترجعون) بالنشور (قل أرأيتم) أى أخبرونى يامعشر الكفار (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما (الى يوم القيامة من إله غيرالله يأتيكم بضياء) يقول الله أخبرونى من إله غيرالله يقدر أن يأتيكم بضياء إن جعل الله عليكم الخ (أفلاتسمعون) سماع تدبر واستبصار وكان الانسان اذا جنّ عليه الليل وفرض أن الشمس لاتطلع يقول فى نفسه ذلك عبر بالسمع لأن الليل يناسبه السماع والنهار عكسه (قل أرأيتم إن جعـل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من إله غـيرالله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من التعب (أفلاتبصرون) ولما كان الضوء فى نفسه نعـمة والظلمة انما هى عدم الضوء لم يصف الضوء اكتفاء بذكره هو ووصف الظلمة لتبيان فائدتها (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) بالليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بالمكاسب المختلفة والتنقل فى الأسفار والتقلب فى الأعمـال (ولعلكم تشكرون) أى ولكى تعرفوا نعـمة الله فى ذلك فتشكروه عليها ولاشكر لغـيره لأنه لا يكوّر النهار على الليل ولاالليل على النهار إلا الله تعالى فلذلك يعترف الكافرون بهذه الحقيقة على رؤس الأشهاد يوم القيامة بعد أن جهلوها أوتجاهلوها فى الدنيا وهوقوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) هذا تكرير للتو بيخ على اتخاذ الشركاء فهوهما تقدّم دليل على فساد آرائهم وهنا تقرير أنه لاحجة لهم ولاشبهة وانمـا هوهوى وشهوة وهوقوله (ونزعنا) أخرجنا (من كل أمة شهيدا) وهونبيهـم يشهد عليهم بمـا كانوا يعملون (فقلنا) للأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) حينئذ (أن الحق لله) فى أن الله ألوهيته لايشاركه فيها أحد (وضلّ عنهم) وغاب عنهم كما يغيب الضائع (ما كانوا يفترون) أى يختلقون فى الدنيا من الكذب على الله . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة

﴿ عجائب القرآن فى هذه الآيات ﴾

تأمل قوله تعالى ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ـ تأمّل فى هذا وتعجب كيف يقول هنا ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة ـ نعم الله محمود فى الدنيا يحمده الناس على ماعرفوا من نعم يحمدونه اذا أحسوا بها ، فيحمده الفقير متى أحسّ بالغنى ، ويحمده المريض متى نال الشفاء ، ويحمده الذليل متى أحسّ بالعزّ . وبالجملة حمد الناس وثناؤهم على ربهم اذا أحسوا بنعمه وذلك عام فى جميع النوع الانسانى ، فأما فى أوقات الفراغ وهدوء البال فان الناس لايتذكرون نعمة ربهم فلايذكرون صحة البدن ولا قوّته ولا العقل المركوز فيهم ولاالذكاء ولايفكرون فى نعمة الولد والأهل والأصحاب والأقارب ولانعمة نظم المدن التى تحفظهم ليعيشوا فيها ، ولانعم السموات والأرض والكواكب والشمس والقمر والأنهار والبحار فالناس ماداموا فى خفض وسعة الرزق وبحبوحة العيش فانهم غافلون . لذلك أرسل الله رسوله ﷺ والأنبياء قبله ليذكروا الناس بالنعم ليدرسوها ومتى درسوها أحسوا بها ومتى أحسوا بها حمدوا الله عليها . ولما كان النبى ﷺ آخر الأنبياء وأمر بالحمد كما رأيت فى (سورة النمل) إذ قال الله له ـ قل الحمد لله وسلام على عباده ـ أمر ﷺ أن يصلى المسلمون بفاتحة الكتاب فقال ﴿ لاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ﴾ وانما قال ذلك لأن الله أمره بالحمد ولاحمد إلا حيث تعرف النعمة لأن النعمة التى لايعرفها الانسان لايحمد عليها كما لايحمد الأصحاء على العافية ولا المبصرون على خلق أعينهم اذا لم يعترهم مرض فيذكرهم . لهذا ترى المسلمين فى أقطار المسكونة قد اتخذوا الفاتحة شعارهم وتسمع فى كل آن وقت الصلاة وفى خارج الصلاة قولهم ﴿ الحمد لله ﴾ وفى عقب الأكل وعقب كل نعمة ﴿ الحمد لله ﴾ فهذا من الحمد فى الدنيا . ولاجرم أن الحمد يتقدّمه العلم بالمحمود عليه حتى تشعر النفس بالنعمة . فالشعور إما بحادث طبيعى أو بطريق علمى والحادث الطبيعى المذكر بالنعم غير دائم بل هو قليل لأنه خاص بالمصائب والأمراض . أما الطريق العلمى فهو عام فى النعم الجزئية والنعم الكلية . فبه تعرف نعم السموات والأرض والأنهار وخلق هذا العالم حتى يدرك الانسان أن هذه كلها مساعدة له على بقائه ونعمها واصلة اليه بل يرى أن الناس جميعا ينفعونه فى أمّته وفى غير أمّته ، فإذن العالم كله نافع له لافرق بين شمس وقمر وبحر وأمة نشأ فيها وأمة لم ينشأ فيها ، فالعلم يعرّف الانسان هذه العوالم فيحمد عليها ويعرّفه أن الناس اخوانه فيحبهم ، ومتى حمد الانسان على نعم الله فى الدنيا حمد عليها يوم القيامة بل لاحمد فى الآخرة إلا اذا تقدّمه حمد فى الدنيا إذ لاحمد حقا إلا على علم والعلم فى الدنيا باق فى النفس بعد الموت فمن لايدرك هذا الوجود فى الدنيا لايدركه فى الآخرة ، فاذا حمد العامّة والجهال ربهم على طعام أوشراب أومال أوجاه ، فالعالم أرق وأرق لأنه يحسّ فى نفسه بحمد الله كلما نظر كوكبا أونباتا أوحيوانا أوهبت ريح أوجرى نهر لأنه يراها كلها متعاضدة متعاونة لخدمته وخدمة الناس بل يحمد الله لذلك الجمال البديع والبهجة والرونق والحسن ويرى هذا العالم كله جميلا فيكون الحمد أجلى وأبهى وأدوم وأبهج وأجل وهذا الجمال هو المقصود لذاته وهذا غاية الحمد

ولما كان الأنبياء هم المذكرون بتلك النعم وآخرهم سيدنا محمد ﷺ ورد أنه هو رافع لواء الحمد وأنه له المقام المحمود فيرجع الأمر كله الى العالم لأنه لاحمد إلا بعد علم ، ونتيجة هذا القول أن هذه الأمّة الاسلامية أمة حمد ويلزم من ذلك أن يكونوا علماء بهذا الوجود ، انظر أليس الأمر اليوم معكوسا ، إن حمد المسلمين اليوم لفظى إذ حمد العامّة هو الغالب ، أما الحمد الاسلامى العقلى المبنى على العلم والحكم والفهم فانه غائب اليوم انه سيقوم فيهم أناس ينبغون فى العلوم ويعلمون هذه الأمّة أنواعها ويتصرّفون فيها ويعمّ الأكابر وهم يفيضون على الأصاغر وهذا هو السر فى قوله فى (سورة النمل) ـ وقل الحمد لله ـ وأتبعه بقوله ـ سيريكم آياته فتعرفونها ـ لأن الحمد بلامعرفة حمد لفظى لامعنى فيه وهو جسم بلاروح ولفظ بلامعنى ، وأى فضل فى حمد لايحسّ حامده به ، فالحمد بعد المعرفة ولذلك قال فى هذه السورة ـ وله الحمد فى الأولى والآخرة ـ لأنه ذكر

المعرفة هناك فى آخر (سورة النحل) ومثل هذا يقال فى (سورة الفاتحة) ابتدأ الله فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) ولاجرم أن الرحمة ﴿ قسمان ﴾ رحمة أفيضت على الأجسام ورحمة أفيضت على العقول ورحمة الأجسام مقدمة ورحمة العقول نهاية ثم أتبعها بقوله (الحمد لله رب العالمين) فذكر التربية ليوجه عقولنا الى نظام هذه العوالم كما تقدم فى الفاتحة وأتبعه بذكر الرحمة للدلالة على انها سارية فى العوالم كلها لتستوجب الحمد والاحساس بالنعمة ولما كان أكثر الناس كما قلنا لايحسون إلا بما تشعر به حواسهم من النعم الطارئة ولايفقهون النعم المترادفة لأنها بتكرارها عليهم يبطرون ولايذكرونها . ذكر العبادة وانها خاصة بالله وسأل المؤمن أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . فذكر هداية الله للمنعم عليهم الى الصراط المستقيم وهذه الهداية منشؤها العلم والعلم بالنعمة هو الذى يثير فى النفس الحمد والاعتراف به . إن الأمة الاسلامية أمة حمد ونبينا ﷺ رافع لوائه ولاحمد إلا على علم بالمحمود عليه والمحمود عليه جميع النعم والمسلم يسأل الله الهداية لصراط المنعم عليهم وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين هو الصراط السوى . هو العلم بالنعم . هو العمل الصالح والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون هؤلاء هم المنعم عليهم فالأنبياء والصديقون متحققون بالعلم والأخلاق والشهداء تبع لهم وأما الصالحون فهم متحققون بالعمل أكثر من العلم فالصراط المستقيم شامل للعلم والعمل و بالعلم كما قلنا يثور الحمد فى الانسان

إن هذه الآيات التى نحن بصددها جاء فيها التسبيح ــ سبحان الله وتعالى عما يشركون ــ وتبعه التوحيد إذ قال تعالى ــ وهو الله لاإله إلا هو ــ ثم الحمد على النعم وهو قوله ــ له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم ــ فهذه ﴿ درجات ثلاث ﴾ تقديس وتوحيد أى ان الذات المقدسة ليست متعددة ثم حمد * وقد ورد « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لاإله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » وورد أيضا ﴿ افضل الدعاء الحمد لله ﴾ وقيل ﴿ ليس شئ من الأذكار يضاعف ماتضاعف الحمد لله ﴾ * قال الامام الغزالى ﴿ ولاتظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات ﴾ اه

يقول مؤلف الكتاب إن أول الأمر وآخره المعرفة والعلم ، إن هذه كلها مذكرات بالعلم ، فاذا سمعت قوله تعالى ــ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ــ فانما ذلك الحمد لمعرفة أوجبته فى الدنيا والمعرفة فى الدنيا هى الاطلاع على نظام هذه الدنيا وجمال الله فيها وحكمته وبهائه وتلك النظم البديعة البهية التى تدهش العقل وتبهره فينطق بالحمد فى هذا الجسم و بعد مفارقته . وهذا الذى ذكرته كله واضح فى هذه الآيات فانك ترى التقديس تلاه التوحيد أتبعه الحمد ، ولما كان الحمد لايكون إلا على نعمة والنعمة العامة لاتعرف إلا بالعلم قال الله تعالى ــ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ــ الخ يقول الله أيها المسلمون إن ربكم مختص بالحمد فى الدنيا والآخرة ولاحمد إلا بعلم ، فانظروا فى الليل والنهار فلو أن الليل دام عليكم أفلستم تحرمون من التصرف فى معاشكم ، واذا كان النهار دائما عليكم أفلستم تمنعون من وقت الراحة ؟ انظروا فى رحمتى التى وسعت كل شئ ، انظروا فيها فانى جعلت ظلمة وجعلت نورا بنظام دوران الشمس ليكمل هناؤكم وسعادتكم فحمدكم لا يكون إلا اذا عرفتم رحمتى ولاتعرفونها إلا بالعلم ، ألم آمركم أن تقولوا ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ قبل ــ الحمد لله رب العالمين ــ أليس ذلك لتذكروا رحمتى التى وسعت هذا النظام وذلك بالتعليم ومتى عرفتم حمدتم . انتهى

﴿ النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها ﴾

(نمط آخر فى تفسير هذه الآية)

ذكر الله الليل والنهار وانه رحمنا بهما مريدا بذلك أن نعلم النعم فنشكر عليها والشكر أعم من الحمد المتقدم فالحمد باللسان وحب جميع الناس بالقلب وصرف النعم والمواهب كلها فيما خلقت لأجله ، فهذه الثلاثة هى الشكر

واسها

وأسها كلها العلم ، ومجامع النعم وأضداد النقم جمعت هنا . إن الله لما خلقنا فى هذه المادّة أراد تربيتنا والتربية لابد لها من ضدين نعمة ونقمة ، فالنعمة موهبة ، والنقمة تسوق الناس اليها ، وعبر عن هذا كله بالليل والنهار والأصل كله دوران الشمس ومبدأ ذلك كله الحركة فبالحركة كان دوران الشمس ظاهرا وبدوران الشمس ظاهرا كان الليل والنهار ، والنهار عنوان النعم ، والظلمة أشبه بعدمها وعدم النعم هو النقم إذ لا نقمة إلا عدم النعمة ، فهذا الدوران أنتج فيما على الأرض ماهو من طباعه ، واذا كان من طباع الدوران الظلمة والنور أى عدم النعمة ووجودها

﴿ كان فى الأرض ﴾

جبل وواد وسهل وجزر وبحر وبرّ وعامر وخراب وخصب وجدب وحلو وملح وهواء وحجر وخشن وناعم وحرّ وبرد ولطيف وكثيف ومرّ وحلو فى النبات وحيوان مفترس ضار لنا وأنعام تنفعنا

﴿ وكان فى أجسامنا ونفوسنا ﴾

أعمى و بصير وأصم وسميع وأخرس وفصيح وأعرج وضده وأقطع وذو يد ومريض البدن وسليمه وكذا مريض القلب أو الجنب أو المعدة أو الامعاء أو الكبد أو الطحال وهكذا بقية الأعضاء ومقابلة الصحيح فى ذلك كله ، وكان فى الانسان الغنى والفقير والعزيز والذليل والبخيل والكريم وهكذا مما لا يسعه المقام وكان فيه أيضا الذكى والبليد والعالم والجاهل والأحمق والعاقل كل ذلك داخل فى ذكر الليل والنهار فالأوّل لعدم النعم والثانى لوجودها وماذكرناه كله لا يخرج عنهما وكل ماعلى الأرض ناجم من آثار الحركات السماوية النازلة على الكرة الأرضية فكأن النتائج تابعة للمقدمات ناهجة منهجها سائرة على منوالها ولما كانت هذه تمرّ على الناس وهم غافلون ذكر الله الناس بقوله ـ لعلكم تشكرون ـ أى لعلكم تعرفون فتشكروا على النعم

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى ألم الجهل وألم الذل وألم الفقر وألم المرض والجوع وألم الفراق وألم الوحدة محرّضات على نعمة العلم والعزّ والغنى والصحة والطعام والاجتماع وهذه أشبه بالسائق للناس الى حوز النعم وجعل لذة العلم ولذة النصر ولذة الثروة ولذة الصحة ولذة الطعام ولذة الاجتماع أشبه بالقائد ، فلكل من ذلك سائق مؤلم وقائد ملذ تحمله على استجلابه ، ومن أكبر قائد للنعم جمال الزهر وحسن القمر وبهجة ضوء الكواكب . وغرائب المخلوقات التى تلفت النظر وتكون فى باب السائق أشبه بالمقطوعى الأيدى والأرجل فى باب النقم . ثم الجمال الفائق والقبح الزائد أحدهما قائد للنعم وثانيهما سائق يسوق الناس للبعد عن قبح المنظر وشناعة الملبس وسوء الحياة

هذا كله هو ما وضعت عليه الحياة فى أرضنا ويقرب منه قوله تعالى ـ ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففرّوا الى الله ـ فقوله ـ ففرّوا الى الله ـ هناك أى بالعلم وقوله ـ لعلكم تشكرون ـ ولا شكر إلا بعد علم

﴿ نتيجة هذه الآيات ﴾

عليك أيها الذكىّ أن تفهم المسلمين أن الله يغضب على كل أمة نامت عن العلوم ، أيقظ المسلمين وقل لهم اقرؤا جمال هذه الدنيا من نبات وحيوان وتشريح وعلم نفس وعلم فلك وعلوم البحار وبهجة هذه الدنيا وعلى كل غنى وعالم وذى جاه أن يفهم المسلمين انهم يجب عليهم أن يعمموا التعليم فى سائر بلاد الاسلام وأن تكون معرفة الله بأشياء مشوّقة من بهجة الأنوار ومحاسن الأشجار وجمال البحار وصولة البخار وعزة النضار وضوء الماس ونفائس الأحجار وبدائع الأسرار وعجائب الآثار وحساب الليل والنهار وعجائب الفلك المدار ـ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ـ

قل ابدؤا بهذه العلوم فاقرؤها فاذا قرأتموها للصغار فمعنى ذلك أن تقطفوا من أثمارها وتسمعوهم من

أخبارها فيكونون مشتاقين فرحين بها وهذا الشوق يدفعهم الى اكتناه أسرارها اذا كبروا . ذلك هو المسمى (درس علم الأشياء) فيؤتى بنبذ من كل علم وتعطى لهم كأنها حلاوى بها يفرحون وفاكهة بها يتفكهون فاذا كبروا قرؤا دروسها وعرفوا نظمها وتناولوا آياتها

هذا هو شكر ربكم فادرسوه ، وهذا هو دين الاسلام فى المستقبل فتربصوه ، وهذا هو توحيد الله وشكره فاشكروه ، وهذا هو الذى به تعمر مدنكم وتعظم أممكم وتقوى شوكتكم وتحفظ ثغوركم وتكثر نعمكم وتقل نقمكم ويهابكم عدوّكم . هذه هى العلوم التى ترفعكم فى الدنيا بما ذكرناه وفى الآخرة بلقاء الله ، فالدنيا تكون لكم سامعة مطيعة وقلوبكم تعشق ربها وتحب خالقها وتأنس به فى هذه الحياة ، فاذا ماقرب موتها أنست بعالم الجمال وفرحت بلقاء الله وهذا هو قوله تعالى — رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك هو الفوز العظيم —

وههنا ﴿ أربع جواهر * الجوهرة الأولى ﴾ فى قوله تعالى — وربك يخلق مايشاء ويختار —

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى قوله تعالى — وهو الله لا إله إلا هو — الخ

﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى بهجة العلم فى قوله تعالى — قل أرأيتم إن جعل الله — الخ

﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ فى قوله تعالى — ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار —

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى — وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون — ﴾

يقول المسلم فى صلاته « اللهم لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاراد لما قضيت ولاينفع ذا الجد منك الجد » هذا لأنه أعلم بالمصالح فهو يعطى وهو يمنع لحكم هو وحده يعلمها ولن يعرف أحد من بنى آدم حقائق هذه الحكم إلا بقراءة كل علم على قدر الطاقة هو يخلق مايشاء ويختار ليس الخيار لنا لأن علمنا قاصر وهو يعلم كل شئ ، واذا أردنا ضرب مثل هنا على ذلك وجدنا العالم كله والعلوم كلها مضرب أمثال ولكنى أقتصر على مسألة واحدة تأخذ باللب وتشرح الصدر فأقول

يعيش الجنين فى بطن أمه وفيه يتغذى بدمها ، فأمه تهضم الطعام فى بطنها وينقلب دما والدم يقابل الهواء الجوّى بالتنفس فى رئتها فيصلح لتغذية جسمها فيرجع الى القلب ويدخل الجهة اليسرى منه فيدخل من أعلاه فى تجويف يسمى البطين وينزل منه بفتحة الى تجويف أسفل منه يسمى البطين وهو أكبر من التجويف الأوّل ، ومن هذا التجويف الأكبر فى الجهة اليسرى يخرج منتشرا فى البدن أعلاه وأسفله ثم يرجع الى نفس القلب من الجهة اليمنى وهو ممتلئ موادّ فحمية (كربونية) فيدخل فى تجويف صغير هناك ثم ينزل منه الى تجويف أسفل منه يسمى البطين أيضا ومن هذا الأسفل يخرج متجها الى الرئتين أى رئتى المرأة التى كلامنا فيها وهو يحمل الموادّ الفحمية فيقابل الهواء الجوّى الداخل فيعطيه بنفسها تلك الموادّ ويصفى كما نصفى نحن الماء ونخلصه من المواد الغريبة بآلات التصفية ، فهذه الرئة أشبه بالأوانى التى نضعها فى منازلنا وفيها الماء فينزل من مسامها خالصا سائغا للشاربين لاضرر فيه ، فالرئة كالأوانى المذكورة والدم كالماء ومتى صفى الماء فى الرئة وطهر بمقابلة الهواء الجوّى أخذ من الهواء فى نفس الحال موادّ الحياة (الاكسوجين) بعد ما أعطاه المواد المهلكة السامّة الفحمية (الكربونية) ورجع الدم يجرى الى الناحية اليسرى ودخل فيها كما تقدّم . هذه هى الأعمال التى تحصل فى قلبى وقلبك أيها الذكى وفى قلب المرأة ونحن لانشعر ولا نعلم . وليس شرح هذا المقام مقصودا بهذا المقال . كلا . لأنه قد تقدّم مستوفى فى (سورة المؤمنون) عند آية — وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون — وانما الذى سقت له هذه المقالة أمر عجيب وغريب . سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى اخترت هذا الوضع للقلب واصطفيت له هذه الدورة الدموية التى تتوقف حياتنا عليها . ولما كان هذا النظام معلوما لجميع الأطباء ويتبعهم المتعلمون فى الكرة الأرضية لم يكن

أمرا غريبا لأن كل مألوف متروك وكل غريب مرغوب ، فلتكرار هذا العمل زالت غرابته كما زالت غرابة الليل والنهار ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والكواكب فلا تحرك ساكنا فى أكثر هذا النوع الانسانى كذلك هذه الدورة الدموية التى تدور فى أجسامنا المعلومة حكما وعلما قد أصبح الانسان كله إلا قليلا معرضا عن بدائعها وعجائبها ، واذا رأى الناس كسوف الشمس وخسوف القمر أخذوا يتعجبون من ذلك لأنه نادر فربما بعث الأذكياء منهم الى التفكر . هذا فى عالم السموات الذى نراه بأبصارنا . أما الدورة الدموية فهى غائبة عنا لانراها بل لايعرفها . الا العلماء الدارسون لها بل الدارسون لها أيضا قل منهم من يفكر فى عجائبها

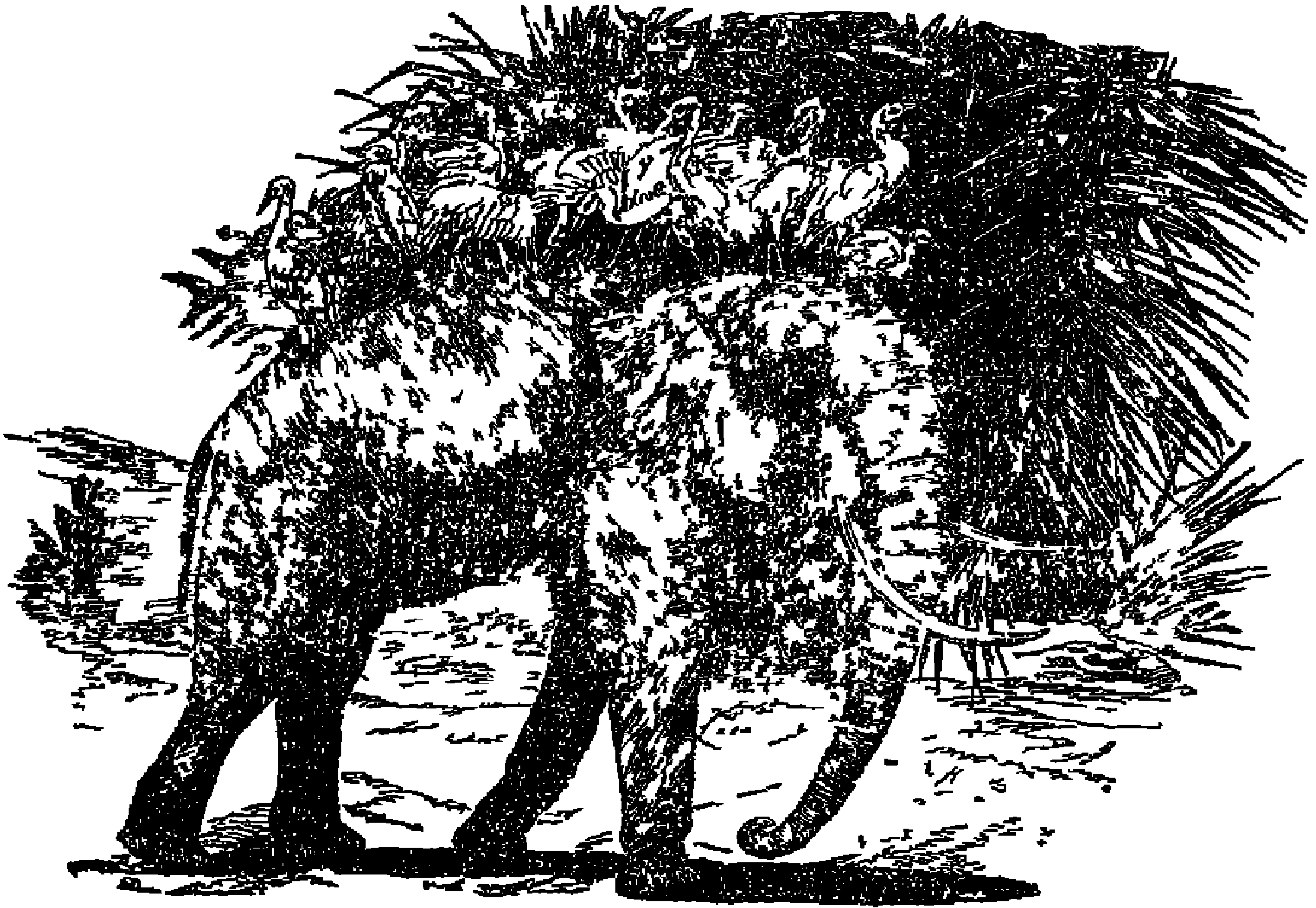
إن دراسة العوالم حوالنا أسهل علينا من دراسة نفوسنا وتشريح أجسامنا ، ولكن اذا اطلع هؤلاء الدارسون لتلك الدورة على ماسقت الكلام لأجله دهشوا من تلك الدورة وعجبوا وذلك هو المقصود من هذا المقال كله . ذلك أن التجويفين الأعلين الصغيرين اللذين يسميهما العلماء (بطينان) بينهما فى أجسامنا الآن فاصل وحاجز فلاصلة بينهما . ذلك لأن الدورة الدموية لاتتم إلا بهذا الحاجز بينهما (انظر شكل الدورة الدموية فى سورة المؤمنون)

وانما لم تتم الدورة إلا بهذا الحاجز لأنه يفصل الدم الوريدى أى الذى لايصلح للتغذية فى البطين الأيمن عن الدم الشريانى الذى يصلح للتغذية فى البطين الأيسر كما علمت . إذن الله فعل فى الدورة الدموية فى جسمى وجسمك أيها الذكى مثل مافعله فى البحرين العذب والملح فقد جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا فلم يخلط أحدهما بالآخر وجعل الحلو مشتقا من الملح بالبخر منه فيخرج الى الهواء فيخلص من الملح ثم يكون مطرا هكذا فعل الله فى هذه الدورة خرج الدم الوريدى الذى لايصلح للتغذية لما فيه من الكربون من البطين الأيمن ورفعه الى الرئتين فقابل الهواء الداخل بالتنفس فصفاه وجعله صالحا للتغذية . هذا هو فعل الله فى جسمى وجسمك أيها الذكى الآن وجسم المرأة التى تحمل الجنين . انما الأمر الأعجب هو أن الحاجز الذى بين الأذين الأيمن والأيسر الذى بينا انه لابد منه لأنه حاجز بين الدمين الشريانى والوريدى الآن لم يكن له وجود فى الجنين فهو لى ولك ولأم الجنين ولكنه لم يكن عند الجنين ومتى ولدته أمه سدت هذه الفتحة حالا فكأن هنالك بوابا فتح هذا الحاجز قبل الولادة وعند الولادة أقفله و بقى مقفلا ، والسبب فى ذلك أن الجنين اذا وصل دم أمه اليه اتجه أولا الى الأذين الأيمن فبدل أن ينزل الى البطين الأيمن ومنه يتجه الى الرئة ليخلص فيها كما قدمنا يتجه حالا من الاذين الأيمن المذكور الى الاذين الأيسر مباشرة ومن الاذين الأيسر الى البطين الأيسر ومنه ينتشر فى الجسم كله ، ذلك لأنه دم الأم ودم الأم الذى يجرى الى الطفل كله شريانى . إذن لاحاجة الى دخول الدم فى البطين الأيمن ثم خروجه الى الرئتين لأنه لايعوزه مايعوز دمنا نحن لأن ذلك دم مصفى فى رئة الأم فهو دم شريانى . فرئة الطفل لاتنفس فيها لأن نفس الأم فى رئتها قائم بما يجب . إذن لاحاجة لهواء يدخل فى رئته لقيام رئة الأم مقام رئته . وعليه لابد من اتجاه الدم من الاذين الأيمن الى الأيسر مباشرة و يعطل البطين الأيمن مادام الجنين فى بطن أمه وتعطل الرئة أيضا ، ومتى ولد الطفل قابل فمه وأنفه الهواء الجوى ودخل الهواء الى الرئتين فهنالك حالا يسد ذلك الحاجز ويدور الدم دورته المعلومة المشروحة شرحا كافيا وافيا والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الثلاثاء ٤ يونيو سنة ١٩٢٩

﴿ ضوء الجوهرة فى قوله تعالى أيضا ــ وربك يخلق مايشاء ويختار ــ ﴾

عبر بلفظ الرب إيذانا بالتربية فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ ، فالمبتدا هو ربك والخبر هو يخلق وفى اضافة الرب لضمير الخطاب ايذان بشرف المخاطب وانه جدير بأن يكون خليفة فى الأرض يربى الأفراد والأمم ، فالله يربى ما خلق ورسوله ﷺ ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التى أمرهم بها ليكونوا من بين للناس وجعل المشيئة خاصة به تعالى والاختيار

ولم يجعل لأحد من عباده اختيارا فى اعطاء أومنع ، المربى الخالق الذى يعلم ماخلق لايجعل لأحد سلطانا ولا وزارة ولااستشارة فيما يدبره ، وهذا القول الاجمالى هومعنى الآية وهذا المعنى معلوم ، واذا أردنا أنْ نجعل له مثالا تواردت آلاف الأمثلة بل مافى هذا التفسيرمن عجائب الحكمة يصلح فى هذا المقام ولكن وقع اختيارى على هذا الفيل المسمى بالانجليزية (جمبو) وعليه صف من طيرأبى قردان تأكل الدود من جلده وهومطمئن ساكن وهذه صورته (شكل ١)



(شكل ١)

أنا اخترت هذا المثال لأنه أثر فى نفسى أعظم أثر وكيف لايؤثر وأنا أرى أكبرالفيلة واقفا ساكنا وهذه الطيور واقفة فوقه وهومستلذ ساكن بل مبتهج . هذا الفيل معلوم من طبائعه أنه قوى جدا وهو يقوم فى العمل مقام جماعة من الرجال وهو يقاتل الآساد والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة ولكنه فى نفس الحال حبيب صديق لابى قردان ، ذلك الطائر الضعيف الذى لاسلاح له ولاقوة ، إن الفيل وان لم يغلبه غالب من الحيوانات المفترسة فقد غلبه أضعف المخلوقات الذى هوأعدى أعدائه ولكنه لن يقدرأن يصل اليه ، إن له جلدا متينا قويا جدا وقدسلط عليه حشرة صغيرة تسمى (بيكس) فهى تعشش فيه وتتغذى بأكله وتؤذيه بأكلها وهو يحك بالحجر والشجر ليبعدها عن جسمه ــ ولات حين مناص ــ وكلما أوغل فى حكها أوغلت هى فى جلده وتعمقت وغاصت فيه فلن يقدر عليها فهى فى أمن وأمان ، فمن ذا الذى يبعث الفيل إلاأصدقاؤه أولئك القوائم على ظهره الآكلات عدوه المطهرات جلده من الآلام . وهذه الطيورالبيض الجسم الصفرالعيون والمناقيرقد عملت للفيل مالم يقدرالفيل أن يعمله لنفسه . إذن هذه الطيورخيرأصدقائه . فالشارح هذه الصورة باللغة الانجليزية ﴿ فعلينا أن يخدم بعضنا بعضا ﴾ هـذا هو الذى استنتجه العالم الانجليزى من هذه الصورة

سطرنحن فى هذه الصورة فنجد الفيل العظيم احتاج الى الطيور الضعيفة وصارت صـديقات له وهذا هو خلق الله وتربيته عبيده ، ليس المدار فى هذا المقام على كثرة العلوم بل المدار على الاتقان والفهم ، وسترى أيها الذكى فى (سورة الروم) عند قوله تعالى ــ واختـلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ــ

كيف

كيف تكون الصور فى أنواع الحيات وفى بعض الطيور وفى بعض الحشرات متشابهة وتشابهها يجعل سدا فى حفظ الضعيف الذى لاسلاح له لمشابهته والتباسه بالقوى إذ يخيل الى الذى يريد اهلاكه انه ذو سلاح أو بطش شديد. هذا ماستراه هناك وسترى صوره الحيات الموضحة الدالة على حكمة فوق كل حكمة وعلم لم تعلمه الأمم إلا فى أيامنا هذه فإن علم الألوان (كما تقدم فى سورة الكهف عند قوله تعالى — إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا —) لايزال الآن فى حال الطفولة ومع ذلك قد أصبح ماظهر منه لنا الآن معجزة قرآنية فإن تلك الألوان وتلك الصور والابداع فيها والتفنن لايدع أدنى شك لعاقل فى الحكمة التامة التى لايعقلها إلا من عرفها وهل يعرفها إلا علماؤها وهذا معنى كونه آيات للعلماء لالجميع الناس . هذا ماسيأتى هناك ومعه شرحه لبيان تلك المعجزة وهى أن هذه الآيات انما يفهمها العلماء من الألوان وهى أيضا تصلح لهذا المقام لأن قوله تعالى — وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة — اذا تلوت ماستراه فى الصور التى هناك أوالصور المذكورة فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى — وماكنا عن الخلق غافلين — فيما تقدم أيقنت أن هذا الاختيار يسحر العقول ويدهشها . إذن أنا فى هذا المقام لا أكثر من الأمثلة فإن ما مضى وماسيأتى كاف فى ذلك

وانما الذى أقول الآن ان منظر الفيل وفوقه أبوقردان ماهو إلا كتاب كتبه الله بيده وقال اقرءوه . الفيل أقوى والطير ضعيف والحشرة أضعف . الفيل كان العدو فى جسمه ولم ينجه منه إلا طير ضعيف . إذن تعاون الفيل وأبوقردان على هذا الضعيف . إن هذا الكتاب الذى كتبه الله لنا بيده يجب علينا دراسته فنقول الفيل من الحيوانات الأرضية ذوات الأربع وأبوقردان من حيوانات الهواء والدود من الحيوانات التى تختفى عن الأعين فى الأجسام

هذه أمم ثلاثة أممة تكون عالما فى الأجسام أوتحت الثرى ، وأمم فوق الثرى ، وأمم فى الهواء . هذه كلها هى التى ظهرت فى هذه الصورة ، ساكن الأرض وساكن الهواء تعاونا على مايسكن تحت الثرى أوفى طيات الأجسام . أيها الناس ، طير وحيوان أرضى ترى تعاونا معا ، هذه هى الصورة التى تروبها ، تعاونا لأن الحاجة ماسة ، فهناك دفع أذى عن الفيل وغذاء لأبى قردان ، فهذا العمل أشبه شئ بضرب حجر طيرين فهو غذاء للطير وشفاء للفيل . إذن هو غذاء وشفاء ، وهنا نقرأ (درسين » الدرس الأول « بعض أسماء الله تعالى الدرس الثانى نظام نوع الانسان ، (١) انظر الى الصورة وفكر فيها تقرأ فيها أن الله ملك فالملك يدبر الرعايا وهم فى رعايته يعيشون وأى ملك ينظم كهذا النظام وهو (قدوس) منزه عن كل مالايليق بكماله ومنها انه لايخلق داء إلا خلق له دواء مثل مارأينا هنا (السلام) فهنا أمان للفيل وأمان لأبى قردان وهو (مهيمن) فهو يفعل مع هذه الحيوانات فعل الطائر يهيمن على صغاره بأجنحته وهو (عزيز) قد غلب الفيل تلك الحشرات وغلب تلك الحشرات بأبى قردان وهو (مؤمن) جعل هذه الحيوانات آمنة فى أماكنها فرحة بنعم خالقها وهو (جبار) حكم على الفيل بما يؤذيه وأحصنه فذل لأضعف الحيوان واحتاج لغاث الطير وهو متكبر لايريد أن يدخل أحدا فى هذا النظام فهو عمله وحده (الخالق) أى المقدر لهذه الموجودات (البارئ) الموجد لها (المصور) صورها على مقتضى الحكمة التى رأيناها هاهنا وهو (قهار) قهر الفيل وقهر الحشرة وهو (وهاب) وهب هذه الطيور أغذيتها من تلك الحشرات (رزاق) رزقها من جلده (فتاح) فتح لها باب الرزق (عليم) عما يصنع فى هذا وفى غيره (قابض) قبض أرواح تلك الحشرات (باسط) بسط الرزق لتلك الطيور بأجسام تلك الحشرات (خافض) تلك الحشرات (رافع) تلك الطيور على الفيل (معز) لهذه الطيور (مذل) لهذه الحشرات الخ إذن أسماء الله الحسنى دراستها تكون أكمل فى الحقول وهو (لطيف) وبهذا اللطف خلق المنقار الحاد والعيون القويه والأجنحة لهذا الطائر فغاص على تلك الحشرات فصار لطيفا بالفعل

ولطيفا بالطير وهكذا

(٢) ﴿ الدرس الثانى نظام الأمم الأرضية ﴾

وحق لى الآن أن أخاطب الناس كافة ، ذلك لأن هذا كتاب الله وهـذا خلق الله وأنا مفسر لكتابه وقد يشرح صـدرى لما أقول فيه ، فعلىّ أن أخاطب أهل الشرق وأهل الغرب ، أخاطبهم بكلام ربهم وأعماله العجيبة فأقول

يا أهل الشرق ، ويا أهل الغرب ، إن الله جعلكم أرق من هـذه الأمم الحيوانيـة وجعلها هى أنفسها دروسا لكم ، فاقرؤا هـذا الدرس وانظروا أمة من أمم الهواء قد اتحدت مع أمة من أمم الأرض مع تباعد ما بينهما وشدّة اختلافهما واتساع نطاق البعد بينهما ، هذا قوىّ وهـذا ضعيف ، هذا أرضى وهذا هوائى ، هذا له أجنحة وهذا له أرجل ، هذا له معدات وهذا له قانصة وحوصلة ، هذا أسود وهذا أبيض ، هذا طعامه نبات وهذا طعامه حيوان . نعم أنتم درستم يا أهل الأرض صفات الحيوان ولكن لم تدرسوا فن الأدب ونظام الأمم منه ، فاذا كانت هـذه الحيوانات المتباعدات تباعدا تاما قد اتحدا وتعاونا وفرح كل منهما بأخيه ، فما أجهلكم يا أهل الارض ؟ رأت الأمم الكبيرة أن الأمم الصغيرة لضعفها لم تستخرج ما فى أرضها من كنوز ولم تستثمر مواهبها ، فماذا فعلوا ؟ هجموا عليهم وأذلوهم ومنعوهم العلم وهذا هو الخطأ والجهل

يقول الله لكم جميعا انظروا الفيل وأبا قردان ، الألفة بينهما جامعة لاعداوة فيها ولا اجهاد ، قتل الانسان ما أجهله ــ قتل الانسان ما أكفره ــ تقرؤن ولا تفهمون تدرسون ولا تعقلون ــ صم بكم عمى فهم لا يعقلون ــ

أعجزت الأمم العظيمة أن تكون مع الصغيرة كالفيل مع أبى قردان تعاونا بالمحبة والمودّة لا بالاذلال والاكراه

ارتقت الأمم الاوروبية ولكنهم جاهلون طرق الاستعمار ، الأرض لم تزل مملوءة بالمتوحشين من نوع الانسان وهؤلاء لم يقدروا أن يعلموهم ، وغاية مايعملونه أنهم يستعبدونهم وينهجون معهم نهج جماعات النمل القوية مع النمل الضعيف كما تقدّم فى (سورة النمل) فيكون هؤلاء سادة وهؤلاء عبيدا وتكون النتيجة أن السادة بعد أجيال وأجيال يألفون الراحة ويكرهون التعب ويفرحون بالبطالة وهناك تنقرض تلك الجماعات من الوجود . هذا هو استعمار أوروبا المعطوف على استعمار الرومان والأمم العربية فى القرون المتأخرة ومثلها استعمار التتار والترك العثمانيين ، فهؤلاء فى أواخر أيامهم كانوا عالة على الأمم يستنزفون ثروتهم وهم مذمومون ــ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ــ

والحق الذى لامحيص عنه أن الأمم الأرضية اليوم لاسعادة لها إلا بالمعاونة العامّة وهذه يعوزها مفكرون دارسون لها حتى يكون الضعاف فى أواسط أفريقيا وفى غربها مع الأقوياء فى أوروبا أشبه بأبى قردان مع الفيل

هذا هو الذى فهمته من هذه الصورة (أى شكل ١) فى تفسير قوله تعالى ــ وربك يخلق مايشاء ويختار ــ فهو الذى وضع لنا فى الأرض نملا يأسر بعضه بعضا وطيرا يصاحب فيلا ، وقد اخترنا أسوأ المثالين فى القرون الخالية فلنختر أشرفهما فى الأيام المقبلة لنكون ناهجين فى العـمل أحسن المنهجين . انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ م

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى ــ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون ــ الخ ﴾

جاء فى هـذه الآية أن الله واحد وانه محمود أوّلا ومحمود آخرا وانه هو سبحانه له الحكم وأن المرجع اليه ثم أعقبه بذكر الليل والنهار والضيـاء والظلام . ومن عجب أن المحاورة بين (طيماوس) وهو حكيم من أصحاب (فيثاغورس) وبين (سقراط) الفيلسوف المشهور تناسب كل ما فى هذه الآية وألخصها هنا جميعها لمناسبتها لهذا المقام بعد أن أبنت منها فى (سورة الشعراء) ما هو أكثر مناسبة للطب فى آية ــ واذا مرضت فهو يشفين ــ

ذلك

ذلك أن طيماوس ابتدأها بقوله ﴿ إنه يستعين بالله فى شروعه فى معرفة مبدإ العالم عسى أن يلهمه الله القول الحسن ويلهم السامع قبوله ، ثم أخذ يفرق بين القديم والحادث فالقديم متصف بالوجود ويدركه العقل أما الحادث فليس له وجود حقيقى وانما يدركه الحس والخيال ويحتاج الى علة فى وجوده المجازى ، ثم أخذ يثبت حدوث العالم بأنه مرئى ملموس مادى ، وكل ماثبت له هذه الصفات فهومحسوس ، فكل ماهومحسوس فهومدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث والحادث لابد له من علة ، ثم أبان انه عاجزعن شرح وفهم الإله لأن المتكلم والسامع من البشر ، ثم ذكر سبب خلق العالم وقال سببه أن الله جواد وقد عمد الى الأشياء المضطربة فوزنها فركب لها عقلا والعقل جعله فى النفس والنفس جعلها فى الجسد فجعل صورة العالم كله كصورة حيوان واحد مشتمل على كل حيوان والعالم فى نظره حيوان عاقل مرئى جسده مركب من العناصر الأربعة فى نظره إذن العالم مركب من العقل والمادة وشئ مشترك بينهما فهوكله أشبه بجسم انسان واحد وقبل ذلك التكوين لم يكن ليل ولانهار لأنهما حصلا عند تكوين الأفلاك . إذن لاتحكم إلاعلى الحادث أما القديم فلا ، والكواكب التى هى من هذه الحيوان الكبير وهو العالم سواء أكانت سيارة أم ثابتة أجرام حية (فى نظرهم هم) بها تكونت الأيام والشهور والسنين ، ويقول ان الله لما خلقها خلق لها أرواحا وهى الملائكة تدبرها وخاطبهم يقول أنتم حادثون وهذا الحدوث ليس نقصا لكم لأن قوتى تحفظكم فأنتم لايلحقكم موت ، وهنالك خلق أرواحا فى كل كوكب وفى الأرض والقمر والكواكب الثابتة وأطلع تلك الأرواح على العوالم كلها ثم قال لها أنا خلقتكم من عنصر الروح الملكية وسأنزلكم الى عوالم المادة وتكون لكم شهوة فمن اتبع العقل رجع الى كوكب سعيد ومن اتبع الشهوة نقلته فى حيوان بعد حيوان على حسب ماغلب عليه من الشر والشهوة ، وقبل ذلك خاطب أرواح الكواكب فقال لها أنتم دائمون وأنا آمركم أن تأخذوا هذه الأرواح التى هى أيضا إلهية وتسكنوها فى أجسام وتغذرها بما يناسبها وتكون تلك الأشخاص مركبات مما يموت وهوالجسم ومما لايموت وهوالروح مع إحداث حيوانات أخرى ليكمل النظام العام ﴾ وهذا القول الذى قاله طيماوس لسقراط أكثره موافق للاسلام فقد ذكر بقاء نفوسنا ونفوس الملائكة وذكر العقاب للمذنب والسعادة للصالح وذكر أن الملائكة موكلون بالعالم وذكر أن العالم حادث وهذا عجيب جدا أوقفنا على أن نقل الفلسفة من اليونانية الى العربية كان مشوها إذ نقلوا القول بقدم العالم فظهر أن ذلك النقل كان عن صغار علمائهم وأن ذلك الخلاف فى الكتب كان ضياعا ، وأقول الآن يجب الاستقلال فى جميع المباحث فان الاتكال على الأمم مضيعة لأمتنا والذى ينافى ديننا مسألة كون العصاة يصبحون حيوانات ، فنفس (طيماوس) يقول هذا ظن لايقين وعليه فان شريعتنا ذكرت جهنم وهذا عذاب يقين ، ومن الحكم العجيبة انه يقول « ان الله خلق الأرواح وخاطبها » وهذا بعينه آية ــ واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ــ الخ وهذا من أعجب العجب أن يكون نبينا ﷺ قد نزل الوحى عليه وهولم يزاول علما بما كان يختلج فى قلوب علماء اليونان ، وأقول إن هذه معجزة كبرى بل كل هذا المقال معجزة وأى معجزة ، وكيف يثبت طيماوس المبدأ والمعاد وقدم الله واثبات اليوم الآخر والعذاب والثواب وان أخطأ فى تعيينهما ويثبت بالظن خطاب الله للأنفس قبل نزولها الى عالمنا الأرضى ، كل ذلك قبل الرسالة المحمدية بنحو تسع قرون

وهنا بهجة العلم التى هى أنسب لهذه الآية بذكر النور والعين ، قال مانصه بالحرف الواحد

﴿ قال أفلاطون ثم بين (طيماوس) تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وتصوير الآلات المخلقة من البصر والسمع وغيره ، قال إن البصر نار جعله الله فى داخل العين فمن تلاقيه بالنار الموجودة من خارج يتولد الابصار وبسط القول فى مدح البصر وبيان منافعه قال إن فائدة البصر على ما أرى انه لولم تكن لنا القدرة على ادراك الشمس والكواكب ما كنا نتمكن من الكلام عن السماء والعالم إذ من مراقبة اليوم والليل

وتحوّل الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم فنه نشأت الفلسفة وهي أنفس ما أنعم الله به على البشر﴾

ثم قال ﴿إن الله لم يقصد من إيجاده البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا وتنظيمه على نسق ماتراه في السماء من ترتيب العقل في دورانه إذ هو وذاك طبيعة واحدة﴾ انتهى

يقول (طنطاوى جوهرى) مؤلف هذا التفسير إنى لما اطلعت على هذه الجملة الأخيرة اعترانى مايشبه الدهش والبهر وفكرت فى هذا النوع الانسانى فى الوقت الحاضر لاسيا أمة الاسلام ، اللهم إنك أنت خلقتنا فى هذه الأرض غرباء عن المادة فجعت هى أكثر عقولنا فكيف نرى هذا الجمال ، جمال النجوم ونظام الشمس والقمر والكواكب ونرى الشهور والسنين ونحن غافلون لم يخطر ببالنا من تلقاء أنفسنا أن تلك العوالم المنظمة قد جعلت نبراسا لعقولنا التابعات لها ونحن نقرأ كل يوم ـ وزيناها للناظرين ـ ونقرأ ـ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ـ ونقرأ ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ـ الخ فهاهوذا ذكر الليل والنهار وانهما لمنافعنا ، ويقول فى آية أخرى ـ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا ـ الخ أوليس من أعجب العجب أن يأتى رجل يونانى فيقول إن البصر لم يخلق فينا إلا لنلاحظ هذه الكواكب وسيرها ونفكر أن نظاما يكون على نظام السموات التى نظمتها عقول عالية عقولنا مخلوقة على مثالها . أوليس هذا هوقوله ـ ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان ـ

أيتها الأمم الاسلامية ، إنى أكتب هذا وان نفسى فى خجل أن أرى أن هذه الحكمة وهذا الاشراق وهذه النظرات السامية تكاد تكون مفقودة فى أمتنا الاسلامية فى القرون المتأخرة ، أنا أقول لن يكفى المسلم أن يقرأ هذا فى كتاب . كلا . بل لاينبغى للمسلمين أن يتأثروا بهذه المباحث إلا اذا نظروا بأنفسهم وفكروا بعقولهم فكرا استقلاليا ، فمن وفقه الله لهذا هداه الى النظرات فى الكواكب ليلا فيفكر فى جمالها الظاهرى ويتأمل فى عجائبها بنفسه يوما فيوما ثم يدرس مبادئ الفلك وهذا هوقوله تعالى ـ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ـ هنالك يتأثر الوجدان ومن هذا التأثر تحصل المعرفة ، فالكتب وحدها لاتفيد بل لابد من النظر الاستقلالى .

اللهم إنك أنت المنعم وأنت الهادى . اللهم إنى ألجأ اليك أن تجعل هذا الكتاب ذكرى لشبان من النوع الانسانى مسلمين وغير مسلمين لأنك أنت رب الجميع والمنعم على كل نسمة بما يناسبها وخير النعم ماكان علما وحكمة فاجعله يا الله نورا لبصائر المستعدين من العالمين والحمد لله رب العالمين انتهى صباح الاثنين يوم آخر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧

﴿الجوهرة الثالثة فى بهجة العلم فى قوله تعالى ـ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة ـ الخ﴾

حدثنى الحارث بن همام قال رأيت فى المنام كأنى مت وغسلت وكفنت وصلى على ودفنت وفى نفس الوقت كان روحى ترفرف بهيئة تشبه هيئة جسمى ولكنها هيئة روحية نورية فأحدق بى ملائكة أوقفونى فى عوالم من النور البهيج الذى لامثيل له فى الأرض بحيث لاأتمكن من وصفه لبهجته وجماله ثم أحسست فى نفسى بخواطر على هيئة السؤال والجواب وأنا فى حال الدهش من الجمال وكأن الحق يخاطبنى بلاحرف ولاصوت وأنا أجيب فى سرى وكأنه يقول لى ياعبدى أنا أحبك فقلت فى سرى ربما كان هذا الخاطر شيطانيا والافكيف أستحق هذه المحبة وأنا مقصر فى أعمالى كلها ، فقلت فى سرى وماعلامة حب الله لى فكان الجواب مايأتى ﴿علامة حبى لك انى شغلت عقلك فى طول حياتك ، فأنت فى حضرك وسفرك وفى كل حال من أحوالك تبحث عنى وتفكر فى أعمالى ، فهذه لم تكن إلا من الحب الذى ألقيت فى قلبك لى ولن يحبنى أحد إلا كنت أنا محبا له

قبل

قبل أن يجبني ، ألم تقرأ — يحبهم ويحبونه — } ثم قال { وقد خلقت العالم كله لأجلك }
قال فلما خطر لي هـذا الخاطر وكأنه خطاب من الله اعترانى النحول ورفعت طرفى الى السماء وقلت يا الله أنا لست بقادر على أن أفهم هذا فأجبت بما يأتى { طب نفسا وقر عينا وسأعلمك معنى ذلك ، من أين أتت روحك ؟ فقلت هى قبسة من نورك فقال وهذا النور حكمت عليه أن يترقى تربية تدريجية فى العوالم المادية ولا يكون ذلك إلا بأبوين بلدانك وأمة يعيش فيها هـذان الأبوان وأمم تحيط بهم تساعد هـذه الأمة بتجارة ومعاملة وهـذه الأمم كلها لابد لها من الحيوان والنبات والماء والمعادن والأرض والهواء والكواكب الثابتة والسيارة . فقلت نعم حقا أنا لا أخلق إلا وأنا مصحوب بهـذا كله فقال لى الله فى سرّى فأنا لأجلك خلقت الشمس والقمر والمجموعة الشمسية والمجرّة والسدم والأرض ومن عليها ، قال فقلت فى نفسى انه لم يخلقها لى وحـدى فأجابنى قائلا أضرب لك مثـلا رجلا له عشرة أبناء أسكنهم بيتا منخرف الحيطان مفروش الأرض مضاء السقف بالمصابيح وهؤلاء الأبناء يتعاونون على جلب الرزق ودفع الأعداء ، فهل هؤلاء الأبناء كل واحد منهم شر على البقية من اخوانه أم هو خير فقلت بل هو خير لأنه وان شارك اخوته فى الرزق فقد شاركهم فى العمل والمنفعة لهم ، فقال إذن كل واحد من العشرة الأبناء فى حياة وسعادة بالمنزل نفسه وبجميع اخوته المساعدين له ، فقلت نعم قال فهكذا أهل الأرض كلهم فـكل امرئ منهم يصح أن يقول خلق العالم كله لأجلى ولا ينافى هـذه القضية بل يؤيدها وجود أمثاله من بنى آدم فى الأرض لأن كل انسان منتفع بالناس تعليما وتجارة ومدنية ونظاما كما انتفع من الشمس والقمر والسحاب والهواء . إذن لـكل عاقل أن يقول خلقت لى السموات والأرض وما بينهما كما تقول المرأة فى حق زوجها واخوتها وذرّيتها هؤلاء كلهم لمنفعتى وخدمتى وكل من هؤلاء يقول مثل ماتقول هى ، وعليـه لـكل انسان فى الأرض أن يقول خلق العالم كله لأجلى ، قال ثم هجس فى نفسى أن هذه المعانى كامنة فى قوله تعالى — ألم يجدك يتيما فآوى — فاليتم اللغوى معروف وهو الذى يحب القلوب فى ذلك اليتيم فتكفله ، أما اليتم العلمى فهو احتياج النفوس الى تربيتها فى الأجسام واصلاحها بهذه العوالم كلها وأوّل اليتيمين رمز لثانيهما ، فـكل نفس فى حدّ ذاتها مفتقرة الى هـذه العوالم افتقار من فقد أباه الى من يعوله ، وقوله — والضحى * والليل اذا سجى — قد شمل العوالم كلها فالعالم العلوى والسفلى ليلا ونهارا مسخر لـكل امرئ فى الأرض

قال الحرث بن همام فلما تمّ هذا الخاطر فى نفسى قلت ياعجبا وهل هذا دليل على حب الله لى ؟ فخاطبت الله فى السرّ قائلا إذن أنت تحب كل مخلوق وكل انسان كافر أو مسلم لأن كل واحد من هؤلاء يقول مثل ما أقول فأجابنى الخاطر فى سرّى يقول { إن الله لم يخلق الخلق إلا وهو يحب أن يخلقهم ومن كشف منهم له العطاء عن حقيقة الأمر وأحس بوجـدانه بما ذكرته لك الآن فهو المقصود الحقيق لأن روحه أصبحت راقية ، أما بقية الخلق المغمورين فى الجهالة فأمامهم دهور ودهور يتيهون فى بحر الجهالة والعماية والضـلال ، ثم قال إن الله خلق الخلق وأعدّهم للرقىّ ومن أحس بهذا الوجـدان وثبت فى نفسه فذلك دليل على أنه استعدّ للمحبة الحقيقية والنور والبهجة والجمال }

ثم قال الحرث بن همام فقلت فى سرى ان المحبة فى أهل الأرض اذا ملكت قلب امرئ أضنته وأحرقت فؤاده وأمرضته وماهى إلا أن يحب الرجل امرأة ردحا من الزمن فما بالك اذا أحب العالم مبدع هذه الصور وأنواع الجمال ؟ فـكيف يطيق ذلك ؟ وكيف يكون ذلك الحب . قال فأجابنى الخاطر فى سرّى قائلا أما قولك كيف يكون ذلك الحب فأقول ، أذكرك بما تقرأ فى الحـكمة والعلم فتفكر فى رجلين رأيا طائرا على شجرة مثل الزقزاق البلدى (المرسوم فى سورة يوسف وفى سورة النمل) فهذا له نوع من الجمال فوق الشجرة وقد تمايلت الأغصان وهبت الرياح وتغنت الاطيار وأحدهما لم يفكر فيه والثانى فكر فى جماله وصنعته وكيف

أعدّلأ كل الدود الذى يأكل الزرع ، فهنالك يحارلبه ويدهش ويقول انى كاأنتفع بالشمس والقمر والكواكب وأهل بلدى وأمّتى والأمم وبالجبال والأنهار هكذا أنتفع بهذا الطائر هو وأمثاله التى تبلغ نيفا وثلاثين كما تقدم فى (سورة طه) و (سورة يوسف) فهذه كلها جيوش وجنود مجندة أرسلت الىّ من العالم الأعلى لتلتقط الدود وتحافظ على حياتى ، هنالك يخرج من هذا الخاطر الى ماهو أرقى عنده ويقول فى نفسه من أنا ؟ وماهى حياتى ؟ وماهذه الطيور والأمم والدول والكواكب . إن الأمر لأعظم وأكمل . أى حكمة دبرت . وأى تدبير أحكم إن الأمر لعظيم . هنا تدبير محكم وربط الشجر والطير بالدود والزرع والانسان . هذه حكم ونظم محكمة مضبوطة هنالك تطير روح هذا المفكر الى عالم الجمال وتفكر فيه وتنشرح وترجع الى مبدع هذه النظم وهنالك يرى الجمال بالبصيرة ويدهش عقله ويطير لبه . وهذا الحب والدهش والتعجب ليس اختياريا بل هو أشبه بحب المرأة لولدها والعاشق لمعشوقه . والناس فى حق أصحاب الجمال على ﴿ قسمين ﴾ قسم عرف الجمال وهام به وقسم عرفه ولم يهم به لعدم استعداده . وكما انا اذا أتينا بطفل أمام مائة امرأة وهو يبكى طالبا ارضاعه لاترى واحدة منهنّ تتقدّم اليه اكثر من غيرها إلا امرأة واحدة هى أمه التى تلقمه ثديها لأنها هى التى بينها وبينه مناسبة أشدّ من غيرها وان كان النساء كلهنّ يتأثرن لبكائه ويردن ارضاعه هكذا مناظر هذا الوجود كمسألة الطائر المتقدمة والتقاطه الدود وحسن النظام العام فهذا ينظره العالم والجاهل وعلماء الزراعة وغيرهم ولكن لايتأثر بالحب لمبدع العالم إلا نفوس خاصة كما لم يؤثر بكاء الطفل الأثر القوى إلا فى أمه . هنالك دعيت فى سرّى وقيل لى إذن أنت محبوب فعلا لأنك اذا نظرت أمثال هذا الطائر طار لبك وأخذ منك العجب كل مأخذ ووجدت فى نفسك حبا لايحسّ به من حولك مع أنهم يشاهدون مثل ماتشاهد ويعلمون مثل ما تعلم بل نفس علماء الحيوان وعلماء النبات يعلمون هذا أكثر منك ولكنهم لا يتأثرون فيرى عالم الزراعة أن ورق السنط قد حفظ بشوكة طلعت بجانب كل ورقة وأن عنق ورقة (البازلاء) وعنق ورقة الورد قد حفظ كل منهما بما خلق ملازما له كما تقدم فى (سورة النمل) رسم ذلك . يرى ذلك عالم الزراعة فلايتأثر به لأنه ربما لم تكن روحه من الأرواح المستعدّة لفهم الجمال كما لم يستعد الطفل لادراك جمال الغانيات

ثم قال الحرث بن همام ، وختم الهاتف فى سرّى خطابه لى قائلا ﴿ إن كل العوالم ساعية مجدّة للرقى ولم يحظ بتلك المحبة إلا نفوس خاصة هى التى أدركت ذلك الجمال ، أما البقية فانهم الى الآن لم يصلوا الى ذروة الكمال فلم ينالوا هذه المحبة . هذا جواب السؤال الأوّل وهو كيف يكون هذا الحب

أما قولك كيف يطيق ذلك الحب فأقول هذا هو بيت القصيد . اعلم أن أرواحكم فى هذه الأرض لها صلة بالأرواح العالية فهى نفوس جزئية لها نسبة الى النفوس الكلية التى بها نظمت العوالم كلها بأمر الله وهى ـ المدبرات أمرا ـ فهذه وضعت فى الأرض والأرض كلها جمال وحكم وعجائب وبدائع فلو أن هذه النفوس كشف لها الجمال فيما حولها لماتت وتصدّعت ولكن الله لرحمته أحاطها بالمصائب والجهل والحسد والحرب والمرض وغيرها لئلا تعرف ذلك الجمال فيدهشها فلاتتحمله فتهلك ، فانظر الى آثار رحمة الله ، جهل وذل وعمل وأشغال متعبة وهموم ، كل ذلك جعل غطاء يغطى جمال هذه العوالم المحيطة بالانسان من كل جانب بل على مقدار كثرة الجمال فى العوالم كان الغطاء الذى غطاه فكثرة الأعمال والجهل والثورات والفتن فى الأرض وضعت بمقدار وفرة الجمال لتغطيه وتحجبه . فأكثر الخلق محجوبون عن الجمال فى أنفسهم وأجسامهم وحيوانهم ونباتهم وأرضهم . فأما الذين كشف لهم بعض الجمال فهؤلاء أيضا تنزل بهم الكوارث والنوائب فتحجب عقولهم عن ذلك الجمال كالباقين وانما ينجلى لهم الجمال وقتا بعد وقت فى فترات على مقدار طاقتهم ـ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ـ

(نور الجوهرة الثالثة الصحة والشمس)

جاء فى جرائدنا المصرية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ مانصه

يقول الدكتور (بنتلى) عميد كلية الطب بكلكتا ان الشمس تسبب زيادة سكان الممالك أونقصها كما تسبب نمو المحصولات أوضعفها . وعلى ذلك يقول الدكتورانه فى أمريكا والهند استدلوا على أن الشمس تؤثر فى إنماء الأجسام والمحصولات الزراعية وأن عدم وجود الحرارة يضعف الأجسام والمحصولات أيضا . ويزيد أن الصحة لاتسلم إلا فى نورالشمس وتحت حرارتها اه

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى ــ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ــ الخ بعد قوله ــ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ــ الخ ﴾

اعلم أيها الذكى أن هــذا المقام عظيم القدر سامى المنزلة ففهم الرحمة هنا يعوزه أن تجتهد النفس فى أن تتملص من عاداتها وتخلص ولومؤقتا من شؤنها حتى تتفرغ الى فهم رحمــة الله بشمسه وكواكبه نهارا وليلا وبالظلمات والأنوار . واعلم أن السبيل لذلك ما قاله الله فى سورة أخرى ــ فاصــبرعلى مايقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى * ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خيروأبقى * وأمر أهلك بالصــلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ــ

خلقنا الله فى الأرض وأفاض علينا نعم الشمس والكواكب والأنوار ولــكنه فى الوقت نفسه سلط علينا الأعداء من كل جانب كلما أحسن اليهم المرسلون والعلماء بإفاضة العلم والخير أساؤهم وسلقوهم بألسنة حداد ومن جهــة أخرى سلط على كثيرمن الأخيار فى الأرض حب الموازنة بينهم و بين معاصريهم فى المال والرزق والولد والجاه . إن أهل الأرض من الصالحين والطالحين جميعا قد أحاطت بهم هذه المزعجات من حولهم ومن أنفسهم ، يجدون من بنى آدم العداوة والبغضاء ، لاسيما الأقارب والقرناء ، ويجدون من أنفسهم طمعا لاحد له وميلا لزخرف الحياة الدنيا ، فالأنفس فى عذاب واصب مزدوج من داخلها ومن خارجها فأنى وكيف تقدر هذه النفوس ان تخلص للنظرة العامة فى هذه الشمس الجميلة والكواكب البهجة وبهائها وظلمة الليل وضياء الشمس . كلا . فالقوى النفسية فى الانسان محدودة وقد وزعت بين قوتين قوة داخلة وأخرى خارجة

اللهم إنا نحن بنى آدم على الأرض مساكين خلقتنا فى أرضك الجميلة تحت شمسك البهية المتلألئة وكواكبك البديعــة ثم أحكمت اقفال أبواب السماء على أكثر نفوسنا فغابت فى دجى ظلماتها وانهمكت فى مطالب دفاع الأعداء وجلب الكساء والغذاء ، فنفوسنا أبدا مابين قوى الدفع والجذب فأنى لها أن تخلص من ذلك وتنظر رحماتك الواسعة المحيطة بها

علم الله أن ذلك الخلق فينا فقال لنا أيها الناس ، أمامكم الأعداء وحسدهم وإيذاؤهم فدواؤه الصبر وماالصبر إلا الجنة (بضم الجيم وتشديد النون) التى تتخذونها لــكم دروعا تتقون بها إيذاء الأعداء وأنا مع الصابرين ، وأمامطالب أنفسكم وحبها لزهرة الحياة الدنيا فاياكم أن تمدوا أعينكم الى ذلك لأنها زهرات وهل للزهرات بقاء ؟ إذن لابد من صبر على الضراء وصبر عن الشهوات . إذن الناس موثقون بوثاقين والوثاقان لهما حل واحد وهو الصبر ، صبر على قول الأعداء وصبر عن الشهوات ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ احتمال مايصيب الانسان داخلا وخارجا . هذا هو قوله تعالى ــ فاصــبر على مايقولون ــ راجع للصــبر على كيد الأعداء . وقوله ــ ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم ــ الخ راجع للصبر عن الشهوات . وهاتان الخصلتان يرجع اليهما كل مكروه من مرض وفقر وفراق وهكذا . فهذه هى القواطع التى تقطع الناس وتصرفهم عن معرفة رحمة الله عز وجل

فى شمسه وبدره وكواكبه . وبالصبر والرضا بالقضاء والقدر رضا مبنيا على العلم والحكمة ، يتفرج الانسان لهذا الوجود ويفهم إذ ذاك قوله تعالى — وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى — لأن النفس لاترضى إلا بالعلم والعلم لا يكون إلا بعد أن تذهب تلك القواطع

يأمرنا الله بالتسبيح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويأمرنا بذلك فى بعض ساعات الليل ويقول لنا فى هذه الآية التى نحن بصددها — ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله — . قد قلنا إن الانسان موثق بوثاقين من الداخل والخارج والوثاقان يحلان بالصبر ولكن الزهد فى الدنيا والصبر على الأذى وحدهما ليس معناهما أن الانسان فهم هذا الوجود لأن هذا ماهو إلا تخلية ولابد من التحلية كداخل الحمام يتجرد من الأقذار ثم يلبس الثياب هكذا هنا اذا خلصت النفس من هذه القواطع فلتشرع فى درس هذا الوجود ولتقف أيها الذكى صباحا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى موضع خال والجو جميل فسبح وقد أقبلت جيوش الصباح البيض الصباح أو المشرقات الحسان البهجات فى دياجى الظلمات . فهنالك تنظر فترى دولة وموكبا مقبلا فتطلع الشمس وترسل الحرارة الى الهواء فتجرى الرياح والى الماء فيثور البخار الذى يصير سحابا فتقابله الرياح فتحمله الى الاقطار فيمطر فيكون أنهارا تسقى النبات والحيوان والانسان . أو ترى تلك الثريات اللامعات التى لاحد لجمالها فى الدجى وهن باهرات لايعرف لهن أمد ولايوقف لهن على عدد ثم تنظر فترى أن حياة كل مخلوق موقوفة على الشمس وضوئها وحرارتها وأن كل ماهو جميل فى الأرض مشتق من بهاء تلك المشرقات ، وماهذه الزينة التى تتباهى بها الغانيات الحسان فى الأرض إلا من آثار ذلك الضياء ، ألم تر أن الأصباغ التى نوعها الانسان فى الثياب ماهى إلا من الفحم الحجرى الذى حفظ ضوء الشمس قبل آلاف الآلاف من السنين ثم استخرج الناس منه تلك الأصباغ الآن والأضواء ، وبتلك الحرارة المخزونة أجروا المركبات فى الطرقات ونوعوها ووزعوها فى الأقطار

نفس الانسان شريفة كبيرة عظيمة تعطى الملك والنعم والمال والولد وتملك الأقطار والبلاد ولكنها تقول كلا . كلا . هل من مزيد ، هى حقا من نور الله ، نحن لانرضى فى الأرض بما نملك . لوملك كل منا هذه الأرض جميعها لقال هل من مزيد فكيف اذا كانت الأرض موزعة بيننا فلاسبيل لنا إلا العداوة والبغضاء فى اقتسامها وانما لم نرض بذلك لأن هذه النفوس عالية شريفة لاترضى إلا بمعرفة حقيقة هذا الوجود ومتى عرفت اطمأنت وسكنت . فهذا معنى قوله تعالى — لعلك ترضى — أما إهلاك الأعداء وأما مد عينيك الى ما متعناهم به من مال وولد فهذا لايرضى هذه النفوس إلا وقتا ما ثم ترجع للطالبة وتقول أين المنتهى . ومتى أدرك الانسان جمال هذا الوجود (ويكفيك مؤقتا قراءة هذا التفسير أو أكثره) رضيت نفسه وفهم معنى — فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها — الخ وأدرك السبب فى ترتب الرضى على التسبيح والتنزيه لاغير إذ يرى أن مايصيبنا لم يكن إلا لارتقائنا والله منزه عن قصد الايلام بلا فائدة . ومتى اعتقد ذلك اعتقادا مبنيا على النظر والعلم رضى وفهم سر معنى كون رضوان خازن الجنان فهو من هذا الوادى وكم فى هذا المقام من أسرار وبهذا المقام يفهم المسلم فى صلاته معنى مخاطبة ربه قائلا ﴿ أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ﴾ فأنت أهل الثناء والمجد دائما . ومعلوم أن الثناء لا يكون إلا على نعمة وهذا المنع بعد فهم الحقائق صار نعمة . والمصلى يقوله إما تعبدا وتكلفا إن كان جاهلا واما بعلم وعقل ان كان عارفا بأمثال مايذكر فى هذا التفسير وهنالك درجات فوق ذلك

فهناك يمتزج التسبيح بالتحميد إذ يرى فى طلوع الشمس والكواكب وغروبها حياة وموتا وزرعا وحصادا ويدرك النعم ويعقل السبب فى الموت والمرض وأن كل شر لم يكن إلا لخير وأن الأمر عظيم ويفهم — واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا — ويرى أن الملك الكبير كما يكون يوم القيامة يكون فى الدنيا بالفهم والعلم

عاية

غاية الأمر أنه يكون هناك أظهر ولكنه ظاهرلذوى البصائر الآن . إن هذه الطائفة التي اتصفت بما أقوله الآن وعرفت مقصود الوجود على مقدارطاقتها تعرف نعم الله فتحمده عليها وتشكره ويخامر قلوبها حبه لما ترى من جماله واحسانه الذى لاحدّ له وتفهم أن رحمته لاحدّ لها وتعقل أن الموت الذى هوأعظم المصيبات المخيفات فى الدنيا ماهو إلا مقدمة لابد منها من مقدمات الرحمات لأنه يستحيل أن تكون هذه الرحمة التي لاحدّ لها تأتى بنقمة إلا مقدمة لنعمة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان النقمة ضرورية لجلب نعمة أرقى من النعم السابقة

هذا هوالذى تضمنه قوله تعالى هنا ــ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ــ الخ فبهذا الاجمال تتصور مبادئ الرحمة التي فى هذه الآية فتنزّه الله عن الايلام لغير نتيجة وهذا هوالتسبيح ونعرف نعمه التي لاحدّ لها وهذا هو التحميد وهذا هوغاية الرضا واذن تفهم ــ لعلك ترضى ــ هذه هى الرحمة العلمية

أما الرحمة العملية فانظرأيها الذكى الى بنى آدم تجدهم قد تخبطوا فى قبول هــذه النعمة . رأوا الشمس وضوءها فماذا فعلوا ؟ رأوا الطيور والأنعام والحشرات متمتعات فرحات بضوء الشمس فقلت أمراضها وكثرت خيراتها ونعمها . أما هذا النوع الانسانى فانه لما أعطى قوّة الفكر والتمييز أخذ يتوارى عن السعادة وينحط فى دركات الشقاء بسوء تدبيره وكبّل فى قيوده وحيل بينه و بين سعادته بالتباهى وألهاه التكاثر فى المال والولد والزينــة والزخرف وجمع المال والاكثار من الملابس والتفنن فى الأطعــمة والانزواء فى القصور والمنازل فحرم الهواء النقى وضوء الشمس والأطعمة الطبيعية فأحاطت به المكروبات (الحيوانات الذرية) وأوردته موارد الهلكة بالطاعون والحصباء والجدرى والحمى وأمثالها وقتله الأسقام بسبب البطنة وسوء اختيار الأغذية واتباعه طواهر اللذات الحسية ونبذه مقاصــد المطاعم والمشارب ولذلك الاشارة بقصــة أبينا آدم التي ذكرت فى مواضع من القرآن يقول تعالى ــ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ــ فانظرهذا المقام فى أوّل سورة الحجر وفى أواخر سورة طه ، فهناك ترى حظ هذا الانسان وجهله فى الشرق والغرب ومرض بدنه بجهله سواء فى ذلك أطباؤه وعامّته وعلماؤه وجهلاؤه

لعمرالله مانزلت تلك القصة ولا كررت تأديبا لآدم . كلا . وانما ذكرت عظة لنا وتأديبا وهــذه القصة قد نزلت على الأنبياء ثم على نبينا ﷺ والناس لايكادون يفطنون لها حتى اذا كان هذا الزمان أخذ الناس يفطنون لهذا الوجود وبحثوا فأدّاهم بحثهم الى أن التوارى عن الشمس والانزواء فى البيوت والانهماك فى اللذات كلها عذاب واصب . أما المطاعم واللذات فقد تقدّم الكلام عليها مفصلا فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى ــ واذا مرضت فهو يشفين ــ وفى (سورة طه) عند قصة آدم وفى (سورة الحجر) كما تقدم وفى (سورة الأعراف) عند قوله تعالى ــ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ــ وفى (سورة البقرة) عــند قوله تعالى ــ أتستبدلون الذى هوأدنى بالذى هو خير ــ فاقرأ ما هناك فان فيه غنى لك ولذويك وحكمة ونورا مبينا

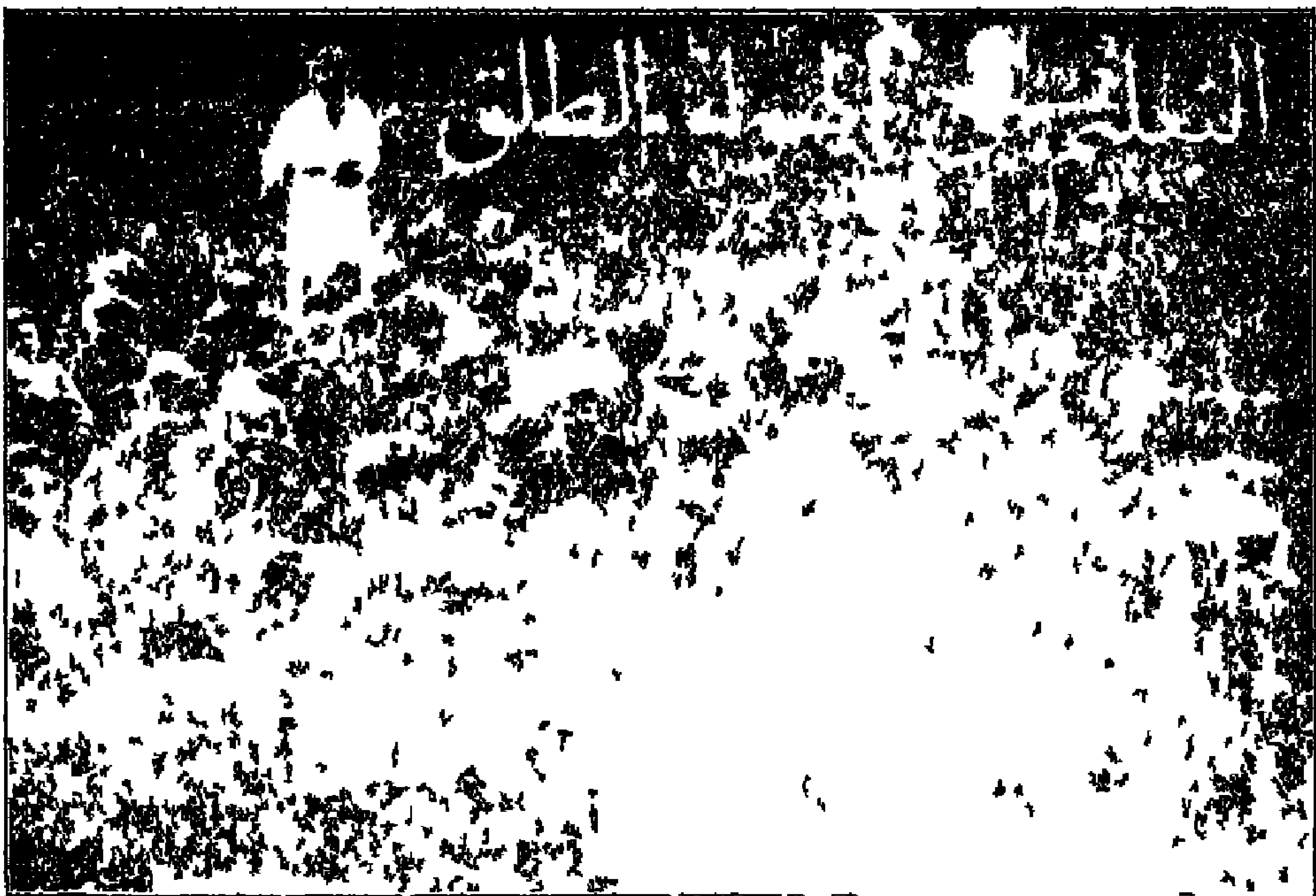
وأما أمر الشمس فان الناس اليوم عرفوا قيمة الخلوات والهواء والتعرّض لضوء الشمس فعلى المسلمين أن ينذروا ماعندهم من العادات وليكن لهم وجهة صحية بعلمهم وليعلموا أن الله عزّوجل عمم نور الشمس وجعله سعادة وصحة للطيور وللأنعام وللحشرات المقيمات فى الحقول والبساتين فليس من المعقول أن يكون نعمه لهذه المخلوقات ثم هونفسه يكون نقمة على الانسان

قد أجمع الأطباء أن ضوء الشمس يجب أن يتخلل جميع حجرات المنزل حتى تقتل الحيوانات الذرّيه بل ان الأمر فوق ذلك . هاهم أولاء أهل ألمانيا أخرجوا التلاميذ من المدن والمنازل وأخذوا يعلمونهم فى الخلاء ليتلقوا العلم وهم معرضون للشمس التي هى رحمة مرغوبة لانقمة مرهوبة ، فهاك ما اطلعت عليه فى « مجلة كل شئ » فاقرأه قراءة من يريد أن يعمل بالعلم ، فاذا قرأته فتفكر فيه وغير نظام مدارس المسلمين وأخرجهم من ظلمات الحجرات الحقيرة القذرة وقل لهم أيها الناس إن الله جعل ضوء الشمس رحمة بنص الآيه ثم ألهم

الأمم وعلمها فعرفت فوائد الضوء فاعترفوا من رحمة ضوء الشمس ولاتحسوا أسامكم فى تلك الأماكن القذرة التى لايدخلها ضوء الشمس وانتفعوا من فضل الله فهذا كلام الله وهذا عمل العلماء من عباده فهذا ماجاء فى تلك المجلة بنصه

(التعليم فى الهواء الطلق)

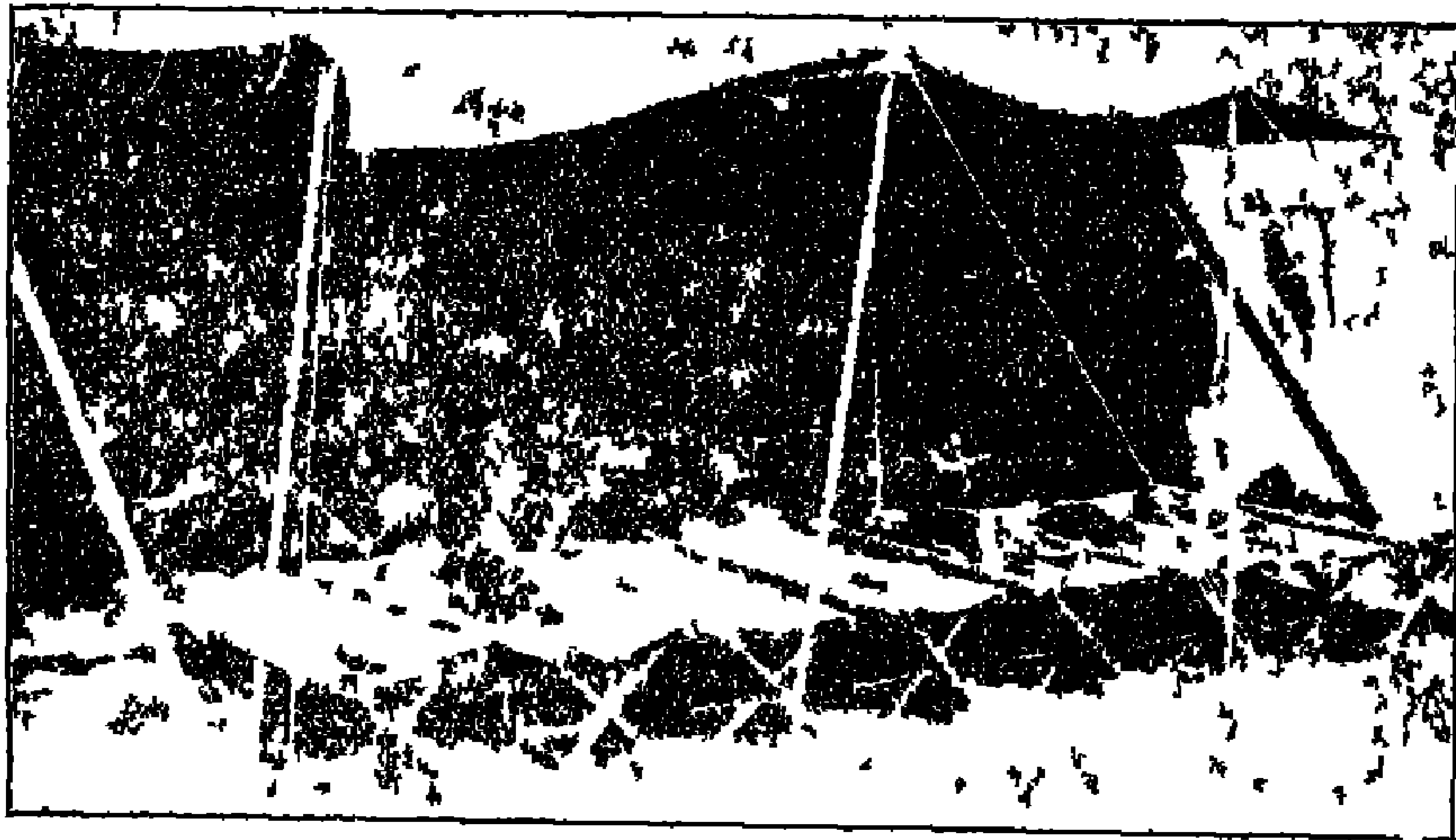
يؤمن الأطباء الآن إيمانا عظيما بفائدة الضوء والهواء الطلق ، ولذلك هم ينصحون للمرضى بالتعرض لضوء الشمس والتخفيف من الملابس بل ينصحون باستعمال الضوء الصناعى اذا كانت الغيوم كثيرة كما هى فى لندن . وقد بنى الألمان وغيرهم مدارس مكشوفة يجرى التعليم فيها فى الخلاء فاذا أمطرت السماء آوى التلاميذ والمعلمون الى الغرف ، ويرى القارىء هنا ثلاث صور لمدرسة أطفال جديدة أنشئت قريبا من (بورجيه) فى فرنسا وهى تجمع الصغار من منازلهم كل يوم بالاتوموبيل وتخرج بهم للخلاء فيجرى التعليم بين الحقول تحت الشمس عند اعتدال الهواء ، فاذا لم يكن الجو موافقا قعد التلاميذ فى المدرسة الأصلية وهى بناء عادى به الغرف الخاصة بالتدريس وبهذه المدرسة الآن ٨٠ تلميذا (انظر شكل ٢) و (شكل ٣) و (شكل ٤)



(شكل ٢ ــ التلاميذ فى المدرسة الجديدة التى أنشئت أخيرا فى فرنسا يلعبون فى الحقل أثناء الاستراحة بين درسين)



(شكل ٣ ـ التلاميذ على الموائد)



(شكل ٤ ـ التلاميذ فى خيامهم فى الخلاء يستريحون على أسرتهم عقب الغداء)

فلما اطلع صاحبى العالم على هذه الصورة وفيها التلامذة فى الخلاء معرّضين للشمس . قال أتدرى مايقول الناس حين يرون هذه الصورة ، يقولون إنك تأتى بالجزئيات وتجعلها كليات ، هذه فرنسا وغيرها قام فيها أفراد وضعوا هذه للتجربة وجعلوا مدارسهم فى الخلاء تحت الهواء والشمس فهل يصح هذا قاعدة وعلما وأيضا إن أمر الشمس يحتاج الى إصلاح ثم لماذا أدخلت علم الرجة ومارأيك فى تعليم المسلمين اليوم وغدا فقلت سأشرح هذا المقام فى هذه الفصول ﴿ الفصل الأوّل ﴾ فى منافع الشمس وماذا يجب على الناس فى مستقبل أمرهم بالنسبة لها ﴿ الفصل الثانى ﴾ علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم وفى ذلك ﴿ مقصدان ﴾ المقصد الأوّل آراء ابن خلدون فى أن التضييق على المتعلم يورثه الجبن ويقعد به عن المعالى ﴿ المقصد الثانى ﴾ فيما قاله العالم السويسرى الذى جاء الى مصر الآن ﴿ الفصل الثالث ﴾ فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴿ الفصل الرابع ﴾ فى شرح الكلام على الرجة فى هذا المقام ﴿ الفصل الخامس ﴾ آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم وفى المستقبل

﴿ الفصل الأول في منافع الشمس وما يستخدمه الناس في أمرها غدا ﴾

(١) إن الشمس بها تكون البخار فيصير سحابا فمطرا فتكون النبات والحيوان

(٢) إن الفحم الحجري المطمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس وهاهو الآن تجري به المركبات وتسرع الحركات

(٣) بالشمس كانت الرياح اللاتي تجري بها السفن والمطاحن إن الشلالات بها تستخرج الكهرباء والشلالات وما أشبهها نتائج الشمس لأن منبع الأنهار سببها الشمس

(٤) وكل محرك كهربائي لا يسير إلا بوقود وقوة والقوة أصلها من الشمس

(٥) وقد تحيل العلماء أن الشمس في المستقبل ستجعل لها زجاج بلوري تجمع الأشعة ثم توزعها ومعنى هذا أننا ندل أن نرجع الى ما خزن من حرارتها قديما في الفحم المطمور في باطن الأرض سنجد مباشرة لنفس الضوء بآلات خاصة وتجربة ونستعمله أي أننا نأخذ ضوء الشمس مباشرة بدون تلك الوسائط المتعددة التي صنعها الله لنا لضعفنا وجهلنا ، أما الآن فالعلم يفتح لنا كل مغلق وهذا هو الرسم الذي تخيله الناس فليه من مجلة «كل شيء» (انظر شكل ٥ في الصفحة التالية)



(الشمس مصدر كل قوة فى الارض)

هذا الرسم يبين أهمية الشمس للبشر وكيف انها المرجع الأصلى لكل القوى التى نستخدمها على وجه الأرض ، وقد رسمت الشمس فى الوسط ورسمت حولها بعض الأشكال التى نستخدم بها قوتها أى الاجهزة التى تستمد قوتها من الشمس

(٥ شكل)

(١) آلة لاستخدام أشعة الشمس فى المستقبل وهى صورة تخيلية

(٢) الأحياء كلها تستمد قوّتها من الشمس إما مباشرة أوغير مباشرة

(٣) الفحم ليس إلا نباتا مطمورا والنبات انما تحييه الشمس

(٤) الشمس تسبب حركة الرياح فتستخدم فى المطاحن وفى السفن

(٥) الشلالات والأنهار انما نشأت عن تبخر المياه وسقوطها مطرا

(٦) الحركات الكهربائية لاتسير إلا بوقود أى بقوّة مستمدّة من الشمس

﴿ ايضاح الصورة المتقدّمة ﴾

تكثر الصحف هذه الأيام من ذكر القلق الذى ينتاب العلماء بشأن نفاد الوقود ، فالبترول والفحم سينفدان عن قريب ، وقوّة المياه الساقطة محدودة ، أماقوّة الرياح والمد والجزر فلم يمسها أحد إلا قليلا ولذلك يكد العلماء قرائحهم لابتكار طريقة للانتفاع بقوّة الشمس مباشرة ، فكل مافى الأرض من قوّة مخزونة ماضية أومستقبلة مرجعه الى الشمس وحدها ففى

(١) رسم يمثل آلة لتوليد القوّة من الشمس رأسا وبها زجاج بلورى يجمع الأشعة ثم يوزعها ، والرسم خيالى لأنه لم يتحقق للآن ولن يتحقق إلا فى زمن بعيد جدا وفى

(٢) صورة حارث يحرث الأرض ، فكل مافيه وفى الأشجار والثيران من قوّة مستمد من الشمس فالشجر يختزن قوّة الشمس بواسطة ورقه وحياة الحيوانات كلها متوقفة على حياة النبات والنبات لايمكنه أن يعيش بدون ضوء الشمس . وفى

(٣) يرى القارئ صورتين العليا تمثل الأشجار القديمة والزواحف المنقرضة . وهذه الأشجار قد طمرها التراب فصارت الآن فحما ، فمصدر القوّة فى الفحم هوالشمس أيضا لأنها هى التى أنبتت نباته . وفى

(٤) ترى مطحنة هوائية وسفينة وكلتاهما تستغل الرياح والرياح لاتتحرك إلابفعل الشمس التى تسلط أشعتها على بعض الأماكن فيخف الهواء عند مايسخن ويرتفع فيأتى غيره مكانه فتتولد الريح . وفى

(٥) يرى القارئ شلالا ينتفع بسقوط المياه منه فى توليد الكهربائية وقوّته تعزى أيضا الى الشمس التى هى سبب تبخر المياه وتكوين الأمطار والأنهار . وفى

(٦) يرى دينامو كهربائى ولده البخار الذى تولده الشمس أيضا فهى التى أوجدت الوقود لايجاد البخار وبهذا تمّ الكلام على الفصل الأوّل

﴿ الفصل الثانى فى بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه مقصدان * المقصد الأوّل . آراء العلامة ابن خلدون فى التضييق على المتعلمين فقد عقد فصلا عنوانه ﴾

(فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرّة بهم)

قال ، وذلك ان ارهاف الحد فى التعليم مضرّ بالمتعلم سيما أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أوالمماليك أوالخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا الى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الايدى بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك . الى أن قال وفسدت الجبة والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره ، ثم أخذ نقيس الأمم على الأفراد وضرب مثلا باليهود وانهم يوصفون فى كل أمة وعصر بالحرج والتخابث والكيد ومنه ماتقدم ، ثم أخذ ينصح المعلم أن لايستبد بالمتعلم ونقل من الاستاذ محمد بن أبى زيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين انه لايزيد فى الضرب عن ثلاثة أسواط ، وهنا ذكر موعظة عمر وخطاب الرشيد للأحمر معلم ولده وقوله له يا أحمر إن أمير المؤمنين الخ

هذا ما قصدت نقله من مقدمة العلامة ابن خلدون وهو وان لم يكن فيه نص على الهواء والشمس اللذين نحن بصدد الكلام عليهما لمناسبة الآية ففيه ذكر العناية بالمتعلمين وان فى اذلالهم بوضعهم فى حجر ضيقة ومنع الهواء والشمس عنهم ضررا أشدّ وذلا أعظم من الضرب وهذا هوالذى صرّح به المستر (مان) الذى انتدبته وزارة المعارف المصرية أثناء طبع هذه السورة من علماء النفس والتعليم فى بلاد سويسرا وهو الذى عقدت له

﴿ المقصد الثانى ﴾

فان وزارة المعارف كلفته أن يضع تقريرا وافيا عن التعليم فى مصر بجميع فروعه ، فمن حسن حظ هذا التفسير انى اطلعت على ما كتبه فى هذا الصدد فرأيته يقول ﴿ لقد رأيت مدارس كثيرة فى نفس بلاد الريف والجوّ حول المدارس حسن جيل والمزارع تحيط بهم والتلاميذ مع ذلك لاتبدو عليهم ملامح السرور فكأنهم محبوسون وقد حرموا من الهواء والشمس ، ونصح المعارف أن تجعل الشمس والهواء يحيطان بهم وأن يجعل لهم حرية فى الذهاب والإياب وأن يشعرهم المعلمون بأن لهم كرامة الخ واقترح أن المعلمين يذهبون بهم أحيانا الى الخلاء فى الشمس والهواء و يعلمونهم هناك ﴾ اه

أفليس هذا من العجب ، أنى بعد أن أحضر صورة المدرسة الفرنسية أطلع على التقرير أثناء ترجمته فأجده يصرّح باخراج التلاميذ الى الخلاء فى الشمس أحيانا . أليس هذا من التأييد لهذا التفسير . ومعلوم أن جميع مدارس أوروبا تنحو نحو الخلاء والشمس والاستقلال

﴿ الفصل الثالث فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم و يقصر أعمارهم ﴾

إن هذا الموضوع مناسب لما قبله مرتبط به ، ذلك أن العلامة (فنلند) ألف كتابا موضوعه «إطالة العمر» فقد قال هو وغيره ﴿ إن الكلب يبلغ تمام نموّه فى سنة ونصف ، والحصان فى ثلاث سنين وهكذا لكل حيوان زمان يتم نموّه فيه ومدة تمام النموّ المذكورة تبلغ ثمن عمره اذا لم يقتل بسبب آخر ، فيعيش الكلب (١٢) سنة و يعيش الحصان (٢٤) سنة ويقاس عليهما بقية الحيوانات ﴾

ثم قال هو وغيره ﴿ إن نهاية نموّ الانسان تكون فى (٢٥) سنة و بضربها فى (٨) تكون مائتى سنة والسبب الذى منع عن الناس طول عمرهم انهم لايعيشون بالبساطة والقناعة والاعتدال بل يفرطون فى كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعى ومن ذلك العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزى . أنا لست أقول هذا الكلام حق من كل وجه . كلا . وانما أقول علينا أن نعتدل لتصح أجسامنا ، وقد ذكر أن (هنرى) عاش (١٦٩) سنة وهو انجليزى و (جون بافن) البولندى عاش (١٧٥) سنة و (يوحنا) النورويجى عاش (١٦٠) سنة و (طوزمابار) عاش (١٥٢) سنه . وهناك رجل زنجى يعيش الآن وعمره (٢٠٠) سنة اه

﴿ الفصل الرابع فى الكلام على الرحمة ﴾

يقول الله تعالى ــ ومن رحمته ــ الخ . معلوم أن أوّل السورة ــ بسم الله الرحمن الرحيم ــ والمسلم فى كل صلاة يذكر الرحمة عشرات المرات ، فالرحمة تكرر فى كل زمان ومكان . يقول الله ــ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ــ الخ فهذه الشمس المضيئة التى جرت بها الأنهار والرياح والسحاب واخضر الزرع وعاش الحيوان والانسان وجرت السفن والقطرات والكهرباء وبها كانت الأصباغ المخترعة الكثيرة التى تفتخر بها الغادات فهى كلها من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم فى آخر (سورة النمل)

فهذه الشمس ومنافعها التى لا حصر لها من بعض رحمته . ومعلوم من حديث الصحيح أن الرحمة فى الأرض واحدة نشأ عنها هذه السعادة فى الأرض والرحمة بين الأمهات وذرّيتها والآباء وأبنائهم فى الانسان والحيوان وهذه الرحمة واحدة من مائة رحمة أخرها جميعها للناس فى عالم آخر بعد فراق هذه الأرض

﴿ الفصل الخامس آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم ﴾

إن الأمم الاسلامية فى الأكثر اليوم ليس عندها إلا الكتاتيب المعدّة لحفظ القرآن وهى فى أكثرها أشبه بالمقابر قذرة لاضوء فيها ولاهواء إلا قليلا وهذه مضرّة بالمتعلمين باجماع الأمم . فقال صديق العالم هل تظنّ أن المسلمين يقنعهم هذا القول ؟ هذا يقنع الراقين منهم لأنهم يعلمون اتساع ديننا . أما الأمم المتأخرة منهم فانها لاتثق إلا بما يرد عن المتقدّمين . فقلت أذكرك بما ورد أن النبى ﷺ كان يوحى اليه وهو سائر فى الغزوات ومتى نزلت عليه آيات أوسورة اجتمع القوم أوّلهم فى الطريق وآخرهم وهو على دابته يقرأ لهم مانزل عليه ﷺ فهاهو ﷺ ألقى عليهم الدرس فى الشمس والهواء الطلق . أفليس هذا يكفيك أن تعرف أن جلوس المسلمين فى الهواء الطلق موافق للسنة النبوية . ومن عجب أن الحج فيه الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة وهكذا جميع أعمال الحج . وترى الحاج قد امتنع عن كل زخرف فى هذه الحياة ولايلبس المخيط وانما يلبس إزارا ورداء ، فكيف كان الحج على هذا النمط ؟ نعم هذا أمر تعبدى . نحن لا ننكر ذلك ولكن هذا التعبدى ظهر بعض سرّه اليوم . الله أكبر . يتجرّد الحاج من المخيط و يقف عارى الرأس تحت الشمس المحرقة يوم عرفة و يهرول بين الصفا والمروة . أليست هذه مبادئ ستبنى عليها أمم بعدنا سعادة للانسانية غير هذه الحال . إن آدم أكل من الشجرة والقرآن والتوراة وغيرها صرّحت بذلك وعصيان آدم ربه نزل به القرآن فهومع صحته يرمز به لحالنا نحن . فهاهى ذه الأعمار قصرت لانحراف الناس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم وفى طمعهم وفى شرههم ولذاتهم فهلكوا سريعا

إن بنى آدم باجماع الأطباء انحرفوا عن سواء السبيل فى أحوالهم النفسية والجسمية ، فرأينا الصحابة رضى الله عنهم يأكلون الخبز غير منخول زهدا فى الدنيا ، ولكن العلم الحديث اليوم أثبت أن هذا صحة لأبدانهم ، وهاهى ذه الأمم تنحو نحوهم طبيا لا زهدا ، ومثلها مسألة الحج فهى لنا تعبد ولكن من الذى تعبدنا ؟ الذى تعبدنا هو الله . ولما نظرنا وجدنا أن الأمم اليوم تستشفى بالشمس (انظر ماتقدّم فى سورة الشعراء شكل ١٠) فانك ترى الفتيات فى الشمس يستشفين بنورها ، ثم انظر المدرسة الفرنسية فى هذه المقالة التى ترى تلاميذها مكشوفين للشمس . إذن البساطة فى الحج من حيث الملابس وظهور بعض الجسم للشمس هو أوّلا عبادة مقدسة وثانيا هو مبدأ يتخذ للشفاء والصحة والقوّة والعلم وهذا ضد الترف المهلك للأمم ونفس الهرولة بين الصفا والمروة مبدأ يقاس عليه الحركات التى تقوّى الأجسام وهذه كلها حكم غير حكمة العادة المقدّسة العالية . ألست ترى أن تقليل الملابس وكشف بعض الجسم للشمس وترك الترف هو هذا الذى يحبه النوع الانسانى الآن ليسعد بالحياة وتصح أجسامه . إذن الحج من فوائده فتح باب التجرد من أمور الزينة والشهوة لتصح الأجسام ومنها فتح باب الرياضة البدنية وأيضا اجتماع الناس فى مكان واحد ولبسهم ملابس متماثلة رجوع بهم الى الفطرة الأولى وفيه اشارة الى انكم أيها الناس جميعا يجب أن تتعارفوا وتتركوا الترف والنعيم وهذا الترك هو الذى يجمعكم واللذات تفرّقكم ، والصوم يلحق بالحج لأن فيه ترك الأكل وأما الصلاة فهى درس اجمالى لجميع العلوم كما أوضحته فى بعض هذا التفسير ، الصلاة مبدأ العلوم والزكاة مبدأ المودّات بين الأمة والحج مبدأ المساواة العامة وصحة الأبدان وهكذا . انتهى نصف الليل ليلة الأربعاء ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٩ وبهذا تمّ الكلام على القسم الثالث من السورة

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ

بالعصبة

بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ * وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *

هذا القسم تطبيق على ما تقدّم من أقسام السورة راجع اليها متمم لها مكمل لمقاصدها منبه لما ترمى اليه ، ابتدأ الله السوره بما يأتى

(١) بذكر أن فرعون علا فى الأرض وأنه من المفسدين

(٢) ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأوّل وهلاك الثانى وقومه

(٣) ثم أردفه بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخربت ديارهم

(٤) ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا

ذلك ملخص السورة ، ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه وقد كثر ماله فأبطره الغنى ونسبه الى علمه وتكبر على قومه وانقسم الناس فى أمره ﴿ قسمين ﴾ قسم العلماء وهؤلاء حقروا زينته وماله وقسم الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ما أعطى قارون ، فلما وقعت واقعته وانشقت سماء مجده فكانت واهية وسقط قارون فى الهاوية عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثه وأدركوها بتلك الكارثة وأما أهل العلم فلم تزدهم إلا ثباتا ،

إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد ﷺ وكفار قريش فقرعون كقارون وكأهل مكة لما طغوا وأسرفوا واستكبروا وتدمير قارون وماءلك كتدمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش . لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها ﴿ اثنان ﴾ العالون فى الأرض والمفسدون وينالها من تنزهوا من هذين وهذا نظير ما فى أوّل السورة ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ الى قوله ـ من المفسدين ـ فهنا يقول الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين وتجرّد من الأمرين وفاز بالحسنيين التواضع واصلاح الأرض . ثم ختم السورة بأن كل شئ هالك إلا ما كان على نسق يرضاه الله كما كان موسى ومحمد ﷺ والذين أوتوا العلم مع فرعون وقريش وقارون ، وملخص ذلك أنه لا آخرة إلا لنبى أوحكيم أوعالم أومتبع سنتهم . فهؤلاء هم الذين لا يريدون علوّا فى الأرض ولا فسادا فكأن السورة فى هذا القسم لخصت مرّتين مرة فى قصة قارون ومرة فى قوله ـ كل شئ هالك إلا وجهه ـ فى آخر السورة . اذا عرفت ذلك فلنشرع فى

﴿ تفسير الألفاظ ﴾

قال تعالى (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه (فبغى عليهم) طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره وتكبر عليهم وظلمهم (وآتيناه من الكنوز) الأموال المدخرة (ما إن مفاتحه) أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وأما ما يفتح به فهو بكسرها وما بمعنى الذى منصوب والجملة صلته (لتنوء بالعصبة أولى القوّة) أى لتثقل العصبة ، فالباء إذن للتعدية ، يقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والقوّة الشدّة ، وقوله (إذ) متعلق بقوله (قال له قومه) المؤمنون ونبيهم موسى عليه السلام (لا تفرح) لا تبطر بكثرة المال كما قال تعالى ـ ولا تفرحوا بما آتاكم ـ وكيف يفرح الناس بما أوتوا وهم زائلون من هذه الأرض (إنّ الله لا يحبّ الفرحين) بزخارف الدنيا لأنهم قوم غافلون ، ثم أبان المقصود من المال فى هذه الدنيا فقال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تكون أبا لأمتك ناظرا فى شؤنهم مرقيا لهم حافظا لكرامتهم حريصا على اسعادهم بحيث يكون مالك معينا لفقرائهم مرقيا لهم (ولا تنس نصيبك من الدنيا) لأنك واحد منهم والمال مال الله والخلق عياله ، فليس معنى انفاق المال للناس أن تنسى نفسك . كلا . بل ابدأ بنفسك فاذا نسيت نصيبك من الدنيا فأنت مذنب لأنه لا معنى لإحياء نفوس الناس واماتة نفسك واصلاح حياتهم وفساد حياتك ، ولما قرّر هذه الحقيقة أخذ يتمم تحريضه على الاحسان فقال (وأحسن كما أحسن الله اليك) لأن ما لديك من المال والقوّة والعلم ليس منك وانما هو من الله وكما أن ضياء الشمس والكواكب من الله خلقه فاض الى خلقه منفعته هكذا ما أنعم الله به عليك فهو من الله والى عباده ومنهم نفسك (ولا تبغ الفساد فى الأرض) بالظلم والبغى (إنّ الله لا يحب المفسدين) لسوء فعلهم فأجاب قارون ناسيا أن الله هو الذى وهبه هذه النعم مدّعيا أنه استحقها بقوّة فطنته وذكائه وعلمه (قال انما أوتيته على علم عندى) فضلت به على الناس واستوجبت به التفوّق عليهم فى المال والجاه أى انما أوتيته حال كونى على علم كائن عندى كعلم التجارة والكيمياء ، ولاجرم أن العلوم كلها كشجرة ذات أغصان وفروع فمن اقتصر على أحدها أغرم به وجهل سواه ، وما مثل الناس إلا كمثل قوم عمى أمسك كل بجزء من الشجرة فقال أحدهم إن هذه الشجرة ناعمة رائحتها طيبة وهو قد أمسك بالزهرة وقال آخر إن هذه الشجرة خشنة مدوّرة وقد أمسك بالجدع وقال ثالث إن هذه الشجرة رقيقة كورق الكتابة كثيرة القطع معلقة فى سقف مربوطة بحبال دقيقة يريد الورق وهو متصل بفروع دقيقة هكذا العلوم من قرأ منها علم التجارة أوعلم الكيمياء على فرض استخراج الذهب به فانه يغرم به ويقول انما العلوم لجمع المال وهو المقصود وماعداه فجهالة . ومن قرأ علم الزهد والتصوّف احتقر المال وتعلق بأسباب الكمال وتهذيب النفس وههنا قارون كان من القسم الاوّل وكلا الفريقين فى نقص مشين فلابد من معرفة سائر العلوم معرفة اجمالية ثم التفرغ لواحد منها ولا يكون العلم تاما كان قارون

يحفظ علما واحدا و يجهل سواه فيعيش ناقصا وحيدا لأن ذوقه لا يطابق أذواق الناس فيصبح عالم التجارة عدوّ صاحب تهذيب الأخلاق ويكون الناس فى تقاطع ، فعلى الناس أن يقرؤا سائر العلوم فعلم الزهد لابد منه لذى المال حتى لا يكون أحدهم مغرما بالمال فتضيع حياته سدى ولذلك رحمه الله فقال لماذا عرفت علوم الدنيا وتركت علوم الآخرة والدنيا والآخرة لى ، هلا قرأت العالمين (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشدّ منه قوة وأكثر جمعا) للمال أى أغره علم المال فافتخر به وجهل علم تواريخ الأمم الغابرة والقرون البائدة وكم فيهم من كانوا أكثر منه مالا وأعزّ نفرا فهلكوا

فقل لمن يدّعى علما ومعرفة * حفظت شيأ وغابت عنك أشياء

ولذلك يقال « البلاهة خير من الفطانة البتراء » فهؤلاء جميعا واقعون فى الهلاك محكوم عليهم بالاعدام لافرق بين الأولين و بين الآخرين ومنهم قارون انهم يهلكون بذنوبهم لأن الله عليم بظواهر ذنوبهم كما هو عالم ببواطنهم فيهلكهم (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وكيف يسألون وأمرهم عنده معلوم ، ثم أعقبه بذكر بعض ذنوبه ليعلمنا الله كيف تكون الذنوب الكبائر والموبقات كامنة فى مظاهر لا يفطنها الناس إثما ولا يعتقدونها ذنبا بل تلك المظاهر أحوال عادية وأمور مباحة مظاهرها رحمات و باطنها زلات بل أعظم الزلات فياليت شعرى أىّ شين وأى إثم فى قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) وماذا فعل ؟ يقال انه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الارجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الارجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهنّ الحلى والثياب الحمر وهنّ على البغال الشهب ، ولا حاجة الى نقل أقوال غير هذا لأنها عبارات متقاربة وانما المقام مقام هذا السؤال أى ذنب فى هذا وهل ظهور الانسان مع نسائه ومع الفرسان وعليهم ملابس جميلة حرام ، إن هذا ليس بحرام إلا اذا كان هناك بعض ملابس محرّمة وهذه الملابس حرمتها من الصغائر . إن هذا المظهر مظهر مباح فما ذنب قارون إذن ؟ ولماذا يذكر ذلك المظهر بعد قوله ــ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ــ وهل اذا تمنى الجهال مثل ذلك الجمال والزينة إذ (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) من الدنيا ، هل هذا ذنب لقارون وانما هؤلاء لجهالتهم تمنوا مثل قارون كما نرى ونسمع فى كل قرية و بلدة وضيعة هذه العبارة بعينها حتى ان الرجل والشاب والمرأة والفتاة ليقول كل منهم ياليت لى مثل ما أوتى فلان وفلانة على أى نعمة كثوب جميل أودابة يركبها أو بهيمة يأكل لبنها أومزرعة يحصد غلتها وما أشبه ذلك ، إن هذه عادة جميع أهل الأرض فى زمن قارون وقبل قارون و بعد قارون ، فما ذنب قارون إذن ؟ نعم ذنبه ظاهر فى الآية إذ قال تعالى ــ فبغى عليهم ــ وسيأتى ما فعله من أنه برطل المرأة الباغية لتتهم سيدنا موسى ، فهذا بعض البغى منه ولذلك ذمّه الله وخسف به وبداره الأرض . أقول ولكن ذكر خروجه على قومه فى زينته لابد فيه من أمر خفى والافلماذا يذكر بعد ذكر هلاك الأمم وأن المذنب منهم لا يسأل عن ذنبه كما قال تعالى ــ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ــ والجواب على ذلك ، ان من الذنوب ذنوبا باطنية وقال علماؤنا رحمهم الله انها أشدّ فتكا بالانسان من الذنوب الظاهرية . إن الله لم يذكر فى القرآن إلا انه بغى على قومه وانه ــ قال انما اوتيته على علم عندى ــ وانه ــ خرج على قومه فى زينته ــ ولم يذكر ماسأقصه عليك مما نقله المفسرون عن بنى اسرائيل من أمر المرأة وغيرها ، فلنبحث فى هذا الذى جاء فى الآية . إن فيه لكبائر الذنوب مثل الكبرياء والاعجاب والتعالى على الناس . فهذه وأمثالها ذنوب كبائر و يقول علماؤنا انها هى المهلكة . إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال واما أن تكون من أضلها فاذا كانت لاظهار مجد الأمة وقهر عدوّها وكسر نفسه واظهار العظمة الدينية والقومية فهى جهاد فى سبيل الله . فأما اظهارها لاذلال النفوس وكسر القلوب والتعالى على الاخوان وأبناء البلاد فذلك تفريق للكلمة واظهار للعظمة فى غير موضعها فان الناس اخوانه ومتى تعالى عنهم خفضهم فلا جامعة بينهم ولا رابطة تربطهم

فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم وفى الآخرة بجهنم . فظاهر قارون كانت من القسم الثانى قصها الله ليعلم المسلمين و يقول لهم لتكن نفوسكم شريفة وإياكم أن تطغوا انما نظرى لقلوبكم لا لصوركم ، فكم مظهر نعمة يريد بها التعالى والتفاخر ، وكم مقيم زينة وصانع وليمة أو عرسا أو مأتما وهو فى ذلك كله كقارون ، ليست هذه المظاهر عند كثير من الناس إلا ليظهروا بها الكبرياء والتعالى على الناس واظهار العظمة — من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها و باطل ما كانوا يعملون — إن هذه الآية وردت فى المرآتين ، ففعل قارون وأمثال قارون من كل ذى مال ولوقل فى الأمة الاسلامية يدخله الرياء والاعجاب بالنفس والكبرياء والتعالى على الأقران وهى هى المهلكات المزعجات قال تعالى — أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق و بما كنتم تفسقون — هذا هو القرآن وهذا كلام الله وأكبر مصيبة حلت بالاسلام أن الذنوب الباطنية لم تذكر فى مدارس التعليم واكتفى الناس بالأحكام الشرعية الظاهرة وظنوا أن التعليم فى البواطن خاص بالمجاذيب والصوفية وهذا من أكبر عيوب التعاليم الاسلامية . إن هذا هو السبب فى أنك ترى بعض المسلمين فى الاكتتابات العامة النافعة لايساعدون ، وترى الناس يصرفون أموالهم فى الزينة والزخرف والسفر الى أوروبا للنزهة والرياضة ومصر التى هى بلادى يسافر منها كل سنة نحو خمسين ألفا يصطافون فى أوروبا ، وترى الناس فى المآتم والأعراس يدفعون أموالا كثيرة ، كل ذلك لأن التعاليم الاسلامية اليوم لم تدخل القلوب . إن التعاليم الاسلامية انما قصرها الناس على ظواهر الأجسام وتركوا القلوب فارغة لاعلم ولارحمة ولااحساس إلا ماجاء عفوا و بدون قصد . فأما تربية الوجدان فانها متروكة للأهل والأقارب والبيئة . إن المسلم اذا سمع هذه الآيات يقول انها فى الكفار فأما أنا فيكفيني الاسلام وهذه أكبر خطر . يقول المسلم « مادمت لا أوذى أحدا ولاأسرق ولاأزنى فأنا لاذنب على » وهذا هو الخطأ الفاحش والذنب العظيم . إذن أين أمثال هذه الآيات ولم أنزل القرآن . إن استتار المسلم بالدين واحتجاجه به وقوله إنى مسلم وانما هذه الآية واردة للكفار هو الذى أوقع الأمة فى الجهل وضياع المال والبذخ والزينة والاسراف نخسف بنا و بدارنا الأرض خسفا معنويا وذلا حقيقيا . فلئن خسف بقارون و بداره الأرض فهلك هلاكا حسيا فلقد خسف بنا و بدارنا الأرض خسفا معنويا ، فأينما تول وجهك فى بلاد الاسلام لاترى إلا جهالة عمياء وضلالا ورياء إلا قليلا من ذوى النفوس الشريفة فهم الذين يرجع اليهم وسيومون بنشر أمثال هذه بين المسلمين وسيرجع للاسلام مجده على يديهم ويكونون نورا للمسلمين . إن الله ماقص هذا القصص إلا ليرينا أن أمثال هذه الذنوب كالكبرياء والرياء والتعالى ليس ذنبها فى الآخرة وحدها بل شؤمها يحصل فى الدنيا كما حصل اليوم للمسلمين ، هذا فى ضمن قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) بأحوال الدنيا والآخرة لأولئك المتمنين (ويلكم) دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لايرضى كيف تتعالون بالزينة وتفخرون بالحلة (ثواب الله) فى الآخرة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتى قارون ومن الدنيا ومافيها (ولايلقاها) أى المثوبة أو الجنة والعمل الصالح (إلا الصابرون) على الطاعات وعن المعاصى و بذلك الصبر وحفظ الشهوات يصرفون مالهم لوجه الله وللأعمال العامة ويكونون قدوة صالحة و يرفعون أممهم ويحفظون مجدها ويعملون مالهم لاسعاد أمتهم فينالون بذلك الصبر الثناء فى الدنيا وحب الناس وفى الآخرة يدخلون الجنة فانه لا آخرة إلا على حسب الدنيا . إن النفوس الانسانية مصروفة الى الهوى والشهوة والعادات الموروثة والامور المحسوسة . انظر الى المصلى انه يريد ان يوجه قلبه فى الصلاة لله وللذكر وللقراءة وللمعانى فلاتطاوعه نفسه وتنصرف الى أمورتهمها . هذا طبيعتها [illegible] مرة بعد مرة قرت وتمت وتذكرت ثم يصير ذلك عادة جديدة ثم يستلذ بها هكذا فى المال [illegible] النفس الى الزينة واظهار الشرف والغنى والجاه والثروة فاذا وجدت من يفهمها أن المال ليس [illegible]

الدين

الدين وشريف العواطف ويذكرها مرة بعد أخرى صار ذلك عادة لازمة واستلذ بها لذة دائمة ويسمع ثناء الناس عليه والآخرة خير وأدوم . إن انجاه قلب المصلي بعد شموسه وجماحه وشروده وانقياده بعد نفوره للحضور في الصلاة وصرف ذي المال ماله للمحتاجين وللمنافع العامة بعد ريائه وكبريائه وجهالاته لم يكن إلا بالصبر . إن ردع النفس عن طبعها لا يكون إلا بالصبر عن المألوف والبذل في المعروف . هذا معنى قوله تعالى — ولا يلقاها إلا الصابرون — ولاجرم أن قارون لم يكن منهم ككثير من أمثاله من أغنياء الأمة الاسلامية الآن بل انه استعان بالمال على إهانة قومه وعصيان ربه ككثير من أغنياء المسلمين الآن وقد ذكر المفسرون منها ما يأتي

(١) أوحى الله الى موسى أن مر بني اسرائيل أن يعلقوا في أرديتهم خيوطا أربعة في كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكروني به اذا نظروا الى السماء ويعلمون أني منزل منها كلامي فامتثل بنو اسرائيل وتكبر قارون وقال هذا فعل الأرباب لعبيدهم

(٢) جعل الله الحبورة لهارون وهي رئاسة المذبح فكان بنو اسرائيل يأتون بقربانهم الى هارون فيضعها في المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فحسد موسى وهارون وقال أنا أقرأ التوراة وأنت تنال الرسالة وهارون الحبورة ولست في شئ من ذلك فأقام له موسى الحجة أن هذا من الله فعدها سحرا . ذلك أن القوم وضعوا عصيهم في قبة وحرسوها طول الليل فأورقت عصا هارون ولم تورق سواها من العصي فقال هذا سحرك المعهود ولكم سحرت قبل هذا

(٣) أمره بالزكاة فلما جمعها استكثرها وعصى ولم يعطها

(٤) أراد أن يفضح موسى بين بني اسرائيل فبرطل بغيا لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا فقال من سرق قطعناه ومن زنى غير محصن جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه فقال قارون ولو كنت أنت قال ولو كنت أنا قال إن بني اسرائيل يزعمون انك فجرت بفلانة فاستحضرت فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق فقالت جعل لي قارون جعلا على أن أرميك بنفسي فخر موسى شاكيا منه الى ربه فأوحى اليه أن مر الأرض بما شئت فقال يا أرض خذيه فأخذته الى ركبته ثم قال خذيه فأخذته الى وسطه ثم قال خذيه فاخذته الى عنقه ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع اليه في هذه الأحوال فلم يرحمه فأوحى الله اليه ما أفظعك استرحمك مرارا فلم ترحمه وعزتي وجلالي لو دعاني مرة لأجبته ثم قال بنو اسرائيل انما فعل ذلك ليرثه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله

إن ذلك كله كان نتيجة عدم صبره أي انه لم يكبح جماح نفسه عن رعونتها وميلها الى الكبرياء والشهوات والقرآن لم يجئ فيه هذا التفصيل وليس فيه إلا قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض) مرشدا بذلك المسلمين أن يصرفوا هواهم عن التعالي والكبرياء والتعالي في الزينة لئلا يخسف بهم وبمالهم الأرض كما حصل الآن فقد أصبح مالهم تحت تصرف غيرهم من الأمم المحتلة وذلك لجهلهم وقلة علم وعاظهم إلا قليلا فصرف الناس أموالهم وعقولهم في الرياء والمباهاة وجهلوا المقصود من المال ومن الحياة فضاعت بلادهم وهذا هو الخسف العظيم ، وأي شئ خسف قارون وداره ؟ الخسف الآن خسف الأمم بتمامها ، يدخل جيش الأعداء القاهر في بلدة من بلاد الاسلام فيصبح الناس عبيد الغاصبين وضحية الطامعين ، ذلك هو الخسف الأكبر ، خسف أمة لا خسف فرد ، فليخسف الفرد ولتبق الأمة ، أما الأمم الاسلامية الحديثة فانها ابتليت بخسف الأمم والأفراد والجهل كثير من الوعاظ العافلين الساهين النائمين الجاهلين ، الخسف حتم لكل مراء وباغ وجاهل بمقاصد المال ومقاصد الصحة والعلم ، يخسف بهم سواء أكانوا أمما أم أفرادا كقارون (فما كان له من فئة) أعوان (ينصرونه من دون الله) فيدفعون عنه عذابه (وما كان من المنتصرين) الممتنعين منه يقال نصره من عدوه فانتصر اذا منعه منه فامتنع . وكيف يكون له معين . وكيف يكون للأمة الغافلة ناصر

وهووهي قد فرطوا في قواهم وأضاعوا مجدهم وخربوا بيوتهم بأيديهم . إن النصر للصابرين . إنما النصر نتيجة الصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول وجعل ذلك كله للفضائل والمنافع العامة

﴿ ضرب مثل لحال المسرفين في مالهم بالمسرفين في مآكلهم ﴾

أضرب لك مثلا يوضح لك السابق كله لتعلم أن هذه الآية لم تنزل في القرآن ليتعجب الجاهل من قارون كيف خسفت به الأرض وكيف كانت البغي لم يغرها المال بل نطقت بالحق وهو براءة موسى وأشباه ذلك . كلا . إن هذه القصص جاءت لحقائق علمية ومعاني قدسية وحكم عقلية وآيات عمرانية وعجائب نظامية وسعادة اسلامية للمسلمين في مستقبل الزمان * قال أطباء هذا العصر من الفرنساويين والألمان وغيرهم ﴿ إن الذين يتعاطون اللحم والبيض واللبن وأمثالها من كل ما فيه غذاء كثير التغذية تقوى أجسامهم وتحمر وجوههم ويحسدهم أقرانهم لأن المواد الغذائية في هذه الأصناف الثلاثة قوية فتدخل في نسيج الجسم وخلياته بقوة فتملؤها فيظهر ذلك على الوجوه والأعضاء وتحمر الخدود وتقوى الجسوم . وهناك فريق ثان ضعيف البنية منهوك القوى قد أضر به المرض فظهر في جسمه القروح والبثور والعوارض الكثيرة وهو يئن من المرض ولا يقوى على هضم الطعام أحيانا ، فيقول الناس اذا رأوا الأول قائما بينهم هاشا باشا ياليتنا كنا مثله ويحسدونه على ما آتاه الله من قوة الجسم والبدن والجمال والحسن وبينما الناس على هذه الحال اذا ذلك القوي المتين خر صريعا في يوم أو بعض يوم ، أما ذلك المريض الضعيف فانه كثيرا مايعيش بعد ذلك سنين وسنين وهذا أمر عجب ، الغذاء حسن جيل مقو فهل المقوى ضار ؟ وماذا يصنع الناس ، فأجاب هؤلاء الحكماء قائلين اعلم أن الرجل القوي الجسم كان ضعيفا والضعيف الجسم كان قويا لأن القوى الجسم لما أكل هذه المواد الدسمة وامتلأت به أنسجة جسمه ولم ترحم تلك الأنسجة ولم تشفق عليها ولم تكن كالأغذية الواردة عليها من المواد النباتية والفواكه والحبوب ، تلك الأغذية التي تدخل تلك الأنسجة بلطف وتؤدة لأنها ليست كثيرة التغذية بل قوة الغذاء مصحوبة بمواد أخرى تحول بينها وبين تلك الأنسجة فلا ترهقها كما أرهقها أمثال اللحم وما معه

أقول لما حصل كل هذا في جسم ذلك القوى ظاهرا وامتلأت الأنسجة بالمادة الغذائية احتاج الجسم أن يخرج الفضول ويستريح مما زاد عن قوة الأنسجة الممتلئة فلا يجد لذلك سبيلا فامتلأ الجسم كما يمتلئ النهر بالماء حتى يفيض ولابد من قطع موضع من الجسر ، هكذا ذلك الجسم يتمزق في يوم أو بعض يوم ، أما ذلك الضعيف فان جسمه لما امتلأ كذلك القوى فانه لقوته فتح منافذ سماها الناس أمراضا كالقروح والبثور والأمراض فتخرج الداء من الأجسام ويستريح الجسم وماذلك بداء وانما هو صحة للجسم واخراج للفضلات منه فتكون النتيجة هكذا « المريض قوي والصحيح ضعيف »

هذا هو الذي قاله الأطباء في العصر الحاضر وبنوا على ذلك أن الانسان خير له أن يأكل البقول والفواكه والحبوب وأن يمتنع عن اللحم والبيض واللبن أو يقلل منها ما استطاع لذلك سبيلا . أفلست ترى أن صاحب الثروة الواسعة الذي أسميه قارون في بذخه كذلك القوي الجسم . أولست ترى أن الذي أنفق ماله لأهل قريته ونفع أمته وذلك العالم الذي جعل علمه لأمته أشبه بذلك المريض الذي قوي جسمه على دفع الأذى . ألاترى أن مايظنه الناس انه فقر عند مايعطون المال لمستحقه أشبه بما ظنه الناس مرضا بظهور القروح والبثور فاذن يكون المنفق غنيا والممسك المتباهي بالزينة فقيرا . أوليس هذا أشبه بما في قوله (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالأمس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) يبسط ويقدر بمقتضى المشيئة لا لكرامة تقتضي البسط ولاهوان يوجب القبض فالقبض والبسط كالليل والنهار والصغر والكبر والصيف والشتاء يمران على الصالح والطالح امتحانا لهما واختبارا وتربية من رب العالمين وقد أخطأ الانسان فانه اذا أكرمه الله ونعمه يقول — ربي أكرمن * وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي

أهانن * كلا - ثم كلا إن الأمر امتحان واختبار وتربية ولفظ «وَيْ» للعجب و«كأنّ» للتشبيه أى ما أشبه الأمر - ان الله يبسط - الخ (لولا أن منّ الله علينا) فلم يعطنا ماتمنينا (لخسف بنا) لأنه يحيق بنا ما حاق به فيخسف بنا (ويكأنه لايفلح الكافرون) لنعمه الصارفون لها فيما نفعه قليل ومن هؤلاء المكذبون برسله . أليس هذا هو مايحصل الآن أمام أعيننا فى الدنيا لاسيما فى هذا العصر

(١) ألم تر الى قيصر الروس كيف كان له السلطان التام والقدرة والصولة والعظمة والجاه وقد ملك مقاليد الروس ، وما ادراك ما الروس ، أمة عظيمة قوية تحتها أمم وأى أمم ، مائة مليون أو يزيدون ، فماذا حلّ به لما جاءت الحرب الكبرى ؟ أنزله قومه من على عرشه وذبحوا أبناءه أمامه وأنزلوه بعد ذلك دار الهوان وقتلوه قتلا شنيعا بعد أن أجاعوه وأذاقوه مرّ النكال . أليس ذلك هو عينه ماحصل لقارون والمسرفين فى ما كلهم مخالفين نصح الأطباء ، يحسدهم الناس ويقولون ياليت لنا مثل قيصر انه لذو حظ عظيم ، ياليت لنا صحة مثل هذا السمين الوسيم من الأصحاء ، أفليس الناس بعد انقلاب الأمر على قيصر وحلول المنون بذلك السمين الوسيم يقولون نفس هذا المقال يقولون تتعجب كأن هذه الدنيا دار خدعة ، انظر الى قيصر كيف أبادته الجنود وأهلكه من كان يفتر بهم وذلك لأنه استبدّ بالأمر وخرج على قومه فى زينته وهو يريد الحياة الدنيا والناس كلهم كانوا له كالعبيد . هكذا حصل فى الاستانة وخلع عبد الحميد من ملكه وهكذا كثير من ملوك أوروبا

(٢) أولست ترى أن أولئك الموسرين من مصر وأهل الشام والمغرب وغيرهم من أقطار الاسلام الغافلين عن منفعة المال يتباهون بالدور والعقار والولائم ويتظاهرون بها وقد ركبهم الدين ورهن العقار والفرنجة واقفون لهم بالمرصاد يخربون بيوتهم بالدين وهم غافلون والناس من حول هؤلاء المثرين يقولون ياليت لنا مثل ما أوتى فلان المثرى ، انظروا الى زينته ، انظروا الى قصوره ، انظروا الى الجموع التى جمعها فى عرسه أو مأتمه ثم ينقضّ عليه دائنوه فيبيعون العقار ويخربون الديار ويصبح كأن لم يغن بالأمس . ذلك مشاهد فى كل قرية وبلد وضيعة ولكن الناس غافلون وترى الذين كانوا يحسدونه بالأمس بعد سقوطه يقولون - ويكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر - لولا أن الله لطف لكان جعلنا مثله مغرورين فأصبحنا عبرة وشماتة للأعداء فى الداء العضال . ذلك هو المقصد من قصة قارون ثم ذكر الله نتيجة جميع ماتقدم فقال (تلك الدار الآخرة) الاشارة للتعظيم أى تلك التى سمعت من أنباء الأمم وعرفت وصفها ، وقوله - الدار - بدل والآخرة صفة الدار والخبر (نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض) غلبة وقهرا (ولافسادا) ظلما على الناس كما أراد فرعون وقارون وكفار مكة لما آذوا النبى وأصحابه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) مالايرضاه الله (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلايجزى الذين عملوا السيآت إلا ما كانوا يعملون) أى إلا مثل ما كانوا يعملون ولما كان الصابرون الذين لايفخرون على الناس وتكون أموالهم وحياتهم وقفا على أممهم موعودين بالثواب فى الآخرة أعقبه بما يفيد أن الحظ فى الدنيا والآخرة لهم فلهم الآخرة ولهم الدنيا ، فالذى لايتبع الهوى فى شهوة الطعام له الصحة الحقة والذى يسلك سبيل الانفاق فى المنافع العامة يرى فى الدنيا سعادة لايحلم بها ذلك المسرف المرائى بما يتهيأ له من حب الناس وثنائهم عليه واكرامهم له وتبجيله واعظامه فقال (إنّ الذى فرض عليك القرآن) أى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرادّك الى معاد) دنيوى وأخروى ، أما الدنيوى فانك تردّ الى مكة اذا اشتقت اليها لأنها مولدك ومولد آبائك ، وأما الأخروى فانك ترد الى المقام المحمود الذى وعدت أن تبعث فيه وهذا المقام أنت تحمده ويحمده كل من عرفه ، ولقد تقدّم أن هذا المقام يشير الى ارتقاء العلوم فى هذه الأمة فى مستقبل الزمان كما ارتقت عند أسلافنا ، فهم رفعوا منار العلوم التى هى مناط الحمد كما قدّمناه وسيرفعونه كما أوضحناه . وملخصه أن هذه الأمّة سترقى فى مستقبل الزمان . وملخص ذلك كله أن الذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا وهم منفقون أموالهم فى الخيرات ينالون الخير فى الدنيا والآخرة كما حصل

لرسول الله ﷺ إذ قال له جبريل لما نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة فاشتاق اليها « أتشتاق الى بلدك » قال نعم قال فانّ الله تعالى يقول — إنّ الذى فرض عليك القرآن لرادّك الى معاد — فهذه الآية لا مكية ولامدنية ، ثم قرّر ذلك فقال (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) ومايستحقه من الثواب فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى — وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين — (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى — لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون — والمقصود من ذلك نفسه عليه الصلاة والسلام والمشركون وكذا كل مهتد وكل ضال كما عرفت . ولما كان الصبر على شدّة الكفار ومقاساة الأهوال شديدا على النفوس وقد وعد الله نبيه على صبره على أذى قومه وما يلاقيه من الصعاب أن يردّه الى مكة فى الدنيا والى المقام المحمود فى الآخرة . أكد ذلك بما سبق له من شوقه الى لقاء جبريل ونزول الوحى أيام الفترة فى أوّل النبوّة فلقد كان لشدة وجده وهيامه وغرامه بملاقاة جبريل وتلقيه الوحى منه يكاد يلقى نفسه من فوق الجبل وذلك الشوق جعله الله فى الأنبياء وفى العلماء والحكماء ليكون ذلك أدعى الى صبرهم على مقاومة الأعداء ومقارعة الاخوان ومصادمة الحوادث فانهم لولم يتشوّقوا لتلك المراتب ولم يرتقبوا تلك الفضائل بل أتت لهم سهلة هنيئة مريئة لمجوها اذا أوذوا أولتركوها اذا قهروا فالمشتاق للشئ الذى لج فى طلبه وكرره وهو ممتنع عليه محبوس عنه اذا بلغ مناه بعد اليأس كان أحرص الناس عليه وألزمهم له وأغرمهم به وأحبهم اليه وهذا قول الله تعالى (وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب) أى يوحى (إلا رحمة من ربك) أى ولكن لرحمة من ربك ألقى اليك الكتاب فأنت أوتيت الكتاب بعد الشوق وقطع الرجاء فهانحن أولاء وعدناك بالعز فى الدنيا والمقام المحمود فى الآخرة الآن وقد كنا شوّقناك الى الوحى ومنعناه عنك وقد قطعت رجاءك استزادة لشوقك لتزيد بالكتاب غراما وعليه حرصا حتى تصبر على الأذى وتقاوم المشركين (فلاتكونن ظهيرا للكافرين) أى لاتكونن معينا لهم بمداراتهم والاجابة الى طلبهم وكيف يكون ذلك منك وأنت مانلت هذا الكتاب إلا بعد الطلب القوى والشوق إن ذلك أدعى لصبرك هكذا أكرمناك ودبرنا أمرك — وما كنا عن الخلق غافلين — وهكذا جميع الحكماء والعلماء والمصلحين يشوقون الى المعالى ثم يمنعونها زمانا ليصبروا على ما أحبوا متى نالوا وهذه سياسة الله فى هذا العالم الأرضى إنه لطيف لما يشاء (ولايصدنك عن آيات الله) عن قراءتها والعمل بها (بعد إذ أنزلت اليك وادع الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولاتكونن من المشركين) بمساعدتهم (ولاتدع مع الله إلها آخر) وذلك القول لقطع أطماع المشركين وكيف يصدّونك أو يمالون بغيتهم منك أو تكون أنت معهم ونحن قد أحكمنا أمرك بما ذكرناه فشوّقناك ثم أرسلناك وهذا القول يقتضى أن سياسة الشوق أعظم وسيلة للمنفعة العامة ، فالدعاية والتشويق للأفراد وللأمم والجماعات الى فضيلة من الفضائل هى الداعية للإرادة منها

فعلى المسلمين فى أنحاء المعمورة أن يشوّقوا الشبان الى مجد آبائهم والى حفظ بلادهم والى استخراج ثمرات أرضهم ومعادن جبالهم ويبثون فيهم هذه الفكرة ويحضوهم حضا دائما على ذلك وعلى النظر فى العجائب بذكر بعض جمالها ، وكلما تمنعت هذه المطالب ازداد الشبان بها غراما حتى اذا نالوا بغيتهم استمسكوا بتلك المزايا أجيالا وأجيالا حتى تحور العزائم وتدور الدوائر وتضمحل الأمم وتموت الهمم ذلك يؤخذ من هذه الآيات إذ رتب الله أمره لنبيه بأن لا يعاون الكافرين ولايصدنّ عن آيات الله وان يدعو الى ربه وأن لا يكون من المشركين وألا يتخذ غيره وكيلا على أموره كلها ولايعتمد إلا عليه . كل ذلك رتبه على انه شوّقه الى الوحى وأوحى اليه بعد اليأس ، هكذا فليفعل المسلمون وليقم بذلك المدرّسون فى البلاد الاسلامية ، وقوله (لاإله إلا هو) معروف (كل شئ هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه لأن كل شئ أريد به غير الله فهو هالك ، فكل مالامصلحة فيه كما تقدّم من الأمثلة بقيصر الروس والأغنياء فى الاسلام المسرفين الجاهلين و [illegible]

وفرعون وكفار مكة كل فعل هؤلاء هالك (له الحكم) فصل القضاء بالعدل فيخذل المسرفين المرائين و ينصر الفاضلين العادلين على وجه الحكمة وطريق الصواب (واليه ترجعون) للجزاء بالحق • انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة • وهنا لطائف

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى — فخرج على قومه فى زينته — ﴾

لقد ذكرنا فى هذا التفسير فى سور كثيرة أن التنعم مضعف للأجسام والعقول والهمم ، ومن لطائف الاسلام انه حرم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، ذلك ليقفل باب التنعم الذى يورث القعود عن المعالى ، والأمم لاحياة لها إلا بالرياضة البدنية ومزاولة الأعمال العسكرية ومشاق الجندية لحفظ الثغور ونظام البلاد وقوّة الأجسام وصيانة النفوس والقوى من الضعف • إن السعادة كل السعادة فى ترك التنعم وكثرة الأعمال الجسمية وترك النعيم فانه أدعى للسعادة والهناء والصحة والقوّة وحفظ البلاد

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى — تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا والعاقبة للمتقين — ﴾

إن ذكر هذه الجلة بعد ماقصّ الله من قصص قارون وموسى وماتجلى للناس من أمر المال وانه زائل وأن الذين أوتوا العلم قالوا إن ثواب الله خير الخ ثم خسفت الأرض بالمال وصاحب المال • أقول إن ذكر هذه الجلة بعد ماتقدّم فتح باب لأرقى ماوصلت اليه الحكمة والفلسفة • ياسبحان الله • أليس من العجب أن يكون أرقى الحكماء فى نظر علماء العصر الحاضر والغابر يقولون ﴿ إنه لايصح أن يسمى موجودا إلا ما كان معصوما من الزوال ﴾ ولقد نسمع كثيرا من حكماء القدماء يقولون ﴿ إن الحركة وجودها ضعيف وبرهنوا على ذلك ﴾ فهذه هى القاعدة التى بنى عليها أن العلم لايبنى إلا على ماهو ثابت ، فأما مالاثبات له فلايبنى العلم عليه • ولاجرم أن مافى السموات والأرض كله متغير والمتغير غير ثابت وغير الثابت لايبنى عليه علم فالعلم الذى نعقله مبنى على أمور وراء هذه المادّة و يسمونه (عالم المثال) وكل مانراه أونحس به فما هو إلا ظلال لذلك العالم أوصور له أوآثاره لاغير وذلك العالم هو الثابت الذى يبقى فلذلك ترى العلم باقيا فهو باق ببقاء مابنى عليه والمادّة لابقاء لها فلاعلم يتعلق بها ، وعلى ذلك يقول أولئك الفلاسفة ﴿ فلنوجه وجوهنا للعالم الذى يبقى ولنحقر هذه الدار الفانية ﴾

أما الدار الدنيا فليست دار حياة وانما هى دار متقلبة متغيرة فليس من حقها أن تسمى حياة كما أنه ليس من حقها أن تسمى موجودة ، فاعجب من القرآن ومن أن تشرح حكمة الحكماء وعلم العلماء ، جلّ الله وجلّ العلم ، واعجب كيف يقول الله فى آية أخرى — وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون — فأفاد أن عدم العلم هو الذى يمنع الناس من أن يفهموا أن عالم الأرواح هو العالم الثابت وهو الموجود على الحقيقة وما سواه من المادّة باطل ، وهل يفهم هذا القول إلا أولوا العلم المذكورون فى هذه السورة وهو ذلك — وقال الذين أوتوا العلم و يلكم ثواب الله خير — وأفاد أن ذلك يعوزه الصبر • انتهى صباح يوم السبت قبيل ظهر (٢١) يوليوسنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة • الموازنة بين فهم الصحابة رضى الله عنهم و بين فهمنا فى القرآن ﴾

كيف كان سلفنا الصالح يفهمون القرآن ، وكيف كان فهمهم سببا فى انهم ملكوا ملك فارس والروم ، وكيف كان فهمنا للقرآن بعد ذهاب الدول الاسلامية والقوّة العربية غير مجد ولامفيد فغلبتنا الأمم وصرنا لهم خاضعين • ذلك نفهمه من حكاية الربيع بن زياد مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه • قال الربيع بن زياد الحارثى كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين فكتب اليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جيعا (أى أن يتخذ كل واحد منهم له خليفة يقوم بالحكم فى غيابه)

قال فلما قدمنا أتيت (يرفأ) فقلت (يايرفأ) مسترشد وابن سبيل أى الهيئات أحب الى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ الىّ بالخشونة فاتخذت خفين مطارقين أى مطبقين يقال طارقت نعلى اذا أطبقتهما ويقال لكل ماضوعف قد طورق ولبست جبة صوف ولثت عمامتى على رأسى أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء ويقال رجل ألوث اذا كان أهوج مأخوذ من اللوثة ، فدخلنا على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوّب فلم تأخذ عينه أحدا غيرى فدعانى فقال من أنت قلت الربيع بن زياد الحارثى قال وماتتولى من أعمالنا قلت البحرين قال كم ترتزق قلت ألفا قال كثيرفما تصنع به ؟ قلت أتقوّت منه شيأ وأعود به على أقارب لى فمافضل منهم فعلى فقراء المسلمين قال فلابأس ارجع الى موضعك فرجعت الى موضعى من الصف فصعد بنا وصوّب فلم تقع عينه إلاعلىّ فدعانى فقال كم سنك قلت خمس وار بعون سنة قال الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام وأصحابى حديث عهدهم بلين العيش وقد تجوّعت له فأتى بخبز وأكسار بعير (الكسر والجدل والوصل بكسر الأول فى الثلاثة العظم ينفصل بما عليه من اللحم وجمع الكسر أكسار) فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر اليه يلحظنى من بينهم ثم سبقت منى كلمة تمنيت انى سخت فى الأرض فقلت يا أمير المؤمنين ان الناس يحتاجون الى صلاحك فلو عمدت الى طعام ألين من هذا فزجرنى ثم قال كيف قلت ، فقلت أقول ياأمير المؤمنين أن تنظر الى قوتك من الطحين فيخبزلك قبل ارادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبزلينا واللحم غريضا (أى طريا) فسكن من غربه (أى لانت حدّته) وقال أههنا غرت (أى ذهبت) قلت نعم فقال ياربيع إنا لوشئنا ملأنا هذه الرحاب من صلائق (الصلائق كل مطبوخ ومشوى بالنار) وسبائك (هومايسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه وهوالحوّارى والرقاق تسمى سبائك) وصناب (هوصباغ يتخذ من الخردل والزبيب ولكنى رأيت الله عزّوجل نعى على قوم شهواتهم (أى عابهم ووبخهم) فقال ــ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ــ ثم أمر أبا موسى باقرارى وأن يستبدل بأصحابى اهـ

﴿ الكشف الحديث ﴾

(فى ايضاح قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ)

اعلم أن هذه الآية أصل عظيم من أصول العلوم الطبيعية والذى جاء فى نص هذه الآية هوآخر رأى وصل له العلماء ، انظرالى علوم اليونان فلقد ابتدأت حياتى العلمية الفلسفية بقراءتها ولم أكن أعلم بالحديث فرأيت القوم يقولون ان السموات والكواكب كل هذه أزلية أبدية ولايمكن خرقها ولاالتئامها فهى قديمة كما أن الله قديم وباقية كما ان الله باق ولايمكن أن تجزأ ولاتنفصل . أقول ومعلوم أن هذا المذهب يخالف ديننا على خط مستقيم ، ثم إن المتأخرين من العلماء أجمعوا أن هذه الكواكب مركبات من عناصر وانها كانت بخارا قديما وفى المستقبل ترجع بخارا الخ ولاجرم أن هذا يوافق ديننا أى ان علماء أوروبا قرّروا ما يوافق ديننا موافقة تامّة وان كانوا لايعلمون ولكن بقيت العناصر وهى فوق الثمانين ، فهذه لاتنحل مطلقا ، فإذن هى دائمة وتقوم فى دوامها مقام السموات فى بقائها عند القدماء فرجع الأمر الى مثل ما كان عليه القدماء . هنالك ظهر علماء زماننا فقالوا . كلا . بل كل هذا الوجود ونفس هذه المادّة تنعدم كما تنعدم مركباتها ، وآخر رأى هوأن العناصر محكوم عليها بالفناء كالمركبات منها

﴿ ايضاح هذا المقام . النظرية القديمة ﴾

قد أبنت لك أن بعض علماء اليونان ومن تبعهم من علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر قد قالوا ﴿ إن السموات لاتنحل ﴾ وأريد عليه أيضا انهم قالوا ﴿ إن المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن مركبات من عناصر أربعة وهى الماء والتراب والنار والهواء ، فاذا حكمنا بأن السموات وكواكبها لاتنحل ولا تتجزأ ولا تفنى فانا نحكم أيضا على الماء والنار والتراب بأنها لاتنحل ولا تتجزأ ، فالشمس لاتفنى والقمر

لايفنى والكواكب لاتفنى ﴾ واستمر الأمر على ذلك مئات السنين

﴿ نقض هذه النظرية ﴾

هنالك جاء متأخرو علماء الاسلام كما تراه فى ﴿ كتاب المواقف ﴾ للعلامة العضد وهكذا السيد وغيرهما فزلزلوا بعض القواعد كقولهم ﴿ إن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس دائرة حول الأرض ﴾

ثم جاء (كوبرنيكوس) و(غاليلى) من علماء أوروبا وأوضحوا هذا ودونوه وهذا وان لم يكن نقضا لهذه النظرية هو فتح باب النظر فيها والتفكر والهدم . هنالك نظر المتأخرون من الفرنجة مثل العلامة (لافوازيه) فانه وضع هذه النظرية وهى :

﴿ المادة لاتنعدم ولاتتجدد ﴾

ومعنى هذا انك لوأتيت بمادة خشبية وأحرقتها فان الأجزاء تتفرق فبعضها يطير فى الهواء و بعضها يبقى لها فى الأرض وهكذا . نحن نأكل الخبز فالخبز لم يذهب منه شئ فانك لو وزنته فوجدته رطلا فهذا الرطل يقسم اقساما فقسم يصيردما بعد تمام هضمه وقسم يخرج مع العرق والبول وقسم يخرج مع الفضلات ، فدمنا موجود يصير لحما وعظما ومخا الخ والفضلات والعرق لاتزال فى هوائنا وفى أرضنا وفى حقولنا فترجع فى أجسام نباتنا وحيواننا أوفى تراب أرضنا . هـذا هوالوجود كله عند (لافوازيه) وهناك حللوا هذه المادة فوجدوا أن العناصر الأربعة مركبات من عناصر ألطف منها ، فالماء من الاكسوجين والاودروجين والهواء من الاكسوجين والاوزوت ومعه بخار الماء والفحم وهوالكربون ومواد أخرى ، وقد عرفوا من العناصرفوق الثمانين ولها جداول عجيبة تبين المناسبات بينها كما ستراه فى (سورة العنكبوت) فهذه العناصر وان أبطلت النظرية القديمة لم تحل بها المشكلة ، فاذا قلنا ان الكواكب مركبة من عناصر كما يتركب حيواننا ونباتنا ومائنا وأرضنا وأن هذه الكواكب وهذه الأرض ستنحل وتذهب مركباتها وتتفرق وأن ذلك معروف من أضواء تلك الكواكب فانهم حللوها بالمنظار فوجدوا فى كل كوكب أضواء مختلفة كالنحاس والحديد والرصاص الخ أى انهم وجدوا هذه الكواكب مركبات من عناصر هى نفس العناصر الأرضية والشمسية لأن أشعة تلك الأضواء تشبه أشعة المعادن المختلفة المذكورة وبحثوا بحثا طويلا فى معاملهم . أقول إن هـذا أيضا لم يحل المشكلة لأن هذه العناصر التى تنحل اليها الكواكب لاتفنى كما هو رأى (لافوازيه)

﴿ الرأى الحديث الموافق لقوله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ ﴾

(رأى العلامة جوستاف لوبون)

اطلع العلماء اليوم على مادة اسمها (الراديوم) فهذا الراديوم له ضوء غريب عجيب جدا . ذلك أن أشعته لها مزايا لاتوجد فى غيرها بها تنحل أجزاء العنصر أى ينقص وزنه فهذا أدهش العلماء كيف يكون هذا الشعاع سببا فى نقص الوزن فأخذوا يعللون ذلك بعلل لم تصب كبد الحقيقة وذهبت أدراج الرياح ، ولكن (جوستاف لوبون) قال ماياتى ﴿ إن جميع العناصر تقبل هذا الانحلال ولكن الراديوم أقواها وأسرعها انحلالا مع علمنا أن جزأ واحدا من ألف جزء من الجرام فى الراديوم الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع الملايين وملايين الملايين من تلك الذرات حتى يصبح معدوما تماما أى ان الراديوم المذكور يصير قوة لا مادة ومثله العنبر وان كان أبطأ انحلالا عن الراديوم وهكذا سائر العناصر قابلة لهذا الانحلال لكنها أبطأ وأبطأ ثم قال وهذا الانحلال البطىء يكون بخروج أجزاء ضوئية سرعتها فى الثانية الواحدة (٢٠٠٫٠٠٠) مائتاألف كيلومتر . وقرر العلماء الذين وافقوا (لوبون) انهم لواستطاعوا أن يحللوا جراما واحدا من الحديد فى ثانية واحدة أى لوقدروا أن يعدموه كما يعدم الراديوم ويحولوه الى قوة لاوزن له لأفادونا قوة من هـذا التحول تعادل قوة تجر قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات فان القوة التى يتحول اليها ذلك الجرام تساوى

قوة (٦٨٠٠) ألف ألف حصان ﴾ ومعنى هذا أن المادة التي نراها والعناصر التي تركب منها كل نبات وحيوان وانسان تنعدم كلها ، وماهذه العناصر إلا قوى مخزونة متراكمة مجتمعة سميناها مادة وماهي إلا حالة من حالات عالم يسمى الأثير ، فالأثير الذي لا وزن له ولالون ولايرى ولايعرف إلا بالعقل والاستنتاج هو الوجود كله ، فاذا رأينا كهرباء أوضوءاً أونورا أوحرارة ومغناطيسا قلنا هذه كلها قوى يتحوّل بعضها الى بعض وهي في المعنى شئ واحد هو الأثير المالئ للفضاء في جميع هذا الفراغ فاليه يرجع كل شئ بل هو كل شئ ، وماهذه العناصر الأرضية والسماوية بالنسبة للأثير إلا كالماء قد صار ثلجا أوالبخار صار ماء ، فاذن أنا وأنت وأرضنا وسماؤنا وعناصرنا كلها عبارة عن قوى أشبه بقوى الكهرباء والنور تجمدت وتكاثفت وهانحن أولاء نراها تنحل في الراديوم مثلا . إذن هذا الوجود الذي نعيش فيه والذي نسميه مادة منوّعة الى عناصر والى كواكب وشموس ماهو إلا قوى متجمدة متكاثفة كتكاثف البخار فيعود ماء فالبخار اذا صار ماء أمكن رجوعه الى بخار ثانيا هكذا المادة . فاذن لامادة ، واذن فهمنا قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ

﴿ حظ هذا التفسير ﴾

أفلاترى أن هذا التفسير حظه عظيم ، انظر الى التوفيق ، انظر كيف أمكن انطباق الآية في آخر السورة على آخر كشف حديث وكيف كانت هذه الآية توافق نفس العلم الذي به ارتقت أوروبا وقهرت المسلمين به ، اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، بل انظر فوق ذلك الى ماسنراه في (سورة العنكبوت) أنا الساعة أكتب هذا صبح يوم الأربعاء وهو ٢٤ نوفبر سنة ١٩٢٦ وذلك أثناء طبع هذا التفسير بعد أن تم تأليفه وقد كنت كتبت في (سورة العنكبوت) في العام الماضي مايناسب هذا المقام ولم أكن لأعلم ولم يخطر لى أن آخر الشعراء هو عين أوّل العنكبوت ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ لم يكن ليخطر لى أن قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ هو عين مادوّنته في (سورة العنكبوت) من أن ــ الم ــ في أوّل السورة هي عبارة عن حروف مفرّقة وهذه الحروف المفرّقة تفتح باب العناصر وأن المركبات السماوية والأرضية ترجع الى عناصرها كما ترجع الكلمات والخطب والقصائد الى الحروف الأبجدية وأن الأمم الاسلامية يجب عليها أن تنظر في التحليل والتركيب لأن العالم الذي نعيش فيه لانعقله إلا بتحليله كما ان القراءة لاتتم إلا بمعرفة حروف الهجاء التي تتركب منها الكلمات وهناك في السورة جدول للعناصر والصلة بينها . إذن سورة العنكبوت أصبحت موضحة لسورة الشعراء من بعض الوجوه واتصل آخر الثانية بأول الأولى

﴿ ظهور هذه الوحدة في النبات والحيوان ﴾

(الذرة والخروع)

إن الذرة كما تقدم في (سورة الفاتحة) يكون فيها أعضاء الذكور في أعلى عودها والأنثى في وسط العود والخروع يكون ذكره أسفل والأنثى أعلى ولكنها عند الالقاح تنزل الأنثى فتكون أسفل من الذكر فيقع اللقح عليها ثم تكون الثمرة فيهما ثم يعدم الذكران والاناث ، وهذه الحال حاصلة في كل نبات ، والنخل وان امتاز ذكره عن أنثاه هكذا حالة الذكر والأنثى متعاونان ثم يذهبان ، وكل حيوان وكل انسان أشبه بعود الذرة وعود الخروع فانك ترى شجرة الخروع وتقول هي واحدة وترى النباتة من الذرة فتقول هي واحدة ومع ذلك ترى في هذه الوحدة ذكرا وترى أنثى فهما ممتازان ، فهنا وحدة تنوّعت ، هكذا النخل وحدة تنوّعت وهكذا الانسان والحيوان ، فالرجل والمرأة فيهما معنى الوحدة التي رأيناها في الذرة والخروع وهذه الوحدة تذكرنا بالوحدة العامة في الوجود فهو كله يرجع للأثير والأثير شئ لاوزن له ، فالمظاهر كلها ذاهبة ، هذا كله معنى قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ــ والحمد لله رب العالمين

ايضاح

﴿ ايضاح لهذا المقام بأوسع مما تقدم وذلك تذكرة فى قوله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ وقوله تعالى فى سورة أخرى ـ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذوالجلال والاكرام ـ ﴾

إنّ هاتين الآيتين من واد واحد ، فقوله ـ هالك ـ وقوله ـ فان ـ كلاهما اسم فاعل وهو حقيقة فى الحال ، وكثيرا ما كنت أسمع بعض أساتذتى يقولون ذلك وأن الموجود على الحقيقة هو الله ولاموجود سواه الآن ، ولما كانت العقول اليوم فى الأمم لاتعرف إلا الحقائق أخذت أبحث فى هذا الموضوع فوجدته يرجع الى ﴿ مسألتين اثنتين * المسألة الأولى ﴾ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ﴿ المسألة الثانية ﴾ هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ؟

أما المسألة الأولى وهى هل المادّة موجودة وجودا حقيقيا ، فاعلم أيها الذكى أن نفس المادة من سموات وأرضين ومابينهما قد صعب على العلماء اثباته وحاروا فى تحقيقه ، و بيانه أن القدماء من علماء الفلسفة قالوا إن هذه المادّة مفرّقة على حواسنا ، فهذه الأضواء والحركات والسكنات والألوان والقرب والبعد اختص بها البصر ، وهذه المسموعات من صوت الانسان والحيوان والجماد اختصت بهاحاسة الشم ، وهذا الثقل وهذه الخفة وهذه الحرارة وهذه البرودة اختصت بها حاسة اللمس ، وهذه الحلاوة وهذه الملوحة والمرارة وما أشبهها اختصت بها حاسة الذوق

اننا لما فكرنا فى هذا الوجود لم نعرف منه إلا هذه الصفات وهذه الصفات شئ والمادة شئ آخر ، أما المادة فاننا لم نعرف لها برهانا ولابرهان على وجودها إلا هذه الأوصاف فهذه المحسوسات ماهى إلا أعراض وأخيرا حكموا بأن المادة وجودها ضعيف

هذا مايقوله قدماء الفلاسفة وهذه المحسوسات هى التى عرفوها فى (علم المقولات) وهى كلمات عشر تشمل جميع هذا الوجود والذى ذكرته لك منها هنا ملخص كلمة منها وهى (الكيف) والكيف عندهم يرجع الى كيف محسوس والى كيف معقول والذى ذكرته هو الكيفيات المحسوسة التى استنتجوا منها ضعف أدلة وجود المادة . هذا آخر آراء القدماء فى المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا

﴿ آراء المحدثين ﴾

أما آراء علماء العصر الحاضر فانهم وافقوا القدماء ولكن على منهج غير منهجهم قالوا إن الذى نعرفه من هذه العوالم أمامنا انما هو الأثير والأثير شئ تصوّرناه ولم نره وهذا الأثير فيه حركات كثيرة وتلك الحركات تتنوّع فنها حركات تصير كهرباء . ومنها حركات تصير نورا ، ومنها حركات تصير حرارة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان هذه المذكورات من النور والحرارة والكهرباء ماهى إلا حركات ظهرت بمظاهر مختلفة اى انها شئ واحد اختلفت مظاهره بحسب استعداد قوانا نحن الأحياء على الأرض . فأما ما نراه من جماد ونبات وحيوان وانسان وجبل وحجر فما هو إلا نفس هذه الحركات حصل لها ماحصل للحركات التى صارت نورا وكهرباء وحرارة غاية الأمر أن الحركات التى صارت نورا قليلة بالنسبة للحركات التى صارت قمحا أوقطنا أوذهبا أوفضة فان الحركات التى سميناها نورا تعدّ بملايين الملايين فقط فيقال إن حركات النور فى الثانية الواحدة من حوالى (٤٠٠) مليون مليون الى حوالى (٧٠٠) مليون مليون . فأما الحركات التى تكون حجرا أوشجرا أوماء فانها تعدّ بأكثر من هذا فيقال مثلا انها ستة آلاف مليون مليون فبدل أن كنا نقول إن الحركات فى النور تعدّ بمئات الملايين صرنا نقول إن الحركات التى صارت مادة تعدّ بآلاف الملايين . إذن الموجودات كلها ترجع الى حركات وكلما كانت الحركات أقل كان الموجود ألطف وكلما كانت الحركات أكثر كان الموجود أكثف . ولعمرى ان هذا يخالف ماهو معروف فى بادئ الرأى . ألاترى رعاك الله أن النور سريع الحركات وأن الحجر والشجر معدومة الحركات . فانظر كيف انقلب الوضع وأصبح ما كان يظهر لنا انه كثير الحركات قليل الحركات

وما كان قليل الحركات قد كثرت حركاته

فياعجبا من وجودنا فى هذه الأرض ، الأوضاع مقلوبة والأحوال معكوسة والعلم يظهرلنا الحقائق على غيرمانعهد . سبحانك اللهم حكمت علينا أن نعيش فى عالم مقلوب الوضع معكوس الحال ، نرى الشمس جارية حول الأرض فيقول العلم . كلا . الأرض جارية حول الشمس ، ونرى أن المال والولد والدنيا كل ذلك سعادة فيقول لنا العلم والدين . كلا . فالسعادة غير هذا . ونرى بحسب نظرنا أن الانسان متى مات فلاوجود له ويقول العلم والدين . كلا . بل هو حى* . إن هذه الحياة مقلوبة الوضع معكوسة الحال ترينا الكبير صغيرا والصغيركبيرا والعظيم حقيرا والحقير عظيما

فهاك برهانا على ما نحن بصدده من أن المادة كلها ترجع لحركات أذكرك بما تقدّم فى (سورة النور) عند قوله تعالى ـ الله نور السموات والأرض ـ فأذكرك بقطرة الماء المذكورة هناك وانها رجعت الى جزئيات ضعيفة وتلك الجزئيات يبلغ عددها نحو عدد نجوم السماء ثم هى مع هذا كله لاتملأ فراغ هذه القطرة بل تملأ جزأ من مئات الآلاف من الفراغ المذكور ثم هذه الجزئيات مع صغر مقدارها بالنسبة للفراغ الذى تشغله القطرة ظهرانها ترجع الى كهرباء سالبة والى كهرباء موجبة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ نقطة ضوء تجرى حول نقطة أخرى ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة و باختلاف مقادير هذه السرعة فى الجرى اختلفت المادة بحسب مانراه فقلنا هذا أكسوجين وهذا ادروجين وهذا ذهب وهذا فضة الخ والحقيقة أن هذا كله أمر واحد هو نور أوكهرباء لاغير و باختلاف الحركات ظهرت المواد المختلفة . أما أنا فانى أحمد الله عزّ وجل . أحمدك يا الله على انك وفقتنى لتلخيص هذا الموضوع وشرحت صدرى لتبيانه فيعرف الأذكياء فى أمم الاسلام وغيرهم أن العلم الذى وصل الى عقول أمم الأرض الآن أظهر أن الموجود انما هو حركات والحركات ضوء أو كهرباء أو حرارة أوذهب أوقمح أوحديد لا أقل ولا أكثر . فالحقيقة شئ والظواهر شئ آخر

واعلم ايها الذكى أن كثيرا من الناس حينما يقرؤن هذا يهجس فى نفوسهم خواطر تحجبهم فيقولون ﴿ اذا كان الموجود ماهو إلا حركات اختلفت مظاهرها فكيف يكون عندنا جنة ونار وحساب وعقاب ودنيا وآخرة إذن هذا كله لاوجود له ﴾ وهذا قول من لاتحصيل عنده . فانا اذا عرفنا حقيقة هذه الدنيا على حسب ما وصلت اليه عقولنا فليس معناه أن هذه الموجودات والمظاهر لاعمل لها . كلا . فان فائدة هذه المباحث فى مثل هذا المقام أن تظهر لنا الحقائق فأما تعطيل قوانا وملكاتنا وأعمالنا فهذا ضرب من الجهل . إن هذه الحقائق تثير عقولنا وتفهمنا أن هذه العقول أمرها عظيم وانها قادرة أن تحيط علما بالمادّة علويها وسفليها ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ انها أكبر من الشموس والأقمار والكواكب الثابتة والسيارة لأنها تحكم عليها وتتصوّرها وتتخيلها وترّجعها كلها الى أمر واحد . إذن هذه العقول نور أكبر من النور الذى خلقت منه المادة بدليل أن هذه العقول حكمت على جميع العوالم فقالت انها نور والنور يرجع الى حركات والحاكم أفضل من المحكوم عليه ، فنفس هذا المبحث يرينا عظمة نفوسنا وشرفها وانها تكبر وتعظم أن تخضع لهذه المظاهر بل مقامها الأسنى أن تعيش فى ملأ أعلى ومقام أشرف ـ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ـ

﴿ آراء أفلاطون ﴾

ولاجرم أن هذه الآراء قد عرّفها اجمالا أفلاطون إذ يقول ﴿ إن هذه المادة لا ثبات لها وما لاثبات له فلاثقة به ومالاثقة به لايصح مناطا للعلم بل العلم مبنى على أمور ثابتة ﴾ وما هى هذه الامور الثابتة ؟ هى التى سماها هو « المثل الأفلاطونية » التى أوضحتها فى غيرهذا المكان ، وما هذه المثل الأفلاطونية إلاالعوالم العقلية التى تعلو عن المادة ، وكم ورد عليه من اعتراض ، وكم أجيب عنه ، وسترى هذا المبحث فى (سورة القتال) إن شاء الله تعالى فى رسالة ﴿ مرآة الفلسفة ﴾ التى ظهر فيها هذا الوجود أوضح مما قاله أفلاطون ولايرد علينا

ماورد عليه من الاعتراض ذلك لظهور الحقائق فى زماننا والله واسع عليم

سبحانك اللهم و بحمدك ، علمت الأوّلين وعلمت الآخرين وجعلت العلم كله يرجع الى أمر واحد وألهمت (افلاطون) قبل الميلاد ماعلمته لعلماء العصر الحاضر ، إنك رحيم بعبادك معلم الأوّلين والآخرين ، ومن عجب أن علماء الهند قديما يقولون كما رأيته فى كتاب ﴿ راجا يوجا ﴾ المترجم الى الانجليزية من الهندية ﴿ إن المادّة أصلها عقل بدليل انها ترجع اليه ﴾ ألا ترى أن الغذاء فينا يرجع الى قوّة فكرية ، فمن المادة العضلات والأعضاء ومنها نفس العقل إذن رجعت الى أصلها وهذا رأى عجيب وهذا الرأى يقول به (استوارت سميث) فانه يقول ﴿ ان المادة ماهى إلا عقل تكاثف ﴾ وهذه العبارة منقولة عنه فى نفس ذلك الكتاب . انتهى الكلام على المسألة الأولى وملخصها

(١) ان القدماء يقولون ﴿ إن الكيفيات المحسوسة البالغة ٣٩ كيفية مفرّقة على حواسنا وحواسنا لم تدرك المادة وانما أدركت هذه الكيفيات لاغير ﴾ إذن وجود المادة ضعيف

(٢) علماء العصر الحاضر يقولون ﴿ إن العوالم كلها ترجع الى حركات فلافرق بين الضوء و بين الحجر كلاهما حركات والحركات أضواء والأضواء باختلاف حركاتها تصير محسوسة لنا فان كثرت الحركات كانت مواد صلبة وان قلت كانت سائلة وان زادت قلتها كانت ضوأ أوكهرباء الخ

(٣) أفلاطون من علماء اليونان يقول ﴿ إن المادة لاثبات لها ومالاثبات له لايصح أن يكون مناط العلم بل لايصح أن يسمى موجودا فالموجود الحقيق هو العالم العقلى المسمى المثل الأفلاطونية ﴾

(٤) يقول القدماء من علماء الهند ﴿ إن المادة أصلها فكر بدليل انها تعود الى فكر ﴾ ويقرب منها رأى (ستوارت سميث) ومن قرأ آراء (اينشتين الألمانى) لايجدها تعدو ماكتبناه هنا فهو يقول هذا القول بعينه غاية الأمر انه أوضحها وأطال فيها وأعلن عنها . فهذا العالم الألمانى أعلن أيام الحرب الكبرى هذه المسألة وقال ﴿ إن هذا الكون ساكن لاوجود لشئ فيه وماهى إلا حركات ظهرت لحواسنا مختلفة المظاهر ﴾ وهذا الرأى قد تقدّم فى هذا التفسير فارجع اليه إن شئت

وهذا هو نهاية الكلام على المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا تفصيلا واجمالا وأحمد الله على التوفيق ونعمة العلم ونعمة الايضاح والحمد لله رب العالمين

﴿ المسألة الثانية هل هذه العوالم صائرة الى الزوال ﴾

اعلم أيها الذكى أن المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى تحقيق هذا الوجود وانه راجع للحركات لاغير ولكن هذه الحركات مظاهر وهذه المظاهر لها قيمتها العظيمه فحياتنا كلها وأعمالنا ودنيانا وآخرتنا ترجع أكثرها الى هذه المظاهر فليس معرفة أصل الوجود بمغن فتيلا عن نفس هذه الموجودات فما تقع عليه حواسنا له مقام عظيم فى العلم فلاينبغى لنا أن نفعل مافعله كثير من جهلة الصوفية الذين يقولون ﴿ اذا لم يكن فى الوجود إلا الله فالعلم يكون جهلا والبحث جنونا ﴾ وهذا يرجع بالانسانية الى الكسل والجهل والعجز ويقول ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل الخ » إذن لهذه المادة التى هى مظهر من مظاهر الحركات والأنوار مقام عظيم وعليها مدار المباحث وهى السبيل الموصل الى ما وراءها وحينئذ نقول هل هذه المادة التى ظهرت أمام حواسنا يوما ما ستفنى بحسب مايظهر لحواسنا ، وهنا ظهر فى الدنيا ﴿ رأيان اثنان * الرأى الأوّل ﴾ وهو القديم « لاشئ يزيد على المادة ولاشئ ينقص منها » وهذا رأى (لافوازيه) وهو يعتبر اليوم الرأى القديم . ومعنى هذا أنك اذا أحرقت خشبة أمامك ثم جمعت مابقى من رمادها وماطار فى الجوّ من دخانها و بخارها كان مساويا فى وزنه لوزن الخشبة . وعليه يكون الماء والهواء ونحوهما لاتفنى فالماء يدخل النبات ويخزن فيه ثم يتحلل هذا النبات والماء الذى كان فيه لابد أن يرجع بخارا كرة أخرى

ولايفنى وهكذا الهواء ونحوه . إذن المادة تتحلل وتتركب وكأنما هى حروف الطبع توضع فى الصندوق وترتب وتنظم ويطبع بها الكتاب ثم تفرق كرة أخرى وهكذا فالحروف واحدة معلومة محدودة فى المطبعة والكتب المطبوعة بها تعد بالمئات والآلاف هكذا هذه العوالم بحسب النظر الظاهر والمشاهدة فى هذه الحياة

﴿ الرأى الحديث « لاشئ يزيد على المادة ولكن كل شئ صائر الى الزوال » ﴾

لعلك حين تسمع هذا القول تقول ان المسألة الأولى والمسألة الثانية اللتين ذكرتهما مرجعهما واحد فان المسألة الأولى رجع الأمر فيها الى أن العوالم كلها ترجع الى الحركات والحركات الى الأثير ، وهذا الرأى القائل ان المادة صائرة الى الزوال معناه يرجع لهذا ، فرجع الأمر الى أن هذه المادة تتحلل وتتجزأ وتصير فى آخر أمرها الى القوة والقوة ترجع الى الأثير فقلت . كلا . ليست المسألتان واحدة وايضاحه بضرب المثل أن أقول انظر حباك الله العلم وألهمك التوفيق وشرح صدرك للحكمة وأنالك الكمال الى رجل أصيب بمرض عصبي وهذا المرض جعله يرى أشباحا مزعجة وأشخاصا يظهرون له فيؤذونه ويسمعونه ما يكرهه ولايزالون يوالون الظهور له وهو يستغيث ولامغيث ويسأل ولامجيب وهو فى الحقيقة ماظهر له إلا ما خيلته له نفسه من الصور المخيفة التى ظهرت له كأنها حقيقة فلاتزال تلك الصور تظهر له وقتا فوقتا حتى يوارى فى ثرى رمسه بسبب ظهور تلك الأشباح المزعجة والتاريخ القديم والحديث قص علينا قصص هؤلاء العصبيين الذين أوردهم مرضهم موارد الحتف وأقلقتهم تلك الصور وأمضت مضاجعهم وهيأتهم للموت ومفارقة الحياة ، لست فى هذا التمثيل أتخيله تخيلا بل هو حقيقة عرفها علماء الطب وعلماء الأخلاق ، هذا المريض بذلك المرض العصبي يرى تلك الأشباح ، لماذا ؟ لأنه مستعد لذلك فاستعداده هيأ له تلك الأشباح والمظاهر وهذه حقيقة عنده لاتقبل الشك ولذلك تمنع عنه النوم والأكل والشرب واللذات ثم يرد أحواض المنايا ليخلص من هذا العذاب المهين ، فبينما هو كذلك اذا الناس حوله يصفونه بأوصاف الجنون والتخبط والطبيب يقول إن أعصابه فيها مرض هيأ له ظهور هذه الصور فهنا ﴿ رأيان ﴾ رأى الجمهور الذى سلمت قواه العقلية من الخطل فهو يقول لاصور ولاأشباح ، ورأى المريض الذى أصيب بهذا الخطل والخبل فهو يقول بوجود صور وأشباح والجمهور تكون نتيجة معارفه انه لايفزع لأشباح ولايخاف من عفاريت وهذا العصبي يتأثر فيموت

اذا عرفت هذا المثل فاعلم أنه منطبق على المسألتين السابقتين . فمامثل الناس فى الأرض إلا كمثل هذا هذا العصبي المريض . ومامثل العوالم الروحية التى خلصت من المادة إلا كمثل العقلاء الذين فى الأرض حول هذا العصبي . ومامثل الصور والأشباح التى تظهر له إلا كمثل هذه المادة الظاهرة لنا فى الأرض الآن . فاذا قال العصبي هنا صور وأشباح وقد صدق فعلا وما كذب وقال الناس حوله لاصور ولاأشباح وقد صدقوا وما كذبوا فهكذا نحن الآن فى الأرض نقول هنا موت وحياة وسماء وأرض وجماد وحيوان ونبات وقد صدقنا وهنالك عوالم أخرى روحية لاترى إلا أنوارا وحركات وقد صدقوا فنحن صادقون فى اعتبار هذه العوالم موجودة وصادقون فى قولنا باعتبار آخر انها غير موجودة . ومن الجهل أن نخلط أحد المقامين بالآخر ثم إن هذا المريض العصبي اذا بقى على حاله مريضا واتفق أن الصور والأشباح لم تعد تظهر له فهذه حال أخرى نظيرها مانقوله فى المادة نحن فانا نقول ان المادة آيلة للزوال ونحن على حالنا الحاضرة أى اننا بالعلم عرفنا أن هذه المادة ونحن فى حالنا الحاضرة تأخذ فى الزوال وترجع الى قوة والقوة ترجع الى عالم الأثير . إذن هنا فرق بين المسألة الأولى والمسألة الثانية ، المسألة الأولى فيها أن هذه العوالم لاحقيقة لها بل ترجع الى الأثير أى فى التحقيق العلمى وهذا كالمثال الأول للمريض بالمرض العصبي ، والمسألة الثانية ترجع الى أن المادة ونحن على حالنا صائرة الى الزوال كما ان العصبي وهو مريض زالت الأشباح وماعادت تظهر له

هذا هو الفرق بين المسألتين ، فالمسألة الأولى فيها بطلان العوالم فى التحقيق العلمى ، والمسألة الثانية تفيد

أن بطلان المادة يصير عملا واقعا تطبيقا للعلم على العمل ، وعليه تقول ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ و ــ كل من عليها فان ــ اما فى الحال الآن فى التحقيق العلمى واما فى الظواهر وفى مقامنا الانسانى فى الأرض ، بل نحن مأمورون ومسوقون الى العمل فى العالم بجد باعتبار انه موجود فعلا وجودا يناسب حالنا ، واما فى المآل بأن يبطل هذا العالم الذى ظهر لنا ويزول من الوجود فعلا كما انه زائل الآن فى النظر العلمى ولا يجوز للناس أن يخلطوا أحد المقامين بالآخر فلا يقول جهال المسلمين و بعض الذين يدعون التصوف ﴿ اذا لم يكن فى الوجود إلا الله فلم النصب والعمل فلنتوكل ولننم ﴾ واذا قال بعض المتفلسفين صغار العقول من الذين قرؤا قشور العلوم وجهلوا الحقائق ﴿ ليس عندنا فى الوجود إلا هذه المحسوسات فعلام النصب والتعب فى تحصيل الحقائق ولا حقائق إلا ماتراه فلنعش للذات ﴾ فهؤلاء يقال لهم أنتم مساكين جهلتم علوم الأمم المحيطة بنا وأداكم كسلكم الى هذه الفكرة فوقفتم فى أول الطريق فأنتم مغرورون ، وهؤلاء يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

ولما اطلع صديقى العالم على هذا المقال قال لقد أجدت صنعا ولكن هنا ﴿ سؤالان * الأول ﴾ انك جعلت النوع الانسانى أشبه بالمريض مرضا عصبيا يرى الأشباح ولا حقيقة لها . إذن هذا الانسان الآن فى حال نقص . فقلت إن الانسان فى هذه الأرض روحه من عالم النور ووجوده فى أرضنا بعدله عن مقامه السامى الشريف وهذا هو المرموز له بقصة آدم إذ عصى وأكل من الشجرة وهذا هو المرموز له بالذنب ، ألم تر الى قوله تعالى ــ واستغفر لذنبك ــ ألم تر الى المسلم يقول فى كل صلاة فى الجلوس بين السجدتين ﴿ رب اغفرلى وارحمنى الخ ﴾ إن المسلم يطلب المغفرة دائما أذنب أولم يذنب ، ولا معنى لطلب المغفرة لغير ذنب . إذن هناك ذنب عام لنوع الانسان وهو تجسده فى هذه المادة والذنب هنا ليس بالمعنى المتعارف بل بمعنى آخر كالنقص أو الاحتجاب عن مقام الكمال أو البعد عن عالم الأرواح والصفاء والنور ولهذا المعنى تفسر كثير من الآيات كقوله تعالى ــ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ــ ولا ذنب لنبينا ﷺ متقدما أو متأخرا من الذنوب المعروفة . كلا . وانما الذنب هنا بمعنى الوجود فى هذه المادة الجسمية التى هى أشبه بسجن يسجن فيه الناس ولكنهم بالعبادة والعلم والعمل يتخلصون من ذلك السجن ، فالذنب هنا يرجع الى معنى يقرب من هذا ، ولاجرم أن هذا المعنى ملازم لكل حى فى الأرض . إذن نبينا ﷺ أشبه بمن دخل السجن لا ليسجن ولكن دخله ليخلص المسجونين ولكنه فى أثناء بقائه فى السجن قد حجز وأبعد عن مقره العالى الشريف فلا مانع أن يسمى هذا ذنبا مجازا . وهذا هو السر فى طلب الاستغفار . هذا هو السؤال الأول

فقال أما ﴿ السؤال الثانى ﴾ فانى أقول انك لم تبين لنا ايضاح المسألة الثانية وهى أن الكون صائر للزوال ومن الذى قال بهذا الرأى وما برهانه ؟ فقلت ان هذا الرأى رأى الدكتور (جوستاف لو بون) العالم الفيلسوف الفرنسى فان الناس يقولون ﴿ إن علم الطبيعة أساسه الجوهر الفرد ﴾ ولكنه هو يقول ﴿ إن المادة تنحل فعلا ﴾ وجعل المادة أشبه بالنبات والحيوان والانسان ، فكل نبات وكل حيوان تنحل وترجع الى المواد الأصلية والعناصر المعلومة ، فهكذا المادة تكون على الحال الأثيرية ثم تصير كواكب وأرضين ثم تنحل وترجع الى عالم الأثير فهى كحيوان أو كنبات ، وقد قرظ علماء أوروبا كتابه الذى شرح فيه هذه الآراء وسماه « نشوء المادة » أحسن تقريظ ثم قالوا انه أعظم كتاب علمى ظهر بعد كتاب « أصل الأنواع » لداروين وملخص كلامه أن الرأى القديم القائل ان الكون مركب من مادة قابلة للوزن ومن قوة تحرك المادة ولا تقبل الوزن أيضا وتكون كهرباء وحرارة ونورا الخ ومن أمر لطيف يسمى أثيرا غير قابل للوزن أيضا تسبح فيه الجواهر الفردة وهذه العوالم الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر فهو يقول إن هذا الرأى القديم خطأ وان هذه العوالم الثلاثة لافواصل بينها . فالمادة تتحول الى قوة والقوة تتحول الى أثير . يقول (جوستاف لو بون) لاثبات

هذه المسألة ﴿ إن الراديوم وما أشبهه يذهب هباء منثورا ويزول من الوجود بارسال ذرات صغيرة منه ذات سرعة عظيمة ﴾ ويقول إن جزأ من ألف من جرام (الراديوم) الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع ملايين الملايين من تلك الذرات الى أن تتحوّل مادّته الى قوّة أخيرا فصلا . إن جميع المادة لافرق بينها و بين الراديوم غاية الأمر أن الراديوم أسرع انحلالا وانحلال الراديوم يكون بارسال ذرات صغيرة منه بسرعة تقرب من سرعة النور أى (٢٠٠٫٠٠٠) كيلومتر فى الثانية وقد قاسوا تلك القوى التى تضيع فى أثناء انحلال المادة فوجدوها أشدّ القوى فى هذا العالم وقد قالوا انهم لوقدروا أن يحولوا جراما من الحديد بحيث يعدم فى ثانية واحدة لتحوّل هذا الجرام الى قوّة تعادل قوّة (٦) آلاف مليون و(٨٠٠) مليون حصان وهذا المقدار كاف أن يجرّ قطارا حديديا حول الأرض (٤) مرات ومن هـذه القوّة الكامنة فى المادة النور والكهرباء والحرارة والجاذبية ، فهذه يتحوّل بعضها الى بعض لأن أصلها واحد وما الكهرباتية إلا نتيجة انحلال المادة وهكذا ضوء الشمس فهو ناتج من انحلال مستمر فى عناصر وهكذا

فهذا هو الرأى الجديد لجوستاف لو بون القائل إن العالم المادى مصيره الزوال ككل حيوان وكل انسان وهذا هو تفسير الآية . يقول الله تعالى ـ كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم واليه ترجعون ـ إذن أصبح الرأى الجديد هو المفسر لهذه الآية ، فكل شئ هالك إلا وجهه فلافرق بين النحلة والنملة و بين نفس المادة العامة فكل منها له عمر محدود ثم ينعدم ، فاذا رجع الحيوان والنبات الى المادّة الأرضية والهوائية رجعت المادة جميعها الى عالم الأثير وعالم الأثير عالم إلهى لاندرى سرّه ـ وأن الى ربك المنتهى ـ

وماعالم الأثير إلا كعالم الخيال الذى نحسه فى نفوسنا فان الانسان متى أغمض عينيه وهو مستيقظ أخذ يجول فى عوالم لانهاية لها يشاهدها بحاسة باطنية ثم ان الصور التى تبرزها فى الخارج لا نصنعها إلا بعد أن نتصوّرها فى خيالنا كما أن المادة الخارجية لاتظهر إلا من الأثير فعالم الأثير عالم مجهول لايقرّبه لنا إلا هذا الخيال الذى نتخيله ولانراه

فلتنظر أمة الاسلام بعدنا وليتأملوا هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا ؟ ألسنا بهذا نعرف قوله تعالى ـ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب ـ فالعلماء فى الأمم بعدنا هم الذين يفهمون أسرار النبوّة و يعقلون معنى ـ كل شئ هالك إلا وجهه ـ ومعنى ـ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير ـ الخ

وهذا وأمثاله هو السبب فى أن القرآن يذكر فى الامور العظيمة العلم وأولى العلم و يقول الله ـ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ـ إذن دين الاسلام فى المستقبل لايحمله إلا أمم ارتقت بالعلم ودرست مناهل كل فن ، فويل بعدنا للمسلمين الجاهلين ، وويل ثم ويل لمن قرأ هذا التفسير ولم يكن نبراسا ونورا مشرقا للمسلمين فأعرض وتولى عنهم مع قدرته ولم يكن مصلحا لعقول المؤمنين . انتهى ماأردته فى تفسير هذه الآية عند الطبع يوم الاثنين أوّل يوليو سنة ١٩٢٩ م

﴿ جوهرتان ﴾

(الأولى) فى بعض سر ـ طسم ـ

(الثانية) فى الصلة بين السورتين

﴿ الجوهرة الأولى فى سر ـ طسم ـ أى الطاء والسين والميم فى أوّل سورة القصص ﴾

فى ليلة الخميس ١٨ يوليو سنة ١٩٢٩ خطر لى وأنا ذاهب الى المنزل هذه المعانى فى سر ـ طسم ـ فى أول هذه السورة . لقد جاء فى أول السور المتقدمة أن هذه الحروف قد حسب المذكر المسلمين اليوم أنهم ما يعصمهم من الكمال فى هذه الحياة وغيرها وهذه السورة طبعا بدئت بما يشير لذلك فيها . إن هذه السورة مبدوءة

بقصص فرعون مختومة بقصص قارون ، ولاجرم أن فرعون استضعف طائفة من الناس واستحيا نساءهم لأنه مفسد . ثم ان هــذه الطائفة منّ الله عليها وعازت ، إذن أهــم مافى هذه السورة أن الطوائف الضعيفة المستعبدة يوما ما تنصر على أعدائها ــ وتلك الأيام نداولهــا بين الناس ــ ومثل ذلك أمر قارون فانه أعطى المــال ففرح وأفسد ثم ذهب هو وماله وكان الذين أوتوا العلم أرشد ممن أوتى المــال . هذا ملخص مافى الســورة طوائف ذليلة ، سياسة ، أومالا يكون مآلهم الفوز ، فالسياسة فى أول السورة فى قصص فرعون وموسى والمــال فى آخرها فى قصص قارون ، فلما كانت هذه المعانى هى أهم مايقصد فى زماننا لرقىّ المسلمين كان مافتح الله به فى هذه الليلة مناسبا لذلك ، ألم تره أشار بالطاء لطائفة و بالسين لذلهــا واستعبادها وهذه السين مذ كورة فى ــ يستضعف ــ و ــ يستحيي ــ وفى ــ المفسدين ــ فالسين فى الــكلمتين الأوليين مذكورة مع الاذلال وفى الآخرة لتوجيه الفــكر الى صفة الظالمين وهوالافساد ، ولمــا كانت هذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها كثر ذ كرالميم فى هذه المعانى إذ قال ــ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم ــ الخ فالميم فى ــ طسم ــ تشير الى جعلهم أئمة لأن الميم جاءت فى الــكلمتين وفى جعلهم الوارثين وفى تمكنهم فى الأرض . إذن ــ طسم ــ فى هــذه السورة فيها ملخص السورة ، ولعــلّ قائلا يقول هذه الحروف لم تأت فى أوّل الــكلمات غالبا بخلاف كثير من السور السابقة فأقول إن من فهم أسرار حروف أوائل السور فيما تقدّم يسهل عليــه استخراج فحوى هذه السورة من الحروف فى أولهــا ، إذن من عرف ماتقدم يعرف الحــكمة الإلهية واذن يفقه ماذ كرناه هنا سريعا ، لذلك جعل الله هذه الحروف هنا موزعة على آيات كثيرة وليست أ كثرها فى أول الــكلمات وظهور هذا السرّ الآن فى هذا التفسير يرمى ﴿ لغرضــين ﴿ الغرض الأول ﴾ هوماتقدّم وهوأن الطوائف الضعيفة لابدمن فوزها وأن الله رؤف بها ، فالطاء للطائفة والسين لذلهــا والميم لنصرها ، وهذا ملخص السورة كما تقدّم ، فهذا الغرض اليوم يشير الى رقى المسلمين كأنه يقال لهــم أيها المسلمون كل ذليل يعزّ بعد دله فاقرؤا التاريخ ، فاياكم أن تقنطوا من رحمــة الله فسيرجع لــكم مجدكم فلستم أول أمة ذلت بعد عزّها ﴿ الغرض الثانى ﴾ أن تحترس الأمم الاسلامية وغــير الاسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها من الغرور بالملك واستضعاف الأمم فاذا قويت أمم اسلامية فلتعلم أن الله لهــا بالمرصاد واذا أذلت أمة فان الله يقتص للمظلوم من الظالم ، وكل هذا تشير له ــ طسم ــ فــكأن هذه الحروف مبشرة لــكثير من الأمم الأذلاء ومنذرة للأمم الأقوياء وأنهم لابد أن الله ينصر الضعفاء يوما ما عليهم فيجب الاحسان للأمم الضعيفة والنصح لهم والحمد لله رب العالمين

﴿ الجوهرة الثانية فى الــكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت ﴾

اللهم إنا نحمدك على جمال العلم و بهاء الحــكمة ، أريتنا أنك فى قصــة قارون انه غرّه المــال والخزائن و ــ قال انمــا أوتيته على علم عنــدى ــ ووبخته على انه جهل تصرفك فى الدول واهلاكك للأمم وشهد الذين أوتوا العلم أن هذا ظل زائل وقلت للناس فى غضون ذلك انك لاتحب الفرحين وانك لم تجعل العاقبة إلا للذين لايفسدون فى الأرض ولايريدون العلوّ فيها ثم ختمت السورة بأن هــذه المواد غير موجودة عند التحقيق وانمــا هذه النفوس الأرضية قد حكم عليها أن يكون نظرها للموجودات نظرا بحسها فيها ويجعل عقولها مشغولة بهذه المــادة وفى الحقيقة لامادة وانمــا تلك أشياء أقرب الى الخيال منها الى الحقائق ، فناسب أن تــكون سورة العــكبوت مبتدأه بمسألة الفتنة وأن هذا النوع الانسانى مبتلى كله كما ابتلى الأنبياء والعلماء وذلك ليجتهد النــاس فى أعمــالهم و يصل كل منهم الى درجته التى استعدّ لهــا ، ثم أخذ بعد ذلك يحرّض على الجهاد وأن لقاء الله لا يكون إلا بهذا الجهاد . إن هــذا الانسان كله مكبل بقيوده محبوس فى سجنه حكم عليه حكما قاطعا أن يعيش فى ظلمة الطبيعة و يقضى الضرورة الحيوانيــة و يتلبس بالطين و يزاول شهوات البهائم ونزرة السباع وضراوتها

فلست تراه إلا ساعيا جهده لكسرة يأكلها وشهوة يسدها وغضب يثيره فقواه موزعة وآراؤه مشتتة . هذا هو الانسان أوّله وآخره ، وما الدين ولا العلم ولا العمل إلا سعي للخلاص من هذه الطبيعة الطينية .

واعلم أيها الذكي أن هذه المعاني لاتكشف إلا لمن أدرك ماعليه الناس الآن . إن الناس تراهم في هذه الأرض مجبورين مقهورين على أعمال كلها نصب وتعب وما أرضنا إلا جواهر نارية متكاثفة و باطنها موادّ محرقة وكل نبات وكل حيوان أجسامها قابلة للاحتراق ونحن لاحياة لنا إلا بالحرارة التي هي من طبع النار ، وهانحن أولاء ننتقل من سجن الى سجن فاذا سجنا في سجن الجوع أوالشبق وهر بنا من هذين السجنين بتعاطي الطعام وباجتماع الذكور بالاناث دخلنا في سجنين آخرين وهما سجن حوز المال وحب الترف وذل المحافظة على ماملكنا ثم الحسد والبخل وما أشبه ذلك ، وسجن الذرية الذين نسعى ونكدّ لتربيتهم وتعليمهم ونحزن لمرضهم وجهلهم فنحن نخرج من سجن الى سجن ومن عذاب الى عذاب ونحن نظنّ أننا سعداء فرحون

ثم إن الأمم كالأفراد فهم متعادون منافقون مخادعون متحاربون ــ لقد خلقنا الانسان في كبد ــ قتل الانسان ماأكفره ــ إن الانسان لفي خسر ــ وكيف لا يكون في خسر وهو مشغول بما كفيته الدودة وسعدت به حشرة أبي دقيق ، حشرة أبي دقيق دودها يأكل ورق القطن وتجده موفرا لها فهي به سعيدة ، ومانال الانسان من سعيه مثل مانالت تلك الحشرات الساكنات في قصور خضراء من ورق القطن فيها ثريات لامعات بهجات هي أزهار القطن ، وهذا الانسان كله أوّله وآخره يسعى ليحصل سعادته في الدنيا فلم ينل ثم هو يخلو بنفسه و يفكر في أصل العالم ومنشئه وهذه النجوم والشموس ولماذا خلقنا في الأرض وهكذا فيعجزه البحث فيرجع طرفه خاسئا وهو حسير

هذه هي مرتبة الانسان ولهذا أمر بالجهاد ليخرج من هذه المآزق وضربت له الأمثال تارة بقصة آدم وآونة بقصة قارون ، فاذا وجدنا قارون افتتن بالمال فذلك ليس خاصا به بل كل الناس بل الذي لامال عنده قد يكون قلبه معلقا به كقارون ، وكم من صعلوك لايملك شروى نقير أعمته الدنيا وأضلته ، وكم من غنيّ زهدها فهما كما قيل

علقتها عرضا وعلقت رجلا ٭ غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

واعلم أن جميع الذنوب التي وردت في الشرائع السابقة واللاحقة كالزنا والسرقة والقتل ما هي إلا آثار أو نتائج لما كمن في هذه النفوس من الشهوة والغضب ، فامثل تلك الصفات في النفوس إلا كمثل الأقذاء في العيون ، وما مثل هذه الذنوب إلا كمثل الذباب يقع عليها فلولم تكن في العيون أقذاء لم يقع الذباب عليها فوقوع الذباب شبه به الذنوب والقذى في العين شبه به أساس تلك الذنوب ومن أزال الآساس فقد أزال مابني عليها ولا أزال هذا الآساس إلا بالجدّ والاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة والرجوع الى مبدع العالم

واعلم أيها الذكي أن من عرف ماقلته لك الآن وأدركه حق الادراك عرف أسرارا في الديانات وحلت له مشاكل كثيرة ﴿ مثال ذلك ﴾ أن المسلم يقول في الجلوس بين السجدتين ﴿ رب اغفرلي وارحمني واجبرني وارفعني وارزقني واهدني وعافني ﴾ فقول المسلم اغفرلي في كل ركعة ليس معناها انه قد أذنب فعلا فكم من المسلمين من يقول اغفرلي ولاذنب له وقد كان ﷺ يقولها وقد أجمع العلماء انه معصوم من الذنب فهو ﷺ وكثير من المسلمين لاذنوب لهم فكيف يطلب هؤلاء الطاهرون غفران ذنب لم يقع منهم . إذن طلب الغفران منصب على أساس الذنوب وهي الطبيعة الترابيــة التي شبهناها بقذى العين الذي هو السبب في وقوع الذباب عليها . إذن المسلم يطلب غفران الذنب سواء أذنب ذنبا أولم يذنب لأن هذه الطبيعة الطينة معرّضة للذنوب فاذا كان المسلم مذنبا طلب غفران هــذه الذنوب الفرعية وان لم يكن مذنبا طلب ازالة أساس الذنب لاغير ، و بهذا نفهم قوله تعالى ــ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفرلك الله ماتقدّم من ذنبك وماتأخر ــ فالغفران

هنا

هنا منصب على تلك الأساس التي اقتضتها الطبيعة الانسانية في هذه الأرض

﴿ بيان مايشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة ﴾

واذا أنت أيها الذكي رجعت الى ماتقدم فى آخر (سورة المائدة) وقرأت أن الدين المسيحي ماهو إلاصدى صوت ديانات تقدمت فى مصر والهند والتبت والعراق عند الآشوريين والبابليين وأهل المكسيك القدماء وهكذا ترى بعضه في (سورة مريم) منقولا عن علماء الألمان الكاشفين لهذا المعنى سنة ١٩٠٣ فيما وجدوه على الألواح فى بلاد العراق ، أقول اذا رجعت الى ذلك كله وقرأته وفهمته حق فهمه أيقنت أن الصلب كان أمرا شائعا فى تلك الأمم على سبيل الخرافة وقد نقل الى الدين المسيحي نقلا لاغير وأن هذا الصلب لابن الله البكر ليخلصهم من ذنوبهم بخروجه من هذه المادة وانهم جميعا يغمسون أنفسهم فى الماء (ماء المعمودية) وأيضا قد شاع فى أكثر الديانات وآخرها الاسلام أن آدم عصى وانه هبط من الجنة الى الأرض وهكذا فكل ذلك من واد واحد ، نعم تلك الديانات منسوخة عندنا نحن المسلمين والمنسوخ لاحكم له ، ولكن كلامنا الآن فى شيوع هذه الآراء فى الأمم . ان العقول الانسانية لاتقل فى فطرها عن فطرة الحيوان بل فطرة الانسان أرقى وأرقى ولم نجد فى الحيوان غرائز باطلة بل هى كلها غرائز شريفة أبدعها المبدع الحكيم ، فاذا كان هذا فى الحيوان فكيف إذن بالانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وشرفه فكيف تعم فيه خرافات الصلب وهذا الصلب لابن الله البكر ، وكيف تشيع عادة ماء المعمودية ، أقول إن هذا كله انما شاع فى هذه الديانات وقبلته الفطر الانسانية وبقيت فيها دهورا ودهورا لأن هذا النوع الانسانى كله يحس بأنه موضوع فى طبيعة تبعده عن مقامه العالى وشرفه الرفيع فهو عاص وهو يحتاج الى التطهير من المعصية فماء المعمودية ماهو إلارمز لطهارة النفس بالعلم والعمل والصلب خروج النفس من هذه المادة وارتقاؤها وتنزهها عن شهوات أهل الأرض . كل هذه المعانى مخبوءة فى عقول أهل الأرض فتارة تظهر بهذه الخرافات كالصلب وماء المعمودية وتارة تظهر بهيئة حقائق مثل إنها ذنوب ويطلب من الله غفرانها ، ومثل ان أبانا آدم قد عصى وهبط من الجنة . كل ذلك يرجع الى تلك الأساس التى ذكرتها لك ، ولست أقول لك ان كل دين من تلك الأديان كان حقا بل أقول ان هذه خرافات ابتدعها الناس فى الأمم وقبلتها نفوسهم ولكن لماذا قبلت النفوس هذه الخرافات ؟ انما قبلت هذه الخرافات لأنها تعبر عن فطرها

ولما أراد الله انقاذ الانسان من الخرافات وعلم انه استعد لاظهار بعض الحقائق أنزل دين الاسلام وعبر بالمغفرة والذنب . هذا ثم انك اذا سمعت الله يقول فى آخر القصص — فلايجزى الذين عملوا السيآت إلا ما كانوا يعملون — فان هذا راجع الى الذنوب الفرعية ، واذا سمعته يقول — تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوّا فى الأرض ولافسادا — الخ فهذا راجع الى طهارة تلك الأساس وتهذيبها ، واذا سمعته يقول — فخرج على قومه فى زينته — الخ فذلك لفروع تلك الأساس واذا سمعت ذكر الجهاد والفتنة فى أول العنكبوت فما هو إلا إتمام لما فى آخر القصص وهكذا ذكر الأعمال الصالحة والسيآت والأثقال كل ذلك تكميل لما فى آخر السورة قبلها . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٩ م

(تذييل)

(حكمة ألقاها الله على قلوب بعض عباده من الصوفية وهى ان من ادّعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل وهى من حكم قصة قارون فانها تحدد الزهد فى الدنيا)

هذه القصة كما ذمّت المال والدنيا حرّضت على عدم نسيانهما بالكلية ، فالقصة أعطتنا طريقا وسطا فلا نكون عالة على الناس ولانكون طماعين جماعين ، ولقد شاع فى أيامنا هذه أن كثيرا من الشيوخ ورجال

الصوفية وجهلة الوعاظ يحقرون أمر الدنيا للناس فيبطل سعي كثير من العامة ويكون نفس أولئك الشيوخ عالة على الأمة يلتمسون منها الهدايا تقربا اليهم مما هو شائع معروف وهذا إثم وضلال ، فالله ما خلق العقل والقدرة والأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ليعطلها ولكنه فصلها تفصيلا لأعمال تقوم بها فتظهر مواهبها في الحياة الدنيا والآخرة ولقد رأيت في كتاب الشيخ الشعراني المسمى « درر الغواص على فتاوى سيدي علي الخوّاص » مانصه « سألت شيخنا رضي الله عنه عما استندا اليه الزاهد في الدنيا من الأسماء والحضرات الإلهية فانه لابد لكل شيء في العالم من استناده الى حقيقة إلهية وترى الحق تعالى رجح وجود العالم على عدمه فيخلق من تخلق هذا الزاهد ؟ فقال رضي الله عنه الزهد في الدنيا هو هدى الأولين والآخرين المتبعين للأوامر الإلهية لأن الله تعالى قد عشق الخلق في الوجود وزينه لهم وجعل ذلك حجابا عليه لايصل أحد الى معرفته تعالى إلا بالاعراض عن زينة الكونين ، فمن زهد في الدنيا والآخرة فقد تخلص لربه عز وجل ومن زهد في الدنيا فقد تخلص للآخرة ومن لم يزهد في الدنيا لم يتخلص بشيء وتعس وانتكس ، فالزاهدون قد تخلقوا بأخلاق الله تعالى في كون الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر اليها أعني نظر محبة ورغبة والا فهو تعالى ينظر اليها نظر تدبير وامداد ولولا ذلك ماكان لها وجود ، وكذلك الزاهد لاينظر الى الدنيا نظر محبة ورغبة وانما هو نظر تدبير لمعايشه التي لايصح له أن يستغني عنها فان من ادّعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل إذ الغنى بالحق حقيقة لايصح فالاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله عز وجل فما بقي مقصود القوم بالزهد في الدنيا إلا افراغ القلب وعدم التعمل في تحصيل مازاد على ضرورات العبد لاغير عكس مرادهم بالرغبة فيها . فقلت له إن بعض الناس يزهد في الدنيا ويقول انما أزهد فيها توسعة على اخواني في الرزق فما حكمه ؟ فقال رضي الله عنه هو زهد معلول . فقلت له فكيف ؟ فقال لأن في اعتقاده ان الذي تركه قسمه الحق له ثم أعطاه للخلق وهو باطل . فقلت له فما الخلاص في مقام الزهد ؟ فقال رضي الله عنه الخلاص أن يكون بما ضمنه الحق تعالى أوثق منه بما في يديه ثم يتصرف فيما في يده تصرف حكيم عليم إذ هو نائب الحق من حضرة اسميه المعطي والمانع فيمنع بحق ويعطي بحق والله غفور رحيم » انتهى وبهذا تم الكلام على (سورة القصص) والحمد لله رب العالمين

سورة العنكبوت مكية

إلا من أول السورة الى قوله تعالى ـ وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون ـ فمدنية وآياتها ٦٩ ـ نزلت بعد الروم

﴿ وهى قسمان ﴾

﴿ القسم الأول ﴾ فى تعليم الصبر والجهاد وطاعة الوالدين والمجاهدة فى سبيل الله وفى برهما ومجاهدة الأصحاب وعدم إطاعتهم اذا أرادوا فتنة المؤمن ، ثم قصص الأنبياء من أول السورة الى قوله ـ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ـ

﴿ القسم الثانى ﴾ فى محاجة الكفار وأهل الكتاب واثبات النبوة من قوله ـ مثل الذين اتخذوا من دون الله ـ الى آخر السورة

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ * وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ

لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا
لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ
الْمُبِينُ * أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
* يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ
أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَقَالَ إِنَّمَا
اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ
وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا
فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * وَلُوطًا
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ
* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا
ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ
الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا
تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ
الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

التفسير اللفظي

بسم الله الرحمن الرحيم

(الم) تقدّم الكلام فيه فى سورة آل عمران ، وسيأتى بيان أتمّ لها فى هذه السورة ، فانك سترى قريبا أن ــ الم ــ هنا تشير إلى قوله تعالى ــ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ــ الخ ففيه ــ الم ــ وذلك ليحقق العلماء بالحكمة ، ههنا أخذ الله عزّ وجل يصل هذه السورة بما قبلها ، إن أواخر السورة السابقة كان فى ذكر قارون وأهل العلم والجهلاء وكيف كانت الزينة القارونية تغرّ الجاهلين وكان أهل العلم غير مغترين بها ولا جزعين من فواتها ولا فرحين بنوالها لعلمهم أن دوامها مستحيل وأن هناك ماهو أبهج منظرا وأبقى أثرا وهى الحكمة والعلم ونعيم الآخرة فكان ملخص ذلك المجاهدة فى ترك هوى النفس فلا علوّ على الناس ولا فساد فى الأرض ، فهذه السورة ابتدئت بتمحيص هذا الموضوع والتدقيق فيه فقال الله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم ــ آمنا ــ كلا انهم لا يتركون لقولهم آمنا بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال والفقر والقحط ومصابرة الكفار ، ولقد فتن الله بعض الناس ببعض لتخلص نفوسهم من أسر المادّة وذل الطبيعة لأن التهذيب والتأديب إما بالعلم والمعرفة والعبادة واما بأنواع المصائب فكلاهما جعله الله فى الأرض لتخليص الناس من أشراك هذه المادّة

(١) فيجاهد المرء شهواته المذكورة فى آخر القصص حينما يرى زينة المترفين والأغنياء كزينة قارون وهذا الجهاد إما بالعلم كما قص الله عن أهل العلم إذ قالوا ــ ويلكم ثواب الله خير ــ الخ واما بالعبرة والنوازل كالجهلاء لما رأوا هلاك قارون فعرفوا معرفة سطحية فقالوا ــ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ــ

(٢) ويجاهد أبويه ويكون معهما بوجهين فهو بارّ مهما عاص لأمرهما اذا أمراه بالكفر كما سيأتى

(٣) ويجاهد الأصحاب اذا أغروه أن يكفر وسهلوا له الأمر كأن يقولوا له « نحن نحمل عنك خطاياك »

وملخص ذلك كله جهاد الشهوات ، وجهاد الأصحاب ، وجهاد الأعداء ، وكل ذلك اختبار للناس وتهذيب

واعلم أن كل مارواه المفسرون فى هذا المقام من أنها نزلت فى عمار أوفى مهجع أوغيرهما لم يرد له ذكر فى الصحيح وفوق ذلك رواياتهم مناقضة للحقيقة لأنهم ذكروا أن بعضهم أوذى فى مكة والمؤمنون فى المدينة وذلك ينافى كون السورة مكية وكثير من أحاديث النزول ليست فى الصحيح فتفطن ، ولم يرد فى هذه السورة من الصحاح إلا حديث أم هانئ كما سيأتى رواية الترمذى وحديث ابن عباس رواية رزين و بقية الصحاح لاشئ فيها مما يخص هذه السورة ، وسأتبع هذه الطريقة فى بقية التفسير إن شاء الله تعالى ، فلا أذكر بقية

تفسير هذا القسم فأقول

ههنا يقول الله أيها الناس لاتظنوا انى خلقتكم سدى انما خلقتكم لأرقيكم لعالم أرقى من عالمكم ولايتم ذلك إلا بعلم وعمل ، ولما كان العلم والعمل وحدهما لايقويان على ارتقائكم ساعدتكم بما ينتابكم من النوازل والمصائب الطبيعية والأنفس والآفاق لأن هذا يرقى نفوسكم وان كنتم لاتشعرون ولم أخل العبادات من ذلك فلقد أمرتكم بالتخلى عن بعض المال والشهوات وبالجوع فى الصيام لأكمل بالعمل التهذيب الذى وضعته بالطبع فى أرضكم كما أنى كلفتكم بالزرع والكسب لاصلاح معاشكم فأكثر معاشكم بالطبيعة التى نظمتها ولا يكمل إلا بعملكم هكذا المصائب والنوازل وتغير الأحوال التى لاتفترون عنها كل حين مهذبات لنفوسكم فجاء الدين فأكملها تهذيبا وتأديبا بصرف النفس عن المال والولد الى الزكاة والحج والصلاة والجهاد وغيرها فحياتكم كلها حياة شقاء شئتم أم أبيتم فان جاهدتم ارتقيتم والا كان العذاب واصبا عليكم فى الدنيا و بعد الموت لأن الميت اذا لم يكن له أجنحة من العلم والعمل يطير بها هناك فكيف يعيش فى تلك الأجواء النقية الحرة البهية فلذلك لم أخلكم من الجهاد كما لم أخل من قبلكم من الأمم البائدة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) فذلك سنة قديمة قويمة شرعناها لكم كما شرعناها للأمم قبلكم فلاينبغى أن يتوقع الناس خلاف ذلك (فليعلمنّ الله الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين) أى فليظهرنّ الله الصادقين والكاذبين وليميزنهما أوليجازينهما فالمراد بالعلم أثره ومن ظنّ خلاف ذلك من الناس فهوسيئ الحكم جاهل (أم حسب الذين يعملون السيآت) كالشرك والمعاصى (أن يسبقونا) أى بل أحسب هؤلاء أن يفوتونا فلانقدر أن نجازيهم (ساء ما يحكمون) أى بئس حكما يحكمونه حكمهم ، وكيف يحكمون هذا الحكم وأنا لم أخلق الخلق سدى ، أنا ربيتهم فى عالم المادة وهذّبتهم بأنواع التهذيب والتعذيب والرياضة والعلم عسى أن يلمحوا فى هذا العالم نورجلالى وجمالى (من كان يرجوا لقاء الله) فى الجنة وأن يشاهده ويرى مالاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر فليفرح (فان أجل الله لآت) وكيف لايفرح وكل مصيبة نزلت أوتكليف جاء به دين فانما جعل ليقرّب العبد من ذلك المقام ويبعده عن ظلمة المادة وليس الله بغافل عن المطيع والعاصى (وهوالسميع) لأقوال الفريقين (العليم) بما أكنته قلوبهم من كفر وجهل أوايمان وعلم فيضع كلا فى مركزه الخاص به ، فعلى المرء أن يجاهد حتى يبلغ تلك المرتبة العالية (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) لأنه يريد أن يتخلص من عالم النقص حتى يستعدّ لمشاهدة العوالم اللطيفة ثم يصل الى الله ولا يكون ذلك إلا بتلطيف النفوس فليس ذلك الجهاد راجعا لله بل هو لنفس العبد (إن الله لغنىّ عن العالمين) فهم فى حاجة الى لقائه بتصفية نفوسهم لاهو فالجهاد إذن لهم لا له إذ لامعنى لعمل لاتعود فائدته على العامل نفسه فكل عبادة أوتكليف يراد بها ارتقاء النفس فقول العبد ــ إياك نعبد ــ ليس الله فى حاجة اليها بل تلك تلطف النفس بعض التلطيف بذلك التوجه فتتخلص شيأ فشيأ من المادّة وهذا هوقوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنّ عنهم سيآتهم) كالكفر بالايمان والمعاصى بالطاعات فترتفع نفوسهم عن العالم المظلم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم والحسن فى الجزاء أن تكون الحسنة جزاؤها حسنة والأحسن أن تكون الحسنة جزاؤها عشر حسنات أوأكثر ثم أخذ يشرح بعض الجهاد فى الوالدين إذ قال (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى وقلنا له أحسن بوالديك حسنا أوقلنا افعل بهما حسنا (وان جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم) أى لاعلم لك بالهيته بل هومنفى أى لتشرك بى شيأ لايصح أن يكون إلها (فلاتطعهما) فى ذلك وكيف تطيعهما فى معصية خالقك وخالقهما (الىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأجازيكم على الخير والشرّ * روى انها نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأن أمه حلفت لاتنتقل من الضح ولاتطعم ولاتشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك ثم إن ابنها أوقع فى قلبها اليأس من اسلامه فرجعت فأكلت وأن هذه الحادثة أيضا كما كانت سبب هذه كانت سبب

التى

التى فى لقمان والأحقاف وهـذه الرواية لم ترد فى الصحيحين ولا بقية الكتب الستة ، ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى جلتهم فليستعدوا لذلك بالجهاد فللصلاح درجات وللعلم درجات وكل يوم القيامة يدخل فيمن هوأهل لهم ، وليس الصلاح مجرّد دعوى لادليل عليها بالعمل . إن الصلاح لا يكون إلا بالجهاد والصبر على الأذى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) كما حصل من تعذيب الكفارالمؤمنين (جعل فتنة الناس) أى مايصيبه من أذيتهم فى الدنيا ليصدّوه عن الايمان (كعذاب الله) الذى قدّره على الكافرين ليصرفهم عن الكفر ، فهؤلاء يجزعون من عذاب الناس ولا يصبرون عليه فيطيعون الناس فى كفرهم كما يطيع المؤمن ربه لخوفه من عذابه وهل فتنة الناس كعذاب الله كلا . ان عذاب الله أشدّ وأبقى فهؤلاء لاثبات لهم ولاصبر ولاسعادة لأحد إلا بالصبر وانما يروغون كما يروغ الثعلب ويتقلبون تقلب الحرباء وذلك التقلب لضعف قلوبهم ، ولذلك اذا جاء نصر أوغنيمة قالوا إنامعكم وهذا قوله تعالى (ولئن جاء نصرمن ربك ليقولنّ إنا كنا معكم) فى الدين فاشركونا فيه ، فهؤلاء هم المنافقون (أوليس الله بأعلم بما فى صدورالعالمين) من الاخلاص والنفاق ثم أكده فقال (وليعلمنّ الله الذين آمنوا وليعلمنّ المنافقين) يقال انها نزلت فيمن أخرجهم المشركون معهم الى بدر وهم الذين نزل فيهم ـ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ـ ولذلك يقال إن هذه الآيات العشرمن أوّل السورة الى هنا مدنية وباقى السورة مكى وقد علمت أن الأحاديث ليست فى الصحاح المعلومة

هذا ولما تمّ الكلام على جهاد الوالدين ومابعده من المنافقين ذكرجهاد الأصحاب الذين يغرون أصحابهم ليتركوا الدين فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) الذى نسلكه فى ديننا (ولنحمل خطاياكم) فاتركوا الاسلام واتبعوا ديننا القديم وعلينا أن نحمل خطاياكم وهذا قول صناديد قريش لمن آمن منهم (وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ إنهم لكاذبون) فى قولهم نحمل خطاياكم (وليحملنّ أثقالهم) أثقال ما اقترفوه من الإثم (وأثقالا مع أثقالهم) أى وأثقالا أخر معها فان من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزرمن اتبعه شئ (وليسألنّ يوم القيامة) سؤال تقريع (عما كانوا يفترون) من الأباطيل التى أضلوا بها ، وههنا ابتدأ سبحانه بذكر قصص الأنبياء ليتعظ المسلم بما يرى من جهاد المجاهدين شرحا لقوله ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ الخ فابتدأ بما فتن به نوح ومن معه حتى يصبرالناس كما صبروا وكذلك ابراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى ، فهؤلاء كلهم صبروا هم وأتباعهم على ماأوذوا فنجوا وهلك أعداؤهم

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ـ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه إن الله لغنىّ عن العالمين ـ ﴾

اللهم إنك خلقتنا فى الأرض ونحن فيها أشبه بالغرقى فى بحر لجىّ ، أرواحنا قبسة من نورك فأنزلتها الى الأرض ولبست كل روح جسمها ووقعت فى حيص بيص فهى أبدا تجاهد لتنجومن الخطر الملازم لها وهى هذه الأجسام وشهواتها وأخلاقها وأحوالها ، وليس الجهاد قاصرا على أمر دون أمر فالجهاد يشمل كل عمل يرفع هذه النفس عن الدنايا ويقوّيها فى سفرها وينتشلها من غرقها ويخرجها من بحر هذه الحياة اللجىّ والجهاد ﴿ نوعان ﴾ جهاد داخلى وجهاد خارجى ، فالجهاد الداخلى لقوّتى الشهوة والغضب فيعتدل الانسان فى قوّتيه الجسمية والعقلية ، وجهاد خارجى وهودفاع الأعداء وبعض العبادات ومنها الحج فهومن أهم أنواع الجهاد بل الحج يذكرنا بسعادة نوع الانسان ويرمز الى ﴿ فائدتين ﴾ منها صحة البدن واجتماع الأمم بسلام ، إن الاسلام لو لم يكن فيه سوى الحج لكفى لسعادة الانسان ، ففيه جهاد النفوس بترك المخيط من الثياب كما تقدّم قريبا فى (سورة القصص) عندالكلام على منافع الشمس فى آية ـ قل أرأيتم ـ الخ والاجتماع بالاخوان من سائر الأقطار ليشهدوا منافع لهم . واعلم أيدك الله أيها الذكى أن مسألة الحج يقصد بها الى أمرعظيم وهو

نبذ التعالي والتكبر وترك الترف والنعيم اللذين يسببان هلاك الأمم فى هذه الدنيا ، ولقد فاتنى فى سورة الحج وفى البقرة وغيرهما من السور التى ذكر فيها الحج أن أبين أكثرمما ذكرته هناك ولكن الله عزّوجل يريد أن يمنّ على أمم الاسلام بالعلم والحكمة ، فأول ماخطر لى خاطر الحج من حيث الصحة العامة بتعرّض الجسم لضوء الشمس كان بسبب محادثة شاب معى أخذ يذكر مناسك الحج وأن أوروبا قد أخذت تنبذ القصور والدور وتذهب الى أعالى الجبال ليعرّضوا أجسامهم لحرارة الشمس تبعا لأوامر الصحة ، هنالك حضر لى هذا الخاطر فكتبت بعض ذلك فى (سورة القصص) كما قلت لك آنفا ولكن انظر . ان الانسان يعيش ويموت وهو لايزال فى حاجة الى الاطلاع ليعلم مالم يكن يعلم فانى فى هـذا اليوم صباح ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ اطلعت على هذا الموضوع فى ﴿ الرحلة الحجازية ﴾ لصديقى محمد لبيب بك البتنونى فرأيته وفى الموضوع حقه فسألخصه هنا تلبية لنداء الوجدان وإتماما للكلام على الجهاد لأن جهاد النفوس الانسانية فى الحياة الدنيا يجب أن يشمل الجهاد الجسمي والجهاد الروحى وجهاد الأجسام بصفائها وخلوصها من الأمراض بترك الاكثار من المآكل وباستخلاص أنفعها فى الحياة والصحة وبترك الاكثار من الملابس التى تضرّ بالصحة فى كل أمة بحسبها . والجهاد الروحى بحب الاخوان بل بحب جميع الأمم ولن يكون ذلك إلا بترك الترف والتنعم والحرص ومدّ يد المساعدة العامة فلامترف فى الأرض مساعـد لاخوانه ولاضعيف جسم يقوم بأود محتاج . إن الحياة جميعها جهاد . ومما كان يهيج بالى ويزيد بلبالى أمر الملابس فانى وجـدت الأمم قد اختطت لأنفسها خطة ضيق الملابس والتصاقها بالجسم ولم أجد فى هذا الانسان إلا مقلدا . الناس جميعا مقلدون وقليل فيهم المفكرون وهذا القليل لاقوة له على اخضاع هذه الجموع ، ولطالما وقفت أمام صورة فى المتحف المصرى يقال انها صورة (شيخ البلد) فكنت أجد الجسم ليس عليه إلا إزار واحد فعجبت وصرت أقول ياليت شعرى ، أليست هذه مصر ، أليس هذا منها وأنا منها ، فلماذا اكتفى هـذا الرئيس ومرؤسوه بالازار ونحن لبسنا ملابس وماهى إلا حمل ثقيل علينا . هـذا الموضوع وغـيره حرّك وجدانى فبحثت فلم أجد لى سبيلا إلا مناسك الحج وفهم بعض أسرارها فعرفت أن الله فرضه ليقول للناس هاهوذا وصفـرقىّ الانسان ليقرأ الناس علم الصحة فيعرفوا أن صحتهم لاتتم إلا بالتجرّد فى بعض الأوقات من الثياب وبتعرّض أجسامهم للشمس وليكونوا بزىّ واحد تقريبا حتى يتحابوا فتكون مدارس الغرب ومدارس الشرق على وتيرة واحدة ، هنالك يتعاونون جميعا وهنالك تقدّم لهم الأرض خيراتها وكنوزها . ولم أجد كتابا شرح هذا الموضوع مثل ما جاء فى تلك (الرحلة) وهذا نص ما جاء فيها تحت العنوان التالى وهاهوذا

﴿ لباس الاحرام ﴾

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا والمصريون كانوا يستعملون فى أوّل أمرهم المئزر ثم البرنس وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف وتربط بحزام وترسل الى الركبتين فى العامّة أو الى أسفل منهما فى الخاصه حتى اذا ترقت الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس الى الكعبين ولبسوا من تحته قميصا لاأكمام له أخذوه عن الأيوبيين (١) وكانوا فى مبدإ أمرهم يلونون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر) ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان فى ثيابهم مع ماكانوا يوشون به دائر ملابسهم بالأشرطة المنقوشة . أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت ابطهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك

(١) هم سكان أثيوبيا وهى مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التى بها الحبشة وما والاها شرقا الى الصومال وشمالا وغربا الى جزء عظيم من السودان المصرى

(انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى) ثم غيروا هذا الزىّ بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شئ يشبه العباءة والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة . وأهل اليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعا ويمرّونه من تحت ابطهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه . ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها (شيون) كما تراه الى اليوم فى عرب البادية المصريين خصوصا عرب الغرب منهم . ولاشك فى أنهم أخذوا هذا الزىّ من الرومانيين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الأولى الى الآن وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيأ يماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة فى متحف الاستانة بل وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهرية (القعرية) وهو أوّل كنيسة بنيت فى الاستانة وحوّلت الى مسجد بعد الفتح . أما أنتكخانتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١)

وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال «كفرين» المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (٨) من الدور الأوّل نمرة ٧٤ وهو بانى هرم الجيزة الثانى ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد فى القرن الخمسين قبل المسيح ، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة فى القاعة حرف (٥) ثم تمثالى (امور وأمون) وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالنخلة الصغيرة للطرقة التى تمثله بمئزر بسيط ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوى لأن يد الزمن قد محت ما عليه ، ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل وقد شاهدت من بينها تمثالا من الفخار للعذراء وهى ملتحفة بشملة تغطى جميع جسمها وابنها على يدها

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الأوّل ففيها مثال الاحرام بأشكاله التامة فترى فى وسط القاعة حرف (١) امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردى بهيئة احرام كامل أعنى انها ملتحفة برداء أبيض يغطى كل جسمها ما عدا رأسها ، ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن وهو ما يسمونه فى الاحرام بالاضطباع وفى رجله نعال لا تغطى ظاهر القدم اللهم إلا عروة يدخل فيها الابهام ويخرج منها سيران رفعان يتصالبان على ما دون الكعبين ويربطان فيما دون العقب وهو ما يسمونه فى الحجاز بالنعال الشرقية التى أجمعت المذاهب الأربع على صحة الاحرام بها وهذه النعال تراها أيضا فى قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل فى القاعة حرف (٨) ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم فى لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الاحرام بل هو هو بعينه والقوم يتناولونه تماما فى تشخيص الروايات التى تمثل الزمن القديم الرومانى أو اليونانى وخصوصا فى تمثيل صور الأنبياء والحكماء . ويقال ان اليهود كانوا يستعملون فى معابدهم لبس غير المخيط . أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه (تليت) أو (تسيسوت) ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه . ومن هذا ترى أن ملابس الناس فى الزمن القديم بل فى جميع أدوار الأمم الخالية حتى فى إبان الحضارة كانت على هذه البساطة ، وليس هذا بغريب فان آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك

(١) هذا اللباس شائع للآن فى أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التى لا تزال على فطرتها الأولى ونشاهده على كثير من أعراب البادية فى احرامهم وفى غير احرامهم

الأزمان ، ولقد كان الناس يستعملون أوّلا فى خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل ثم توصلوا الى استعمال الابر الحديدية ، أما الإبر التى من الصلب فانها لم تخترع إلا فى القرن الرابع عشر للمسيح ولم يذع استعمالها فى أوروبا إلا فى القرن السادس عشر ، وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الاشور بين الذين هم اخوان الكلدانيين الذين خرج منهم ابراهيم لأن كليهما من الجنس السامى ، وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا ـ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ـ ومازالت هـذه السنة قائمة فى حج البيت الى الآن ، وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة والا فالغرض من الاحرام لبس غير المخيط مطلقا اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها الى بساطة الوجود وبداوته ، خرج الى ربه من أبهة الحياة ورفهها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة التى كان مظهرها ذاك الزىّ الذى يمثل الاشـتراكية الحقة بكل معانيها فيستوى فيه الصعلوك والملوك .

هذا الزّى الذى يستقبل الانسان فى مهده و يشيعه الى لحده حتى كأنه يقول الى ربه « اللهم إنى قد نزعت عن نفسى ظاهرها و باطنها رداء قد وشته الأباطيل وموّهته الأضاليل وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك عما أملك طامعا فى نيل مالا أملك من نعم إن عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير و بركة أوأقضى بها إن مت فى سبيلك ومحبتك وطاعتك وأنتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصدّيقين زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »

وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط « لباس الرهبان » الذى رسم عليه كل من تمثالى (غليوم الثانى) أمبراطور ألمانيا والأمبراطورة قرينته وأرسل بهما ليوضعا فى الملجأ الألمانى الذى بنى فى بيت المقدس وسافر البرنس (ايتل) لافتتاحه رسميا بالنيابة عن والده الأمبراطور فى شهر ابريل سنة ١٩١٠

على أنه لايعزب عن فطنتك و ينبو عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيرا أن الانسان لابد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق ومؤثرات الجوّ نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوّته و يستعيد نشاطه بفضل ملاصقة أوكسوجين الهواء لجميع مسام جثمانه ، و بهذه العملية يحترق مافى الدم من الكربون الذى تشبع به أثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم فيعود الى القلب دما نقيا زكيا صالحا لتغذية الحياة بمادة القوّة التى تكون بها العافية التامة والصحة العامة التى هى قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها . لذلك ترى الاوروباويين وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال أوالى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم إلا مايستر عورتهم و يقيمون على هذه الحال شهرا أو أكثر يستعيدون فيه مافقدوه من قواهم فى سبيل العمل طول سنتهم ، وكثيرا مارأيت الفرنجة فى هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر حفاة عراة معرّضين بكل جسمهم للهواء و برودة الجوّ أوحرارة الشمس جملة ساعات وليس عليهم إلا تلك العانة المستعارة التى يغطون بها السئلين ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أوعلاج الهواء ولاغرابة اذا رجعت بنا المدنية الحديثة الى كثير مما كان عليه القدماء فى بداوتهم الذى يسميه الجهلاء خشونة وتوحشا . انتهى ما أردته من تلك الرحلة والحمد لله رب العالمين

واعلم أيها الذكى كما قدّمت لك أن الحياة كلها جهاد وانما أطلت الكلام على الحج لأن فيه أصول سعادة الأمم جسما وروحا فهو نموذج الجهاد العام وأىّ جهاد يفوق توافق الأمم وارتباطها واتحادها وأوّل من قام بذلك رسول الله ﷺ فهو الذى حرّك الأمم شرقا وغربا وهاهى ذه الموجة الى أرسلها فيها قد سكنت فى الشرق ثم تحركت فى الغرب ثم رجعت الى الشرق ثانيا ، كل ذلك لم يقصد منه إلا اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا ورمز لذلك بالوقوف بعرفة والتجرّد من المخيط وغير ذلك من المزايا والاحكام وصرّح بذلك فقال ـ حتى تضع

الحرب

الحرب أوزارها ــ هنالك قال العلماء إن ذلك يوم يصبح أهل الأرض ﴿قسمين﴾ قسم مسلم وقسم مسالم اهـ

﴿ خطابي للمسلمين ﴾

أيتها الأمم الاسلامية ، حكمة الجهاد عامّة تشمل العبادات والأعمال المدنية كلها والصناعات والسياسات ، إن ذلك كله إما فرض عين واما فرض كفاية ، فالصلاة والصيام ونحوها فروض عين والعلوم ونظام المدن والصناعات فروض كفايات وتحتاج الى جموع كثيرة حتى تكفي الأمة ، فالنجارة والحدادة والكهرباء وصناعات السفن والطيارات ونظم المدن كلها فروض كفايات واجب على الأمة أن تتعاون عليها طوعا أوكرها ، وليس عمل من هذه الأعمال يكفي فيه الفرد الواحد فالجموع هي التي تتعاون على كل ذلك

أيها المسلمون ، لقد أودع الله في عقول الأمم وفي أديانها بذور السعادات ، هاهوذا لم يذر العباد يتخبطون ويغرقون في بحر الحياة اللجيّ بل أسعفهم بأصول العلم وغرسها في أفئدتهم وفي عاداتهم وفي دياناتهم ، لك الحمد يا الله على نعمك العامّة ، أنت الذي ألهمت القدماء ألايبنوا بناء ولايعملوا عملا إلا نقشوه على الأحجار وكتبوه في الطوامير وأبقاه الأوّلون للآخرين ، أنت يارب أبقيت آثار الأولين ليتبعها الآخرون ، هذه مصر والعراق والشام وبلاد الهند وأمريكاوالصين وأوروبا يظهر كل يوم فيها كنوز مدفونة وأجسام مطمورة ونقوش مفهومة أبقاها الأوّلون للآخرين ، أنت الذي دفنت الفحم الحجري قديما ثم أبرزته لأهل الأرض الآن ليكون من أكبر أساس السعادة في العالمين ، فالأرض ملأتها بالذخائر والنفائس والنقوش وأودعت فيها وفي الجوّ كهرباء تصل الناس بعضهم ببعض وهم يتعجبون ، ولما كانت الديانات في الأرض من وحيك ونزلت بأمرك وقبل الناس دعوة الرسل بالهامك كنزت فيها علوما وخزنت فيها حكما كما كنزتها في الأرض والهواء والماء والسماء ألهمت الأنعام والحشرات وكل حيوان إلهامات كلها نافعات لها وأنزلت للانسان ديانات وجعلتها هدى للعالمين في كل زمان بحسبه ، وهذا ديننا كنزت فيه علوما وعلوما وهذه العلوم لايثيرها إلاالبحث والتنقيب ، التوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج التي هي أركان الاسلام قد كنزت فيها سعادات الأمم ، هذه الصلاة التي هي بعض الجهاد المذكور في هذه الآية قد جعلتها مذكرة بجميع الحكمة والفلسفة وماالحكمة ولا الفلسفة إلا ماأجنته السماء وأقلته الأرض ونظام هذا العالم ، المؤمن صباحا ومساء يقول ﴿ ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما الخ ﴾ كما قدّمناه مرارا ، وهل جميع الطبيعيات والرياضيات إلاما في السموات والأرض . الله أكبر . لقد أنعم الله عليّ بنعمة هذا التفسير وماهو إلا سرّ الصلاة التي هي ركن من أركان الجهاد المذكور في هذه السورة وسيأتي فيها ــ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ــ ، فهما يقول تعالى ــ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ــ وفي أواخر السورة يبين أهم أركان الجهاد وهو الصلاة الخ

﴿ رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح ﴾

اعلم أيها الذكي انني من إبان شبابي كنت أرى رؤى كثيرة جدا كلها تدل على ما أعمله الآن وبشرت بأن هنالك عملا نافعا لابد منه ، ولما بلغت سني نحو (٥٩) سنة رأيت وقت الصباح كأني أقول أنا يارب قائم بأعمالي ولاتقصير عندي فأين إذن مابشرت به فسمعت قائلا يقول كذبت انك لاتحضر قلبك في الصلاة فلما استيقظت أخذت أحضر قلبي في الصلاة بقدر الامكان فانفتح الباب لهذا التفسير . ومن عجب أن كثيرا من المسائل تحضرلي بعد الصلاة أوفي أثنائها ، وبسبب هذا الاستحضار عرفت أن الصلاة ملخص العلوم أومفتاح لأصولها وهكذا سميت الفاتحة فعلمت إذن أن المسلمين بتأملهم في الصلاة يصبحون أمة غير هذه الأمة . الصلاة عبادة ولكن اذا كنا نرى الناس يشربون الماء ويأكلون الفاكهة ومع ذلك يحللونهما ويدرسونهما حتى يتم الانتفاع بهما ، فاذا كان الماء والهواء والتراب لايتم الانتفاع بها إلا بتحليلها فكيف بالصلاة والصيام والزكاة والحج ، أفليس انتفاع الجهال بها في العبادة كانتفاعهم بشرب الماء ، أوليس الانتفاع بكشف أسرارها

وماترمى اليه كانتفاع الأمم الآن بتحليل الماء والهواء الخ أليس هذا سرّ قوله تعالى ـ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ـ فالدرجات لأولى العلم أما الجهلاء فلاحظ لهم من العبادة إلا كحظ الشارب من الماء . هذا ما أقوله فى الصلاة وسيتم الكلام عليها فى آية ـ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ الخ ولأذكر الحج بعد الصلاة لأنه هو الذى أفضنا فيه الكلام قريبا وقد ظهر أن الله كنز فيه آثار الأمم وأصبحت الأمم العريقة فى المجد ترجع الى حال البساطة وسهولة الحياة فيسعدون سعادة لم يحلم بها أولئك المترفون الغافلون إذن الحج الذى هو من أركان الاسلام قد حمل فى طياته بذور السعادة والمدنية المستقبلة التى يرجع فيها الانسان الى الاجتماع العام والصحة التامة

فانظروا أيها المسلمون ، صلاة تحثه على الفلسفة وحج يحث على الصحة العامة ونظام الاجتماع العام . وههنا جاء دور الزكاة ﴿ الزكاة ذكر فيها الامام الغزالى انها مساعدة للفقراء ومذهبة لشح النفس فان الانسان اذا ملك حب المال قلبه أقلقه وأحزنه بعده عنه بموته هو أو بأخذه منه ظلما أو بالقضاء والقدر ﴾ ويقول ﴿ إن المقصود من ذلك راحة النفوس ﴾ ونقول نحن فكما أن الصلاة مذكرة بالعلوم والحج بالاجتماع العام وصحة الأبدان هكذا الزكاة يراد بها أن يكون الناس جميعا اخوة كما نقلته عن الامام الغزالى فى أواخر (سورة البقرة) فانه يقول ﴿ إن مال الانسان للأمة كلها عند الخواص أما الزكاة فانما تؤخذ من البخلاء ﴾ فتبين إذن أن انفاق المال بالزكاة متمم لنظام الاجتماع الذى فهمناه من الحج فالحج يعطينا درس الاجتماع العام والصحة والزكاة تكمل ذلك بالمساعدة . وههنا جاء دور الكلام على الصيام

الكلام على الصيام معروف فى الكتب ولكن نحن الآن فى تفسير القرآن وتفسير القرآن انما يكتب لأجل الأمم كلها لأن القرآن كتاب الله والناس عباده والصوم درس من أهم ماظهر منه اليوم فى الأمم علم الصحة ، نعم هو قربى الى الله ولكن فيه فوائد أخرى ، إن علم الصحة اليوم قد تطوّر وأخذ الناس يهجرون المداواة بالعقاقير ويكتفون بالرياضة البدنية والجوع ، يصوم المسلم ويصلى المسلم ويحج المسلم ولكنى أقول إن من أكبر العار أن لاتظهر أسرار هذا الدين إلا على يد الأمم لا على يد المسلمين . يحج الناس ويكتفون من الحج بظواهره ويقف العلماء فى الأمم الاسلامية عن دراسة الحقائق الاجتماعية

الله أكبر . بعد هذا التفسير سيقوم فى الاسلام فطاحل العلماء ويدرسون كل شئ فى الوجود وبعد ذلك يدرسون أركان الاسلام ومتى درسوا عرفوا انها يراد بها اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا على الصحة والتعاون العام . هذا الصيام درسته الأمم فى زماننا وعرفوا بعض سرّه ففتح لهم بابا واسعا من علوم الصحة والمداواة

الله أكبر . وهاأنذا أسمعك ﴿ مقالين * أحدهما ﴾ مقال عن حال زعيم الهندوس الاكبر مهاتما غاندى ﴿ والثانى ﴾ ما جاء فى مجلة « كل شئ » تحت عنوان (المعالجة بالصوم) فهاك ما قاله معرّب كتابه المسمى ﴿ كتاب الصحة ﴾ ومعرّبه الاستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادى وهذا نص ماقاله فى مقدمة التعريب

إن من سوء حظ الشرق أنه لم يفقد استقلاله السياسى فحسب بل قد فقد استقلاله الفكرى أيضا ولذلك تراه يقلد الغرب فى كل شئ حتى إنه أصبح لايتفكر فى نفسه ولايقيم للأشياء وزنا ولايميز بين الحق والباطل بل لازال نظره الى الغرب فان رآه يقول لشئ إنه حق قال هذا أيضا إنه حق وبالعكس

أنا لا أكره الغرب ولا أنكر فضله فى العلم والمدنية ولا أحرم الاقتباس والاستفادة منه ولكن الذى افجعه وأشمئز منه هو الاستعباد الفكرى للغرب لأن هذا الاستعباد اذا تمكن من نفوسنا لن نسترد حريتنا السياسية المغصوبة ولن نجدد أسس قوميتنا المهدمة . أقول هذا لأنى أخشى أن ينبذ فريق من القراء هذا الكتاب قبل أن يطلع عليه ، لا لأنه لايستحق النبذ بل لأنه جاء من مصدر شرقى [illegible] فيحسبه بضاعة شرقية ، فلذلك أرجو من هو على هذه الشاكلة أن يتمهل فى الحكم عليه [illegible] فان [illegible] ماعرفه إن شاء ،

واني تطمينا لهؤلاء أقول إن هذه الآراء ليست خاصة بغاندي وحده بل هناك فى أوروبا وأمريكا أيضا ثورة كبيرة على الطب وأساليبه وأدويته بل إن تقدم العلوم أخذ يهدم أركان هذا الطب الذى نسميه (الحديث) ويسمونه هنالك (القديم)

الى أن قال « إن هذا الزعيم كذلك يدعو الناس الى المعيشة الفطرية الساذجة ونبذ البذخ والترف والى التخلق بالأخلاق الفاضلة والمحبة الشاملة العامة والتمسك بجميع مافى الأديان من الخير والتقوى وخشية الله والرأفة بالبشر . ليت شعرى كيف يكون عجب المغترين بالمدنية الغربية اذا رأوا هذا الزعيم الهندى بأعينهم، انهم ليرونه عاريا حافيا حاسرا قد تجرّد من الملابس قائلا لا يصح لى أن أتجمل بالملابس والملايين الكثيرة من بنى جلدتى لا يجدون مايسترون به عوراتهم ويقون به أجسادهم من الحرّ والبرد ، فتراه الآن متجردا ليس على جسده لباس اللهم إلا إزار صغير يستر به عورته . وكذلك شأنه فى مأكله ، لا يأكل المشتهيات والملذات والأطعمة الشائقة ، ليس ذلك لأنه يرى رأى المتقشفين الغفل الذين يحرمون أنفسهم من الطيبات ويحسبون ذلك قربة الى الله بل يرى ذلك مضرا بالصحة البدنية والعقلية فلذلك نراه لا يأكل الملح ولا اللحم ولا العدس ولا الحبوب ماعدا خبز القمح نادرا وقد حصر غذاءه فى الفواكه وهو يكثر من أكل البرتقال والموز ويفضلهما على غيرهما من الفواكه »

الى أن قال « وأكبر دليل على قوته انه صام أربعين يوما متتابعة لم يذق فيها أي شئ ومع ذلك لا أغمى عليه ولا أحس بضعف بل مازال يكتب لجرائده المقالات ويغزل كل يوم من القطن المقدار الذى قرّره لنفسه ومن أعجب ما رأيناه أنه بينما كان ثقله قد قلّ كثيرا فى الاسبوع الأوّل من الصوم حتى خافوا على نفسه أخذ يزداد وزنا بعد ذلك وقد تحير الأطباء فى تعليل ذلك . ثم انه فوق ذلك قد ملك زمام نفسه فيعيش كما قرّر لنفسه أن يعيش فلا ينام إلا القدر الذى قرّر أن ينام ويقوم بجميع أعماله بنظام تام بدون أن يطرأ عليه أى خلل ثم انه لا يغضب أبدا ولا يستعجل ولا يفزع بل يبقى دائما هادئا مطمئنا كأنه مالك نفسه سخرها فأصبحت له أطوع من بنانه . ومن عجيب أمره انه يعيش مع زوجته ولكنه يحسبها كأخته أو أمه كما صرّح بذلك فى إحدى خطبه فقال « أنا وزوجتى قد اتفقنا على أن نعيش كالأخ والأخت أو كالابن والأب أو البنت والأم فأنا لها كأب وهى لى كأم » وكلامه هذا لا ارتياب فيه لأن عيشته مفتوحة وليست بسر وهو لا يكذب أبدا مهما اضطرته الأحوال اه » هذا ما أردت نقله من ذلك الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين

وأقول ، إن هذا الزعيم الهندى قد جمع بين فضيلة الصيام وفضيلة الحج فاستفاد بهما صحة وقوة . هاهوذا تجرّد من أكثر الثياب . وهاهوذا قلل الطعام فنال الصحة والعافية . ولست أقول ان هذا عبادة ولا انه يثاب عليها . كلا . لأن الصيام لا يصح إلا من مسلم وكذا الحج وأيضا الحج انما يكون بمكة لا بالهند ولكن ليس المقام فى خصوص التدين بل المقام فى أن منافع الصوم ومنافع بعض مناسك الحج فى حدّ ذاتها مقوّية لصحة الانسان كما قرّرناه . فهذه فى الحقيقة دراسة للحج والصيام من بعض الوجوه . وعلى المسلمين بعدنا أن يتولوا هذه الدراسة ليتموا مانقص فى أمم الاسلام . انتهى الكلام على المقال الأوّل

﴿ المقال الثانى ﴾ ماجاء فى مجلة « كل شئ » بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٢٧ تحت العنوان الآتى

(الصوم للمعالجة)

كان الناس ولا يزالون للآن يصومون للأغراض الدينية وقد يكون صومهم كليا أو جزئيا ، فى الهند يعمد الصالحون الى الكف عن الطعام كلية جملة أيام ، ولا يزال بعض الأقباط فى مصر يصومون عن الطعام والشراب كلية ثلاثة أيام فى ذكرى يونس الذى بلعه الحوت ، أما الصوم الجزئى فى الامتناع عن اللحم كما يفعل بعض

المسيحيين الى الآن

وجميع الذين يصابون بكثرة الزلال فى الدم أو بتصلب الشرايين ينصح لهم الأطباء بالامتناع عن اللحم وخاصة ذلك اللحم الأحمر و بالامتناع أيضا عن تناول زلال البيض ونحوذلك بل من الأطباء من ينصح لكل من جاوز سن الأربعين أوالخمسين أن يمتنع كلية عن اللحم والاقتصار على الأغذية النباتية ، وقدفشت عادة الصوم فى هذه الأيام حتى ان طبيبا فرنسيا يشير على كل انسان جاوز الأربعين أن يصوم صياما كاملا يوما فى الاسبوع ، ويشير أيضا بأن يتعاطى مسهلا فى الصباح حتى تبقى أمعاؤه فارغة لايشغلها شاغل يوما كل أسبوع ، ومن الأطباء من ينصح بالامتناع عن العشاء للسنين

ولكن فائدة الصوم ليست للامعاء وحدها بل هى أيضا للجسم كله وذلك لأن الجسم اذا لم يحمل الدم الى خلاياه طعاما جديدا انكفأ على نفسه تأكل منه الخلايا القوية الخلايا الضعيفة وفى الوقت نفسه بزوال الشحم من الجسم تتطهر المسالك وتحمل معها فضلات كانت تعوق الدورة الدموية فاذا انتهى الصيام بعد ثلاثين أو أربعين يوما لم يبق بالجسم سوى خلايا قوية . وللجسم عقل يهتدى به أيام الصيام فهو يتخلى عما لافائدة فيه الى مافائدته صغيرة ، أماالأنسجة التى لا يمكن الجسم العمل بدونها فلاتتلف من الصيام . فاذا شرعنا فى الصوم فاتنا نفقد أوّلا الشحم ثم اللحم ، أماالأعصاب ومادّة الدماغ فلاتنقص درهما واحدا بعد صيام ثلاثين أوأربعين يوما وذلك لأن مادة الأعصاب ثمينة وعليها ميزان الجسم كله وعقله وهى اذا فقدت شيأ لم تستعضه . أما اللحم والشحم فيمكن استعادتهما بعد فقدهما . والصيام الذى يمارسه الناس للمعالجة الآن هو عن الطعام فقط . أما الماء فان الصائم يشرب كمايحب و يشتهى لأنه فى حاجة اليه حتى يغسل خلاياجسمه وأنسجته و يحمل معه الفضلات و يطهرها منها ، و بعض الصائمين الآن يضع قطرات من عصارة الليمون أوالفاكهة أوالخضراوات الطازجة على الماء حتى لايحرم الجسم من الفيتامين لأن جسم الانسان قد يستطيع أن يعيش بلاطعام نحو خمسين أو ستين يوما ولكنه لا يمكنه أن يبقى هذه المدة بلافيتامين

ويمكن كل انسان أن يمارس الصيام ولكن يجب الحذر من الافطار لأن الصائم اذا بقى نحوعشرين يوما بلاطعام رقت جدران معدته وأمعائه واعتاد جسمه حالة الصوم فاذا فاجأ قناته الهضمية بطعام جامد فقديؤذى نفسه بذلك أذى كبيرا إذ قد يغمى عليه من هذه الصدمة وقد ينخرق جدارالامعاء أوالمعدة ، فالافطار يجب أن يكون رويدا رويدا حيث يمتص الصائم جرعة بعد جرعة

ونحن نذكر فيما يلى تجارب المستر (ارفنج) وهو رجل انجليزى صام خمسين يوما بغية التخلص من ضعف المعدة وضعف الأعصاب الناشئ عن تراكم الفضلات فى الجسم ، فقد قال انه ابتدأ أوّل يوم من الصيام بأن شرب ستة أكواب من عصارة البرتقال وفى اليوم الثانى شرب أقل من ذلك من هذه العصارة أيضا وفى اليوم الثالث لم يشرب سوى الماء القراح و بقى على ذلك عدّة أسابيع وكان أحيانا يمزج الماء بقطرات من عصارة الليمون . و بعدالاسبوع الأوّل من الصيام زالت الشهوة للأكل فكان يتريض بالمشى ميلين أوثلاثة فى اليوم على مهل وفى غيرمشقه وكان لسانه قداكتسى بفرو أبيض يكاد ينفصل عنه اذا مسح . ويقول الراسخون فى فن الصوم «إن الصحة لاتعود الى الجسد حتى يزول الفرو الكاسى للسان» ولكن الواقع انه لايزول تماما وانما عند اقتراب نهاية الصوم يتحسن اللسان و يرق هذا الكساء من الفرو ، وكان المستر (ارفنج) قد هبط وزنه واستمرّ الهبوط الى الاسبوع الرابع حين وقف الجسم فلم يفقد فى الأسبوعين سوى رطل أورطلين فقط . وفى اليوم الثامن والأربعين جلس فى الشمس فنام نوما طويلا استيقظ منه وهو فى غاية الضعف وقضى اليوم التاسع والأربعين وهو فى الفراش . وفى اليوم الخمسين عاد اليه نشاطه فنهض وزال عن لسانه بعض فروه فقنع بهذه المدة وخاصة عند مارأى أن الآلام التى كان يشكومنها قدزالت كلها

أما كيفية رجوعه فانه شرب فى اليوم الحسين نصف كوب من اللبن تمصصه كما يمص الاسيان الليمونة . وفى اليوم التالى صار يشرب كوبا من اللبن كل ساعتين فيمتصها أيضا و بعد ذلك يتناول كوبا من اللبن كل نصف ساعة واستمرّ على ذلك أربعة أسابيع تناول فى نهايتها (محجة) وكان قدفقد فى صيامه ٤٦ رطلا استعادها وزاد عليها ، ومن غريب ما رأى انه كان يلبس نظارات لقصر نظره فلما صام عاد اليه نظره كله سليما اه

﴿ ضرب مثل لحال العابدين الذين يفكرون فى العبادة بحال قراء القرآن بلاتعقل ﴾

اعلم أن مثل العباد الذين يعبدون ولايفكرون فى عبادتهم ولايعرفون مقصودها كمثل من يقرأ القرآن بلافهم ولاعقل فكلاهما له ثواب على مقدار نيته ولكنهما فى مرتبة ضعيفة ، هذا فى القراءة وهذا فى العبادة فاذا فكر العابد وأدرك معانى الكلمات التى يقرؤها فى الصلاة التى يقيمها ومقاصد الزكاة التى يؤتيها ومناسك الحج التى يؤدّيها وعبادة الصوم التى يتقرّب بها كان هؤلاء كلهم أشبه بمن يفهم معانى القرآن و يعمل به ، فاذا ارتقى العابد عن هذه الدرجة أدرك السرّ المصون والجوهر المكنون كالذى ذكرناه هنا فى أمر أركان الاسلام وانها بذور لسعادة انسانية عامّة فى الطب وفى الاجتماع والتعاون العام كان ذلك خليفة الله فى أرضه وكان أشبه بمن ارتقى عقله فى القرآن وأدرك أن علوم الحكمة كلها وأسرارها موافقة للقرآن وأن هذه العلوم كلها لاتخالف بينها و بين القرآن الذى أنزله الله بالوحى وانه كلما كان الانسان أضعف منزلة وأقل فهما وأسخف رأيا تباعدت مسافة الخلف بين دينه و بين العلوم عند عقله ، وكلما ارتقت نفسه منزلة وازداد عقله كمالا تقارب العلم والدين عنده على مقدار ارتقاء علومه وعقله والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

الجهاد على ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ جهاد بالغريزة . وجهاد بالعقل . وجهاد بالوحى . والأخيران أفضل من الأوّل . إن الجهاد بالغريزة لايعوزه عقل ولافكر ولاروية فهو أضعف رتبة وأقلّ قيمة ، فأما الجهاد بالعقل و بالوحى فهما أرقى منزلة وأكمل شرفا وأعظم قدرا

ألاترى رعاك الله أن هذا الانسان فطر على ألايعجب إلا بممنوع وألايفرح إلا بما تباعدت أقطاره وصعب نواله وعزّ مطلبه وتمنع وتولى بركنه كما نرى أن الماس والياقوت والزبرجد وأمثالها من الأحجار الثمينة يحرص عليها الناس كل الحرص لغلاء ثمنها وصعوبة مطلبها ووعورة طرقها وهم يشاهدون أمامهم فى منازلهم وحقولهم وسمائهم زهرا جميلا وكوكبا مشرقا متلألئا أجمل من الياقوت والماس والزبرجد وأبهج وأعلى ولكن الزهر والكواكب مبذولات والماس والياقوت ممنوعان ، لذلك رغب الناس فى الممنوع وزهدوا فى المبذول ولذلك نجد الكواكب فى السماء لايفرح بها الجهلاء وانما يفرح بها المفكرون من العلماء ويحقرون الأحجار الثمينة وأنواع الزينة فى هذه الأرض اذا وازنوها بما عرفوا من جمال الكواكب وسيرها فى مداراتها ودقة حسابها و بهجة نظامها ، فالجاهل وقف عقله عند الزبرجد والياقوت والعالم ارتقى فحقرهما ولكنه سعى سعيا حثيثا وجدّ حتى ارتقى الى الأفلاك . كلاهما لاسعادة له إلا بالجهاد . فالجاهل جاهد بالمال حتى نال الماس والزبرجد والياقوت . هنالك وقف عقله وحطّ رحله وأنشد

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى * كما قرّ عينا بالإياب المسافر

والعالم جاهد جهاد الأبطال فى ارتقاء عقله و بذل ثمن ذلك النوال بالسهر والنصب والتعب والجد وأنشد

على قدر أهل العزم تأتى العزائم * وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها * وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقال آخر — ومن تكن العلياء أكبر همه * فكل الذى يلقاه فيها محبب
وقال غيره — فالمنايا ولا الدنايا وخير * من ركوب الخنا ركوب المنايا
وقال غيره — لاتحسب المجد تمرا أنت آكله * لاتبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

اذا عرفت هذا فهاك نبذة فى الجهاد بالغريزة ثم أتبعها بنبذة فى الجهاد بالعقل ثم أذكر تأييد الوحى للعقل فى الجهاد وذلك فى ﴿ ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الأول فى الجهاد بالغريزة ﴾

إن من قرأ هذا الكتاب أوجلة صالحة منه عرف كثيرا من غرائز الحيوان فانه يراه مفرّقا فى سور كثيرة فانظر رعاك الله فى (سورة النحل) واعجب من نظامه ونظام الأرضة فانك تراها مرسومة هناك فى جانب رسم ملكة النحل وجنودها المحيطين بها . فهاتان دولتان عظيمتان دولة الأرضة ودولة النحل ومثلهما دولة النمل . الله أكبر . جلّ الله . إنك يا الله رحيم لطيف حكيم عليم ألهمت الأرضة فجعلت لها دولة لاتضارعها فى ارضنا دولة من دول الانسان ولاالحشرات ولاالطيور وعدد كل دولة من دول الأرضة لايعرف منتهاه فهى أعظم من مملكة النمل والنحل . واذا كان الناس الآن وجدوا أن أعظم دولة للنمل عرفوها قد بلغت (٥٠٠) خمسمائة مليون نملة ولا نظير لها فى الممالك الأرضية إلا الدولة الصناعية المتكافلة التى هى انكلترا بل هى لم تصل لهذا العدد مع ملحقاتها التى ليست ملتئمة بها إلتئام رعايا النمل . أقول عرف الناس ذلك كما تقدّم فانهم لم يقدروا أن يحصوا مملكة واحدة من ممالك الأرضة كما تقدّم شرحه فى سورة النحل وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى (سورة سبأ) عند آية — مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته —

هاأنا ذا أيها الذكى ذكرت لك ممالك ثلاث أنت عرفتها فى هذا التفسير مشروحة فاقرأها فى سورة النحل وفى سورة النمل وفى سورة سبأ وأقتصر لك عليها فى بيان الجهاد بالغريزة . فهذه وغيرها من الطيور والحشرات وحيوانات البرّ والبحر ترى جهادها جهادا اجتماعيا لافرديا فأيقنا بهذا أن الجهاد كلما كان من جمع كان أقوى وأعظم وكلما كان فرديا كان أضعف وأقل فائدة . والعبرة فى هذا أن الناس كلما كانوا أكثر عددا فى العمل والجهاد كانت الثمرة أضعافا مضاعفة على مقدار كثرة العدد على شرط أن تكون الجماعة مهما كثرت على رأى واحد ومشرب واحد وفكرة واحدة ونظام قوىّ متين . فاذا كان الجهاد بالغريزة الذى أثبتنا انه أقلّ مرتبة من الجهاد بالعقل وبالوحى لم يكمل إلا بالاجتماع فليكن ذلك الاجتماع فيما هو أكمل منه أكثر وجوبا وأولى بالعناية . انتهى الكلام على الجهاد بالغريزة

﴿ الفصل الثانى فى الجهاد بالعقل ﴾

أيها الذكى ، إن العلم سعادة وهناء ، وأى سعادة وأى هناء من أن نجد فى هذا المقام أن غرائز الحيوان فى اجتماعها قد اتصلت بآراء الحكماء والفلاسفة

أيها الذكى ، اننا بالبحث فى العلم كلما أوغلنا ازددنا بهجة وسعادة ، وأىّ بهجة وأى سعادة أعلى وأدوم من اتفاق الغرائز فى الحيوان مع عقول الحكماء فى الشرق والغرب ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان عقول الناس كلها انما تسعى لترجع العلم كله والحياة كلها الى مبدإ واحد وقاعدة واحدة ، فكلما وصلوا لهذا التوحيد فى عمل ما أحسوا بالهناء والسعادة وكلما تباعدت القواعد واختلفت الاصول كانت العقول أقرب الى الشقاء وأبعد من السعادة لما تجد من التناقض والاختلاف فى هذا الوجود

هذه الحشرات وهذه الطيور وهذه الأنعام نرى أكثرها كوّنت لها ممالك منظمة أيما نظام متقنة أيما اتقان ، فهل تحب أن أنبئك نبأ عقول الحكماء والعلماء ، انظر كيف ضربوا الأمثال للاجتماع . انما ضربوا الأمثال بنفس الحيوانات واجتماعها وائتلافها واتحادها فى طلب النافع والفرار من الضار ، وانما ضربوا هذه الأمثال بالحيوانات لأنهم أيقنوا بعقولهم انها لوحهم المقروء وكتابهم المفتوح ومدرستهم العامّة ، فالأمم قديما قبل نزول الانجيل والفرقان كانوا يضربون الأمثال بالحيوان للاجتماع وان كان ذلك ضربا من الصور على طريق الخيال لأنه أقرب الى الأفهام وأدعى الى الاقبال . يقصدون بذلك أن الجهاد يكون أتم كلما كان عدد

المجاهدين أوفر ونظامهم أتم . فانظر الى أمثال ﴿كليلة ودمنة﴾ الذى ألفه بيدبا الفيلسوف وترجمه عبد الله ابن المقفع الى العربية بعد أن ترجمه (برزديه) الطبيب الفارسى الذى كان أبوه من المقاتلة وأمه من عظماء بيوت الزمازمة من الهندية الى الفارسية فان من الأمثال هنالك ماجاء فى باب الأسد والثور من تمثيل (بيدبا) الفيلسوف رأس البراهمة للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء ثم لايلبثان أن يتقاطعا و يتدابرا بالأسد والثور اللذين تحابا وحصلت بينهما المودّة والمحبة . ثم جاء (دمنة) وأخذ يشى بينهما ويقول للثور ياثور إن الأسد يريد أكلك وقال للأسد إن الثور يريد مقاتلتك وعلامة ذلك انك اذا توجهت اليه وجدت حركات غريبة فلما رأى الأسد الثور خاف الثور واضطرب فظنّ انه يريد مقاتلته ففتك بالثور الأسد ثم ظهرت الحقيقة بعد ذلك وحكم على (دمنة) جزاء كذبه

ومن تلك الأمثال مثل الحمامة المطوّقة فقد ضربها ذلك الفيلسوف ليعلم الناس انهم يقدرون على الاتحاد سواء أكانوا من وطن واحد وأمة واحدة أم من أوطان مختلفة وأمم كثيرة . ذلك أن دبشليم الملك قال لبيدبا الفيلسوف قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب والى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك فحدثنى ان رأيت عن اخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم و يستمتع بعضهم ببعض فذكر الحمامة المطوّقة وهى سيدة الحمام إذ وقعت هى وهنّ فى الشبكة فخطبتهنّ خطبة قالت « لاتخاذلن فى المعالجة ولاتكن نفس إحداكنّ أحب اليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون جميعا فنرفع الشبكة » فلما علت الحمامات فى الجوّ استعانت المطوّقة بجرذ كان صاحبها قديما يسمى (زيرك) فنزلت معهنّ بالشبكة عنده فقرض الشبكة حتى فرغ منها فنجت المطوّقة وأخواتها . فلما رأى الغراب صنع الجرذ مع الحمام أحب مصاحبته وانضم اليهما السلحفاة والظبى . فكما تعاون الحمام الذى هو من نوع واحد تعاون الغراب والظبى والجرذ على نجاة السلحفاة حين جاءها الصياد ليقتنصها . هذه أساليب تلك الأمثال التى ضربها حكيم الهند لجهاد الانسان المؤيد بالجماعة اتهاجا لخطة الحيوان بغريزته وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فى الجهاد بالوحى الذى هو أعلى من سابقيه ﴾

قد ذكرنا آنفا أن الهدى ﴿ بثلاث طرق ﴾ طريق الغريزة ، وطريق العقل ، وطريق الوحى ، وكل مرتبة أرقى مما قبلها وأقلّ مما بعدها ، وربما يظنّ قوم أن غريزة الحيوان كوحى الأنبياء وربما يستدلون بقوله تعالى ــ وأوحى ربك الى النحل ــ وهذا خطأ فان الغريزة فطرية ساذجة وان كانت صادقة والوحى أمر علوى يحكم العقل و يصقله و يرقيه ، فالوحى جاء لتنظيم العقول والغريزة لنظام العمل فى الحيوان والعقول الانسانية أرقى من الأعمال الحيوانية ومنظم الأعلى أرقى من منظم الأدنى

هاأنت ذا رأيت غرائز الحيوان فهى بها مجاهدات وعقول الحكماء وتعليمهم للناس فقد جاء على مقتضى غريزة الحيوان ، فهل لك أن أسمعك ماجاء بالوحى فاقرأ ماستسمعه واعجب من هذا الوجود ، حيوان ذو اجتماع بغريزته وانسان يتعلم الاجتماع بتعليم حكمائه ثم أنبياء تراهم ينظمون اجتماع الانسان على نسق غرائز الحيوان وحكمة الحكماء فى الانسان بحيث يصقل تلك العقول و يهيئها

فاسمع ما أقصه عليك من جهاد رسول الله ﷺ عسى أن تنهج نهجه . فانظر كيف كاتب الأمراء والملوك وحملهم على التآلف والتآزر والمودّة والاخلاص حتى اتحدوا والتأموا وصاروا أمة واحدة يشار اليها بالبنان . فهاهو ذا جهاد الغريزة وجهاد العقل اللذان بدأهما الله فى الحيوان والانسان أكملهما بما هو أعلى فأرسل نبينا ﷺ يذكر العقول بما اختفى فيها من الكمال الفطرى ــ انما أنت مذكر ــ إنا نحن نزلنا الذكر ــ فما الوحى إلا تذكير الناس بما سترته عاداتهم وتقاليدهم عن فطرهم المرتبقة الالهية المستمدّة من سماء الكمال وكمال الجمال

(خير مناهج الجهاد)

اعلم أن للجهاد مناهج وطرقا مذللة عبدها (بتشديد الباء) أناس مضوا قبلنا وخير المجاهدين من درس سير العظماء والعلماء والحكماء ، فلتقرأ أيها الذكي سير أولى العلم والحكمة واعلم أن الله ماخلقنا فى الأرض إلا لتنمى كل قوانا التى خلقها فينا وفصلها تفصيلا . أما والله ليسألن كل امرئ عن هذه الأعضاء المفصلة وهذه الحواس المكملة وهذه العقول المحكمة وعما أعطيت من نعم وماأتيح لها من قوى وقدر

واعلم انك مسؤل عما أودع فيك من هذه العطايا والنعم فجاهد أمد الحياة ولتبدأ بجهاد نفسك ، فاذا رأيت منها خورا أوضعف عزيمة فاستعن بالله وأدم الدعاء وثق به فانه يجيب دعاءك لاسيما اذا كان هذا الدعاء عن شدة وولوع بما تدعو اليه فتكون أشبه بالمضطر فهنا الاجابة محققة لاشك فيها

وخير من تقتدى بهم فى جهاد نفسك وفى ارشاد غيرك رسول الله ﷺ فاذا ألمت بك حاجة فادع كما دعا رسول الله ﷺ إذ يقول « اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرّى وعلانيتى لايخفى عليك شئ من أمرى أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المعترف بذنوبى أسألك مسألة المسكين وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لاتجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رؤفا رحيما ياخير المسؤلين وياخير المعطين »

ومن دعائه ﷺ فى الاستسقاء « اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا (١) نافعا غير ضار عاجلا غير آجل » ومن دعائه « اللهم حوالينا ولاعلينا ، اللهم على الآكام (٢) والجبال والظراب (٣) و بطون الأودية ومنابت الشجر » ومن دعائه « اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريعا غدقا مجللا (٤) عاما طبقا (٥) سحا (٦) دائما ، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد (٧) مالانشكوه إلا اليك ، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض ، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا فأرسل السماء علينا مدرارا »

واذا أصابك همّ أودين فقل ما أمر به رسول الله ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » فاذا دعوت به وداومت فان الله يجيب دعاءك كما روى فى الحديث وهكذا من الأدعية التى وردت فى الصحاح ، فاذا قويت نفسك وهذّبت ورأيت فيها ميلا قويا الى الارشاد والنفع العام فاعلم انه لايقف أمامها مايمنعها ولا يصدها أحد فى العالمين . واياك أن يصيبك خور أوضعف واسمع مارواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوىّ خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولاتعجز وان أصابك شئ فلاتقل لوأنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدّر الله وماشاء فعل فان لو تفتح عمل الشيطان »

(١) المرئ الطيب السائغ والمريع المخصب وكلاهما بوزن كريم
(٢) جمع أكمة وهى الرابية
(٣) الجبال الصغار واحدها ظرب ككتف
(٤) الغدق المطر الكبار القطر ، والمجلل الذى يجلل الأرض ويعمها بمائه أونباته
(٥) مالئا للأرض مغطيا لها
(٦) قوله سحا بفتح السين وتشديد الحاء أى دائم النزول
(٧) اللأواء الشدة والجهد المشقة كقفل

الشيطان » واعلم علما ليس بالظن أن الله لما خلق هذه النفوس الانسانية جعل قواها موزعة على مايحتاج اليه النظام . واعلم انك اذا منحت منحة إفاضة الخير والارشاد والتعليم فان تأثيرك على سامعك حاضرا وعلى قارئ كلامك غائبا لن يكون إلا على مقتضى ماتمتلئ به نفسك فعلى مقدار الأحوال المضمرة فى نفسك تكون نتائج كلامك . اننا نرى النار تحرق بجوهرها وكذلك الماء يحيي بنفس جوهره لابعوارض فيه وهكذا السم السم فى الإهلاك والدواء فى الشفاء . كل هذه مؤثرات بأنفسها وطبائعها هكذا شأن التعليم والارشاد ، فاذا رأيت نفسك متجهة وطال الأمد على هذا الاتجاه فاعلم انك رجل قد أذن لك وقد اصطفيت لترقية العقول واصلاحها فشمر عن ساعد الجد وادرس سيرة رسول الله ﷺ وسير الصحابة وعظماء الأمة وحكمائها واقتف آثاره ﷺ فى وعظه وارشاده للأفراد وللجماعات الذين كانوا معه ولمن بعدوا عنه ، فاذا رأيت هذا كله مغروسا فى نفسك من غير تكلف ولاتصنع فاعلم انك منصور مقبول الوعظ والارشاد فجاهد فى الله بعد أن تقرأ أمثال ماقاله ابن شهاب « بلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول اذا خطب ، كل ماهو آت قريب لابعد لما هو آت ولايعجل الله لعجلة أحد ولايخف لأمر الناس ، ماشاء الله لاماشاء الناس ، يريد الله شيأ ويريد الناس شيأ ماشاء الله كان ولوكره الناس ، ولامبعد لما قرب الله ولا مقرب لما بعد الله ولا يكون شئ إلا باذن الله » وهكذا تقرأ خطبته ﷺ لما قدم المدينة * قال ابن اسحق ﴿ كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ مالم يقل . انه قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال (أما بعد) أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن[1] والله ليصعقن[2] أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولاحاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلايرى شيأ ثم لينظرن قدامه فلايرى غير جهنم فمن استطاع أن يتقى بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴾

قال ابن اسحق . ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال ﴿ إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا من يهد الله فلامضل له ومن يضلل فلاهادى له وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الاسلام بعد الكفر فاختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ولاتملوا كلام الله وذكره ولاتقس عنه قلوبكم فانه قد سماه خيرته من الأعمال فاعبدوا الله ولاتشركوا به شيأ واتقوه حق تقاته وأصدقوا الله صالح ماتقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن ينكث عهده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3] ﴾

وتقرأ ماورد عن أحمد بن حنبل انه ﷺ قال « أما بعد فان رجالا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وانهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده فينظر من يحدث منهم توبة الخ » وتقرأ خطبة حجة الوداع . لما زالت الشمس يوم عرفة أمر ﷺ بناقته القصواء[4] فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادى فخطب الناس خطبة عظيمة نذكر لك نصها من رواية ابن هشام فى سيرته وهاهى ذه

(١) بنون التوكيد

(٢) من باب علم

(٣) روى ذلك هناد وعن أبى سلمة مرسلا

(٤) القصواء لقب ناقة رسول الله ﷺ ولم تكن قصواء أى مقطوعة طرف الأذن

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير ، أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث (وكان مسترضعاً في بني ليث فقتله هذيل) فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية (أما بعد) أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء[(1)] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متوالية[(2)] ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . (أما بعد) أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان[(3)] لا يملكن لأنفسهن شيئاً وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟ فقال الناس اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ اللهم اشهد »

فإذا قرأت هذه الخطب وأمثالها علمت أن لكل مقام مقالا وأن بعض فرص الحوادث والوقائع فهنالك تسمع فيها وينصت السامعون له ويسمعون . فإذا ذكر كسوف الشمس يوم مات إبراهيم ﷺ فجعله كسوف الشمس وجعلها موعظة ووعظ . فهكذا فلتكن تعلمك على حسب الوقائع والأحوال ولكن أنت تراعي زمانك باجتهادك أن تعظ وإذا رأيت ظلماً عم وفساداً طغى فتذكر قوله ﷺ في بعض خطبه : « أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ، ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه[(4)] فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأرض الأرض ، ألا إن خير الرجال من كان بطيء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الرضا فإذا كان الرجل بطيء الغضب بطيء الفيء وسريع الغضب سريع الفيء فإنها بها ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشر التجار من كان سيء القضاء سيء الطلب . فإذا كان الرجل حسن القضاء سيء الطلب أو كان سيء القضاء حسن الطلب فإنها بها ،

(١) النسيء التأخير في الوقت كان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر

(٢) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم

(٣) عوان بالفتح جمع عانية لا يملكن أرواحهن أي أسيرات أي أمانات عندكم

(٤) الأوداج عروق الدم في العنق

ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة ألا لا يمنعن رجلاً مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه . ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر . ألا إن مثل ما بقي من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه »

وهيئ نفسك لتذكر الناس بأمثاله . ومتى علمت قبول جهادك فمن يليك ورأيت النفوس مشرئبة لما تقول متشعبة طرقها في جهادك وأن عواطفك قد أشربت قلوب من حولك فأشربوا عطفك وهديك فهنالك يجب عليك أن تخاطب من بعد عنك كما فعل رسول الله ﷺ . فقد كان رسول الله ﷺ يريد أن يجعل الناس كلهم في الأرض أمة واحدة فلينسج على منواله ولتوقظ العقول الإسلامية لتسعى لإصلاح الأرض مع الأمم . أفلا نتعجب منه ﷺ إذ أخذ يدعو الأمم أمة أمة فاقرأ ما كتبه ﷺ إلى صاحب اليمامة

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة(١) بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر(٢) فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك (وكان الحامل لهذا الكتاب سليط(٣) بن عمرو العامري فأكرم هوذة وفادته) وكتب إلى النبي ﷺ يقول ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك وأجاز سليطاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر فقدم بذلك كله إلى النبي ﷺ فأخبره وقرأ النبي ﷺ كتابه فقال لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت باد وباد ما في يديه . وقد مات هوذة مرجع رسول الله ﷺ من الفتح »

ثم اقرأ ما كتبه إلى ملك عمان « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر(٤) وعبد ابني الجلندي(٥) سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكما بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص فخرج به حتى وافى عمان . قال عمرو فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً فقلت إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك فقال أخي المقدم عليّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك . ثم قال وما تدعو إليه ؟ قلت أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمداً عبده ورسوله قال يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة قلت مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ ووددت أنه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للإسلام قال فمتى تبعته ؟ قلت قريباً فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت أقروه واتبعوه قال والأساقفة والرهبان تبعوه ؟ قلت نعم قال انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب قلت ما كذبت وما نستحله في ديننا ثم قال ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشي . قلت بلى قال بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت كان النجاشي يخرج له خرجاً فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لا والله لو سألني درهماً واحداً ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له يناق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجاً ويدين بدين غيرك دين محمد قال هرقل رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال انظر ما تقول يا عمرو قلت والله صدقتك قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه . قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر

(١) هوذة بوزن جوهرة
(٢) الخف للبعير والحافر للفرس وتطلقان عليهما
(٣) سليط بوزن جميل
(٤) بوزن جعفر (٥) بضم ففتح فسكون وهو مقصور

وصلة الرحم و ينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وعن الخروع عن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال ماأحسن هذا الذى يدعو اليه لوكان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه و يصير ذنبا . قلت إنه إن أسلم ملكه (بتشديد اللام) رسول الله ﷺ على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم . قال إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال حتى انتهيت الى الإبل قال ياعمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه . فقلت نعم . فقال والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا قال فمكثت ببابه أياما وهو يصل الى أخيه فيخبره كل خبرى ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعى (١) فقال دعوه (٢) فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس فنظرت اليه قال تكلم بحاجتك فدفعت اليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى الى آخره ثم دفعه الى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه ارق منه قال ألاتخبرنى عن قريش كيف صنعت . فقلت تبعوه إما راغب فى الدين وإما مقهور بالسيف . قال ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا فى الاسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك (٣) الخيل وتبيد خضراءك فأسلم تسلم و يستعملك على قومك ولاتدخل عليك الخيل والرجال . قال دعنى يومى هذا وارجع الى غدا فرجعت الى أخيه فقال ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت اليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت الى أخيه فأخبرته أنى لم أصل اليه فأوصلنى اليه . فقال إنى فكرت فيما دعوتنى اليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا مافى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا وان بلغت خيله ألفيت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه . فقال مانحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل اليه قد أجابه فأصبح فأرسل الى فأجاب الى الاسلام هو وأخوه جميعا وصدقا النبى ﷺ وخليا (بتشديد اللام) بينى و بين الصدقة و بين الحكم فيما بينهم وكانا لى عونا على من خالفنى »

وهكذا تتأمل كتابه ﷺ الى المنذر بن ساوى . بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمى الى المنذر ابن ساوى وكتب اليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، أسلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فعليه الجزية فأسلم ، وكتب الى رسول الله ﷺ (أما بعد) يارسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين فنهم من أحب الاسلام وأعجبه ومنهم من كرهه ، و بأرضى مجوس ويهود فأحدث الى فى ذلك أمرك ، فكتب اليه رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله (أما بعد) فأنى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح إنما ينصح لنفسه وانه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وان رسلى قد أثنوا عليك خيرا وانى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهودية أومجوسية فعليه الجزية »

و بعد ذلك تنظر مكاتبته ﷺ الى ملك الحبشة « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم أنت فانى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم البتول (٤) الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وانى أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى

(١) الضبع وسط العضد أوماتحت الابط وقوله بضبعى مثنى ضبع بوزن قلب

(٢) بالبناء للمجهول (٣) بتشديد الطاء (٤) البتول اى العابدة

جاءنى فانى رسول الله وانى أدعوك وجنودك الى الله عزّ وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى . وقد بعث النبي ﷺ بكتابه هذا مع عمرو بن أمية الضمرى (١) فقال النجاشي يا أصحمة إن علىّ القول وعليك الاستماع إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شئ قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك . الانجيل بيننا و بينك شاهد لايرد وقاض لايجور وفى ذلك الموقع الحزّ واصابة المفصل والا فأنت فى هذا النبي الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم وقد فرّق النبي ﷺ رسله الى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشي أشهد بالله أنه النبيّ الأميّ الذى ينتظره أهل الكتاب وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل وأن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم كتب النجاشي كتاب جواب النبي ﷺ الى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة ، سلام عليك يانبيّ الله من الله ورحمة الله و بركات الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لايزيد على ماذكرت ثفروقا (الغلافة بين النواة والقشر) إنه كما ذكرت وقد عرفت مابعثت الينا وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدّقا وقد بايعتك و بايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ﴾

وهكذا تفكر فى كتابه ﷺ الى كسرى ملك الفرس ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله الى الناس كافة ــ لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ــ أسلم تسلم فان أبيت فعليك إثم المجوس . فلما قرئ عليه الكتاب مزّقه فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال مزّق الله ملكه وقدكان ﴾

ثم تقرأ كتابه ﷺ الى المقوقس ملك مصر والاسكندرية وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام (٢) أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرّتين فان توليت فان عليك إثم أهل القبط ــ يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ــ الآية ، وقد بعث به ﷺ مع حاطب بن أبى بلتعة فلما دخل على المقوقس قال له إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال (٣) الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولايعتبر غيرك بك . فقال إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب ندعوك الى دين الاسلام الكافى به الله فقد ماسواه . إن هذا النبيّ دعا الناس فكان أشدّهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى مابشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك الى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل وكل نبيّ أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبي ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس إنى قد نظرت فى أمر هذا النبي فوجدته لايأمر بمزهود فيه ولاينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوّة باخراج الخبء (٤) والاخبار بالنجوى (٥) وسأنظر وأخذ كتاب النبيّ ﷺ فجعله فى حق من عاج وختم عليه ودفعه الى جارية له ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب الى رسول الله ﷺ بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك

---

(١) بفتح الأوّل

(٢) دعوته وهى كلمة الشهادة التى يدعى اليها أهل الملل

(٣) النكال العقاب الذى يزجر الغير (٤) المختبئ (٥) السر

وفهمت ماذا كرت فيه وماتدعو اليه وقدعلمت أن نبيا بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقلما كرمت رسولك و بعثت اليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم و بكسوة وأهديت اليك بغلة لتركبها والسلام عليك ولم يسلم ﴾

وهكذا تقرأ كتابه ﷺ الى هرقل ملك الروم وهذا نصه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك إثم الأريسيين (١) ـ ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ـ ولما قرأ هرقل الكتاب فكر فى الأمر ثم جمع عظماء الروم فى قصر له بحمص (بكسر الحاء) ثم أطل عليهم فقال « يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبى فحاصوا (٢) حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال ردوهم على وقال إنى قلت مقالتى آنفا (٣) أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت » فسجدوا له ورضوا عنه ﴾

فاذا تتبعت أمثال هذه المكاتبات والخطب ألفيته ﷺ يخاطب الأمراء فى بلاد العرب بأسلوب غير الذى يخاطب به الملوك و يعطى كل ذى حق حقه . ألا تراه يقول لملك الحبشة ﴿ وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها الى مريم ﴾ ولكنه يقول لملك عمان وأخيه ﴿ وانكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما ﴾ فانظر الفرق بين الكتابين اللذين اختلفا على مقتضى الحالين

فاذا قرأت هذا وأمثاله هنالك تعرف كيف ترقى الأمم الاسلامية الآن وكيف تتحد مع غيرها فى الأعمال النافعة وانظر تلطف حاطب بن أبى بلتعة مع المقوقس وقوله له ﴿ لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به ﴾ وهذا أمر عجيب ووازن بين هذه المعاملة ومعاملة ملك عمان . إن هذه الأحاديث والأخبار تعطينا فكرة عامة وهى أن نلبس لكل حال لبوسها ونجد فى رقى الأمم الاسلامية ونكلم كل امرئ بما يصلح له ولا ننفر أمة منا إذن دين الاسلام فى مستقبل الزمان سيقوم به قوم أرقى وأعلى من رجال تقدمونا بعد العصر الأول الذى هو خير العصور والعصرين بعده وسيكون اصلاحا لجميع الأمم والحمد لله رب العالمين

(بيان عام فى أمر الجهاد)

لك الحمد اللهم على نعمة العلم و بهجة الحكمة . رأينا جمال صنعك وحكمك البالغة التى نظمت بها الأفلاك فى علاها والحيوانات فى فلاها والأمم فى هداها

يقف المصلى ذاكرا رحمتك بسم الله الرحمن الرحيم يكررها كل حين و يعترف بأنك أنت رب جميع العوالم مع رحمتك التامة وحكمتك الشاملة وقيامك بالقسط فيها وعدلك فى الحكم وهو قد شاهد نظامك فى حركات الأفلاك ومدار الأسماك فيطلب إذ ذاك هدايتك لصراطك وما صراطك إلا شمول الرحمة وعموم الحكمة والنظام ـ مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ـ فصراط ربى بآلف الطيور فى الهواء والأنعام فى العراء وعيشها بسعادة وهناء وصراط ربى أن يلهم أمثال (بدما) كما ذكرناه آنفا أن يسوغ الحكم و يعلم الناس الاتحاد تشبها بالحمامات و بالحمامة المطوقة مع الفار والسلحفاة والغراب وصراط ربى أن يتحد الناس على المنافع العامة . اللهم إنك أنت الذى ألهمت النمل فأحكمت نظامها وعلمت النحل فهى بنتها طرقها ورسمت للحكماء رسما فى عقولهم فنسجوا على منوالك فى إلهامك الحيوان ، ولعمرى ما مكاتبه رسول الله ﷺ

---

(١) جمع أريسى نسبة الى أريس كفعيل وهو الفلاح

(٢) نفروا (٣) قريبا

الى ملك عمان والحبشة ومصر والروم والفرس إلا على نهج صراط الله فى الهداية فهنالك هداية بالقرآن أولا وبالعقول ثانيا وهنا هداية بالوحى الذى نزل ليصقل العقول ويجمع الشتات ويؤلف بين القلوب . سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت الحكيم العليم

﴿ زيادة ايضاح ﴾

أنت يا الله جعلت صلاة المصلى شاملة معانى عامة إذ يلحظ نظام الكواكب وتجاذبها ونظام الجسم الانسانى فى دعاء الركوع والسجود فيرى انتظام الوضع بين الكواكب وانتظام الحركات فى سيرها وجمال الترتيب والتنسيق والجندرة والاتساق فى السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وما استقلت به القدم فلايسعه إلا أن يطلب أن يكون الناس فى اتحادهم على مقتضى ماشاهد فى الآفاق وفى جسمه وهنالك يرى أن الهداية للصراط المستقيم هى صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض كما انها هداية الله الذى ـ مامن دابة إلا هوآخذ بناصيتها ـ واذن يرى المصلى أن الصراط المستقيم فى الفاتحة هوصراط المنعم عليهم لاصراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين فان هاتين الطائفتين لم يخلقوا للنظام العام وسعادة الأمم فان أهل الغضب والضلال متشاكسان وهل يجمعهما إلا المهديون الى الصراط المستقيم وهذا هو الذى حصل أيام النبوّة فانه ﷺ ما كاد يسمع آية ـ قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيأ ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ـ حتى أرسل رسله الى الأمصار وخاطب الملوك يريد أن يكون النوع الانسانى على وتيرة واحدة من حيث نظام السياسة ويجعل أولئك الذين على صراط مستقيم مسيطرين على أولئك المغضوب عليهم والضالين . أرسل ﷺ رسله وقواده وجيوشه وكان ذلك كله بلذة روحية فكان الصحابة والتابعون لايريدون إلا وجه الله وان من قرأ سير الصحابة والتابعين ودرس محاورات هؤلاء مع الملوك والأمراء كما تقدم فى محاورة حاطب بن أبى بلتعة مع من أرسل اليه من الملوك ومحاورة عمرو بن العاص كذلك وقرأ ماتقدم فى (سورة الكهف) محاورات عبادة بن الصامت مع المقوقس وكيف كانوا يفحمونهم فى الخطاب ويدعون للحق

فالحق والحق أقول لولا هذه اللذة الروحية ماتوغل المسلمون فى بلاد الله شرقا وغربا . إن الله جعلهم رسل نظام عام على شريطة أن يكونوا رحمة للأمم على مقدار ماتتحمله هذه الطبيعة الطيبة . ياسبحان الله بقيت هذه الخصلة (٣٠) سنة كما قال ﷺ ﴿الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضوضا فخلف من بعد الخلفاء ملوك لم يكونوا كالخلفاء﴾ . إن الخلفاء كانوا يعلمون مقصود النبوّة فحرّموا على أنفسهم مال المسلمين علما منهم أن الأمّة اذا انغمست فى الشهوات زال ملكها فى الدنيا وعذبت فى الآخرة . ناهيك ما تقدّم فى آخر (سورة القصص) من حكاية الربيع بن زياد لما وفد على عمر رضى الله عنه فاقرأه تجد أنه خاف من قوله تعالى ـ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ـ ماذا كان يخاف عمر ؟ خاف عذاب الهون وخاف عذاب الخزى فى الحياة الدنيا اذا استمتع باللذات ولذلك لم يبح لنفسه أن يتخذ مآكل لمجرد اللذة

هذا هو رأى أكابر الصحابة ، حرم عمر على ابنته أن يضمخ ثوبها بطيب المسلمين ونظيره فى ذلك أبو بكر وبقية الخلفاء الراشدين ، فخلف من بعدهم خلف بعضهم أضاعوا النخوة والعزّة وتلهوا بالتفنن فى اقتناء الجوارى والانغماس فى اللذات بعد الغزوات فكانوا لايبالون باذلال الأمم ولاباذلال المسلمين وأخذوا بعض الدين وتركوا بعضه . ذلك ان الله أباح الأسر ولكنه يقول ـ فلااقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة * أوإطعام فى يوم ذى مسغبة * يتيما ذا مقربة * أومسكينا ذا متربة * ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة * أولئك أصحاب الميمنة ـ فالله أوّل ماذكر فى هذه الآية قال ـ فك رقبة ـ إذن فك الرقبة أهم مابه تقتحم العقبة وذكر بعدها الإطعام ثم ذكر الايمان مع الصبر والمرحمة . إذن هنا فك الرقبة

أولا والمرجحة آخرا وهكذا دخل العتق فى أكثر أبواب الفقه

إنه ﷺ أرسل لمنفعة الأمم ولما وجد النوع الانسانى قد تأصلت فيه عادة الأسر أبيح له أن يأسر كما تأسر الأمم فلولا أنه حرم أسرهم على المسلمين لانقرضوا فانهم فى الحرب يأسرهم غيرهم اذا غلبهم واذا غلبوا غيرهم لا يأسرونهم وهذا هو هلاك الأمم الاسلامية وظلمهم ، لذلك أباح أخذ الاسرى ورغب فى العتق وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة حتى ان المعتق يرث من أعتق كالقريب . ومعنى هذا كله أن يكون الأعداء أصدقاء ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ تصبح الأمم المغلوبة مندمجة فى الأمم الغالبة بطريق الولاء الذى هو كالنسب

هذه الأحكام لامندوحة عنها ، فالمسلمون يأسرون غيرهم ثم يعتقونهم وخير من هذا أن يمنوا عليهم فلا أسر ولا فداء . وكل هذا كان موكولا للملوك والملوك كانوا يستبدون بالأمر ، ثم تغاضى المسلمون بعد ذلك عما يسمعون من أخلاق أبى بكر وعمر وعلىّ وأمثالهم فاستباح الملوك لأنفسهم كل أنواع الزينة والفسوق وجهلوا تلك الأخلاق الفاضلة ، واذا سمعوا قوله تعالى ــ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ــ أوسمعوا الآية المتقدمة التى أخافت عمر رضى الله عنه وهى ــ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ــ الخ يقولون هذه وردت فى الكفار فأصبح فهم المتأخرين غير فهم المتقدمين فانغمسوا فى اللذات فذهبت نخوتهم ودولهم وعزهم والله لايظلم الناس شيأ

إن رسول الله ﷺ كان هو الذى يقتبس منه الصحابة الحقائق ثم انكمش المسلمون وتركوا هذه الفضائل واقتصروا على الفقه وظنوا أن الحرام والحلال كافيان فى الاسلام وتركوا آيات كثيرة جدا ظنوها نزلت فى الكفار أو فى المنافقين ، فبهذا صار الاسلام غريبا وكيف لا يكون غريبا وآيات العبر ونظام الأمم قد تركت وجعلت خاصة بقوم غيرنا . إذن بعض المسلمين صدق عليهم قوله تعالى ــ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول ــ فالمترفون فى الآية هم أنفسهم الذين قال الله فيهم ــ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ــ الخ . سر فى بلاد الاسلام شرقا وغربا فانك لاتجد لهذه المباحث العامة رواجا اللهم إلا فى هذا الزمان فان النهضة قد سرت بين المسلمين وسيتم أمرها ، واعلم أن المسلمين فى زماننا لاملجأ لهم إلا أن يقوم فيهم مجددون مصلحون ينيرون السبل و يوضحون الطرق ، وانى أحمد الله عزّ وجل أن يكون هذا التفسير قد جعل فيه روح الاصلاح ، وهناك كتاب فى بلاد الاسلام معروفون يسيرون على منهج الاصلاح وهذا زمان النهضة وسيأخذ حظه و يرقى الأمم التى تدين به ان شاء الله

﴿ جهاد بعض المتأخرين من الأمم الاسلامية السابقة جهاد خذلان وانتكاس ﴾

لقد طال الأمد على أممنا الاسلامية فقست القلوب وكثر الفسق والفجور فأين الجهاد ؟ والجهاد يراد منه الاصلاح ، وكيف تصلح أمم انغمست فى الشهوات وقلّ فيها المصلحون بعد العصور الأولى وكلما تمادى الزمان ازداد العصيان بسبب الترف والجهل العميم . فوازن رعاك الله بين أزمان النبوّة إذ أريد جعل أهل الأرض أمة واحدة و بين أيام انحطاط دوله العرب باسبانيا وطردهم منها فى كلام العلامة (سديو) الفرنسى وهذا نصه

﴿ الباب الرابع فى انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها ، وفيه ه خمسة مباحث * المبحث الأوّل » فى وقوع عدّة ممالك اسلامية من اسبانيا تحت حكم ملوك النصارى ﴾

نعود الآن الى ماسلف من تاريخ عرب اسبانيا فنقول ﴿ لما أغارت الأهالى على عساكر الموحدين المحافظين باسبانيا أوقعوا بهم أوّل نكبة وأخطها لكنهم أماطوا عنهم جورا يلزمهم أن يستعدوا عقبه لصد النصارى بتجديدهم للحكومة مركزا عموميا تبنى عليه المصالح العامة لكنهم عدلوا عن ذلك وأخذ كل ينظر فى مصالحه الخاصة ، ولذا انقسمت الحكومة الاسلامية الى عدة دول صغيرة مستقلة عن بعضها لم يكن منها ذات شوكة فى الجلة إلا مملكتا (والنسه) و (الجرو) ومملكتا (ابن هود) و (محمد الجار) وكان ذلك التفرّق مساعدا

للفرنج

للفرنج على أخذهم عدّة ممالك واحدة بعد أخرى ﴾

ثم قال ﴿ وسلك (فريند) مسلك السياسة بتوليته محمدا الحمار على جميع بلاده الرحبة الممتدّة من حدود الجزيرة الى المرية بين جبل طارق وهو يسقه بشرط أن يؤدّى له جزية كل سنة وجنودا زمن الحرب ويذهب الى المشورة التى تنعقد فى (قسطيلة) ثم حاصر فريند ومعه محمد الحمار مدينة اشبيلية التى كانت كرسى سلطنة المراوية والموحدين فقاومه أهلها زمنا طويلا لورود مدد اليهم من الوادى الكبير وعبورهم قنطرة من سفن على هذا النهر الى مدينة تريانة المشتملة على لوازمهم فجهز (فريند) فى جون بسقاية ومينيات اقليم جاليسة سفنا صغيرة استولى بها على مصب نهر الوادى الكبير ثم ألقى سفنا كبيرة كسرت تلك القنطرة بشراعها فكان لأهل اشبيلية مجاعة سلموا بها المدينة الى فريند سنة ١٢٤٨ بشروط توافقهم لبيع أملاكهم ميعادها أطول من ميعاد أهل (والنسة) وقد تيسر لهم بأخذ (مدينة اشبيلية) سرعة انقياد جميع البلاد التى على ميمنة نهر الوادى الكبير وجالوا حين استيلاء البرتغال على مدينتى لولة وأيامنتة سنة ١٢٤٩ بسواحل البحر التى بين نهر الوادى الكبير والوادى اليانع جولة منتصر مؤيد فأخذوا مدنا بعضها للمسلمين ﴾

فانظر كيف ترى (فريند) مع محمد الحمار يحاربان (أشبيلية) وقد سلمت لفريند أى ان الأمير المسلم يساعد الفرنجى على أن يملك بلادا اسلامية ، ذلك لأن الترف والنعيم هما اللذان يقعدان بالأمم عن المعالى ثم تأمل ماتقدم فى المجلد الثالث عشر فى (سورة الشعراء والنمل) فانك تجد تاريخ القوم واضحا وانهم غرقوا فى بحار الفسوق والفجور ولله عاقبة الامور

ولأختم هذا المقال بما لم أذكره فيما مضى مما أنتجه التخاذل الذى سببه الانغماس فى الشهوات وشيوع الغزل والتغنى والتفاخر بالخمر وانحراف الأمة عن العلوم والمعارف ورضاها بالقشور فتفرّقت وذاق بعضها بأس بعض ، ذلك عبرة لمعتبر وتبصرة لمذكر

جاء فى تاريخ (زينى دحلان) صفحة (٣٠١) مانصه ﴿ من الممالك التى فى شرقى الأندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الأعلى ومدينة طليطلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان ابن محمد بن هود الجذامى من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانتزعها منهم بنو هود فى السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الاردمليش وحاصرها وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ووكل أهلها الى نفوسهم فأقام العدوّ عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته واتصل الخبر بالعدوّ فشدّد القتال عليها والحصر لها ، وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجى ثم اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من أنهار الى المدينة تحت الأرض فى سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدّت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال فأعطاهم العدوّ الأمان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدوّ من الأموال مالايحصى حتى إن الذى خصّ بعض مقدمى العدوّ ألف وخمسمائة جارية أبكارا ومن وقار الحلى والكسوة مايحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والأسرى مائة ألف نفس . ومن نوادر ماجرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أولولدها فيقول لها اعطانى مامعك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها ، وكان السبب فى قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع فى قتلهم ، فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى ، وأمر أن يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب الى

أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الأسوار بالحبال خشية الازدحام في الأبواب ومبادرة الى شرب الماء وقد كان تحيز في المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وجاروا في نفوسهم وانتظروا ماينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية أن يبادر كل منهم الى الى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الافرنج بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا بروس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا في صورة الهلكى من العطش فأطلق سبيلهم فبيناهم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقي أجله ، وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الامور والأحوال مالم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن وبلغ الكفرة منهم مالا يمكن أن يوصف على الحقيقة ، ولما عزم ملكهم على القفول الى بلده تخير من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم ألوفا حملهم معه ليهديهم الى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين

ومما كان في هذه الوقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء (بربشتر) بعد الحادثة ملتمسا فدية بنات بعض الوجوه ممن نجا كن حصلن في سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت الى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا في نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شئ من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات في خدمته فرحب بي وسألني عن قصدي فعرفته وجهه وأشرت الى وفور ما أبذل له في بعض اللواتي كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتي فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ماطمعت فيمن عرضناه لك أعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصني من سبي وأسرى من أقاربك فقلت له أما الدخول الى الحصن فلا رأى لي فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فاعطني بعض من ها فاني أعطيك رغبتك قال وماعندك فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشهيني ماليس عندي ، ياماجه ينادي بعض أولئك الوصائف (يريد يابهجة فغيره بعجمته) قومي فأعرضي عليه مافي ذلك الصندوق فقامت اليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلي فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أدني الي من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظري وبهت واسترذلت ماعندي ثم قال لي لقد كثر هنا عندي كل شئ حتى ما ألتذ به ثم حلف لي أنه لو لم يكن عنده شئ من ذلك ثم بذل لي أحد مثل ذلك ماسمحت بهذه الجارية التي تطلبها مني فهي ابنة صاحب المنزل وله حسب في قومه واصطفيتها لنفسي لمزيد جمالها لأجل أن ناله لي وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا اذا ملكونا حين كانت دولهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار الى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يافلانة خذي عودك فأخذت العود وقعدت تسويه وأنا أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسارع العلج ومسحه بيده واندفعت تغني شعرا فهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والمغنم فطال تعجبي قال في نفح الطيب فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره — إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم — فان أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدي الى الهلكة لامحالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالأمل الزائل وقد نبهوا

عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سدّ ثغورهم حتى جاس عدوّهـم بخلال ديارهم ثم سرى البثق اليهم جميعا فلاحول ولاقوّة إلا بالله العليّ العظيم ﴾ اه

وانما سقت هذه الحادثة لترى أيها الذكيّ كيف كان اتباع الشهوات سببا فى التخاذل والتخاذل سبب فى انتهاك العدوّ حرمة البلاد وضياع المال والعرض والشرف والجاه ، وانظر كيف أصبحت الفتاة بهجة مملوكة لعلج فى نفس منزل أبيها ، وكيف يأمر تلك الفتاة التى كانت مغنية لأبيها أن تغنى له ، أوليس مما يؤسف له أن يجعل الرجل ابنته مغنية له . كل ذلك دليل على ضياع الأمم . نعم هذه المدينة فى السنة التى بعدها استرجعها المسلمون كما فى نفس التاريخ وفعلوا بالفرنجة مافعله الفرنجة بالمسلمين ولكن ليس المدار على الانتصار المؤقت فى بلدة من البلاد بل المدار على استقامة القلوب وارتقاء النفوس فهو النصر الحقيقى

وإذا أراد الله ذل قبيلة ＊ رماها بتشتيت الهوى والتواكل

﴿ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الاسلام ﴾

لقد ذكرت لك أيها الذكى فيما تقدّم كيف تمزّقت الوحدة الاسلامية بعد القرون الأولى ، وكيف انغمس المسلمون فى الشهوات والمعاصى وفسقوا فسوقا أدّوا ثمنه وهو الأسر والذل والفتك والضنك ، وكيف دخل العدوّ الدار وفسقوا بالبنات والنساء أمام الأزواج والآباء ، وانظر الى الفتاة (بهجة) كيف اصطفاها العلج لنفسه بحجة انها كانت ابنة رجل عظيم وقد استخدمها فى نفس منزل أبيها على فراشه ، وانظر كيف وكل الأمير الأندلسى يوسف بن سليمان أمر أهل بربشتر الى أنفسهم وقال لهم دافعوا عن أنفسكم

إن أعظم سبب فى فشل الأمم ومنها الأمّة الاسلامية أن الأمر يوكل الى أناس يظنّ فيهم الخير فاذا مات الآباء ونشأ الأبناء على الترف والنعيم بقى الناس مسحورين بالابن كما سحروا بالأب فيطبع ذلك الابن وابن الابن الشعب بطابعهم فهو يرتع فى ملاهيه ولذاته وهم يقلدونه ، ولما رأت الأمم الحاضرة ذلك استبدلت مجالس النوّاب والشيوخ بذلك النظام العتيق ، فاذا كان الملك فاسقا جاهلا لم يضرّهم شئ فلهم الحلّ والعقد وعليه التصديق فليكن كما شاء جاهلا أوعالما . هذا هو الذى عليه الأمم الآن ولكنهم لم يصلوا الى هذا إلا بعد جهاد وجهاد وصبر طويل وتجارب هداهم اليها الاسلام ، وانما قلت هداهم اليها الاسلام لأنك اذا رجعت الى تفسير (سورة التوبة) عند آية ــ ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار ــ الخ رأيت هناك أن الانقلاب الاوروبى ماحدث إلا بما قرأه أمثال (فولتير) و(روسو) من كتب المسلمين المنهوبة من الأندلس أو المأخوذة من مصر (اقرأ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت) تحت عنوان « الحضارة الاسلامية والحضارة الاوروبية » فلقد أثبتت هناك ذلك بأجلى العبارات ، واقرأ قبل ذلك كيف كان ظلم القسيسين والبابوات ، ولعمرى لم يكن ذلك إلا للخضوع القبيح الذى يخضعه الانسان لغيره جهلا بقوله تعالى ــ وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ــ و بقوله تعالى ــ ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ＊ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ＊ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ＊ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ＊ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا ومانحن بمعذبين ــ

وفى القرآن من أنواع المحاورات بين الرؤساء والمرؤسين مالايدع عذرا لمعتذر وقد غفل عن هذا المسلمون واستيقظ له الاوروبيون ، ولقد تقدّم فى هذا التفسير أمثلة كثيرة لاستيقاظ الاوروبيين والموازنة بينهم وبين المسلمين ، ولأكتف الآن بأمر عجيب نشر فى جرائدنا فى وقت طبع هذا المقال لاسعاد هذا التفسير والعناية

الإلهية به يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩ فقد جاء فى جريدة الاهرام مانصه

﴿ ٤ أغسطس ﴾

(أو يوم اعلان حقوق الانسان)

عنـد ماتشرق شمس هذا النهار ويستقبل الناس يوما جديدا يتم انقضاء مائة وأربعين سنة كاملة على اليوم الذى أتحدث عنه الآن

ففى يوم (٤) أغسطس من عام ١٧٨٩ ذكرى قيمة بالخلود فى نفوس الشعوب المجيدة التى تعتز بالحرية والأمم الناهضة التى تنشدها ، وحقيق بالفرنسيين خاصة أن يجلوه تبجيلهم ليوم (١٤ يوليو) الذى جعلوه عيدهم القومى وهولايمتاز فى الواقع إلا بهدم حصن الباستيل وقتل حراسه القلائل والتمثيل بهم أشنع تمثيل واخراج بضعة نفر من أقبيته المظلمة لاهم فى العير ولاهم فى النفير

أما فى يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وان شئت الدقة ففى مساء ذلك اليوم فقد نال الشعب الفرنسى ما كان يصبو اليه ويجاهد فى سبيله وهواعلان حقوق الانسان على أساس المبادئ التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحوالامتيازات التى كانت للأشراف ورجال الدين الذين طالما أثقلوا كاهل الشعب ودفعوا به فى قرار سحيق من الفقرالمدقع والضرّ المفجع واليك البيان

فى مثل يومنا هذا منذ قرن وأربعين سنة بالتمام كان الناس فى باريس فى هرج ومرج على أثر الظفر الذى عقد لهم لواؤه بهدم الباستيل فى (١٤ يوليه) من العام ذاته والفلاحون فى الأقاليم يعنون هدما وسلبا فى قصورالأشراف التى تمثل الباستيل بينهم حتى لا يكونوا وراء أهل باريس فى ميدان المجد والفخار والبلاد من أقصاها الى أقصاها فى ثورة مروعة انكمش أمامها رجال الادارة خشية أن يحل بهم ماحل بحاكم الباستيل وزادت الحالة سوأ حين امتنع التجار عن عرض مالديهم من الأقوات خوفا من السلب والنهب ، واذ أدرك الغوغاء مقدارقوتهم صاروا يثورون لأقل شئ ويقضون على كل من توهموا فيه العداء لهم ، فتارة يصلبونهم وطورا يقطعونهم إربا وكانت سفليات النساء فى الأسواق فى مقدمة أولئك الفتاك وأكثرهم شرا . ووقف مجلس الأمة (وكان مؤلفا من الهيئات الثلاث الأشراف والقساوسة والعامة) يراقب الحوادث فى حيرة ووجل خوف سوء العقبى وكل ماتبينه أعضاؤه من الموقف انه لايرجى لذلك الحال من هدوء إلا اذا جرد الأشراف والكنيسة من امتيازاتهم ، على أن ذلك لم يكن محتمل الوقوع إذ وقف الملك لويس السادس عشر يشد أزر هؤلاء وينصاع اليهم بتأثير زوجه الملكة (مارى انتوانت) فظل خطر الموقف مسلطا فوق الرقاب جميعها الى أن كان يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ واذا المعجزة تقع من تلقاء نفسها ، ففى مساء ذلك اليوم وقف فى مجلس الأمة أحد الأشراف وكان فقيرا واقترح النزول عن امتيازات الأملاك ، فماهى إلا لحظة حتى دبّ دبيب الغيرة فى النفوس وتبارى الناس فى تنفيذ هذا الرأى ، وما انقضت الليلة حتى كان الأشراف قدنزلوا عن كل امتيازاتهم وكذلك أعلنت حقوق الانسان فى تلك الليلة على أساس المبادئ التى نادى بها (روسو) ومجملها أن الناس ولدوا أحرارا متساوين فى الحقوق وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية والأملاك الشخصية وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم وأن لكل أمة الحق فى وضع القوانين وتقرير الضرائب ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلابارادتها . وحين أعلنت هذه المبادئ أخذ الناس بها وجاءت الجمعية الأهلية بعدئذ فأدخلتها فى صلب الدستور وهكذا تقوضت مظالم العهد القديم وأشرف العالم على عصرجديد ملؤه العدل والحرية والمساواة

ذلك هو يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ الذى يتم بانبلاج شمس هذا الصباح مرور ١٤٠ سنة عليه ، واذا

كانت حادثات كبار وخطوب جلل أتت بعده فى إبان الثورة الفرنسية حتى شاهد القرن التاسع عشر أياما سوداء مليؤها الدم والدمار فان ذلك كله لايحجب عن الناس نعمة ذلك اليوم المجيد انتهى

(قصة نوح عليه السلام)

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وقد كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة وعاش بعد الطوفان ستين سنة وفى ذكر الألف تخييل لطول المدة الى السامع لأن القصد من القصة تسلية النبى ﷺ وتثبيته ومجاهدته لما يكابده من الكفرة ، وإياك أن يصدك عن هذه القصة ماتراه من طول الأعمار التى لم نعهدها ولم يظهر فى التاريخ المعروف نظيرها فان التاريخ القديم مجهول جهلا تاما ، وليس المقصود من مثل هذه أن نبحث فى السنين كيف كانت وأمثال ذلك فانك اذا ظننت أن ذلك هوالمقصود لم تنتفع بالقصة . إن الانسان اذا قرأ أن قوما قاسوا شدائد وطالت المدة عليهم وهو يعلم أن مدته قصيرة اطمأن وصبر وجاهد لينجو ويهلك عدوه كما هلك أعداء نوح (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى طوفان الماء وهو يطلق على كل ماطاف بكثرة من سيل أو ظلام وما أشبه ذلك فلتعتبر بهذا ولاتضع وقتك فتقول كما يقول البعض ﴿ إن السنة عبارة عن دورة الأرض حول الشمس مرة ﴾ فربما عبر هؤلاء فى أيامهم بالسنين عن دورة القمر حول الأرض وهو شهر عندنا واذن يكون عمر نوح كالأعمار المعتادة التى لاتبلغ مائة سنة ، أقول لك لاتضيع وقتك فى هذا فانا نلجأ اليه عند القطع بعدم حصول ذلك والمقام ليس مقام تاريخ بل المقام مقام جهاد وصبر وأدب ولم ينل أحد السعادة إلا بالاجتهاد والجهاد ومقارعة الخصوم ، فاذا طالت المدة كان ذلك أدعى الى التأسى والاقتداء (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى أنجينا نوحا ومن ركب السفينة معه (وجعلناها) أى السفينة أوالحادثة (آية للعالمين) يتعظون بها و يستدلون بها

﴿ جوهرة فى قصة نوح وسفينته ﴾

إقرأ ماتقدم فى (سورة هود) وفيه بيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى وهناك تقرأ المقام مفصلا على مقتضى الكشف الحديث ولكن اطلعت بعد ذلك على تفصيل أوفى فى كتب حديثة مختلفة ، فمن ذلك ماجاء فى بعض المجلات العلمية بتاريخ يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٤٨ — ٢٢ يوليه سنة ١٩٢٩ وهذا ملخصه

« يرى بعض العلماء اليوم أن قارة تسمى (ليموريا) كانت فى الاوقيانوس الجنوبى وتتصل بآسيا من جهة و بافريقيا من جهة أخرى وان قارة أخرى تسمى (أتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت قد رأت افريقيا وآسيا معا ثم غطاها ماء الاوقيانوس فغرقت . وأن قارة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى على بعد ألفى ميل وأربعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية وقد أغرقها الماء وذهبت كأمس الدابر ، فهذا طوفان أغرق قارات فى أزمان قديمة لايعيها التاريخ وهناك قصص للطوفان بعضها فى التوراة و بعضها جاء فى مجموعة ﴿ سجلات جلجميش ﴾ فى النصوص البابلية و بعضها عن أهل الصين و بعضها عن أهل الهند ، أما قارة (ليموريا) فهذا ملخص ماجاء عنها فى هذا المقال بذلك التاريخ وهذا نصه

﴿ جغرافية العالم القديم . القارات الضائعة وكيف اختفت . الحيوانات الباقية والمنقرضة ﴾

تذهب الى (جزيرة مدغشقر) بعثة علمية لدرس حيوانات هذه الجزيرة وأحافيرها ولتعليل بعض الظواهر البيولوجية الغريبة فيها ومن جملتها قلة الارتباط النسبى بين الحيوانات التى فيها والتى يختلف بعضها عن بعض الى حد مدهش ، ومع ان هذه الجزيرة لاتبعد عن سواحل افريقيا أكثر من ثلثمائة ميل فان بينها و بين حيوانات القارة الافريقية بونا شاسعا ، من ذلك انها خالو من ذوات القوائم الأربعة الكبيرة الأجسام ماعدا

بقرالماء (فرس البحر) ولكنها موطن حيوانات كثيرة لم توجد فى موضع آخر من العالم ، وليس ذلك فقط بل ان أحافير الجزيرة تدل على انها كانت فى الأزمنة الغابرة موطن حيوانات وطيور وزحافات لاوجود لها إلافى الخرافات ، من ذلك طير (ايبورنيس) ولعله أكبر الطيور التى حلقت فى جوّ الكرة الأرضية وكان يضع بيضا هائل الحجم يبلغ طول محوره ثلاث عشرة بوصة وثخانتها عشر بوصات أى بحجم بطيخة كبيرة مستطيلة وكان هذا الطير أكبر كثيرا من النعامة ويشبه طير (الموا) من طيور نيوزيلندا المنقرضة ويزعم الكثيرون أن طير (ايبورنيس) المذكور هو طير الرخ الذى ورد ذكره فى روايات « ألف ليلة وليلة » وأن واضعى تلك الروايات تقاولوا وصف الرخ مما سمعوه من العرب الذين ساحوا فى أفريقيا ووصلوا الى (مدغشقر) ورأوا طير (ايبورنيس) وفى مدغشقر أيضا طائفة من الزحافات الهائلة من فصيلة الضب أو العظاية وكان فيها قديما عظايات يبلغ طول كل منها ستين أو سبعين قدما وكان ذلك فى الزمن الذى كانت فيه الزحافات سيدة جميع المخلوقات على الأرض ، ومن الظواهر البيولوجية الغريبة أنه مع قرب جزيرة مدغشقر من الساحل الافريقى فان حيواناتها تختلف عن حيوانات أفريقيا كل الاختلاف حالة كونها تشبه حيوانات آسيا مع بعد الشقة بينهما ، وقد حاول بعضهم تعليل ذلك بقوله ﴿ انه كان فى الحقب الغابرة قارّة فى الاوقيانوس الجنوبى تتصل بكلتا آسيا وأفريقيا وقد أطلقوا عليها اسم (ليموريا) أى بلاد الليمور وفيها نشأ هذا الحيوان ثم انتقل الى مدغشقر و بتمادى الأحقاب غارت (ليموريا) فى قاع الاوقيانوس و بقيت فصيلة الليمور فى جزيرة مدغشقر ﴾

﴿ قارّة اتلنتس وقارّة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى ﴾

وعلى ذكر هذه القارّة المزعومة نقول إن كثيرين من الكتاب والمؤرخين يعتقدون أن جغرافية العالم القديم كانت تختلف عن جغرافية هذا الزمن وأنه كان ثمة قارات و بلاد ضاعت لأن مياه البحار طغت عليها ، من ذلك قارّة (اتلنتس) وقد أشار اليها أفلاطون قديما وكان الأقدمون يقولون بوجودها وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) ويزعمون أنها أكبر من آسيا وأفريقيا معا ولايزال بعضهم يقول بوجودها قريبا حتى هذا اليوم ، بل إن بعض علماء الجغرافيا يزعمون انه كان فى الاوقيانوس الباسفيكى أيضا قارّة غارت بطغيان البحر عليها ، وهم يؤيدون زعمهم هذا بعدّة براهين من جملتها وجود نقوش على بعض صخور (جزيرة يستر) وهى جزيرة من الاوقيانوس الباسفيكى على بعد ألفين وأر بعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية ، وفى الواقع أن فى هذه الجزيرة مئات من النقوش والتماثيل المتقنة الصنع ومعظمها تمثل رؤسا بشرية لايفوقها فى دقة الصنع أجل تماثيل اليونان القدماء ، وفى تلك الجزيرة الصغيرة أيضا دلائل كثيرة على حضارة بائدة وأهالى هذه الجزيرة لايجاوزون بضع مئات يتناقلون قصة الطوفان أبا عن جدّ ، ومن المحتمل جدا أن تشير هذه القصة الى طغيان مياه الباسفيك على القارة المذكورة

واذا أنكرنا قصتى (أتلنتيس) والقارّة الباسفيكية الضائعة كان لابد لنا من الالتجاء الى نظريات أخرى لتعليل بعض الظواهر البيولوجية غير المفهومة ، ومن جملة تلك النظريات مايزعم بعض العلماء من أن القارات المعروفة فى الوقت الحاضر هى عائمة على وجه المياه وأن قارتى أفريقيا وأمريكا الجنوبية كانتا متصلتين معا فى العصور الغابرة ، وفى الواقع اننا لوأمكننا زحزحة هاتين القارّتين ووصلهما معا لكان الاتصال تاما ومتينا من الوجه الطبوغرافى ، ولوأمكننا أيضا زحزحة (مدغشقر) والهند واستراليا ووصلهما معا لكان لنا منها قارّة (ليموريا) التى سبقت الاشارة اليها وحلت هذه النظرية كثيرا من المشاكل التى يصعب اليوم فهمها

وأما ماجاء فى التوراة فهذا نصه ﴿ ورأى الرب أن شرّ الانسان قد كثر فى الأرض فحزن انه عمل الانسان فى الأرض وتأسف فى قلبه وقال « امحو عن وجه الأرض الانسان الذى خلقته . الانسان والبهائم والدبابات وطيور السماء لأنى حزنت انى عملتهم » وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب فقال الرب لنوح نهاية كل بشر

أمامى لأن الأرض امتلأت ظلما منهم ، اصنع لنفسك فلكا من خشب مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل مافى الأرض يموت ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت و بنوك وامرأتك ونساء بنيك ، من كل حىّ تدخل الى الفلك اثنين لاستبقائها ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صارطوفان الماء على الأرض فدخل نوح ومن معه الفلك وانفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة فكان الفلك يسير على وجه الماء ، و بعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقرّ الفلك على جبال اراراط ﴾

﴿ القصة البابلية والصينية والهندية ﴾

هذه هى القصة كما وردت فى التوراة ، أما جبل اراراط فهو فى الشمال الشرقى من أرمينيا فكان أعلى الجبال المعروفة فى العالم اليهودى فى ذلك العهد ، قصة الطوفان هذه لايمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفى والأرجح أن الطوفان الذى نشير اليه كان طوفانا محليا ، واذا رجعنا الى علوم الأقدمين نجد عن الطوفان قصصا كثيرة أقربها الى نص التوراة القصة البابلية كما وردت فى مجموعة ﴿سجلات جلجميش﴾ فقد جاء فيها أن جلجميش (وهو من الجبابرة) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت بالطوفان فأخبره سلفه بقصة بناء الفلك وهى القصة السومرية بعينها و يقال انها أقدم قصة فى هذا الموضوع ، وقد اقتبسها البابليون وعنهم أخذها اليهود لما كانوا فى الأسر ، ومن أشهر قصص الطوفان أيضا القصة الصينية والقصة الهندية وكلتاهما تشير الى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر وهطل الأمطار ، ولاشك أن القصة البابلية أيضا نشأت عن فيضان دجلة والفرات وغمرها البلاد المحيطة بهما ، وفى بلاد (اور) شمالى العراق بعثة انجليزية تنقب عن الآثار وتبحث عما يثبت قصة الطوفان ، وقد كانت (اور) منذ أربعة آلاف سنة مركز حضارة راقية ، والأرجح أن مدينة (اور) نفسها (وهى مسقط رأس الخليل) بلغت أوج ثروتها ورخائها فى سنة (٣٥٠٠) قبل التاريخ المسيحى وكان أهلها ماهرين فى صناعة الادوات المعدنية ولاسيما الفضية والذهبية ، وتقلبت على (اور) أزمنة مختلفة فبعد أن بلغت أوج حضارتها ثار الطمع فى قلوب حسادها فغزوها ونهبوا معابدها وهياكلها و بعد ذلك التهمتها النيران ثم أعيد بناؤها ثم أخربها الغزاة مرة أخرى ثم أعيد بناؤها الى أن طغى عليها نهر الفرات فأغرقها وأهلك أهلها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت (اور) قفرا يبابا ، ومن المحتمل جدا أن الطوفان الذى أهلكها هو الطوفان الوارد قصته فى التوراة . ومما يجدر بالذكر أن بعثة الآثار التى تنقب اليوم فى أنحاء المدينة قد استطاعت ازاحة التراب عن جانب كبير من خرائبها فظهر أن بيوتها كانت مبنية على هندسة تكاد تكون حديثة فقد كانت مبنية من الحجر والآجر (الطوب) ومعظمها ذو طبقتين ولكل منها حوش أوفناء ، كذلك كانت هندسة هذه المدينة فى أيام ابراهيم الخليل وكانت كما سبق القول مسقط رأسه وفيها نشأ وترعرع

ويظهر أن جميع الأمم التى نشأت فى وادى دجلة والفرات كانت تتناقل قصة الطوفان على وجوه شتى ، وليس فى ذلك ما يدهش اذا تذكرنا أن أولئك الناس كانوا يعيشون مهددين دائما بخطر طوفان النهرين العظيمين وقد كانت مخيلتهم تبتكر لهم دائما قصة بطل نجا من الطوفان بأعجوبة إما لفضيلة فيه أولسبب آخر فجلجميش عند البابليين ونوح عند اليهود و (مان) عند الهنود و (ايتان) عند غيرهم وهلم جرا . انتهى ملخصا مع تغيير يسير جدا لتسهيل الفهم

أقول ، اعلم أن ماتأتى به الكتب السماوية ينزل لكل أمة بحسب مزاجها وعقلها وماجاء فى التوراة يقبله اليهود وماجاء فى القرآن مقبول عندنا ، أما البحث العام فذلك يعوزه دراسة علوم كثيرة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وعلم طبقات الأرض ، وكما ان الانسان ينظر الطعام و يشمه و يذوقه وقد يسمع حركته كما يفعل الناس اذا أرادوا معرفة الطبيخة أهى ناضجة أم لا ، هكذا اذا زاولوا مسألة وجب بحثها من وجوه عدة ، فانظر

الى مسألة الطوفان كيف تعددت رواياتها ثم انظر الى علم طبقات الأرض اليوم ، ألاترى انهم وجدوا فحما فى الأقطار القطبية وقد تقدّم فى هذا التفسير حتى إن بعض المهندسين يريد أن يصنع هناك محطة للطيارات لأجل امدادها بالفحم من هناك و بسبب الفحم يمكن تكوين الكهرباء . إن مسألة القطبين وأن فيهما الفحم هذا أمر مجمع عليه وهل يكون الفحم إلا فى أرض حارة . إذن كانت هذه خط استواء ثم تغيرت الحال فى أزمان مجهولة فصارت قطبا ولما صارت قطبا دفنت فيها غاباتها وحيواناتها وطمرت و بقيت الى الآن . ومن المسلم به أيضا أن الأنهار وهى تجرى من اليابسة الى البحار تجرف معها موادّ وتقذفها فى البحر وهذه المواد تترا كم جيلا فجيلا ثم يأتى زمن تصير قارة جديدة إذ يحصل هناك انقلاب عام فيصير البرّ بحرا والبحر برا بحادث فجائى عظيم لأن الأرض ملتهبة نارا فى باطنها . وانظر ماجاء فى كتاب ﴿ اخوان الصفا ﴾ تحت عنوان ﴿ الأدوار والأكوار ﴾

إذ ذكر أن البرّ يصير بحرا والبحر يصير برا فى أزمان وعين لها نحو (٣٦) ألف سنة وأن ذلك تبع تقدّم الاعتدالين ولكن أقول إن هذا ظنّ دليله ضعيف وانما المعروف هو ماقدّمته لك . إذن هذه الأرض تتقلب كما يتقلب الليل والنهار وهذه القارات يوما ماتذهب و يحل محلها قارات أخرى تخلق الآن فى قاع البحر وستظهر بزلزلة عظيمة ، فقصة نوح ونحوها ماهى إلا فتح باب لهذه المفاجآت العظيمة التى أعرب عنها الله بقوله ـ وان من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أومعذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا ـ ألاترى رعاك الله أن البراكين اليوم (كماستقرؤه فى أوّل سورة فاطرعند قوله تعالى ـ يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ـ) تأتى لنا من باطن الأرض بمادّة بركانية تكون أصلح للزرع من جميع التربة فوق الأرض ، فكم للبراكين والزلازل من منافع فاذا أتمت قارّة عملها خسف بها الأرض هى وأهلها وأظهر قارّة أخرى أحسن منها . فالقارات والمدن والأمم أشبه بالأشخاص لكل أجل محدود لمنافع هو يعلمها ولا يعلمها سواه ، وهلاك قارّة أوأمة كهلاك فرد واحد لافرق بين الفرد والأمة والقارّة والمدينة اهـ

﴿ قصة ابراهيم عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) اذكرقصة (ابراهيم إذ قال لقومه) أى حين كمل عقله وتمّ نظره (اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم) مما أنتم عليه (إن كنتم تعلمون) الخير والشر وتميزانهما (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة (إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا) فكيف تعبدونهم إذن (فابتغوا عند الله الرزق) فانه المالك (واعبدوه واشكروا له) لأنه المنعم عليكم بالرزق والشكر يستلزم العلم بما يجب الشكرعليه والذى يشكرعليه كل مافى السموات والأرض مما خلق الله فيجب النظرفيه ومعرفته كل على مقدار طاقته وذلك هوقوله ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ـ الخ فذلك هومفتاح الشكرالذى سيذكر بعد اتمام هذا المقام وهوقوله (اليه ترجعون) فى الآخرة (وان تكذبوا) أى تكذبونى (فقد كذب أمم من قبلكم) من قبلى من الرسل فلم يضرّهم تكذيبهم وانما كان ضررهم على أنفسهم (وماعلى الرسول إلاالبلاغ المبين) الذى يزول معه الشك فأما كونه يصدّق و يتبع فليس عليه ، ثم أخذ يشرح مبادئ الشكرالذى هواخلاص بالقلب لسائرالناس وثناء باللسان على الله وصرف كل نعمه فيما خلقت له وتلك المبادئ هى المعرفة والعلم فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) من مادّة ومن غيرها (ثم يعيده) كما بدأه لأن من قدر على البدء فهو قادرعلى الاعادة (إن ذلك) أى الاعادة أوماذكر من الأمرين (على الله يسير) لأنه اذا قال للشئ كن فيكون (قل) يامحمد أو يا ابراهيم (سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) على اختلاف الأجناس والاحوال وسيأتى شرحه (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الأولى التى هى الابداء ومن عرف النشأة الأولى عرف أن الأخرى أهون (إن الله على

كل

كل شئ قدير) والممكنات كلها تتعلق بها قدرته (يعذب من يشاء) تعذيبه (ويرحم من يشاء) رحمته على مقتضى درجته التي استحقها ، ولامعنى للعدل إلا وضع كل شئ في موضعه (واليه تقلبون) تردّون (وماأنتم بمعجزين) ربكم عن أن يدرككم (في الأرض ولافي السماء) إن فررتم من قضائه بالتوارى فى الأرض أو التحصن فى السماء أوالقلاع الذاهبة فيها لأنه خلقكم ليربيكم فيهما ويدير عليكم دوائر النحس والسعد والعذاب والنعيم . كل ذلك لتمحيصكم وتربيتكم وتخليصكم من المادّة ورجوعكم الى عالم الأرواح فتلاقوه إن استحققتم وتردّون الى العذاب إن نقصت تربيتكم فأين تذهبون إذن (ومالكم من دون الله من وليّ ولانصير) فلاوليّ يمنعكم ولانصير ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) دلائله الدالة عليه عقلية ونقلية (ولقائه) بالبعث (أولئك يئسوا من رحمتى) أى يئسوا منها فى الدنيا لأنهم ظنوا أن الله خلق هذه الأرواح فأحياها ثم أماتها بلافائدة ولاحياة بعد الموت وهذا عمل من لارحمة عنده ولارأفة كما قال تعالى ـ قل لمن مافى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامة لاريب فيه ـ فجعل من موجبات الرحمة التى كتبها على نفسه أنه يجمعنا يوم القيامة ويقول هنا إن هؤلاء يئسوا من رحمة الله فهذه هى الرحمة حقا ، فأما خلق الناس ثم هدم بنيتهم هدما تاما واعدام أرواحهم لارجعة لها فهذا لارحمة فيه ، ولذلك تجد أكثر الآيات يقرن فيها ذكر الله بذكر اليوم الآخر ، وقوله (وأولئك لهم عذاب أليم) أى بكفرهم (فما كان جواب قومه) قوم ابراهيم له (إلا أن قالوا اقتلوه أوحرّقوه) أى قال الرؤساء ذلك ورضى به الأتباع فأسند الى كلهم فقذفوه فى النار (فأنجاه الله من النار) فصارت بردا وسلاما (إن فى ذلك) أى فى انجائه منها (لآيات) كحفظه من أذى النار واخمادها مع عظمها فى زمان يسير وانشاء روض مكانها (لقوم يؤمنون) لأنهم المنتفعون بها (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا) أى اتخذتم أوثانا سبب مودّة بينكم فتكون ـ مودّة بينكم ـ مفعولا ثانيا بتقدير مضاف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) فيتناكر الأتباع والمتبوعون ويلعن بعضهم بعضا شأن اللصوص وقطاع الطرق اذا وقعوا فى قبضة القضاء (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين (وما لكم من ناصرين) مانعين من العذاب (فآمن له لوط) وهو ابن أخيه وأوّل من آمن به لما رأى النار لم تحرقه (وقال إنى مهاجر الى ربى) من قومى إذ أمرنى بذلك فهاجر من قرية «كوثى» وهى من سواد الكوفة مع لوط وامرأته سارّة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم . ويقال انه هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (انه هو العزيز) الذى لايغلب وهو الذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لايأمرنى إلا بمصلحة لى (ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذرّيته النبوّة والكتاب) يقال انه لم يبعث نبيّ بعد ابراهيم إلامن نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) وهو الثناء الحسن فكل أهل الأديان يحبونه ويصلون عليه والذرية الطيبة والأنبياء من نسله ، هذا له فى الدنيا (وانه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرتهم مثل آدم ونوح وادريس

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أرسلنا (لوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين) لم يفعلها أحد قبلكم وفسرها فقال (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرّضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال حتى انقطعت الطرق وكذلك تقطعون سبيل النسل بالاعراض عن مكان الحرث (وتأتون فى ناديكم المنكر) وذلك انهم كانوا يحبقون فيه وكانوا يستعملون الخذف والسخرية كما فى حديث الترمذى ومعنى الحبق الضرط ومعنى الخذف بالمعجمة رمى الحصاة من طرف الأصبع (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فى استقباح ذلك وفى دعوة النبوّة (قال ربّ انصرنى على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) بالبشارة بالولد والنافلة

(قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) قرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين) بتماديهم في المعاصي وكفرهم بلوط (قال إن فيها لوطا) فكيف تهلكونها فيهلك مع الهالكين (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) الباقين في العذاب أو القرية (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم) جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم طاقته كما يقال ضاقت يده في مقابلة رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا له لأن طويل الذراع ينال ما لا ينال قصير الذراع (وقالوا لا تخف ولا تحزن) علينا (إنا منجوك وأهلك) أي إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ونصب أهل باضمار فعل (إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) عذابا منها (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بينة) وهي حكايتها المشهورة وآثار الديار الخربة (لقوم يعقلون) أي يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار . هذا واعلم أن الكلام على قرى قوم لوط وأين مقرها تقدم في المجلد الثالث عشر عند ذكر القصة في القرآن فارجع اليه إن شئت تجد هناك للكشف الحديث مجالا واسعا

﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

قال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) افعلوا ما ترجون به ثوابه (ولا تعثوا في الأرض مفسدين * فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة وقيل صيحة جبريل (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أي في دورهم باركين على الركب ميتين

﴿ قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (عادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) يا أهل مكة اذا نظرتم اليها عند مروركم بها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) وهي المعاصي وعبادة غير الله (فصدهم عن السبيل) السوي (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستبصار ولم يعقلوا

﴿ قصة موسى عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (قارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين) أي فائتين بل أدركهم أمر الله (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء وهي الحصا الصغار كما كانوا يرمونها بأصابعهم وهم يأتون في ناديهم المنكر (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون (ومنهم من أغرقنا) وهم قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ تعرضوا للعذاب باستعداد نفوسهم له على مقتضى النظام الذي نظمناه في سر الخليقة . انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة

﴿ لطيفة في قوله تعالى ــ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ــ ﴾

لقد مضى الكلام على هذه الآية في ضمن الكلام على قوله تعالى ــ إن في خلق السموات والأرض ــ الخ في (سورة البقرة) بطريق الاستطراد فلنفصل الكلام عليها تفصيلا الآن

يقول الله ــ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ــ الخ ثم يقول ــ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ــ وهذا أمر صريح يوجب علينا معاشر المسلمين التشمير والجد والطلب الحثيث في معرفة كيف بدأ الله الخلق . أمرنا الله بالسير في الأرض والسير ﴿ قسمان ﴾ سير جسمي وسير عقلي . فالأول محتم على الجهلاء والتلاميذ . والثاني محتم على العلماء والحكماء ولا يكون الثاني عادة إلا بعد الأول ولا معنى للسير الثاني إلا الدراسة وأما مجرد النظر الظاهري كنظر العامة ونظر البهائم فهذا ليس بنظر وليس بسير

واعلم

واعلم أيها الذكي انى فى مبدإ أمرى كنت أقول فى نفسى هذا العالم إمامنظم واما مبعثر لا نظام فيه ولا ترتيب فان كان الأول فله إله وان كان الثانى فلا إله له لأنها عبارة عن اجتماع وافتراق بلاضابط ولا رابط ولا نظام، ولقد ذكرت هذه القصة فى كتابى «التاج المرصع» وقلت ما معناه «انى توجهت الى مبدع هذا الوجود وطلبت منه أن يوقفنى على نظامه ولطالما سألته سبحانه فى الخلوات ودعوته فى الحقول وعلى شطوط الأنهار و بين الأشجار وفى الليالى والأسحار أن يفهمنى ذلك حتى يكون اليقين داخل نفسى لا بمؤثر خارجى وأصبحت بهذه الفكرة مغرما وعليها معوّلا وكنت اذا نظرت الطيور فى وكناتها وهنّ يغرّدن طربات و يطرن فرحات و يربين أولادهنّ صابرات . أقول اذا كان صانع هـذا العالم قد أعدّ للطير عدّته وأبان له محجته أفلا يكون لهذا الانسان سبيل الى مايبتغيه وطريق الى ماله حاجة فيه وكان ذلك مبدأ فكرى فى هذه الدنيا وكنت اذا عثرت على شاطئ النهر على بعض حشرات ذات خطوط منظمات وذات زوايا مهندسة وأشكال بهجة أقول ياليتنى أرى هذه الدنيا كلها على هذا النمط فأقرّ بإله نظمها وحكيم أبدعها ولكنى أرى الجبل والقفر والبرّ والبحر والشجر والحجر والأرض والسماء لا نظام فيها مقبول ولا عمل فيها محسوب

أليست هذه المرأة تضع حب الذرة فى الأرض التى شقها الحراث وزوجها واضع يده على قائمة ذلك الحراث يسوق دابتين فأين النظام ؟ بهائم ليست مستقيمات الرؤس الى أعلى وانسان رأسه مشرئب الى العلا وماء يجرى فى الحقول وحب ينثر فى الطين ، أمور غير مضبوطة وأحوال ليس لها قانون ولا نظام مسنون ثم توجهت وتوجهت ودعوت ودعوت وقلت لو أن صانع هذا الكون علمنى نظامه لأودعت ذلك بطون الكتب وتركته لمن بعدى من الحائرين وخلفته للأذكياء المفكرين كيلا يشكوا كما شككت ولا يهنوا كما وهنت ولا يضلوا كما ضللت ، ثم صنفت كتبا مختلفة المقاصد والحمد لله إذ وفقنى لهذا التفسير . إن هذا غاية مطلبى من هذه الحياة ونهاية مأربى من هذه الدنيا ، فهل تحب أن أريك جمال الوجود والنظام المشهود لتعرف قوله تعالى ــ قل سيروا فى الأرض فانظروا ــ ، فانظر ماسأضعه بين يديك واعجب من حكم عالية وجواهر غالية ووجوه باسمة وعيون ساحرة وشموس ساطعة وأنوار باهرة فهاك مبادئ الوجود وأوائل العالم المشهود ولنبدأ بالعوالم العلوية ونتبعه بالعوالم السفلية

(١) فترى أولا نظام الكواكب

(٢) ثم نظام العوالم الأربعة الانسان والحيوان والنبات والمعادن

(٣) ثم نظام العناصر

(٤) ثم بيان أن الانسان خاصة دعى الى معرفتها

(٥) و بيان ذلك فى أدعية الصلاة نفسها وكيف كان المسلم فى صلاته وأدعيته يكرّر صباحا ومساء نفس هذه المبادئ و يتلوها وهو غافل عن معانيها وهو بتلك التلاوة و بتلك الأدعية مأمور أن يبحث فى هذا العالم وكيف بدأ الله الخلق

(٦) ثم تبيان أن الله ماترك الناس سدى بل أعطى الجهلاء ظلال هـذا النظام وألقاه على ألسنتهم وفى أعمالهم بصورة مصغرة

ومتى قرأت هذه الصور اتضح لك العالم ورأيته كقلادة الحسناء أوكمنزل نظمه بانيه وأحكم نظامه أوكحديقة غناء رتبت أشجارها وانتظمت مزارعها ، أوكمدينة أحكمت طرقها و بيوتها أوكبيوت الشطرنج انتظمت طولا وعرضا وفيها أمهر اللاعبين وأذكى الحاسبين

(١) ﴿ نظام السموات ﴾

سأتلو عليك من نبأ السموات مايناسب المقام ولأوضحنه على قدر الامكان لتعرف كيف وضعت الكواكب

وضعا محكما بحيث كان بينها مسافات منتظمات وكان يكفيني أن أحيلك على ما كتبته لك في (سورة البقرة) وغيرها مثل (الأنعام) ولكن سأعيد هنا مافيه الكفاية

إن في علم الحساب متوالية هندسية ومتوالية عددية ، فالأولى مثل قولك (١ - ٢ - ٤ - ٨ - ١٦) وهكذا و (٣-٦-١٢-٢٤-٤٨ الخ) والثانيةمثل (٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ الخ) فانظركيف وضع الله الكواكب وجعل نظامها بالنسبة للشمس على الطريقة الأولى بحيث اذا فرضنا بعد الزهرة (٣) يكون بعد الأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مهشم بقيت آثاره تجرى كما كان يجرى وقد كشفه العلماء (٢٤) والمشترى (٤٨) وزحل (٩٦) وأورانوس (١٩٢) ونبتون (٢٨٤)

هذا هو القانون الذى استخرجه العلماء في العصر الحاضر لأبعاد الكواكب السيارة عن الشمس بحيث يكون بعد كل كوكب ضعف بعد الكوكب الذى قبله ، فكأن هذه الكواكب مصابيح وضعها صاحب البيت على أوضاع لاخلل فيها ناطقة بلسان الحال — وما كنا عن الخلق غافلين — إنا كل شئ خلقناه بقدر — وكل شئ عنده بمقدار — وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم — إن الله سريع الحساب —

أليس من السار اللذيذ انى حييت في هذه الدنيا حتى كتبت هذا ، اللهم انى أحمدك على نعمة العلم والحكمة أيها الذكى ، أنا لا أريد في هذا المقام كثرة العلم لأن المقام يقتضى الأمثلة السهلة المقبولة فكفى ماذكرته في الفلك وأما تحقيق تلك الأعداد فارجع اليه في نفس هذا التفسير في سورة البقرة والأنعام فان ماذكرته اجمال وهناك تفصيل ومساحة بآلاف الآلاف من الأميال

(٢) ﴿ نظام الانسان والحيوان والنبات والمعادن ﴾

هاأنت ذا رأيت نظام الكواكب من حيث وضعها ، فهل نظام هذه المواليد على الأرض كنظام الكواكب في الابعاد . كلا . وانما نظامها بحال مخالفة لتلك ، إن هذه المواليد سلسلة واحدة متصل أعلاها بأدناها

(١) التراب

(٢) الجص . الزاج . الشب . أدنى المعادن

(٣) الذهب . الياقوت . والجواهر النفيسة كلها أعلى المعادن

(٤) خضراء الدمن والكمأة وهى أدنى النبات

(٥) النخل والكشوثى وهما من أعلى النبات

(٦) أنبوبة تنبت على الصخور في سواحل البحار فيها دودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة الحلزونية . هذا أدنى الحيوان

(٧) القرد . الحصان . الفيل . هذه متصلة بعالم الانسان

(٨) أدنى الانسان سكان أطراف المعمورة لامعرفة لهم ولاعلم

(٩) أعلاه الأنبياء فالحكماء

(١٠) الملائكة

(١١) الله فوق الجميع

هذه هى السلسلة التى شرحها القدماء ولقد شرحتها مرارا في هذا التفسير بطرق شتى ، فترى الجص والشب والزاج معادن أقرب الى التراب ليست شريفة كالذهب ولاالياقوت ولاتزال المعادن في ارتقاء حتى تصل الى الفضة التى هى أرقى من النحاس ثم الذهب ، فهذا الأعلى من المعادن يليه أدنى النبات وهو اللاصق بالأرض ينبت صباحا ويذبل ضحى يراه الناس كل يوم في الغدوات أيام الربيع ثم ينتهى ضحى وهكذا كل يوم ويرتقى النبات

الى

الى أن يصل الى النخل والكشوثى ، أما النخل فقد امتاز الذكر فيه عن الأنثى كأنه حيوان ، وأما الكشوثى فهو نبات يعيش على غيره من النباتات ويمتص منه فكأنه حيوان ، فالنخل قارب الحيوان فى انفصال الذكر عن الأنثى والكشوثى فى استقلاله وعيشه عيشة حيوانية على النبات لاعلى التراب والماء والعناصر الأرضية ثم يلى ذلك دودة الحلزون التى تكون على شاطئ النهر والبحر إذ لها حاسة اللمس وليس لها حاسة غيرها فهى قريبة من النبات . انه يحس بالضوء فيميل اليه باحساس ضعيف جدا ويرفع غصنه الى أعلى ويمد فروعه فى الأرض نحو المواضع الندية ويتجافى عن المواضع اليابسة ، فإذن بين النبات وبين أدنى الحيوان مناسبة والحيوان يرتقى من الأدنى الى الأعلى وهو الانسان وهو درجات من أدنى الى أعلى وأعلاه الأنبياء ومن نالوا حكمة وعلما وبعد هؤلاء عالم الملائكة وفوق ذلك الله فهو منزه عن هذه المادة والمخلوقات . فهنا إذن نسبة كاملة والعالم سلسلة منتظمة

(٣) ﴿ النظر فى المعادن ﴾

إن المعادن كثيرة منها الاسفيذاج والاسرب والاسفندرى والتنكار والجص والتوتيا والدر والذهب والرصاص والرماد والزاج والزنجار والزرنيخ والزبرجد والزنجفر والزمرد والشب والعقيق والعنبر والفضة والفيروزج والقير والكبريت والكحل وملح الطعام والمرجان والمغناطيس والموميا والنورة والنوشادر والنحاس والنفط والياقوت * قال العلماء ﴿ إن من المعادن الألماس وهو لايحتك بجسم من الأحجار المعدنية إلا هشمه إلا جنسا من الاسرب فانه يؤثر فيه ويكسره ويفتته مع رخاوته ولينه ونتن رائحته ﴾ ومامثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهين فى هذا الجوهر الشريف إلا كمثل (البقة) تسلطت على الفيل القوى فآذته ، فالألماس قام فى المعادن مقام الحديد فى الخشب والياقوت مسلط على أكثر المعادن . ثم إن الماس يتكون فى معدن الياقوت وتخرجه الرياح والسيول من معدنه وهو ضربان أبيض كالبلور ويسمى البلورى وأبيض يخالط بياضه صفرة ومن خواصه انه يقطع كل حجر يمر عليه واذا وضع على الحديد ودق بالمطرقة لم ينكسر وغاص فى وجه السندال والمطرقة . والياقوت لاتعمل فيه المبارد لشدة صلابته إلا الألماس والسنباذج بالحك فى الماء . والمغناطيس يجذب الحديد . فانظر كيف كان الياقوت يعمل فى أكثر المعادن وهو مسلط عليها والألماس مسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن والاسرب الذى هو جنس من الرصاص ولكنه غير ناضج مسلط على الألماس المسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن . ثم إن هذه المعادن تجمع من أقطار المسكونة فى أماكن مختلفة ومع ذلك نراها متحدة الوجهة بحيث تتحد على المنافع العامة ولها نظام فمنها الجاذب ومنها المجذوب ومنها الحاكم على الجميع ومنها ماهو ماتحته . وهذا الحاكم وهو الألماس له مؤدب من رعيته وهو الاسرب وكأنه قاض يحكم على الملك واذا رأينا العلماء والحكام فى الناس على مقدار الحاجة هكذا نرى المعادن لايحكم فيها بالقطع إلا القليل على قدر الحاجة ونرى ما كان منها نافعا فى أكثر الأحوال يكثر كالجص والنوشادر وما كان متوسط النفع يكون متوسط الوجود كالنحاس والرصاص وما كان للزينة أوللتعامل كان وجوده أقل كالذهب وما كان لمجرد الزينة والجمال ندر وجوده كالألماس والياقوت . فهذا نظام يشبه نظام الكواكب فيما تقدم فتلك نظمت أوضاعها وكالمواليد الثلاثة فانها متسق نظامها متقارب وضعها . وهذه أيضا رتبت على مقدار الحاجة اليها وهى وان دخلت فيما قبلها أردت أن أفصل الكلام فيها تفصيلا توطئة لما سيأتى فى القسم الرابع وهى

(٤) ﴿ العناصر عند علماء العصر الحاضر ﴾

إنى أحمد الله إذ وصلت الى هذا المقام فأريد أن أطلعك على نظام بديع فى العناصر التى عرفها علماء العصر الحاضر وهو فوق السبعين عدا . قد كان القدماء يقولون إن العناصر (٤) وهى الماء والتراب والنار والهواء ولكن علماء العصر حللوا هذه فأصبحت فوق السبعين وسأوضح بعضها ولكن ليس المقام مقام علم العناصر

ولامقام تحليلها وانما المقام مقام نظام وحساب . إن هـذا الأمر أعجب ما رأيت فى العلم ولكنى لا أقدر أن أشرحه كما يجب . إن معرفة الدقة فى الحساب والنظام بين العناصر والنسب بينها لايعرفها إلا أكابر العلماء فى هذا الفن وهم لم يعرفوها إلا بعد ماعرفوا الخواص الطبيعية والكيمائية و بعد تلك الخواص يعرفون النسبة والجمال فكيف يمكن أن نفهم ذلك ونحن فى تفسير القرآن ونخرج عن جمال موضوعنا الى مجاهل مقفرة وطرق يضل فيها السارون . أقول إن الله يضرب الأمثال للناس فلأقدم لك ضرب مثل يشرح صدرك وتعرف به هذا المقام الجليل ، تصوّر رجلا مثريا عنده نحو ثمانين رجلا يزرعون فى حقوله فأقبل عليه علماء بلاده ضيوفا فأحب أن يريهم عجيبة فقال إن هؤلاء الرجال اذا أنا أوقفتهم صفوفا فى أماكن معينة من هذه الأرض بحيث يتكون منهم صفوف طولية وصفوف عرضية فان كل رجل أرتبه مع مابعده بحسب الوزن فكل رجل يزيد عما قبله وقيتين فى الصف الأوّل الأفقى وهكذا الصف الثانى والثالث الى الصف الرابع عشر وذلك من اليمين الى الشمال بحيث يكون آخر واحد أكثر من أوّل واحد بعدد الرجال مرتين من الوقيات ، وهنا يكون العجب العجاب تجد كل واحد من كل صف أفقى أعنى من اليمين الى اليسار أكثر مما قبله وقيتين وأقل مما بعده وقيتين كما قدّمنا اجمالا وأيضا يكون هو نفسه بالنسبة لمن هو فوقه أقل (١٦) وقية وبالنسبة لمن تحته أكبر (١٦) وقية فى الخط الرأسى ومع هـذا كله تجد كل صف أفقى قد اتحدت أفراده فى ثمانية أشياء كالعرض والطول وطول الشعر بحسب الطبيعة ومقدار ما يأكلون بالوزن ومقدار مايشربون كذلك والمرض يكون فى وقت واحد والنوم فى وقت واحد والفرح والحزن كذلك لايختلفون البتة

هذا من جهة الصف الأفقى . أما من جهة الصف الرأسى فان الرجل مع من خلفه ومن أمامه يتفقون فى الصفات الباطنة فيعرف الصف الواحد علوما متفقة فتى عرف واحد منهم علم النحو والصرف والفقه والتفسير والشعر والعروض والأدب وعلم الموسيقى تجد الصف كله يعرف تلك العلوم . إذن لكل واحد خصال يشترك فيها مع الصف الأفقى وخصال يشترك فيها مع الصف الرأسى ، واذا مات واحد من هؤلاء فان صفاته معلومة لأن صفاته الجسمية بالنسبة للخط الأفقى وصفاته العقلية بالنسبة للخط الرأسى مفهومة معلومة فيمكننا أن نعرف صفاته ونوقن بأنا نجد فى قريتنا أطفالا يولدون بهذه الصفات فلومات ثلاثة من صفوف مختلفة فاننا نوقن أنه سيولد أطفال يحلون محل الذين ماتوا بشرط أن كل طفل يخلق متصفا بتلك الصفات المعروفة عندنا ويحل محل من مات بصفاته التى لاخلل فيها . ولقد مات عشرون رجلا وصفاتهم معروفة وهانحن أولاء نرتقب المولودين حديثا ونضع كل مولود فى مرتبته ومتى كبر رأيناه بهذه الصفات فى الأماكن الخالية . هذا هو المثل الذى أردت ضربه ليقرّب لنا موضوع النظام فى العناصر فصاحب الضيعة جعل رقعة من أرضها وقسمها مربعات وجعل المربعات صفوفا منتظمات وأوقف كل رجل فى مكان مرتين بترتيب الوزن من اليمين الى اليسار وهذا الترتيب بعده تظهر خواص عجيبة حتى ان كل رجل يشارك صفه الأفقى فى صفات نحو ثمانية وهكذا هو مع من أمامه ومن خلفه تكون له صفات اخرى خلقية وكلما مات واحد يولد آخر ويكون له نفس تلك الصفات واذا مات منهم عدد جاء بدله ويمكنهم أن يصفوا كل من يخلق قبل وجوده . فاذا رأينا وجودا على هذا النمط كان فى غاية النظام . واذا تصوّرنا أن هنا موجودات على هـذه النسبة كما ستراه الآن فى العناصر فان العقل يدهش لذلك أشدّ الدهش وتصبح هذه العناصر فى أوزانها وأوصافها أشبه بالجدول الآتى فى الصفحة التالية

٣	٢٠	٧	٢٤	١١
١٦	٨	٢٥	١٢	٤
٩	٢١	١٣	٥	١٧
٢٢	١٤	١	١٨	١٠
١٥	٢	١٩	٦	٢٣

فاذا صعب عليك التمثيل بالرجال فى الضيقة فما قدمناه فانظر هذا الجدول فهو يقرب لك المقام . فكل صف من صفوفه الرأسية وصفوفه الأفقية وهكذا القطران عدد (٦٥) فاجمع أى صف تجده على هـذا النمط وهذه الأعداد من (١) الى (٢٥) وضعت على هذا النظام فكان هذا الاتحاد فى الجمع . اذا عرفت هذا فقس عليه نظام العناصر الآتى ولكن هذا تقريبى إذ نظام العناصر الآتى يكون نسبة كل عنصر الى صفه الأفقى غير نسبته الى صفه الرأسى كما رأيت وأيضا الصفات هناك كثيرة ولكنها هنا فى الجدول ليست متعددة ، ولقد أطلت ليسهل عليك ما سأذكره (انظر الجدول الآتى فى الصفحة التالية)

(الصفوف أو الخطوط الرأسية)

(الصفوف أو الخطوط الافقية)

الايدروجين ١ر٧											
هليوم ٣ر٩٩	ليثيوم ٦ر٩٤	جلينوم ٩ر١	بورون ١١	كربون ١٢	ازوت ١٤	اكسوجين ١٦	فلور ١٩				
نيون ٢١	صوديوم ٢٣	ماغنيسيوم ٢٤ر٣٢	الومنيوم ٢٧ر١	سلبكون ٢٨ر٣	فوسفور ٣١	كبريت ٣٢ر٠٧	كلور ٣٥ر٤٦				
ارجون ٣٦ر٨٨	بوتاسيوم ٣٩ر١	كالسيوم ٤٠ر٠٩	انكيديوم ٤٤ر١	تيتان ٤٨ر١	فاناديوم ٥١ر٠٦	كروم ٥٢	مانجنيز ٥٤ر٥٣	حديد ٥٥ر٨٥	كوبلت ٥٨ر٩٧	نيكل ٥٨ر٦٨	
	النحاس ٦٣ر٥٧	خارصين ٦٥ر٣٧	جاليوم ٦٩ر٩	جرامانيوم ٧٢ر٥	زرنيخ ٧٤ر٩٦	سيلنيوم ٧٩ر٢	بروم ٧٩ر٩٢				
كريبتون ٨٢ر٩	روبيديوم ٨٥ر٢٥	استرانتيوم ٨٧ر١٣	ايتريوم ٨٩	زركيليوم ٩٠ر٦	نيوبيوم ٩٣ر٥	موكبدين ٩٦		روثينوم ١٠١ر٧	روديوم ١٠٢ر٥	بلاديوم ١٠٦ر٧	
	فضة ١٠٧ر٨٨	كوديوم ١١٢ر٤	انديوم ١١٤ر٨	قصدير ١١٩	انتيمون ١٢٠ر٢	تلوريوم ١٢٧ر٥	يود ١٢٦ر٩٢				
زينون ١٣٠ر٢	سيزيوم ١٣٢ر٨١	باريوم ١٣٧ر٢٧	انتال ١٣٨ر٩	سيريوم ١٤٠ر٣	... ١٤٤	...	سماريوم ١٥٠ر٣				
				اربيوم ١٦٦							
			انتربيوم ١٧٢		تانتال ١٨١	توجستن ١٨٤		اوسميوم ١٩٠ر٩	ابريديوم ١٩٣ر١	بلاتين ١٩٥ر٢	
	ذهب ١٩٧ر٢	زئبق ٢٠٠ر٦	ثاليوم ٢٠٤	رصاص ٢٠٧	بزموت ٢٠٨						
		اوديوم ١٢٦ر٤		ثوريوم ٢٣٢ر٤		اورانيوم ٢٣٨ر٥					

ههنا آن أن أشرح لك جدول العناصر السابق . أشرحه لك لتعجب من عجائب هذه الدنيا البديعة الجميلة ألست ترى أن الايدروجين وحدة يقاس عليه كما رأيته فوق الجدول وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا وهكذا الليثيوم وجلينيوم و بورون وكربون وأزوت واكسوجين فهذه مع الايدروجين ثمانية كان وزن آخرها وهو الاكسوجين (١٦) فكان لكل واحد اثنان فى الجملة وان اختلف بعض أفرادها وتجد أن وزن ذرة الكبريت (٣٢) وكسر وهي تمام الثمانية الثانية وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف ، ثم لننظر الى الصفوف الرأسية التي يسمونها الطوائف ، فانا نجد أن الليثيوم فى الصف الرأسي (٦ر٩٤) والصوديوم تحته (٢٣) والفرق بينهما (١٦) ثم ان البوتاسيوم تحته (٣٩ر١) فالفرق بينهما (١٦)

ألست أيها الذكي تتعجب من هذا النظام البديع ، كيف رتبت العناصر اثنين اثنين عند وزنها يعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد (٢-٢-٢) الى آخرها ثم وجد بينها تناسب فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت باثنين أفقيا وتفاوتت رأسيا بضاعف اثنين وهو (١٦) وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذى هو عدد الشطرنج المعروف وكأن هذه رقعة شطرنج والله وضع العناصر فيها ورتبها ليرينا كيف بدأ الخلق بنظام ، وهل كان يدور بخلدك قبل هذا أن هذا العالم الذى خلقنا فيه قد جعلت أصوله التى يحلل اليها الانسان والحيوان والنبات بينها تناسب فى أوزانها كتناسب مسألة الشطرنج إذ أن الملك الهندى لما اخترع الفيلسوف الشطرنج طلب منه أن يتمنى شيأ ليكون كالمكافاة فقال اعطنى قمحا بحيث لو جعل فى البيت الأول من الأربعة والستين بيتا من الشطرنج حبة يكون فى الثانى (٢) وفى الثالث (٤) وفى الرابع (٨) الى آخره فلما حسبوه لم يكفه القمح الذى فى الدنيا مئات السنين وقد كتبتها فى كتابى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وتقدم فى سورة مريم . هذا نظام العناصر حسابيا

﴿ نظام العناصر الطبيعى والكيمائى ﴾

انك ترى أن كل صف رأسى تشترك أفراده فى الخواص الطبيعية (١) كاللون (٢) والطعم (٣) والرائحة (٤) والذوبان (٥) والانصهار (٦) والغليان (٧) والحرارة النوعية (٨) والكثافة

فأما الصفوف الأفقية كالهليوم مع الليثيوم فانها تشترك فى الصفات الكيمائية مثل (١) الاحتراق وكونه فلزا أوغير فلز (٢) وهل يتفاعل مع الاودروجين (٣) والوزن الذرى (٤) والوزن المكافئ بالنسبة للأودروجين ومعنى ذلك أن يقال هذا العنصر اذا حل محل الاودروجين فى التفاعل مع الاكسوجين مثلا فكم درهما تقوم مقام الايدروجين فتطرد الايدروجين وتحل محله (٦) ثم مع أى عنصر يركب (٧) وخواص المركبات وتركيبها (٨) وتأثيره فى الأحماض ﴿ مثال ذلك ﴾ الالومنيوم تأمل تجد أن له نسبة عددية الى ماقبله وما بعده ونسبة هندسية الى مافوقه وماتحته فههنا اجتمعت النسبة العددية والنسبة الهندسية وهذا هو عين الموسيقى والنغمات والشعر ، فهذا العالم كله موسيقى وشعر ونظم وتجده يشترك فى خواصه الطبيعية المذكورة مع مافوقه وهو البورون وماتحته وهو انكليديوم وخواصه الكيمائية يشترك فيها مع ماقبله فى الخط الأفقى وهو المغنيسيوم ومابعده فيه وهو السليكون فاذن تكون الصفات (١٨) صفة منها اثنتان عدديتان و (١٦) طبيعية وكيمائية

﴿ معجزات العلم فى هذا الجدول وعجائب القرآن وفهم قوله تعالى ـ وكل شئ عنده بمقدار ـ وقوله ـ إن الله سريع الحساب ـ وهو كله معنى قوله ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ ﴾

إذن يسهل عليك أيها الذكى أن تفهم كيف أخبر (مندليف الروسى) سنة ١٨٦٩ مخترع هذا الجدول بما سيحدث وهو أن الطبيعة تحتوى على معدن جاليوم وجرمانيوم ومعدن آخر وعين فى هذا الجدول محلها الذى رأيته وذكر الخواص الطبيعية والكيمائية ونسبها الحسابية التى هى من الصفات الكيمائية أيضا ثم جاء العلماء بعده فكشفوا هذه المعادن الثلاثة على وزان ماقرره فتأمل وتعجب ، وعليه سيكشف الناس كل عنصر وضع فى مربعه شرطه سوداء أو نقط فى هذا الجدول وقد عينوا مواضعها وخواصها كما فعل (مندليف) سنة ١٨٦٩ فههنا أحد وعشرون عنصرا قد عينها الناس متربصين كشفها فى الزمان المستقبل والعناصر التى كشفت الى الآن (٨٦) والباقى المنتظر (٣٤) تقريبا فتكون العناصر كلها (١٢٠)

ولعمرى أى فرق إذن بين نظام الكواكب ونظام العناصر ، فههنا (مندليف الروسى) أخبر بعناصر قبل وجودها وأبان أوصافها فكانت كما ذكرنا وكذلك فى علم الفلك فانهم كشفوا أيضا ان بعد كل كوكب سيار مضاعف لبعد ماقبله عن الشمس وبهذه الطريقة قالوا إن بين المريخ والمشترى فراغا كان يجب أن يكون فيه سيار فى المسافة (٢٤) لئلا تختل النسبة المحفوظة ، فانظر الجدول فى (سورة البقرة) وقد ذكرناه فى هذا

المقال اجمالا قريبا ، وقد كشف العلماء كواكب كثيرة فى نفس ذلك المكان الذى عينه العلماء وهى عبارة عن قطع صغيرة من ذلك الكوكب الذى كان فى ذلك البعد ثم جاء أجله وقامت قيامته فصار هشيما وهاهى الكواكب الصغيرة التى اشتقت منه تدور حول الشمس ولكن لايعرفها إلاعلماء الرصد ومن أجزائه سيريس

﴿ الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها ﴾

لقد عرفت كيف كانت العناصر منظمة تنظيما بديعا بهيجا وهذا النظم فيها أبدع وأبهج من نظام الجدول المخمس الذى رأيته آنفا وانى أحمد الله عزّ وجل إذ كنت أيام التعلم أبحث فى هذا العالم عن نظامه وقد اطلعت على أوفاق كذلك الوفق المخمس فكنت أقول ياليت شعرى إن الله كان يقدر أن يجعل العالم منظما كنظام هذا الجدول ، إذن يكون هذا العالم بديعا ويستدل الانسان به على ربه ، أما الآن فانى أقول إن هذا الترتيب أعجب وأبدع من ذلك الجدول الذى يعجب منه المبتدئون ، ماكان ليخطر ببالى أن يكون هذا العالم على هذا النظام ، وماكان يخيل لى انه حق كما رأيت الآن ، ياعجبا كل العجب ، كواكب منظمة أبعادها حيوانات ونباتات ومعادن مسلسلة صفاتها منظمة متتالية عناصر مرصعة مرصوفة محسوبة منظومة ، هذا هو الشعر، هذا هو النظم ، هذه هى القصائد ، هذه هى الأغانى ، لا ، بل هذه هى السعادة والنعمة وبهجة جنان الخلد ، إن أهل الجنة اذا لم يتعلموا يودّون لو يعرفون هذا معرفة أجلّ من معرفتنا ، جلّ الله ، ما أبدع هذه الجواهر وأقرّها للنواظر وأسرها للخواطر وأشرحها لصدور الأكابر

﴿ نظام النفوس الانسانية والملائكة ﴾

إن فى هذه الجواهر عجائب أخرى . ألاترى الى الذهب والحديد والرصاص وأمثالها كيف نظمت كما قدمناه فى وجودها بحيث تكثر النافعة للعموم وتقل غيرها كما شرحناه فى الكلام على المعادن . ألم يقلّ الذهب لأن فائدته يجب أن يكون هو على مقتضاها . ألم يكن الروديوم الذى قد كشف حديثا قد قلّ وجوده جدا جدا بحيث ان الذى كشف منه لا يصل إلا الى دراهم معدودة . ألم تر أن هذه القلة تناسبه حتما ، لماذا ؟ لأنه هو الحاكم على المعادن . انظر كيف كان الألماس فيما قدمنا يحكم على المعادن ويسلط عليها ويكسرها أما هو فلا يحكم عليه إلا الأسرب كما علمت فأما هنا فان الروديوم تسلط أشعته على بعض المعادن فيحيلها الى البعض الآخر حتى أصبح الناس يرون أن العناصر من أصل واحد بسبب هذا التأثير . ألست ترى أن هذه الأشعة قد أثرت فى العلم تأثيرا كبيرا . ألست ترى أن قلة هذا المعدن لابد منها ولو كثر لأحدث تغيرا فى عالمنا الأرضى . ألست ترى أن الذهب كالحكماء والنحاس والحديد والاكسوجين والاودروجين وغيرها كبقية الناس . أولست ترى أن هذا المقام هو الذى شرحه أفلاطون فى جمهوريته إذ جعل الناس قسما كالذهب وقسما كالفضة وقسما كبقية المعادن وهم الحكام والجيوش وبقية الأمة . أولست ترى معى أن الأنبياء أشبه بالروديوم . أولست ترى أن هذا هو قوله عليه الصلاة والسلام ﴿ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام ﴾ أولست ترى معى أن هذا النظام فى العناصر يخيل للانسان أن هناك نظاما أدق منه فى عالم الأرواح الانسانية وانها ربما كان بينها نظام كهذا النظام أو أدق بحيث لو بحث الناس فى عقولهم المختلفة لوجدوا هناك نظما تتفق وتختلف بنظام بحيث تقوم تلك القوى الكامنة بحاجة البشر . أولست ترى أن الناس يجهلون نظام عقولهم وانهم لايزالون أشقياء حتى يعرفوا نظام عقولهم . أولست ترى أن نظام عقولهم يكون أدق من حيث نسبه من نظام الذرات لأن الأرواح أرقى من المادة والأرقى تكون فيه النسب أدق . أولست ترى أن الناس سيبحثون عن هذه الغرائز فى طباعهم ولكنى لا أدرى هل يبالونها فى المستقبل على هذه الأرض أم ذلك مؤجل ليعرفوه بعد موتهم فى العوالم التى سيمرون بها فى عوالم البرزخ وهناك يدرسون أنفسهم دراسة أدق من دراسه هذا الجدول . ألست ترى أن هذا يناسب قوله تعالى ــ ومامنا إلا له مقام معلوم ــ واذا كان المقام المعلوم بالنسبة

للذرات

للذرات عجيبا فما بالك بالمقام المعلوم للملائكة . أوليس هذا كله يناسب نظام الشمس والكواكب في شروقها وغروبها الآن لها جداول لا خلل فيها . يا ألله عجبت من صنعك وابداعك وفهمنا على قدر طاقتنا قولك ـ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ . هذا هو بدء الخلق وهو عجيب جدّ عجيب

﴿ اللطيفة الخامسة في أن حاجة الناس دفعتهم الى هذه العلوم ﴾

أيها الذكي هاأنت ذا اطلعت على نظام هذه العوالم وعلى بدء الخلق ورأيت كيف حضّ عليها القرآن أفلا تنظر معي كيف اتفق الشرع والحاجة ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ انظر كيف أمر الله بأن نعرف كيف بدأ الخلق ولم يكتف بذلك بل أحوج الانسان وحكم عليه أن يبحث في ذلك كله لأجل أموره المعاشية . انظر كيف ترى العالم الروسي يبحث عن نسبة العناصر وهو لم يبحث عنها إلا وهو مجدّ في طلب علوم الدنيا لأجل الحياة الحاضرة والله يقول لنا أيضا انظروا ، ايه ، ما أجهل الانسان ، ما أجهل أمّة الاسلام ، أبعد هذا يا أمة محمد ﷺ تنامون ، أمركم ربكم ودعت الحاجة الى معرفة حقائق الدنيا وأنتم نائمون ، ألستم أنتم الذين وعدتم وأمرتم أن تكونوا خير أمة أخرجت للناس وأن تكونوا رحمة للعالمين وتخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، أأنتم ورثة السلف الصالح . كلا . كلا . والله أنتم ورثتهم ولكن في تحمل الشريعة وستصيرون ورثتهم في هداية الأمم بعد ظهور هذه الحقائق في هذا التفسير وغيره وستقودون نوع الانسان بعد الآن . افاتكم أن هذه الحقائق والدقائق والنظم البديعة استخرجها الناس لأجل حياتهم الدنيا ولم يفعل الله ذلك معهم إلا لأن طباع أهل الأرض لا تتحرك إلا بمحرك قاسر قاهر وهو الامور الحيوية ليدافعوا عن أنفسهم الأعداء ويجلبوا لأنفسهم الغذاء ولعمرى لم يجعل الله هذا فيهم إلا ليكمل نفوسهم بقدر الامكان فان علاج الصناعات وممارسة الزراعات والتجارات ونظم السياسات وما أشبه ذلك وكذلك أعمال الحرب كلها مما تدعو لرقي العقول والاطلاع على العجائب ، وأهل الأرض لولا ماابتلاهم الله به من ذلك مااطلعوا فهم مقهورون مأمورون بالاطلاع والمسلمون قد دعاهم دينهم للاطلاع فناموا لأنهم لم يعلموا أنهم مأمورون بالتدقيق لهذا الحدّ فعليهم من الآن أن يجدّوا ويقرؤا العلوم التي عرفها الناس ثم يسيطروا على سائر العلوم

﴿ ذكر البارود والعناصر التي ركب منها عند الأمم ﴾

قلنا إن الله حكم على الأمم بالحرب وغيره لتعرف دقائق العلوم وقلنا إن المسلمين جهلوها فعوقبوا بأن الفرنجة دخلوا بلادهم وأذلوهم بالأسلحة والغازات الخانقة ، وأقول الآن إن النوع الانساني الذي خلقه الله على هذه الأرض ركب تركيبا مناسبا وليس يتحرك للمعارف غالبا إلا بمؤثرات بليغة والمؤثرات كما قدّمنا ﴿ قسمان ﴾ دينية ودنيوية ، والدنيوية إما لجلب رزق كالزراعة والتجارة والصناعة ومنها الطب ولاجرم أن العناصر وتحليلها ومعرفة ذراتها ومعيارها لابد منها للأدوية الطبية وللزراعة والتجارة وهذا أمر معلوم ، فهذا جعل لجلب المنفعة ماعدا العقاقير الطبية فانها لدفع مضرّة المرض . واما لدفع ضرر وذلك أن علم صناعة الحرب تقدّم تقدّما عظيما ومعرفة العناصر ومقاديرها أمر واجب لذلك

انظر الى صنع البارود فهو مخلوط من ملح البارود والكبريت والفحم ، فمن الأوّل (٧٥) ومن الثاني (١٢٫٥٠) ومن الثالث (١٢٫٥٠) وهذا عند الفرنسيين و(٧٤) و(١٠) و(١٦) على هذا الترتيب عند الألمانيين و(٧٦) و(١٠) و(١٤) عند الانجليز على الترتيب

ومن أراد تلوين السواريخ بالبياض فليأت بنحو (١٦) من ملح البارود و (٤) من الكبريت و (٣) من البارود الناعم

(نيران زرقاء) كلورات بوتاسيوم (٢٦) كبريت (١) أوكوسي كلورور النحاس (١٤) وهناك مقادير

للنار الحمراء والبنفسجية

والنيران الخضراء كلورات بوتاسيوم (٢٨) أزوتات باريوم (٣٥) أوكسي كلورور النحاس (١) صمغ لك (١٠) كلورور الرصاص

للون الصفرة (٥) كلورات بوتاسيوم (١) صمغ لك (٢) أوكسالات صوديوم

هذه نبذة من التركيب وفوائده وكيف كان وزن العناصر أصبح ضروريا لنوع الانسان حتى فى دفاعه عن نفسه وكيف استطاع أن يركب من الكبريت والفحم وملح البارود أنواعا ثم كيف قدر على التلوين بالخضرة والصفرة والحمرة وغيرها ، ذلك كله بوزن وحساب كما صنع الله عز وجل فى نباته وحيوانه إذ استخرج من أجزاء معلومة مالايتناهى من أشكال بديعة وصور عجيبة وبدائع وغرائب . إن الانسان خليفة الله فى الأرض فتراه يسير على سنن حكمته وان لم يعلم . سلط الله الناس بعضهم على بعض بالقتال والحرب فاضطروا لمعرفة المادة وتحليلها وحسابها كما اضطروا لذلك فى أمور معاشهم فهم مضطرون للعلم وللتحليل وللتركيب فى الحالين حال جلب المنفعة وحال دفع المضرة . فهذه العلوم تقوى أجسامهم وترقى نفوسهم ويسيرون فى الأرض ويركبون السفن الحربية ويحاربون فى الجو ويمزقون الأجسام فتنشط الأمم وتقوى الهمم وتدفن الرمم ويبقى الأحياء مجدين . إن الله بالحرب والضرب يريح أرواحا من هذه الأرض فتخرج منها الى عالم البرزخ والأرواح الباقية تستفيد عبرة واختبارا . أيها الذكى لاتظنن أنى أبيح الحرب . كلا . وانما كلامى فى الحكم الكونية التى فهمتها من عمل الله فى الأرض . انه سلط بعضهم على بعض لأن هذه الأرض ليست محل اقامة بل هى دار صناعة وتعليم وتنشيط . جهلت هذه الأرواح الأرضية التى تمر بأرضنا علوما ومعارف فأنزلها فى الأرض وسلط عليها هذه الأخلاق وأرسل لها أنبياء وحكماء ثم قال افعلوا فكل ميسر لما خلق له فتطاحنوا وتضاربوا وتقاتلوا

كل ذلك ليستيقظوا للنتيجة وهى أن تعرف نفوسهم نظام هذا العالم وتصل الى الجمال فاذا وصلوا الى الجمال وعرفوا الحقائق يدخلون فى دار أخرى تكون العلوم فيها بالشوق لا بالحرب والضرب والفقر ومبادئ العلوم هناك ماتراه هنا من الجمال . ولعلك تقول أى جمال هنا

﴿ الجمال فى هذا العالم ﴾

اعلم أن نهاية هذا العالم الجمال ولا يمكن ادراكه إلا بالحكمة والناس يفهمون الجمال العادى فى الوجوه وجمال الوجوه فى ﴿ أربعة أشياء ﴾ الخدين والعينين والأنف والفم . هذه الأربعة متى كانت منتظمة سائرة على النسب الصادقة فانها تكون جميلة ومتى تنافرت قبحت وظهرت مكروهة الطلعة . وليس فى الأرض انسان إلا وهو يدرك هذا الجمال اجمالا ولكنه لايدرك سببه والسبب هو النسب التى قررها العلماء لأعضاء الانسان وليس هذا مقام بيانها ، ومرجع الجمال فى الزهر والنبات والحيوان هو النسب العددية والهندسية ، وليس فى الأرض ولافى السماء جمال إلا بهذه النسب ، وترى الناس يطربون للشعر وللموسيقى وليس ذلك إلا للنسبة العددية والموسيقية والشعر والموسيقى من واد واحد فان السبب والوتد والفاصلة المشروحة فى ذينك العلمين ترجع كلها الى حركة وسكون فى علم الموسيقى وحرف ساكن وحرف متحرك فى علم الشعر ، فالشعر والموسيقى يرجعان الى هذين ، فترى الأبحر الستة عشر التى جعل لها الخليل دوائر حسابية منظمة لم تخرج عن النسبة الحسابية والهندسية وهكذا جميع الأغانى وضروب الموسيقى على هذا النمط كما ترى فى الماخورى من علم الموسيقى مثل بحر البسيط من علم الشعر وكلاهما (٤٨) مابين ساكن ومتحرك ففى كل منهما (١٢) سببا و (٨) أوتاد ومعلوم أن السبب متحرك وساكن والوتد متحركان وساكن فتكون الأسباب (٢٤) حرفا والأوتاد (٢٤) وهناك تظهر النسب الهندسية والنسب العددية كما هو واضح فى ذينك العلمين . إذن ظهر لك أن الناس لايفرحون بالجمال المحسوس إلا للحساب والنسبة وان كانوا لايعلمون ذلك وكلما كان التناسب أتم كان السرور أعظم ،

هكذا

هكذا فى الجمال العقلى الذى لامعنى له إلا تلك النسبة ، ومن وازن ماذكرناه فى الجمال الظاهرى وفى الشعر بما أبناه هناك فى الجدول الذى اخترعه العالم الروسى برى فرقاعظيما ، يرى التناسب هناك أبدع ، إذ يرى الخواص الطبيعة والخواص الكيماوية مضافة الى الأوزان الذرية ، فالشعر والموسيقى والجمال الظاهرى لم يدخل فيها شئ سوى الحساب ، أما فى أوزان الذرات فهناك (١٦) صفة تزيد على النسبة المذكورة ولذلك نرى لذة العلماء والحكماء أضعاف أضعاف لذة الجهلاء لأن الجاهل لايعرف إلا ما أحس به والعالم ترقى وأدرك ما لايفهمه الجاهلون ـ لمثل هذا فليعمل العاملون ـ

أقول وكأن هذا الجمال الذى يظهرفى هذه الذرات وأمثالها هو مبدأ لنظام أجل تدركه النفوس اذا خرجت من هذا العالم والشوق هنا يؤهلها للرقى هناك ، لذلك تجد النفوس الانسانية مجدّة على الأرض فى طلب العلم للجلب وللدفع * والدليل على ذلك مانراه فى تعريف حكماء الشرق للتربية قديما وحديثا

(١) قال ابن المقفع ﴿ مانحن الى مانتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الأدب الذى هو لقاح عقولنا ﴾

(٢) قال أفلاطون ﴿ الغرض من التربية هو امداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجمال ومن رأيه أن يربى قليل من أبناء الخاصة لأجل نظام الحكومة ﴾

(٣) وقال ملتون ﴿ التربية الصحيحة الكاملة هى ماتؤهل المرء للقيام بأى عمل خاصا كان أو عاما بمهارة واخلاص تام أثناء السلم والحرب ﴾ وهذا التعريف يقرب مما قررناه

(٤) وقال جيمس مل ﴿ التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملا من عوامل السعادة لنفسه أولا ولسائر مخلوقات الله ثانيا ﴾

(٥) وقال جون استوارت مل ﴿ التربية تشمل كل ما يفعله المرء أو يفعله غيره له لغرض تقريبه من درجة الكمال ﴾

(٦) وقال هربرت سبنسر ﴿ مهمة التربية هى اعدادنا لحياة كاملة ﴾

(٧) وقال بعض علماء بروسيا ﴿ التربية إنماء جميع القوى الانسانية إنماء تتعادل فيه جميع القوى ولكن ميول البشر واستعدادهم مختلفات فقد يكون من الحكمة الاهتمام ببعض القوى فى انسان أكثر منه فى آخر ﴾ ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم ،قال بطريقة مبنية على طبيعة العقل ﴿ فكل قوى العقل يجب أن تفحص ثم تقوى وتنمى على حسب طبيعتها ﴾

(٨) « القرآن » ألست ترى أن هذه التعاريف كلها جاءت فى هذه الآية ، وهل ترى انى الآن أنقلها لغير فائدة التفسير ، انى نقلها لأنها فى نفس الآية ، فقوله تعالى ـ قل سيروا فى الأرض ـ والسير حركة وهى ترجع للقوة الجسمية ، وقوله ـ فانظروا ـ راجع للقوة العقلية فكأن الله بهذه الآية يأمرنا بنظام الجسم و بنظام العقل و بهذا دخلت التعاريف السابقة كلها فى الآية والآية شملتها ، فالحركة للتجارة وللحج وللقتال ولطلب العلم والسياحه كلها سير فى الأرض وكل حركة للتمرين وللأعمال الهامة تقرب من السير لأنها حركة على وجه العموم ، وكل صناعة فبدؤها بالعلم ونهايتها بالعمل فهى مشتركة بين الجسم والعقل ، فصناعة البارود مثلا مبدؤها التعقل فى المعامل والمدارس ونهايتها السير فى الأرض واطلاق النار ، فأولها تعقل وآخرها عمل وجميع القوى العقلية تمو بالنظر . إن الآية قرنت بين التمرين الجسمى والتمرين العقلى فهى تعطى الجسم حظه والعقل حظه وهذه كانت صفة نبينا ﷺ فانه كان فى أثناء الجهاد يوحى اليه و يعظ الناس و يعلمهم . فحركة العقل وحركة الجسم متقارنتان . ومتى تذكرت ماجاء فى (سورة التوبة) من أن كثيرا من آياتها أوحى بها فى سفره الى غزوة تبوك عرفت تفسير قوله تعالى ـ قل سيروا فى الأرض فانظروا ـ الخ وكذلك غزوة أحد

وغزوة بدر . فكان الجسم والعقل مشتركين فى تمية العقول . إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد فى تربية النفوس بل ان أدعية الصلاة مؤيدة لذلك

﴿ اللطيفة السادسة . مقاصد الصلاة فى الاسلام العلوم والحكم وارتقاء العقول بها ﴾

ذكرت لك أن ديننا يأمر بالعلوم وأن الفطر الانسانية والحاجة الدافعة اضطرت الناس الى العلوم وأذكر هنا أن الصلاة تبعث على العلوم ، فكما أن القرآن كله حث على النظر فى هذه الدنيا نجد المؤمن فى أقطار الأرض يقرأ كلمات تحثه على العلوم وأكثر الناس لايعلمون ، انظر الى الفاتحة فهى مبدوءة بالحمد ثم الدعاء بالهداية الى الصراط المستقيم وتقدم هذا . وانظر الى الأدعية فى الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والتشهد وأنواع المحامد والثناء ، إن المحامد عند الرفع من الركوع تحث على معرفة العوالم العلوية والسفلية عامة والمحامد فى الركوع والسجود تحث على علوم الطبيعة بأجمعها ، انظر الى هذه العجائب فى العبادات ، انظر الى دين جاء لأمم أرقى من الأمم الحاضرة . يالله إنك أمرت المسلم أن يقول عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد » وهل للحمد اللفظى معنى إلا بالعلم بالمحمود عليه وما المحمود عليه إلا هذه العوالم التى ذكرناها ودخلت فى قوله تعالى هنا ــ فانظروا كيف بدأ الخلق ــ أى معنى للحمد بدون علم . إن المسلم يصلى ولايعلم أن الصلاة تدعوه للعلوم . إن المسلم اذا صلى وقلبه غافل لاصلاة له واذا صلى وقلبه حاضر وعرف المعنى فاما أن يقف عند الألفاظ وهو متجه لله فيشتاق اليه ثم يموت فيرجع اليه وهو عابد فى درجة خاصة ولكنه لايرتقى الى درجات رفيعة ، فأما اذا فهم المقصود من الصلاة فانه يتغلغل فى العلوم إذ يعلم أن الصلاة تحث على الجد فى معانى هذه الكلمات ومعانيها هى جميع العلوم . يرفع المسلم رأسه قائلا « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ » فكأنه يشير الى علم الفلك ومانحا نحوه وبقية العلوم اجمالا ، أما فى الركوع فانه أولا ينزه الله أن يكون كالمخلوق فيقول « سبحان ربى العظيم » فكأنه قبل أن يخاطبه ينزهه أن يكون كمن يخاطبهم ثم يقول « اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت » وهذا اقرار بالايمان وهى أول مرتبة ولكن الوقوف عندها جهالة وكسل ثم يقول « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » وهذا عبارة عن علم التشريح وأن المسلم عليه أن يعرف شيأ من التشريح حتى يدرك السمع والبصر والمخ الخ وقد تقدم بعض ذلك فى هذا التفسير وكذا السمع والبصر فى (سورة آل عمران) والمؤمنين ويقول فى السجود بعد التسبيح « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين » ففى السجود ذكر الايمان والتسليم كما فى الركوع ولكن المصلى يتوغل هنا فيقول « سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » فالتعبير بالخلق والتصوير وشق السمع والبصر يقتضى زيادة العلم بالتصوير وبعجائب طبقات العين وعجائب الأذن وغرائب المخ وذلك يدعو الى علم التشريح ويقرب منه معرفة أنواع الحيوان والنبات والعناصر التى خلقت هذه منها . ولست أقول ان المصلى اذا لم يدرس تكون صلاته باطلة ولا أخالف مانص عليه الفقهاء ــ لايكلف الله نفسا إلا وسعها ــ ولكن المقام مقام مزايا الاسلام فى التربية ، فانظر كيف دعانا الى معرفة العوالم العلوية عند رفع رؤسنا الى أعلى ودعانا لمعرفة أجسامنا ويقاس عليها ماهو نظيرها فى التغذى والتركيب وهو الحيوان والنبات وهكذا العناصر المركبة هى منها . ولما كان العبد وهو ساجد أقرب الى ربه كما فى الحديث وكما فى الآية كما قال تعالى ــ واسجد واقترب ــ رأينا الدعاء فى السجود يوضح تشريح الجسم ويشير الى الجد فى مسائل الجسم الانسانى . واذا ضممنا ذلك الى ذكر الحمد على جميع النعم فى الصلاة ومبادئ النعم كلها ما ذكرناه فى تفسير هذه الآية وكذلك قول المسلم فى قنوت الصبح فانه يدعو بطلب الهداية ويحمد الله ويشكره فى آخر الدعاء . ولا معنى للحمد ولا للشكر إلا هذه العلوم وكذلك

التشهد

التشهد فان المسلم يقول « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله » وهـذا فى معنى الحمد ويختم ذلك بقوله « إنك حيد مجيد » والحمد لامعنى له كما قلنا إلا بمعرفة العلوم المتقدمة والا كان حمدا ناقصا . أقول اذا ضممنا ذلك كله الى ماذكرناه ظهر أن الصلاة فى جميع أحوالها عبارة عن درس لهذه العلوم وحث عليها ومجرد أدعية الصلاة كاملة كافية لشوق المسلم الى هذه العلوم وان لم يسمع من القرآن حرفا ، وسيأتى فى هـذه الأمة من يعرّف الناس مقاصد الصلاة و يعرّف الناس مقاصـد القرآن و يعرّف الناس حكمة الله فى خلق الناس على الأرض و يعرّف الناس أن الله لم يدع وسيلة لتنمية العقول إلا وضعها فى هذا العالم الأرضى وأن المسلمين لما جهلوا جماله ونظامه ولم يعرفوا مافى القرآن وأن الرسول ﷺ شكا من طائفة فقال ـ يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ـ ولم يعرفوا مارمى اليه الصلاة أرسل سبحانه الفرنجة ليكون هذا آخر سهم يرمى به المسلمين حتى يرجعوا الى رشدهـم ويتعلموا وعسى أن يقوم فيهم من يفهمهم أن الاسلام أرقى مما أنتم عليه وأن هذه هى العلوم التى يرضاها الله فهى خـير من ضياع الوقت فى فروع فقهية ينقضى الدهر ولا يسأل عنها أحد . اللهم إنى نصحت وأفرغت جهدى فى النصح ، وانى أسألك أن تلهم هـذه الأمة الرشد وتسعد بالها وتلهم الأذكياء منها أن يرفعوا من شأنها و يسعوا لاصلاحها و يهدوها الصراط المستقيم

سيعلم الدعاة والمصلحون فى الاسلام أن ماذكرناه فى هـذا المقام ترمز اليه الصـلاة على الترتيب الذى سطرناه . فالثناء فى الرفع والاعتدال وفى الفاتحة والدعاء بالهداية فيها وفى القنوت وفى الجلوس بين السجدتين موجه لعموم العلوم فإذن يبتدئ المتعلم بقراءة العلوم كما فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الأمم الراقيـة ثم يأخذ فى علوم التخصيص حتى يتقن فنا خاصا كما قررناه مرارا . فالثناء فى حال الرفع والاعتدال ومامعه غير مايذكر فى الركوع وفى السجود من ذكر نوع خاص كالسمع والبصر والمخ والعصب فهنا خاص والمذكور فى الاعتدال عام . فالصـلاة نسخة من صفحات العلوم أوحى الله بها الى نبيه ليقرأها الناس صباحا ومساء وقد اهتدى بهذه الصحيفة البيضاء قوم وسيهتدى به أكثر المسلمين فى مستقبل الزمان

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

اعلم أن الله عزّوجل كما حثّ المسلمين فى صلاتهم وفى دينهم وفى جميع أحوالهم على العلوم ثم سلط علينا الفرنجة لما سبق فى علمه اننا جامدون حث الأمم الأخرى التى سبقتنا على ذلك فيما كانوا يتعبدون به لأنه رحيم عام الجود . ولأذكر لك ما كان يصنعه قدماء المصريين للتقرّب الى الكواكب التى كانت معظمة عندهم كما ذكره أستاذنا العلامة على باشا مبارك فى كتابه ﴿ خواص الأعداد ﴾ قال ماملخصه

« كان المصريون يعتنون بالاوفاق وأخـذ عنهم فيثاغورس وجماعته وسميت بالاوفاق لأنهم نسبوها الى الكواكب السبعة فانهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن الموافق للكوكب الذى يريدونه وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضـلاعه بقدرمايشتمل عليه ضلع المربع ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكوكب المطلوب ومرسوم عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة اشارات منطقة فلك البروج وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معـه . وكيفية انتساب تلك الجداول الى الكواكب هو انهم كانوا يجعلون لزحل المربع المنقسم الى تسع خانات جذرعددها (٣) ومجموع أعداد صـفه (١٥) والى المشترى المربع المكوّن من (١٦) خانه جذرها (٤) ومجموع أعداد صفه (٣٤) والى المريخ المربع المركب من (٢٥) خانه وضلعه (٥) ومجموع أرقام صفه (٦٥) وقد تقدم قريبا والى الشمس المربع المكوّن من (٣٦) خانه وضلعه (٦) ومجموع أعداد صفه (١١١) والى الزهرة المربع المشتمل على (٤٩) خانه وضلعه (٧) ومجموع أعداد صفه (١٧٥) والى عطارد المربع المشتمل على (٦٤) خانه وضلعه (٨) ومجموع أعداد صفه (٢٦٠) والى القمر المربع المشتمل على (٨١) خانه

وضلعه (٩) ومجموع أعداده (٣٦٩) وكانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على (٤) خانات وضلعه (٢) والله الواحد الأحد المربع المكوّن من خانة واحدة وضلعه (١) بحيث انه لوضرب فى نفسه لايتغير أبدا . وقد تقدم الوفق المخمس . ولأرك شكلا واحدا آخر وهو المسبع ثم أذكر الحكمة فى وجود هذا فى العالم الانسانى

(المسبع)

٤	٣٥	١٠	٤١	١٦	٤٧	٢٢
٢٩	١١	٤٢	١٧	٤٨	٢٣	٥
١٢	٣٦	١٨	٤٩	٢٤	٦	٣٠
٣٧	١٩	٤٣	٢٥	٧	٣١	١٣
٢٠	٤٤	٢٦	١	٣٢	١٤	٣٨
٤٥	٢٧	٢	٣٣	٨	٣٩	٢١
٢٨	٣	٣٤	٩	٤٠	١٥	٤٦

ولأكتف بهذا المسبع و بالمخمس الذى ذكرته سابقا وأشرح موضوع هذه الأوفاق . إن هذه الأوفاق كانوا يعتنون بها ويدعون أدعية للكواكب وكان ذلك على مقتضى ما عندهم من العلم . ولاجرم أن دين قدماء المصريين كان دخله التحريف فصاروا يتقرّبون بهذه الأوفاق . والسرّ فى التقرّب بها أن أعدادها منتظمة تحير فكر الذى يتلو العزيمة إذ يجد أعدادا منتظمة تحير العقل وتدهش اللب وتدخل فى عقل الناظر للأعداد نوعا من الحيرة وحب الاتقان فأصل وضعها كان لارشاد الشعب الى حبّ الجمال وهو النظام وذلك يدعوه للبحث فى السموات والأرض على ذلك النظام فى عالم السموات والأرض وربما كان ذلك من رجال الدين ثم تمادى الناس فيه فجعلوه لطلب قضاء الحاجات من الأصنام التى كانوا يزعمون أنها ملائمة للكواكب التى تحفظها الملائكة لأن دين القدماء هكذا ﴿ الله خلق العالم . الملك موكل بالكوكب . الصنم سبيل للكوكب الأوفاق تقرّب العابد من الكوكب الذى هو يمثل الملك المقرّب من الله ﴾ فهذه سلسلة طويلة أملاها عليهم رجال الدين تحصل عند طول الأمد بعد نزول الأديان فيحصل الانقطاع الى الامور المادية و يترك الأصل الذى قصده الأوّلون فعكف الناس على الاستغاثة والاستعانة بهذه الأوفاق ونسوا ما لأجله وضعت الأوفاق عند الكهنة ورجال الدين وان كانوا هم أيضا غيروقتين بتطاول الزمن عليهم فتطاول الزمن على رجال الدين وعلى العامّة جعل تلك الأوفاق أدعية للرزق والجاه والشهوات كما أن كثيرا من جهلة الأمّة الاسلامية و بعض الخواص يجعلون القرآن فى أكثر الاوقات لطلب أمور الدنيا لغرض الدنيا وهذا انتكاس على الرأس . والمقصد الأوّل من ديننا ارتقاء النفوس بالعمل والعلم فاتجه كثير من الناس الى جعل الدين مفتاحا لباب الشهوات . وأصل الاوفاق عند قدماء المصريين تذكير النفوس بالعلم والحكمة وجمال الله فجعلها المتأخرون منهم باب مرتزق وتبعهم على ذلك جهلة المسلمين الى الآن ، فانظر كيف جعل الله فى القدماء قبلنا من وجهوا الهمم الى معرفة حسن النظام فى العالم بطريق الدين ثم نسيه أهله فذهبت دولتهم فأصبحوا خاسرين ، ذلك أن الله عزّوجل لم ينس عباده ولم يترك أحدا من خلقه بل هو عليهم مهيمن يذكرهم كل حين ولاينال العزّ إلا من سبقت له الحسنى . ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن (فيثاغورس) كان مغرما بعلم العدد ويقول إن العالم مركب من العدد وهذا لشدّة ولوعه بالله تعالى لأن هذه الاوفاق التى نقلها عن المصريين قد قرأها وعرف أسرارا وراءها لانعلمها نحن ففنى فى الخالق واشرأبت نفسه الى ذلك الجمال الأسنى ــ وأن الى ربك المنتهى ــ

ويقرب من ذلك جدول العناصر المتقدم بل هو مدهش ومدهش لأنه يعرف جمال الله فى صنعه بأبلغ

حجة

حجة وأقطع برهان . واعلم أن قدماء المصريين لما جهلوا المقصود من دينهم نسخه الله هكذا المسلمون لما نسوا مقصود القرآن سلط الله علينا الفرنجة وسيجعل الله بعد عسر يسرا ويرتقي الاسلام — وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب — انتهى الكلام على القسم الأوّل من السورة

(القِسْمُ الثَّانِي)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ * خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ * اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ * وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلٰهُنَا وَإِلٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ * وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ
نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لاَ يَعْقِلُونَ * وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ
يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا
حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ
* وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى الأصنام يتكلون عليها فى نصرهم (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وانّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون) أى مثل المشرك الذى يعبدالوثن بالقياس الى المؤمن الذى يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة الى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر وكما ان أوهن البيوت اذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان اذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان ـ لوكانوا يعلمون ـ أى لوكانوا يرجعون الى علم لعلموا أن هذا مثلهم (إن الله يعلم مايدعون من دونه من شئ) هذا توكيد للمثل أى ان الله يعلم أن الأصنام التى يدعونها ليست شيأ فما نافية ومن زائدة وشئ المجرور بمن الزائدة مفعول تدعون (وهو العزيز) الغالب الذى لاشريك له (الحكيم) فكيف يعبد الناس ماليس شيأ ويذرون عبادة العزيز الحكيم (وتلك الأمثال) الأمثال بدل (نضربها) نبينها (للناس) وان ضحك من هذا المثل سفهاء قريش وقالوا محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت (ومايعقلها إلا العالمون) ورد « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » (خلق الله السموات والأرض بالحق) محقا غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقهما افاضة الخير وايجاد كل ممكن تعلق به العلم (إن فى ذلك لآية للمؤمنين) لأنهم يستدلون بالآثار على مؤثرها (اتل ماأوحى اليك من الكتاب) تعبدا وحفظا وفهما لمعانيه واستكشافا لغوامض مافيه (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وذلك لأنها حال الاشتغال بها تشغل المصلى عن الاشتغال بغيرها ، وأيضا تورث النفس خشية من الله * روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله ﷺ ولايدع شيأ من الفواحش إلاركبه فوصف له فقال إن صلاته تنهاه فلم يلبث أن تاب (ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسميت ذكرا لأنها مشتملة على ذكره تعالى وهو العمدة فى كونها منصلة على الحسنات (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح (إلا

الذين

الذين ظلموا منهم) بالافراط فى العناد كأن يتبنوا الولد أو يقولوا يد الله مغلولة أو ينبذوا العهد ، واذا استعمل السيف فى بعض الأحوال فذلك انه كالكى آخر الدواء فالمدار فى نشر الدين أصالة على اقامة الحجة لاسيا فى هذا الزمان ، ثم أبان طرفا من تلك المجادلة فقال (وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) مطيعون له خاصة وفيه تعريض بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله * وروى عن النبي ﷺ أنه قال ﴿لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم﴾ وقوله (وكذلك أنزلنا اليك الكتاب) أى وكما أنزلنا الكتب الى من قبلك أنزلنا اليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) كعبد الله بن سلام وأحزابه (ومن هؤلاء) ومن العرب وأهل مكة ومن فى عهد النبي ﷺ من أهل الكتاب (من يؤمن به) بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وقيام الحجة عليها (إلا الكافرون) أى المتوغلون فى الكفر كاليهود عرفوه ﷺ وكفروا به وكفرهم هو عين الجحود إذ الجحود بعد المعرفة (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك) فان ظهور كتاب جامع لهذه المزايا يستحيل أن يأتى به أمى فإذن هى معجزة (إذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحى اليك لارتاب أهل مكة واليهود فقال الأولون إنه يقرأ من كتب الأولين وقال الآخرون إن صفته فى التوراة انه لايقرأ (بل هو آيات بينات) أى القرآن (فى صدور الذين أوتوا العلم) يحفظونه لايقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) المتوغلون فى الظلم المكابرون (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل العصا وناقة صالح (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها كما يشاء لست مالكها (وإنما أنا نذير مبين) ليس من شأنى إلا الانذار (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فهو معجزة دائمة على مدى الزمان وليست كالعصا لأنها لاتدوم ، وقد جاء فى ﴿سورة طه﴾ أن أمثال هذه الآيات الحسية تلتبس ولذلك كفر بنو اسرائيل لما رأوا عجل السامرى وقد تقدم ايضاح هذا هناك (إن فى ذلك) الكتاب الذى هو حجة دائمة (لرحمة) لنعمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا) يشهد لى أنى رسول الله و يشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه (يعلم ما فى السموات والأرض) فلاتخفى عليه حالى وحالكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله (وكفروا بالله) منكم (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم لأنهم اشتروا الكفر بالايمان (ويستعجلونك بالعذاب) كالنضر بن الحرث لما قال فامطر علينا حجارة من السماء (ولولا أجل مسمى) وهو ما وعدتك انى لا أعذب قومك ولا أستأصلهم (لجاءهم العذاب وليأتينهم) العذاب (بغتة وهم لايشعرون) باتيانه (يستعجلونك بالعذاب) أعيدت الجملة تأكيدا (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ستحيط بهم وتجمعهم جميعا (يوم يغشاهم العذاب) يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاءه (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) أى اذا لم تسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتمش فيه أمر دينكم فتهاجروا عنه الى بلد تكونون فيه أصح دينا وأكثر عبادة * وعن سهل « اذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين » ويقال أيضا « إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها » (كل نفس ذائقة الموت) يريد بذلك تهوين الهجرة من بلد المعاصى ويقول اذا كانت النفوس تجد مرارة الموت وكربه فكيف يهمها المهاجرة من الوطن (ثم الينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) علالى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى أجرهم (الذين صبروا) على أذية المشركين والهجرة للدين والمحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) فلايتوكلون إلا على الله (وكأين من دابة لاتحمل رزقها) لاتطيق حمله لضعفها أولاتدخره فتصبح ولامعيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) فأنتم مع قوتكم وهى مع

ضعفها سواء فى أن الله يرزقكم جميعا فهو المسبب لها فلا تخافوا على رزقكم من الهجرة إذ قال بعضكم كيف نقدم على بلد ليس لنا فيها مرتزق (وهو السميع) لقولكم (العليم) بنياتكم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر) أى ولئن سألت أهل مكة ذلك (ليقولن الله) لأن العوالم منتهية اليه (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيده بعد اقرارهم بذلك (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى لمن يشاء أى يوسع ويضيق لواحد فى وقتين مختلفين ويوسع لزيد ويضيق لعمرو (إن الله بكل شئ عليم) يعلم مايصلح العباد وما يفسدهم * وروى « إن من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وان من عبادى من لايصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك » (ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله) أى هم مقرّون بذلك (قل الحمد لله) على عصمتك من مثل هذه الضلالات وعلى تصديقك واظهار حجتك (بل أكثرهم لايعقلون) فيتناقضون فانهم يقولون إنه خالق كل شئ ثم يشركون به سواه (وما هذه الحيوة الدنيا) الاشارة للتحقير (إلا لهو) اشتغال بما لايعنى وتمتع باللذات وفرح (ولعب) عبث وباطل لايبقى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لاموت فيها فكأنها فى ذاتها حياة ، وأصل حيوان حييان من حيي على وزن غليان فقلبت الياء الثانية واوا (لوكانوا يعلمون) حقيقة الدارين ما اختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى ثم قال إنّ هؤلاء دائبون على ماوصفوا به من الشرك (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) فهم والحالة هذه لافرق بينهم و بين المؤمنين فى صورة الاخلاص لله لعلمهم أنه لايدفع الشدائد سواه (فلما نجاهم الى البرّ اذا هم يشركون) أى فاجؤا المعاودة الى الشرك والمؤمنون ثابتون على إيمانهم (ليكفروا بما آتيناهم) أى يشركون حتى يكفروا بما آتيناهم من النعمة (وليتمتعوا) أى سيتمتعون بهذه العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم وهذا تهديد و يصح أن تكون اللام للأمر فى ليكفروا وليتمتعوا (أولم يروا) أى أهل مكة (أنا جعلنا حرما آمنا) أى جعلنا بلدهم ممنوعا مصونا يأمن داخله (ويتخطف الناس من حولهم) يستلبون قتلا وسبيا (أفبالباطل يؤمنون) أى أبالشيطان والأصنام يؤمنون (وبنعمة الله) المذكورة الواضحة (يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن زعم أن له شريكا (أوكذب بالحق لما جاءه) يعنى الرسول أوالكتاب وفى التعبير بلما إيذان بسفاهتهم إذ سارعوا الى التكذيب بلاتروّ لمجرّد السماع (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم ، ولما كان أوّل هذه السورة مسوقا للجهاد العام لجهاد النفس والجهاد مع الوالدين والجهاد مع الأعداء ومع الأصحاب ختم السورة كما ابتدأها و بشر المجاهدين بالهداية فقال (والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا سواء أكان جهاد الأعداء الظاهرة أم الباطنة فيشمل سائر المعاصى حتى جهاد الكبر والحسد والحرص وكل مرض قلبى (لنهدينهم سبلنا) لأنا خلقنا السموات والأرض بالحق (وانّ الله لمع المحسنين) بالنصرة والاعانة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(اللطيفة الأولى فى قوله تعالى ـ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ـ)

لأذكر لك ما كتبته فى كتابى ﴿ جمال العالم ﴾ من عجائب العنكبوت تحت العنوان الآتى ونصه

﴿ العنكبوت ﴾

خلق العنكبوت ذا ثمانية أرجل وعلمه الله بالإلهام من الصغر فى إبان حياته حتى انه ينسج بحيث تتساوى كبارها وصغارها والأمّهات وأولادها فى الغزل والنسج ، فلا عنكبوت إلا وقد أوتى هذه الصنعة بلا تعلم

ولاتعليم ولامدرسة كأمّهاتها ولاتخريج ولادرس ولاتنقيب كما فطرت صغار البط على العوم فى الماء عقب كسر بيضها وهكذا جميع الطيور والحشرات ، ولما كان هـذا التعليم غريزيا إلهيا لم يدخله الغلط ولا السهو بخلاف النوع الانسانى ولذلك احتجنا الى قول نبينا ﷺ « رفع عن أمّتى الخطأ والنسيان » فلايقع من العنكبوت فى نسيجه ولاغزله غلط بل تراه يحكمها باتقان مع التأنى والتثبت ، فترى خيوطا متينة وشبكاتها محكمة الوضع هندسية الشكل ، وقد قال علماء العصر الحاضر (لواجتمع كل نساج وغزال فى الدنيا وقو بلت صناعتهم بصناعات العنكبوت لفاق الثانى الأوّلين والآخرين وغلب الحيوان الأعجم هذا الانسان ـ ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ـ

(العنكبوت البناء)

كل عنكبوت فى الدنيا غزال ونساج و بعض الأنواع بناء يبنى منازل يشاهدها الناس فى أماكن كثيرة فى حجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه حتى يأمن من دخول عدوّ مهاجم أوسارق فتأمّل كيف أعطى قوّة وحكمة عجز عنهما الانسان فى البناء كما أوتى النحل فى بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أوالبرد ، كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرّة الى أكبر كوكب ، وما ألذ النظر فى هذه العوالم والعلوم ، وما أجلّ الحكمة وأبهجها ـ إن ربك هو الخلاق العليم ـ ألا فليبتهج بهذا العالمون وليفرح الحكماء المدققون

(عنكبوت البساتين)

وهناك نوع يسكن البساتين وماشابهها ، تراه مضطرا الى الانتقال من شجرة الى شجرة ومن غصن الى غصن ، فماذا يصنع ياترى ؟ ألهمه الله أن يبنى قنطرة بين الشجرتين أوممشى بين الغصنين كما يصنع نوع من القرود فى أمريكا قنطرة كما تقدّم ، ولكن طريقة العنكبوت فى قنطرته أعجب ، فتلك بالأجسام وهذه بخيط واحد يخرج من فمه مخلوقا من لعابه اذا لامس الهواء جمد فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولايزال الطرف الآخر يغدو و يجىء حتى يمسك بورقة أوغصن فتمر عليه العنكبوت ، و بهذه الطريقة نجا عنكبوت من الموت فى حكاية واليك بيانها

حكى أنه وضع حيوان العنكبوت عنكبوت على عود فى ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزل من أعلى العود الى أسفله فوجد الماء محيطا به فرجع الى أعلى ثم أخذ يفكر فى حيلة اهتدى بها الى أن غزل خيطا وأثبت أحد طرفيه فى رأس العود ولازال الطرف يغدو و يروح حتى أمسك بغصن من الشاطئ الآخر فسار عليه حتى نجا سالما ، وهذا النوع البستانى ينسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة يقتنص بها الذباب وغيره فيتخذ بها مركزا يقيم فيه و يمد خيوطه الى جميع الجوانب ، فشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائد بها ، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة (البسكليت) فاذا أحكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطا أخرى فأدارتها على هذه ور بطتها ر بطا وثيقا محكما عليها مع التناسب فى الوضع والاحكام والهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع ـ فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وفى الأرض آيات للموقنين ـ وهذه الشبكة قلدها الانسان فى صيد السمك للقوت وفى صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة بالذهب مرصعة بالحلى اهتدى لها الانسان المتمدين بعد الآلاف من الدهور والعصور والسنين تفتخر به الفتيات الافرنجيات فى اتقان الصنعة وحسنها فانظر كيف كانت نهاية الانسان بداية الحيوان . لعله يهولك غرائب العنكبوت اذا عاينت أثرها وانها تنسج ماتنسج بمؤخر أرجلها فلاتحتاج الى النظر بعينها ، فاذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق

الشمس فى اليوم الثانى رأيت شبكتها نسجت كما كانت مع صبره وتؤدته وتثبته وانه يأتى بقطع صغيرة من الحجارة والخشب يضعها على نسجه ليثبته حافظا له من التكسر واطاعة الرياح الهائجة والأعاصير والزعازع وانه يبحث عن صمغ وغراء من أماكنها فى أشجارها و يلطخ بها خيطانه وشبكته ليكسبها لزوجة فلا تتمزق اذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير واذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزجة ولم يؤثر على الشبكة حركته ، فتأمل كيف صلحت بالغراء ﴿ لأمرين ﴾ إمساك الذباب والتقيد باللزوجة لئلا تتقطع ، ومتى أمسكت الذبابة بالشبكة التى صنعت لهذه الغاية أسرع العنكبوت فى الحال اليها فعضها وجرى السم فيها فماتت فأكلها ، ومنه نوع يقرب من اليمام فى الحجم يصطاد الطيوركما يصطاد الصغير من الذباب والحشرات وقد تمر النحل بشبكته فيرجو أكلها و يخاف لسعها فيصبر عليها حتى تتعب ثم يأخذ فى أن يديرها بخيط يلفه عليها و يدور سريعا سريعا حتى لايبقى بها حراك ثم يقتلها بسمه و يأكلها

.فهذه عجائب العنكبوت غفل عنها أكثر الناس وهم لايشعرون . انتهى ماجاء فى كتابى ﴿جمال العالم﴾ ولأذكر لك ماجاء فى كتابى ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾

(العنكبوت أيضا)

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذى اذا تعرض للهواء انقلب الى مادة أشبه بالقطن أوالحرير فيغزلها خيطا دقيقا و ينسج تلك الخيوط نسيجا محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات ﴿ إن هندستها التى رسمتها فى نسيجها ونظامها البديع الذى توخته فى عملها أدق ماصنعه المهندسون وأبرع مانظمه البارعون حتى انها لم تخطئ يوما فى نظمها ولم تغلط يوما فى نسجها وان أبرع المهندسين وأعظم المحنكين الذين درسوا فى المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون فى تقديرهم و يشذون فى عملهم و يحيدون عن سواء السبيل ﴾ وهذه الحشرات لاتخطئ فى نظمها ولاتضل فى هندستها ولاتخيب فى احكامها ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلم العنكبوت خالق المهندسين ، فتلميذ الله لن يخطئ وتلميذ المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها بلاتعليم ولاتدريب ولاتهذيب ولاتدريس ولامدارس ولامعلمين بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التى أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات ــ فتبارك الله أحسن الخالقين ــ

ولقد ذكر الله العنكبوت فقال ــ وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ــ فاذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاما ــ وماكنا عن الخلق غافلين ــ

﴿ لطيفة ﴾

إن العلماء بحثوا فى تجزئة المادة حتى وصلوا الى مايدهش العقول و يحير الأفكار فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا فانها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت ، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من (٤) فى (١٠٠٠) يساوى (٤٠٠٠) ومن عجب أن بعض علماء الالمان قال انه اذا ضم أربعة بلايين خيط (٤٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠) الى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته . ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط ، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوى غلظه $\frac{١}{١٦٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠}$ واحدا من ستة عشر ترليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط ، أليس ذلك من العجب ، أوليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه

فيخيل

فيخيل للرائى انه خرج بلاحكمة فاذا انضمت الخيوط الى بعضها كوّنت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر وباجتماع الخيوط أنشأت بيتا وكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول ــ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون ــ وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله ــ لوكانوا يعلمون ــ فانظر كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت ، أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف فى الدقة وتناهت فى التجزئة ، فذكر الوهن هنا اشارة الى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لايمتنع عنها وهومتماسك ، ذلك هوالسر فى قوله ــ لوكانوا يعلمون ــ فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن مجرّد اشارة إلا بعلم الطبيعة ، ولايدرى المسلمون ماالسرّ فى تسمية سورة باسم العنكبوت إلابالتفرّغ لدراسة الحشرات واذن يعرفون لماذا سميت سورة فى القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل وهى حشرات وسورة باسم البقرة وسورة باسم الأنعام وهذه من ذوات الأربع ، والذى أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة انما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التى سيوقظها أمثال هذا التفسير ويخرج جيل اسلامى لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور وهم خلفاء الله والنبى ﷺ وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين

ومامثل العنكبوت فى ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل إذ نظم بيوتا مسدّسات ذات أضلاع متساوية متقنة ، ومن العجيب أن الأشكال المسدّسة كل ضلع يساوى القطر المارّ مابين ضلعين من أضلاعها كما قرّره علماء الهندسة ، ولقد أبنا الحكمة فى اختيار المسدّس دون باقى الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه فى كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحا أتم وبيانا أكمل فى كتابنا ﴿ جمال العالم ﴾ وكذا ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وغيرها وهذا التفسير انما جعلناه تذكرة عامة للأمة الاسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم وليعلموا أن الله عزّوجل ماوصف هذه الحشرات ولاذكرهذه الآيات ولاأخذيصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا اليها وليحثنا عليها فانظرمسألة النمل الذى تقدّم الكلام عليها فانها فضلا عمافيها من بدائع الصنعة الالهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق واتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثرا عظيما فى الزراعة . إن تربية النحل فى البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذى يربو اذا كانت الخلايا فى وسط الأزهار ويقل بل يموت النحل اذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرّها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها سمى الله عزّوجل سورا من القرآن باسمها فسمى النمل والنحل والعنكبوت . أفليس ذلك نبراسا يهتدى به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويعيدون مجدهم ويدرسون كل مادب وكل ماطار وكل حيوان ونبات ــ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ــ كما قرّرناه . انتهى ماجاء فى كتابى ﴿ القرآن والعلوم العصرية ﴾ والحمد لله رب العالمين

هذا ما أردته عند تأليف هذا التفسير ثم إنى وجدت بعد ذلك أثناء تقديمه للطبع فى الكتب الفرنجية عجائب وبدائع فى العنكبوت والذباب ونحوه فآثرت ذكرها هنا تبصرة وذكرى للمسلمين

مامن امرئ إلا رأى نسج العنكبوت . إن العنكبوت ليست من الحشرات وان كان ظاهرها يوهم أنها منها . إن نوع العنكبوت ونوع الحشرات يتفقان فى أن كلا منهما له آلتان فى مقدمه يستعملهما كما نستعمل نحن أصابعنا وهو بهما يتفاهم كما يتفاهم الأصم الأبكم من الناس بحاسة البصر ولكن العنكبوت لها ثمانية أرجل والحشرات جميعها لها ستة أرجل . إن الحشرات والعنكبوت كلاهما تضع بيضا وانما الفرق بينهما أن

الحشرات يتحوّل بيضها الى دودة والدودة تنقلب الى (فيلجة) أى شرنقة والشرنقة تنقلب حشرة تامّة كما فى مسألة دودة القز ففيها هـذه الصفات والنحل والنمل وأشباهها وقد تقدّم فى سورة النمل ، ومن الحشرات ماتعتنى بنسلها كالنمل والنحل ومنها مالاتعرفه كحشرة أبى دقيق إذ تموت ولاترى أولادها وهكذا الجراد ولكن هذا النوع يعتنى بوضع البيض فى مكان صالح بنسله . أما العنكبوت فمثله كمثل الدجاج فان بيضتها متى فقست خرج ولدها صورة طبق الأم كما فى السمك والضفادع

﴿ كيف تعيش العنكبوت ﴾

إن العناكب تعيش على الحشرات ، إنها نافعة جدا ومفيدة للفلاح ولصاحب البستان لأنها تقتل الآلاف من الحشرات اللاتى تفتك بالزرع فى الأرض

﴿ نسج العنكبوت ﴾

إن العنكبوت تغزل خيوطا دقيقة حريرية آتية من (مقر الغزل) فى جسمها الذى فيه مسام دقيقة جدا وهذه المسام الدقيقة تخرج منها خيوط تجتمع وتكون خيطا والخيوط تجعلها العنكبوت نسيجا . إن هـذه الخيوط لزجة وأىّ ذبابة وصلت اليها تلتصق بها

﴿ أنواع المصنوعات العنكبوتية ﴾

إن العنكبوت لاتقتصر على جعل خيوطها أشبه بالخيمة . كلا . بل انها تجعلها قنطرة تمرّ عليها من مكان الى مكان وتارة تجعلها عشا تضع فيه بيضها ومسكنا نظيفا لها يسر الساكنين . إن من العنكبوت نوعا تغزل الخيوط الحريرية المذكورة وتجعلها أشبه بسحاب وتطير عليه فى الهواء . ويرى الناس مئات من هذا النوع طائرات فى الهواء على هذه الطريقة فى يوم ثائر الهواء . وهناك نوع من العناكب يجرى على سطح الماء ، وكيف ذلك ؟ انه يؤلف بعض الأوراق الجافة مع خيوط حريرية من جسمه ويجعلها (قاربا) يعوم فيه على وجه الماء ويسبح به وهو قرير العين وهذا القارب جعله للصيد فهما لاحت له ذبابة أسرع بقاربه اليها وأخذها الى فيه فأكلها

ولما وصلت الى هـذا المقام جاء صاحبى العالم الذى حادثنى فى (سورة النمل) فاطلع على ماكتبته هنا فقال ، لقد قرأت كتبك كلها فسلنى كما تشاء فى ﴿ نظام العالم والأمم ﴾ وفى ﴿ النظام والاسلام ﴾ وفى ﴿ جواهر العلوم ﴾ وفى ﴿ ميزان الجواهر ﴾ وفى ﴿ جمال العالم ﴾ قرأتها وفهمتها وقرأت هذا التفسير الى هذه السورة فاسمح لى أن أسأل هنا ماعنّ لى فى قولك فيرلك أن أحاورك من أن أدع هذا لقرائك والمطلعين على هذا التفسير . فقلت ذلك يسرّنى . فقال أوضح الفرق بين الحشرات والعنكبوت ، ولماذا أراك تشرح هـذه الحيوانات هنا حتى جعلتنى أسألك المزيد ؟ وهل هذا يوافق مساق الآية ومساق الآية لايقتضى هذا الشرح فقلت أما الفرق بين العنكبوت والحشرات فقد ذكرت بعضه الآن وهو تعداد الأرجل وطريقته نحو التربية وأزيد عليه أن جسم العنكبوت مركب من ﴿ قسمين ﴾ وأجسام الحشرات مركبة من ﴿ ثلاثة أجزاء ﴾ كما تقدم فى (سورة النمل) وأيضا لغالب الحشرات أجنحة والعنكبوت لا أجنحة لها ، ثم ان القسم الأعلى من العنكبوت فيه العيون والفكان وهذان فى الرأس وفيه الأرجل الثمانية وهى فى الصدر ، أما القسم الأسفل ففيه البطن والمؤخر ، وأما أقسام جسم الحشرات فاقرأها فى (سورة النمل) كما قلت لك . فقال النمل من الحشرات وهل لها أجنحة ؟ فقلت تخلق لها أجنحة ولكن عند ماتكبر وتزاول الأعمال تكسرها لتتفرّغ للأعمال . قال فما تقول فى عدد العيون . فقلت عيون العنكبوت تختلف من زوج واحد الى ستة أزواج موضوعة مثنى فى مقدم الرأس ويتحركان من اليمين الى اليسار وبها يفترس الذباب ، أما الحشرات فانها لها أعين تقدّم شرحها فى سورة النمل وأن بعضها قد بلغت العين الواحدة فيه (٢٧) ألف عين أى ان العين

الواحدة مكوّنة من عيون مستقلة تبلغ هذا المقدار ولو تلفت واحدة منها لم تتلف البقية كما شرحه علماء النمسا وألمانيا فى هذا القرن فاقرأه هناك وانظر كيف ذكرت لك هناك أن أصدقائى أهل العلم فى مدارسنا المصرية عارضونى فى ذلك وفيهم من كانوا فى أوروبا بل بعض الأطباء أنكره فى أول الأمر ، ولما ألفت الرسالة التى تقدّمت فى (سورة النمل) أقرّوا وصدّقوا ، والسبب فى ذلك أن أمّتنا المصرية قد كانت تعرف هذه العلوم قبل هذه الأيام فى القرن التاسع عشر ثم لما دخل الفرنجة بلادنا حذفوا تلك العلوم الطبيعية من بلادنا فصار المتعلمون يكرهونها وكثير ممن ذهبوا الى أوروبا لايقرؤنها ، أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فان هذه العلوم أخذت ترجع تدريجا وصار الأطفال اليوم يقرؤن ما كان يجهله آباؤهم منذ خمس سنين وهذا يدلك أن العلوم الطبيعية مرقية للأمم ولولا ذلك ماحذفها الفرنج قبل استقلالنا الظاهرى بمصر ، هذا ثم إن النملة كما قدّمت العين الواحدة من عينيها مركبة من مائتى عين والذبابة عينها الواحدة مركبة من أربعة آلاف عين ، فقال صاحبى أربعة آلاف . قلت نعم . قال أنكر ذلك . قلت له هــذا يدرس فى جميع مدارس العالم ، وهل تريد أن تفعل معى مافعله المدرسون منذ سنين كما أخبرتك ؟ قال لا ، قلت فدعنى أتمّ لك الحديث ، فقال ياعجبا كل العجب ، أتكون الذبابة أكثر عيونا و يصطادها العنكبوت مع ان عيونه محدودة ، فقلت له لاتعجب وكيف تعجب من آية الله فى الأرض ، فقال وأى آية ، قلت إن كثرة الآلات والقوى لاتمنع من الهلاك ، ألاترى الى قيصر الروس وغيره من ملوك الأرض فانهم مع كثرة جيوشهم وعددهم وآلاتهم قدسلط الله عليهم من طردوهم من ملكهم بل قتلوا بعضهم ، وهو قيصر الروس الذى أثار الحرب الكبرى فى زماننا واتحد مع انكلترا وفرنسا ، قام للحرب بعد أن دبر المكائد فماذا جرى ؟ كانت هذه الحرب شؤما عليه و يتبعه نحو (١١٠) مليون من الناس ومن هؤلاء (٢٠) مليونا يعملون فى حقوله ، فهذا كان من ضحايا الحرب فعزل ثم قتل . إذن كثرة العدد والآلات لاتدل على البقاء ، فهذا الذباب كثرت عيونه التى تعدّ بالآلاف ولكن نوع العنكبوت الذى لاتزيد عيونه على ستة أزواج قام فافترس الذباب على كثرة عيونه

إن الله حكيم فى صنعه ، ألاترى أن هذا الذباب (وان كان ينظف جوّنا بابتلاعه الرطوبات التى فيها أنواع الحيوانات الذرّية الصغيرة الفاتكة بنا القاتلة بأنواع الحيات والوباء) يرجع هو نفسه مهلكا لنا فينقل الأمراض و يأتى بالوباء ، فهو نفسه لما تغذى من المواد الضارّة بنا ليصلح جوّنا أصبح هو ضررا لنا ، فخلق الله العنكبوت لتصطاده وتصطاد غيره من الحشرات الفاتكات بنا و بزرعنا ، فالذباب باحداث العدوى وغير الذباب بأكل الزرع ، فجعل الله هذه العناكب مساعدة لنا فمن جهل بعض المسلمين انهم لايعلمون أن هذا مساعدهم ونافع لزرعهم وحافظ لهم ولقوتهم

يعيش المسلم و يموت وهو لايعلم أن الله أنعم عليه بالعنكبوت ، يعيش المسلم و يموت وهو لايعلم أن الطيور من القنابر والعصافير والغربان وأبى قردان والبوم تساعده فى أكل الدود والحشرات الفاتكات بزرعه وقد أوضحت أكثر هذا فى هذا التفسير فراجع بعضه فى (سورة المائدة)

انه ليحزننى والله أن تكون أمّتنا أجهل الأمم بهذه العلوم التى تمتعت بها أوروبا ونحن عنها غافلون ، أذكر انى وأنا مدرّس بدار العلوم كنت أرقب نسج العنكبوت فى حديقة المدرسة وأنظر له كل يوم فلحظ ذلك وكيل المدرسة وهو من المتعلمين فقال ماهذا الذى تحافظ عليه قلت إن هذا النسج فيه عجائب فهو نسج محكم يدل على حكمة بالغة أبدعها صانع هذا العالم فتبسم ضاحكا وقال لاقيمة له وهذا لأن المعلمين لايشوّقون التلاميذ الى الجمال وهذه أكبر مصيبة فى الاسلام وقد ابتدأت تزول وهذا التفسير من دلائل النهضة ومن أوائلها

فقال صاحبى كم عدد الحشرات على وجه الأرض . فقلت إن الحشرات التى من بعضها غذاء العنكبوت قد بلغت فى تعداد أنواعها أكثر مما بلغته سائر الحيوانات ، واذا كانت الخنافس وحدها تبلغ (٨٠,٠٠٠)

نوع فبالك بغيرها من الحشرات وأنواع الحشرات المعروفة (٢٠٠٠٠٠) ويتوقعون انها تبلغ ألف ألف فقال هذا مدهش ، إنى قرأت فى كلام أسلافنا أن فى البحر (٤٠٠٠) أمة وفى البرّ كذلك . فقلت له الأمر فوق ماقالوا والله يقول ــ ويخلق مالاتعلمون ــ ويقول ــ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ــ وآيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ابتدأ ظهورها الآن وهذا التفسير من المنبهات لها وأن المسلمين بعدنا لاينصبون ولايتعبون فى تحصيل العلم وسيقوم فيهم هداة ومصلحون ينشرون هذه العلوم بين الناس فلا يكون فيهم من يقاسي ماقاسيت مما ذكرته فى كتابى ﴿ التاج المرصع ﴾ فانى ذكرت هناك انى كنت أقرأ فى كلام (الامام الغزالى) أن عجائب الله تعالى فى نسيج العنكبوت وأعمال النمل لاتتناهى . فأما عجائب النمل فقد كانت واضحة لى وأما العنكبوت فقد كنت أودّ أن أرى شكلا منظما فى الكتب لأرى حسن النسق والنظام فيه فلم أوفق لذلك حتى قرأت الكتب الانجليزية فوجدت الرسم فيها فعجبت كل العجب من أمة نائمة لاتعرف نعمة الله ولاتسير على خطوات علمائها ، فلاجمال الله أدركوا ولا آراء علمائهم اتبعوا

﴿ هل يجوز رسم الحيوان فى التفسير ﴾

فقال لى صاحبى ، ههنا قامت عليك الحجة ، فقلت وأىّ حجة ، فقال أذكرك بأنك فى سورة النمل وعدت أن ترسم أشكال الحيوان الذى يحتاج للايضاح ، فلم لاترسم لنا العنكبوت حتى نطلع على الوصف الذى وصفته ولم لم ترسم لنا النملة التى وصفتها هناك ولم ترسمها ، ألم تقل ان رسم ذلك ليس مباحا فقط بل هو واجب لأن التعليم واجب ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان هذا التأليف واجب عليك وجوبا عينيا ويجب قراءة هذا على من احتاج اليه وهو قادر إما شكرا لله واما لزيادة التوحيد ، وقد يجب وجوبا كفائيا كما أوضحته أنت فى سورة المائدة عند مسألة الغراب وفى غيرها . فقلت له سأرسم شكل نسج العنكبوت . فقال لا يكفى لابد من رسم نفس العنكبوت ونفس النملة والا عدّ هذا منك خوفا من صغار العلماء . فقلت لا أقدر أن أرسم ذلك إلا بعد شرح المقام فى السنة حتى يوقن كل مطلع على التفسير أن النبى ﷺ يجيز ذلك . فقال ياعجبا . إن التصوير الشمسى لم يرد تحريمه فى كتاب ولافى سنة وما ورد فى التصوير من تحريم أوتحليل راجع لفعل الانسان إما مجسما واما غير مجسم بالرسم المعروف . قلت هذا حق . قال واذا كان حقا فلماذا تريد أن تطيل المقام أوتراوغ فلاترسم هذه الأشكال ، وانى أذكرك بأنك فى كتاب ﴿ جمال العالم ﴾ قلت ما معناه ان العنكبوت لها ستة أرجل كسائر الحشرات مع ان العنكبوت غير الحشرات ولها ثمانية أرجل ، فاذا رسمت الصورة لم يحصل هذا اللبس . فقلت فلنورد الأحاديث حتى لايقع لبس فى المقام وتنقطع المعاذير وهاك بيانها

(١) روى قتادة قال كنا عند ابن عباس رضى الله عنه وهم يسألونه ولم يذكر النبى ﷺ حتى سئل فقال سمعت محمدا ﷺ يقول « من صوّر صورة فى الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » اه

(٢) روى الأعمش عن مسلم قال كنا مع مسروق فى دار يسار بن نمير فرأى فى صفته (بتشديد الفاء) تماثيل قال سمعت عبد الله قال سمعت النبى ﷺ يقول « إن أشدّ الناس عذابا يوم القيامة المصوّرون »

(٣) روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم » هذه الأحاديث ونحوها وردت فى فعل التصوير بمعنى ايجاد الصورة ، أما ما كانت رقما فى ثوب أو ورق فهاك ماورد فيها

(١) روى زيد بن خالد رضى الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبى ﷺ قال « لاتدخل الملائكة بيتا فيه صورة » قال بسر فمرض زيد بن خالد فعدناه فاذا نحن فى بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبيد الله الخولانى ألم يحدثنا فى التصاوير فقال انه قال إلا رقما فى ثوب ألاسمعته قال لا قال بلى قد ذكره اه

(٢) روى الترمذى بسنده عن عتبة انه دخل على أبى طلحة الأنصارى يعوده فوجد عنده سهل بن حنيف قال فدعا أبوطلحة انسانا ينزع نمطا تحته فقال له سهل لم تنزعه قال لأن فيه تصاوير وقال النبى ﷺ ماقد علمت قال سهل أولم يقل « إلا ما كان رقما فى ثوب » فقال بلى ولكنه أطيب لنفسى ، وقال الترمذى حسن صحيح

(٣) روى أنس رضى الله عنه «كان قرام لعائشة رضى الله عنها سترت به جانب بيتها فقال ﷺ أميطى عنى فانه لاتزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » اهـ

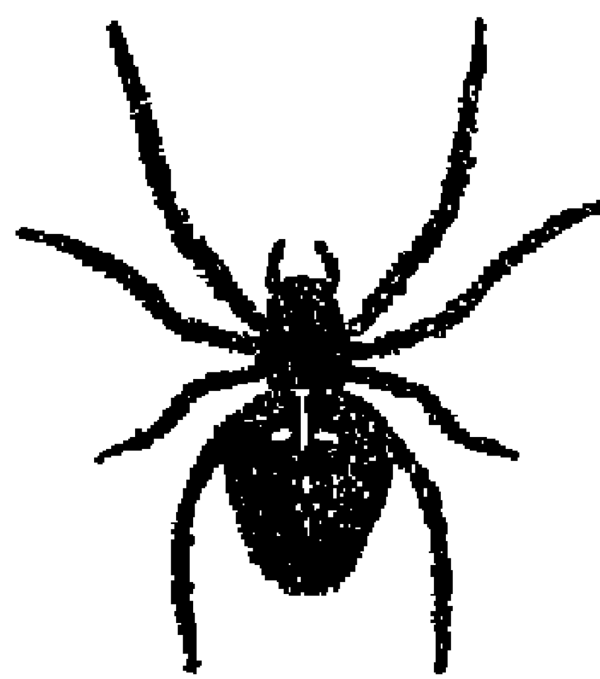
هذه الأحاديث تدل على إباحة الرقم ، فأما الفوتوغراف فشئ آخر وانما هو صور جاءت من ضوء الشمس وضوء الشمس ماهو إلا تصوير الله ومن ذا يقدر أن يحرّم تصوير الله * وقال الخطابى ﴿ إن المصوّر الذى يصوّر شكل الحيوان فانى أرجو ألايدخل فى هذا الوعيد لأنه ليس إلا رقما ﴾

فتبين بهذا أن رسم الصور بيد الانسان ليس محرّما بنفس نص الحديث الحسن الصحيح وكلامنا أيضا ليس فيه بل إن الصور الشمسية كلها من تصوير الله ، فاذا رأيت صورا فى هذا التفسير فانها كصور الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات

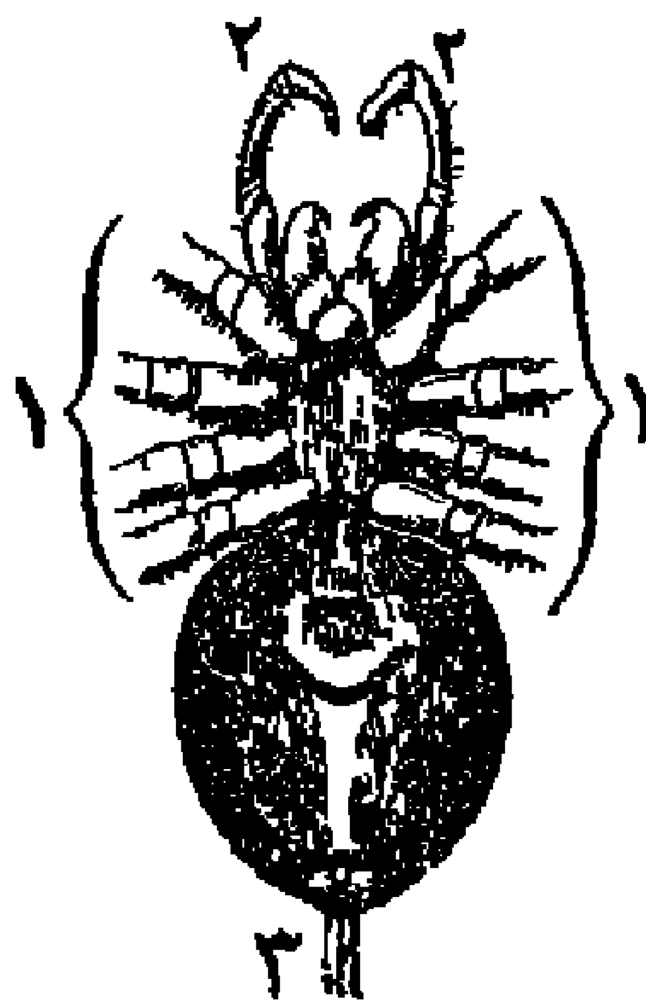
فلما سمع ذلك صاحبى قال هذا حسن جدا وواضح لجيع المسلمين وانما سقط المسلمون فى مثل هذا الجهل الذى غشى على العقول فبدل أن يسيروا فى رقى الأمة رجعوا القهقرى وفتحوا باب الكفر والنوم والجهل وأقفلوا أبواب جمال الله تعالى ومعرفة عجائبه التى لانهاية لها جهلوا علوم الكائنات ولما أردتم إيضاحها خفتم من الجهلاء فأوردتم الأحاديث خيفة أن يقفلوا أبواب العلم فى وجوه القارئين

﴿ تذكرة ﴾

ثم إن هذا الموضوع قد كتبته أثناء التأليف ولكن أثناء الطبع كتبت ما هو أجل هناك من هذا فى (سورة يونس) فاقرأه (انظر الأشكال الآتية)



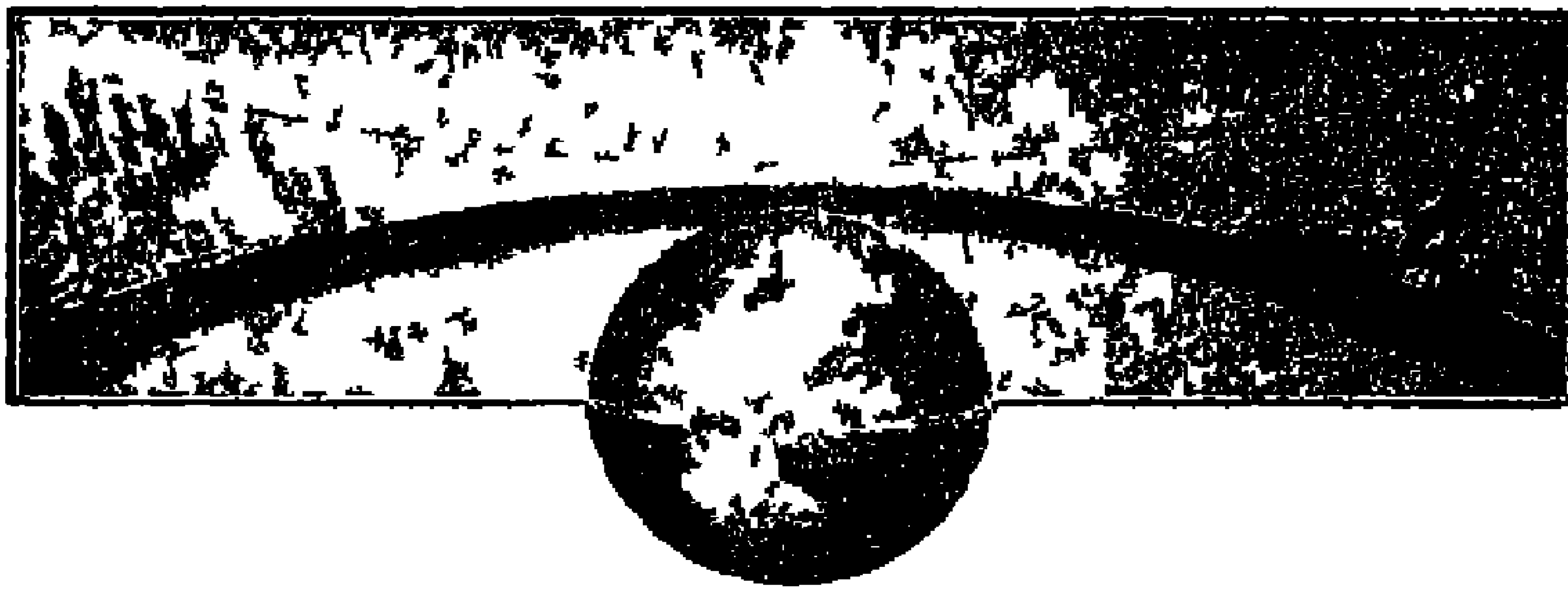
(شكل ٦ ـ صورة العنكبوت واضحة)



(شكل ٧ ـ صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسيج)

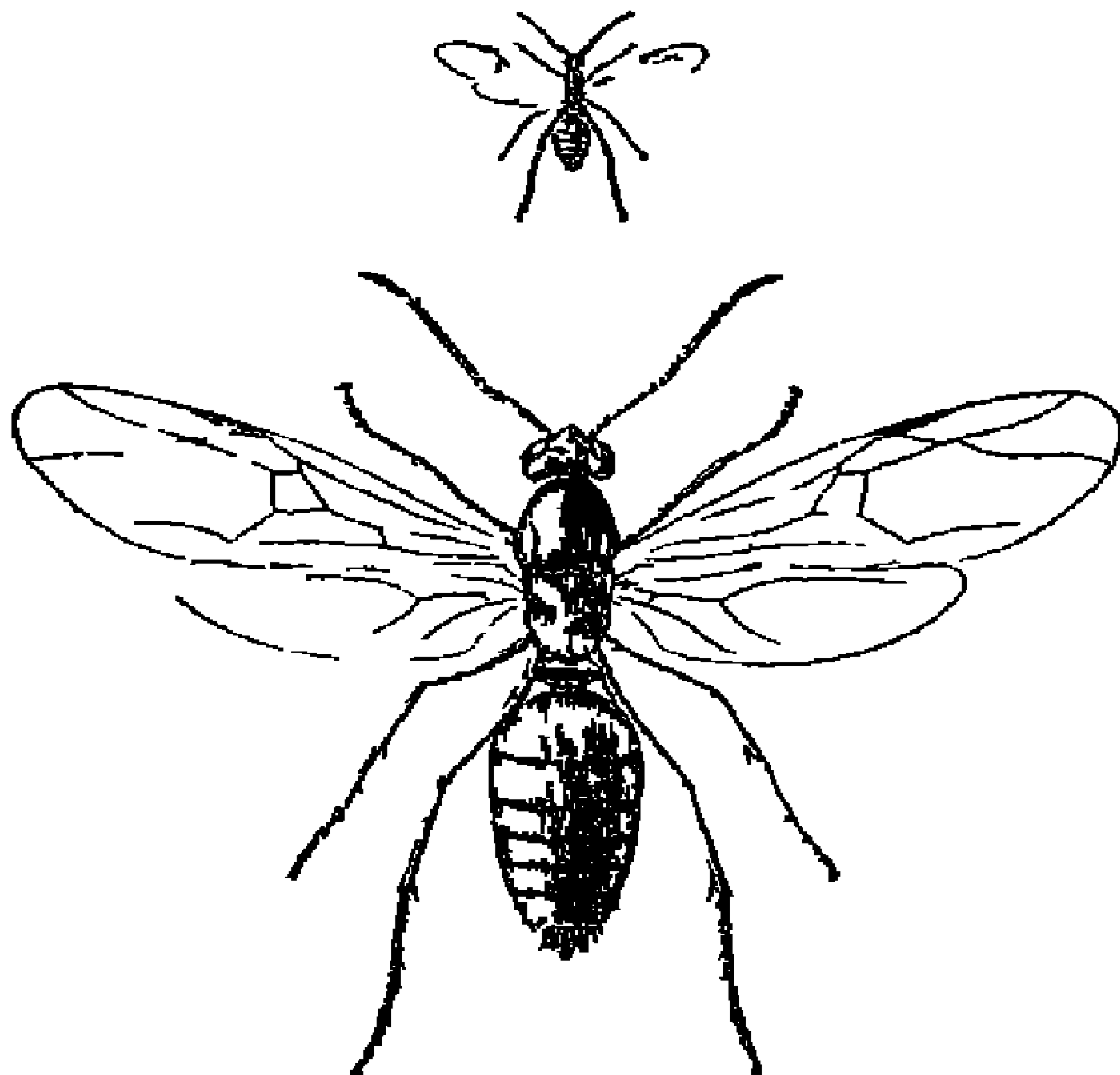


(شكل ٨ ـ صورة جهاز الغزل)

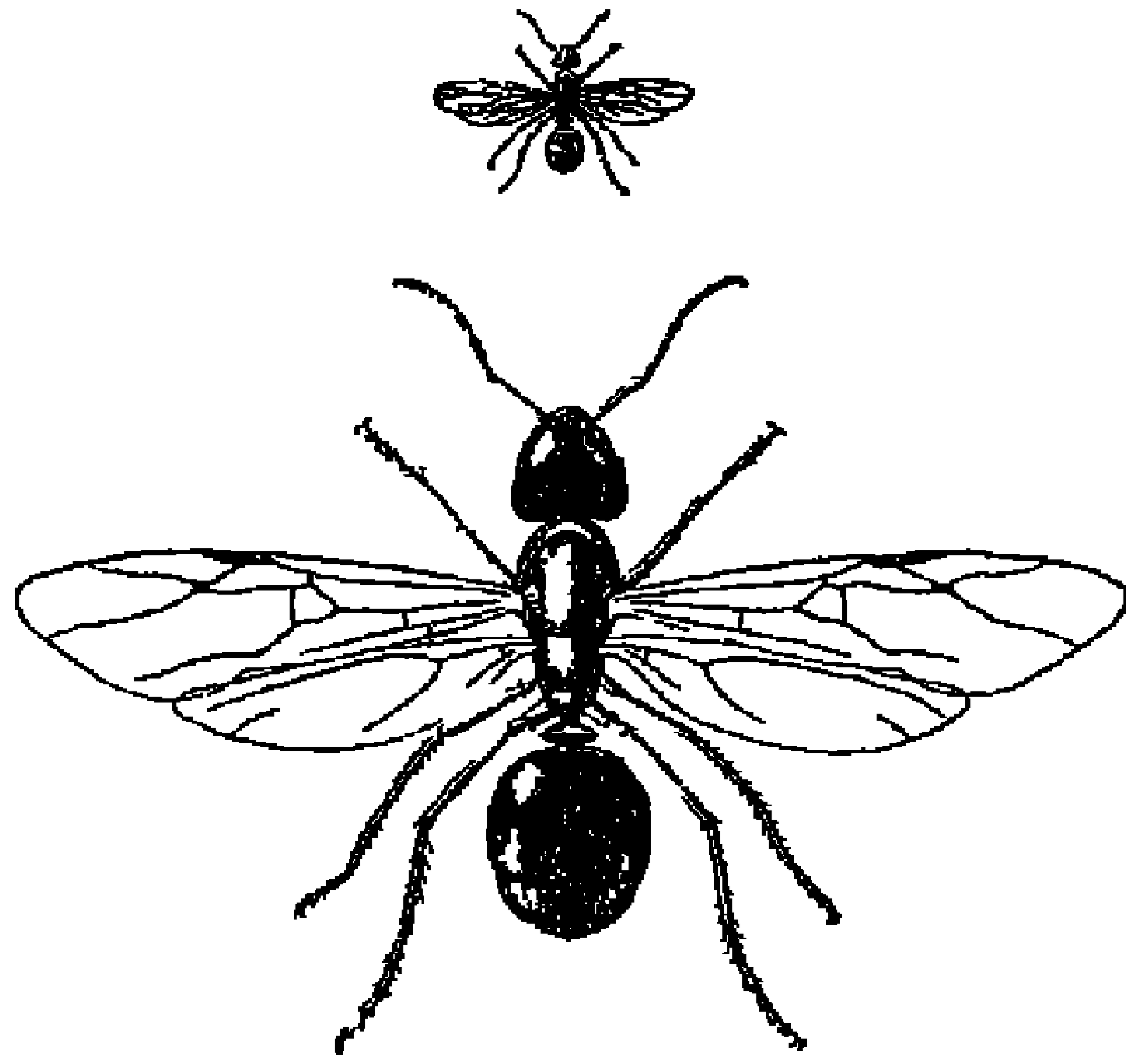


(شكل ٩ ـ صورة نسج العنكبوت مع بيان حسن لها)

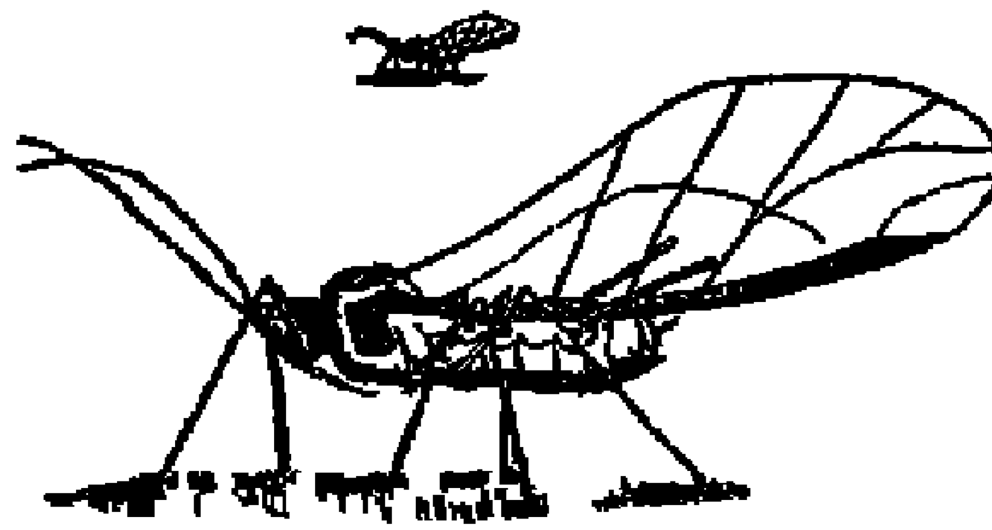
(يفرز العنكبوت مادّة سائلة تجف بمجرّد ظهورها فى الهواء وتكون على شكل خيوط رفيعة ويستعملها العنكبوت حبالة لاقتناص فريسته من الذباب أو غيره من الحشرات الصغيرة وليترل بواسطتها من المحال المرتفعة كى لايسقط فيتأثر بالسقوط ، ومادّة هذه الخيوط خفيفة للغاية من حيث الوزن حتى ان ما يبلغ وزنه أوقية واحدة من هذه الخيوط يمكن أن يصل بين نيويورك فى أمريكا وباريس فى أوروبا أى بين عمارة ولورث فى الأولى وبرج ايفل فى الثانية ، واذا أخذ من خيوط العنكبوت ما يزن رطلا أمكن أن تطوّق به الكرة الأرضية مرّتين)



(شكل ١٠ ـ صورة ذكر النمل الحقيقى . صورته مكبرة جداً لموازنتها بصورة العنكبوت)



(شكل ١١ ـ صورة أنثى النمل ، صورة الأنثى على حقيقتها ، صورتها مكبرة)



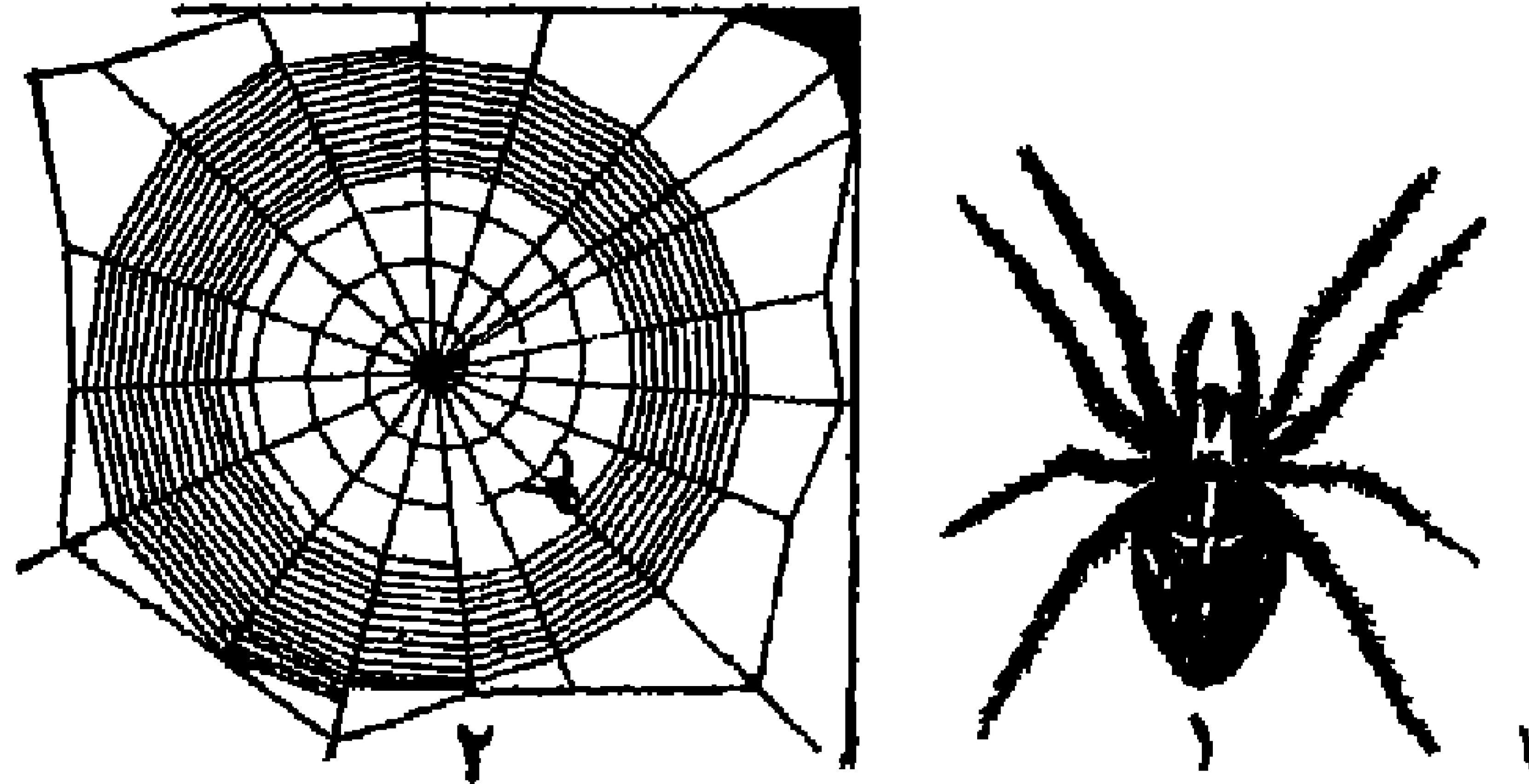
(شكل ١٢ ـ صورة مرالنمل المسمى « افر »)



(شكل ١٣ ـ صورة مخلب العنكبوت)



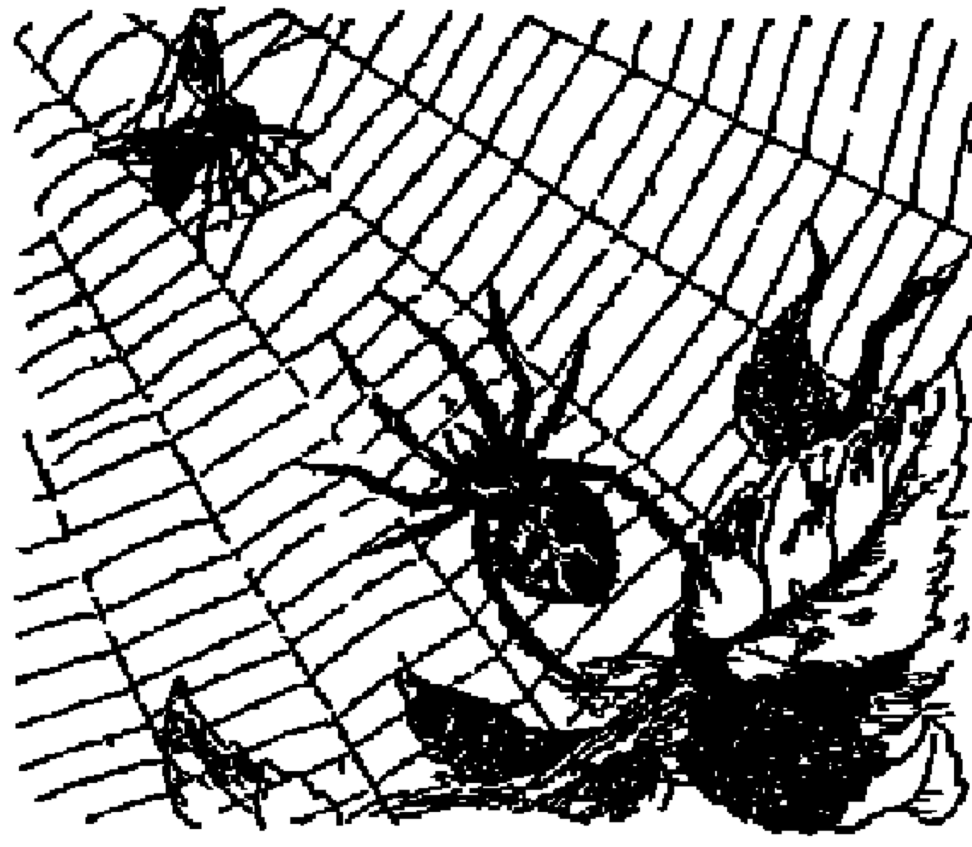
(شكل ١٤ ـ صوره اجتماع الخيط)



(شكل ١٥ - صورة عنكبوت الحديقة وبيتها)



(شكل ١٦ - صورة أكبر بيت للعنكبوت)



(شكل ١٧ ـ صورة عنكبوت الحديقة صائدة)



(شكل ١٨ ـ صورة عنكبوت المنازل)



(شكل ١٩ ـ صورة العنكبوت المائى)

فلما اطلع صاحبى على هذه الأشكال سر غاية السرور وانشرح صدره وقال لقد قمت بما وجب عليك وهذا أصلح ماوقع فى كتبك من الخطأ فانك ذكرت عن المتقدمين أن ريق العنكبوت اذا لامس الهواء صار خيطا فظهر الآن أن الكشف الحديث أبان أن هناك عدة ظهرت فى الشكل أخرجت لنا هذا النسيج الذى صار تارة طيارة كطيارات الناس فى هذا العصر وتارة سفينة فى بحر لجى وتارة يكون عشا ومنزلا وشبكة صيد

فهذه القوة المرسومة أمامنا مسع عجيب جدا للسفن العنكبوتية ومنازلها ومهد أولادها وشبكات صيدها وسفنها وطياراتها وقناطرها التى تعبر عليها واذا كانت هذه حال العنكبوت التى بيتها أضعف البيوت فكيف

استحالت حال المسلمين اليوم من القوة الى الضعف فجهلوا كل شئ ونسوا نعمة ربهم في صغيرات الامور وكبارها

﴿ لطيفة ﴾

لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال . لقد مرّ على الأمم الاسلامية قرون وقرون ولم يظفروا فى تعاليمهم بأمثال هذه الصور ولكن هذا الزمان هو الذى ظهرت فيه العلوم وتقدمت الفنون فساعدت على ظهور هذا التفسير بهيئة جديدة ولكن ليس معنى هـذه الصور انها تصدّنا عن المباحث العامّة . فقلت سل ما بدا لك . فقال إن الله ضرب العنكبوت مثلا لما يعبد الكافرون من الأصنام وقرّر أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت وقد رأينا من الاتقان فيه والابداع مالاحدّ له ؟ فهذا عجب كيف اجتمع نهاية الابداع مع نهاية الوهن ، إن الوهن لايجامع الاتقان . فقلت اذا كان بيت العنكبوت أوهن البيوت مع انه عجيب الصنع بديع الاتقان فان هذا هو المعروف فى هذا العالم ، فأنت ترى فيما تقدّم فى آخر سورة النمل فى تفسير قوله تعالى ــ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها ــ أن مقدار الماء الذى يملأ ملعقة الشاى يحتوى على مقدار من الهيدروجين وهـذا المقدار فيه كهرباء لو استخرجها العلماء فى المستقبل لأصبح عندنا منه مائة ألف كيلو من الكهربائية وقوّتها تساوى (١٣٣) ألف حصان وما هذا كله إلا من الهيدروجين الذى فى ملعقة الشاى ، ما هو الهيدروجين فى تلك الملعقة ؟ إن هو إلا جزء من (٩) من الماء وذلك أن الماء مركب من الاكسوجين والاودروجين والاودروجين فى الوزن لايساوى أكثر من واحد من (٩) من الاكسوجين إذن تسع ملعقة الشاى هو الذى يعطينا قوّة (١٣٣) ألف حصان ، فهذا الماء فى الملعقة شئ لايؤبه له فضلا عن جزء من تسعة من هذا المقدار . إذن الله أتقن القليل وأدهشنا من اتقانه ، واذا كان هذا عمله فى القليل فما بالك بالكثير ؟ وهذا قوله تعالى ــ الذى أحسن كل شئ خلقه ــ فالقلة لاتمنع الاتقان لأن القدرة والعلم لاحدّ لهما وهذا على حد قول الشاعر

له همم لامنتهى لكبارها ❊ وهمته الصغرى أجل من الدهر

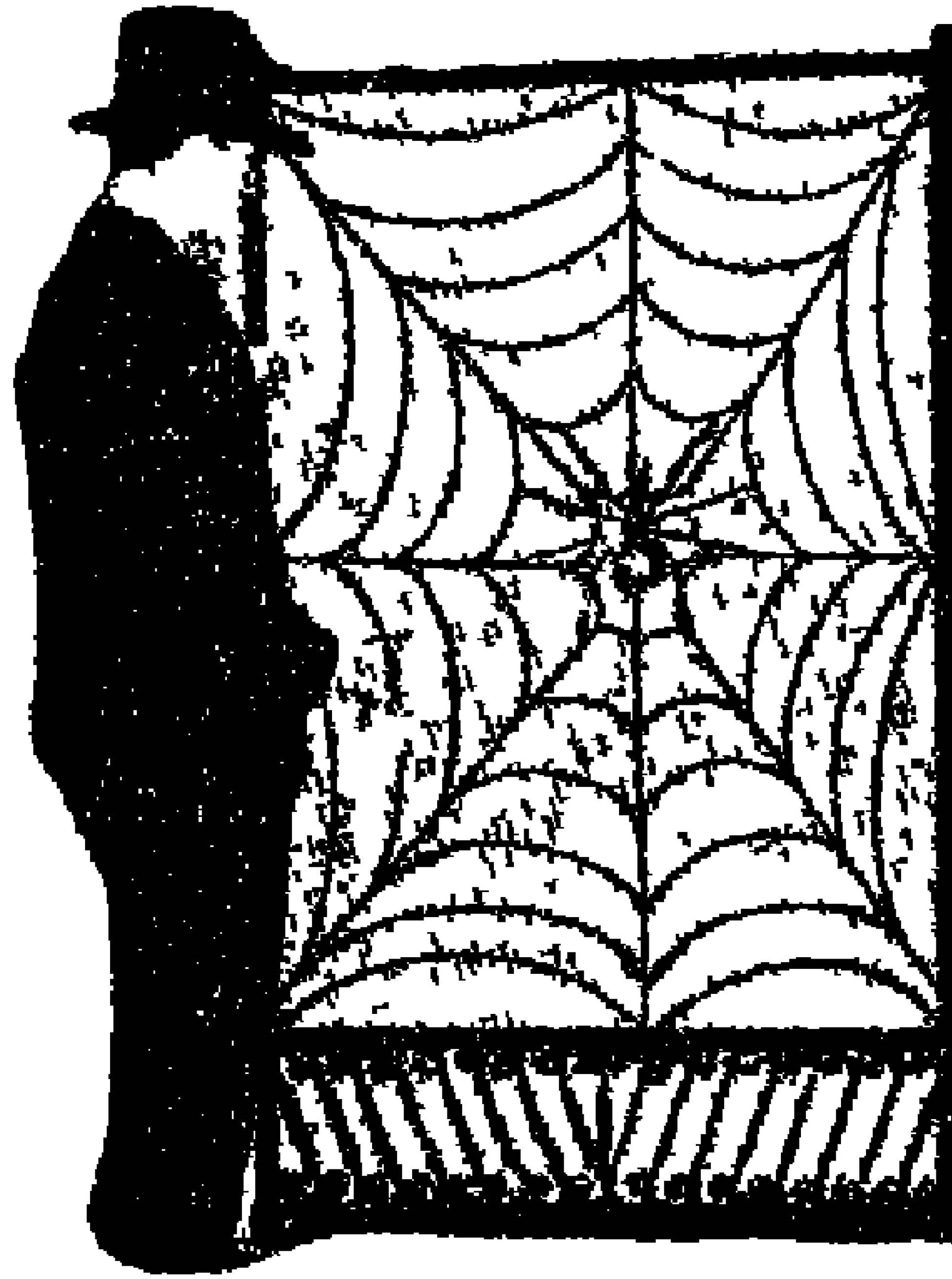
فما قاله الشاعر فى ممدوحه يقال هنا إن جميع البيوت فى العالم سواء أكانت انسانية كبيوتنا أم كانت للحيوان والطير أمتن وأقوى من بيت العنكبوت ، ألاترى منازل الناس وأجحار الضب والغزال والذئاب وأضرابها ثم الى أعشاش الطيور التى تبنيها فى الأشجار ، فهذه كلها أقوى من بيت العنكبوت ، فهكذا الأصنام وان كانت ماثلة أمام الناس يرونها بأعينهم لاقوّة ولاعمل لها ونسبة الأصنام من حيث عبادتها الى خالق العالم الحكيم كنسبة بيت العنكبوت الى بيوت الانسان ونحوه ، فبيت العنكبوت اذا نسبناه الى بيوتنا و بيوت حيواننا كان أوهن البيوت هكذا عبادة الأصنام يتوهم الناس أنها تنفعهم وما هى بنافعة وانما يتخيل عبادها بوهمهم نفعها لهم ، فهذا التخيل الذى لايرى أسه ببيت العنكبوت من حيث ضعفه لامن حيث حسن اتقانه فهذا مقام وذاك مقام آخر بل اذا تمادينا فى الفهم ونظرنا بعين الحقيقة رأينا هـذه الدنيا كلها أشبه بالأصنام بل المعبود حقيقة عند كثير من الناس انما هو الهوى ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ الناس يحبون الدنيا كالمال والولد حبا جما وهذا الحب هو العبادة الحقيقية ، واذا كانت الدنيا لاثبات لها بل هى زائلة بل ظهر كما تقدّم فى سورة النور عند قوله تعالى ــ الله نور السموات والأرض ــ أن قطرة الماء فيها جواهر صغيرة تكاد تصل فى العدّ نجوم السماء التى عرفت فى الكشف الحديث ، ومع هذا كله نرى هذا العدد لايملأ من فراغ تلك القطرة إلا جزأ واحدا من مئات آلاف آلاف و بناء عليه أصبح هذا العالم عند العلماء عالما أجوف والمادة فيه تكاد تكون متوهمة . إذن هذا العالم عالم الوهم فليس الحكم على المادّة بأنها كبيت العنكبوت خاصا بالأصنام بل هذا الحكم يعم المادّة كلها والحياة فيها وهذا هو قوله تعالى ــ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ــ وقوله تعالى وان الدار الآخرة لهى الحيوان ــ وقوله ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ

واهم

وأهم ماتقدّم أن بيت العنكبوت من حيث اتقانه له حكم غيره من حيث ضعفه فضرب المثل به جاء من حيث ضعفه لامن حيث أتقانه وهذا الضعف له نظير فى المادّة كلها وفى الأصنام فالمادة أشبه بالوهم والخيال كما وضح فى قطرة الماء فى (سورة النور) ولاجرم أن هذا الايضاح ليس يعقله جميع الناس بل يعوزه علم وحكمة لهذا قال تعالى ـ لوكانوا يعلمون ـ وقال ـ وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون ـ

فالجاهل يظنّ أن ضرب المثل بالعنكبوت أمر سهل لأنه مفهوم والعالم يدرسه دراسة تامّة ويفهم ماكتبناه فقال لقد أجبت بما شفى صدرى ولكننى أريد أن أسألك سؤالا آخر ، هل قلد الناس نسيج العنكبوت لجماله وابداعه واتقانه وهندسته . فقلت نعم فقد جاء فى مجلة «كل شئ» مانصه (شكل ٢٠)

﴿ محاكاة الطبيعة ﴾

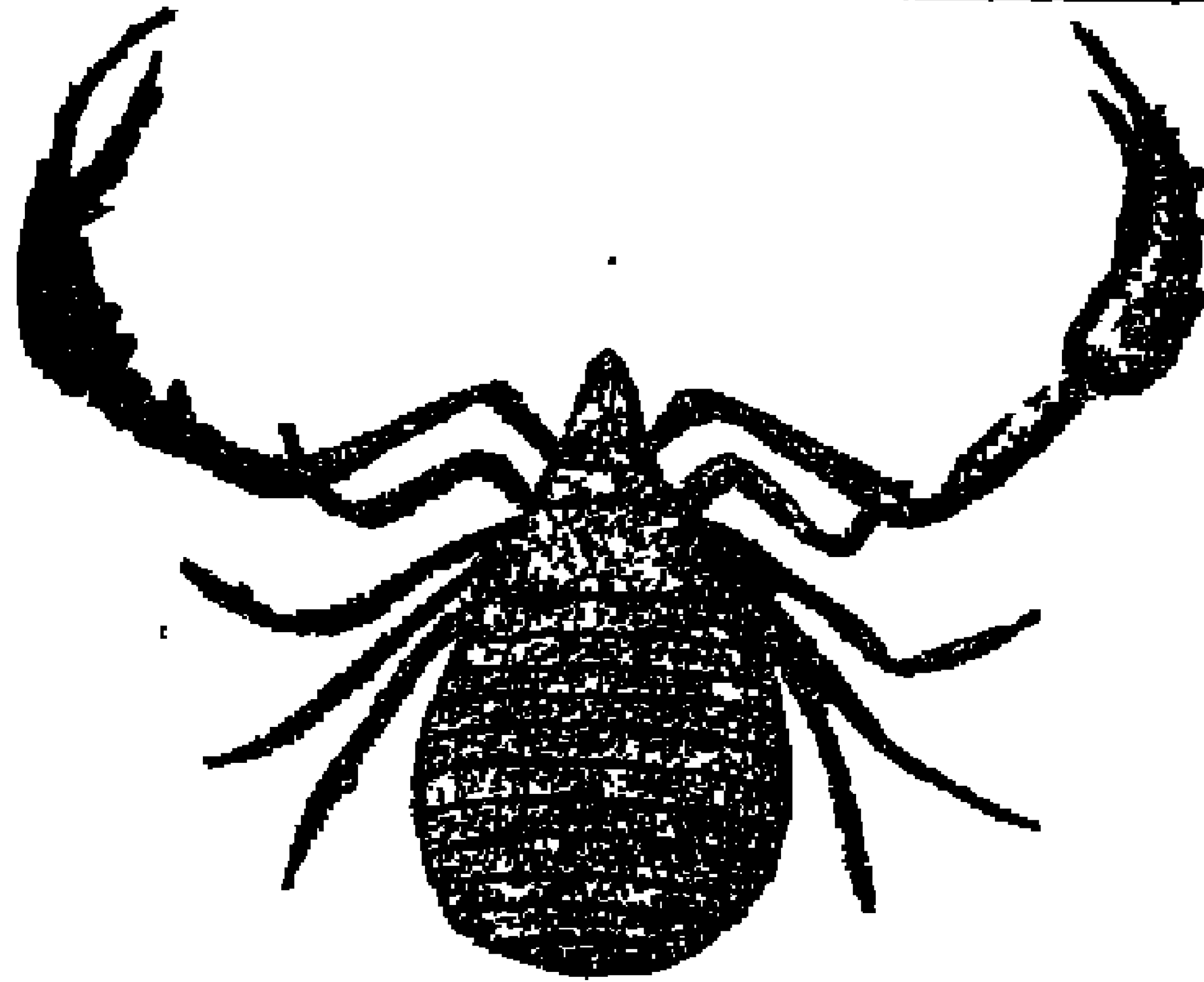


(شكل ٢٠ ـ باب من حديد مصنوع بهيئة نسيج العنكبوت)

«كل منا يعرف نسيج العنكبوت ويعجب به كما أننا نضرب المثل به فى الضعف والوهن ولكن أحد الصناع الانجليز رأى أن يقلده فصنع بابا من الحديد بهيئة نسيج العنكبوت وعرضه حديثا فى لندن فنال اعجاب كل من رآه »

﴿ لطيفة ﴾

لقد تقدّم فى (سورة الفرقان) عند قوله تعالى ـ وخلق كل شئ فقدّره تقديرا ـ أن العنكبوت تأكل الذباب وبهذا يخلو الجوّ للانسان والحيوان . إذن العنكبوت نافع للزراعة لأنه آكل الحشرات ذبابا وغيره فاقرأ هذا الموضوع هناك ، وانى أزيد المقام حكمه بما رأيته اليوم من أن العقارب التى شاركت العنكبوت فى أرجلها الثمانيه وفى الهيئة شاركتها أيضا فى قتل الحشرات فانظر (شكل ٢١ فى الصفحة التالية)



(شكل ٢١ ـ صورة عقرب تأكل العث والسوس)

« هذه عقرب صغيرة تعيش بين الأوراق والكتب والأخشاب فى البيوت القديمة وتقتات بالعث والسوس وسائر الحشرات التى تأكل الثياب والأقمشة والأوراق لها ثمانية أرجل مثل سائر العقارب ولها كلابتان اذا قبضت بهما على الحشرة أزهقتها ، وهى تبيض نحو (٢٠) بيضة تحملها فى طية من طيات بطنها حتى ينقف البيض وتخرج الصغار ـ إنّ ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ـ »

والى هنا انتهى القول فى السؤال الأوّل وماترتب عليه من الشروح فى الحشرات والعنكبوت فقد اكتفيت أما جوابى لك أيها الأخ عن السؤال الثانى وهو لماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا وهل هذا يوافق مساق الآية ؟ فانى أقول لك ما الذى دعاك الى هذا السؤال ؟ فقال غيرتى عليك لأنى رأيت أن هذه العلوم أنت مغرم بها ومساق الآية لايعطى ذلك ، انما مساقها ذم عباد الأصنام وأن عقولهم وقفت عندأمر ضعيف كضعف نسج العنكبوت ، ومامثلك فى هذا إلا كما جاء فى « الاتقان فى علوم القرآن » للعلامة السيوطى أن العلامة الرازى غلب عليه أقوال الفلاسفة فأكثر منها وقال أبوحيان فى « البحر » جمع الرازى كل شئ إلا التفسير وهكذا أبوحيان نفسه وقع فيما وقع فيه الرازى فقد غلب عليه قواعد النحو ومسائله فأكثر من ذلك كالواحدى فى البسيط والزّجاج ، ثم إن الثعلبى غلبت عليه الأخبار ، والفقيه يكاد يجعل القرآن كله للفقه كالقرطبى ، فانى أخاف أن تفسيرك يكون بحسب ماغلب عليك واشتهرعنك فى كتبك . فقلت له أما من ذكرت من الشيوخ فهم أساتذتنا ولولاهم ماعلمت شيأ . وأما قولك ان تفسيرى خارج عن مساق الآية فهذا هوالذى أجيبك عنه وستعلم أن هذا زمان ظهور الحقائق القرآنية ، فاعلم أيدك الله أن مساق الآية كما ذكرت أنت انما هو تشبيه هؤلاء الكفار من حيث انهم اتخذوا غير الله إلها بالعنكبوت اتخذت بيتا ، ولاجرم أن بيت العنكبوت بالنسبة لبيوتنا كمعدوم لاوجود له ، ومامثل العنكبوت بالنسبة للمنازل فى القرى والمدن أوللاهرام بمصر الذى يقارع الأجيال وهو باق على كرّ الدهور إلا كنسبة العدم للوجود ، واذا كان نورالشمس لما وازناه فى سورة الأنعام بنورأضعف الكواكب بلغ مئات ألوف ألوف الالوف فهكذا هنا نسبة الهرم الى بيت العنكبوت أبعد وأبعد جدا ، إذن عقول هؤلاء الكافرين بعبادتهم الأصنام أصبحت نسبتها الى من يعرف الله ويدرك مصنوعاته كنسبة بيوت العنكبوت الى اهرام الجيزة بمصر « وبعبارة أوضح » ان عقول الكفار لما وقفت عند المحسوسات وانحصرت فيها وعبدت الأجسام وانحصرت وانحبست فى صور محدودة وهيا كل معدودة كانت نسبتها الى عقول الأنبياء والحكماء والأولياء كنسبة بيوت العنكبوت الى أقوى الأبنية أوكنسبة أضعف كوكب الى ضوء الشمس الذى شبه به الرسول ﷺ فقيل فى القرآن ـ وسراجا منيرا ـ فإذن تكون المسألة راجعة الى قوله تعالى فى سورة أخرى ـ أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ـ فأوّل الآية يمثل انحصار العقول وغفلتها بالوقوف على ماتحته الناس وآخرها يمثل انطلاق العقول الى باحات الجمال واشراقها بادراك سرّ هذا

الوجود بقدر الطاقة البشرية . إذن أصبح هذا التمثيل داعيا إلى انطلاق العقول وعدم حبسها فى أشياء خاصة بل يراد بذلك درس هذه الموجودات لمعرفة مبدعها وارتقاء العقول فى هذه الدنيا ونظام المدن ، فاذن هـذا المثل حوى ﴿ أمرين ﴾ ـ صنع الله الذى أتقن كل شئ ـ وصنع المخلوق الضعيف ، فصنع الله هو الذى يجب البحث فيه ووقوف العقل عند حدّ مخصوص هو الذى يذم ، فالنفوس التى وقفت عند عبادة الأصنام نفوس ضعيفة فآراؤها أشبه ببيت العنكبوت بالنسبة لأقوى الأبنية فهى لامحالة واهية ذاهبة * والدليل على ذلك أن كفار مكة لما جاء الاسلام خضعوا له طوعا لقليلهم وكرها لأكثرهم فهم اتخذوا مايشبه بيت العنكبوت فلم يحفظهم بل غلبهم المسلمون فى الحرب وهكذا يوم القيامة يعذبون ، وهكذا ترى المسلمين فى الأعصر المتأخرة ناموا وعكفوا وجهلوا كل شئ فى الدين فغلبهم الفرنجة فى السياسة وفى الحروب

والحاصل أن كل من وقفت عقولهم وجمدوا فانهم لامحالة مقهورون فالمدار على العلم فى كل موطن فى الدين والدنيا ، فاذا رأينا العلوم فى هـذا الزمان قد جلت الناس وألبستهم وأطعمتهم فمن ترك ذلك فهو كالعنكبوت اتخذت بيتا ، واذا رأينا المسلم يقرأ فى علم التوحيد كلمات جدلية و يقتصر على الفقه و يترك مواهبه وعقله وتفكيره ونعمة ربه فى سمواته وأرضه وحيوانه وحشراته وعنكبوته وهوائه ومائه وهو يرى الأمم تحيط به وتعلم هذا كله ثم هو لايفكر قلنا إن مثله كمثل العنكبوت وهو آثم لأنه ترك مايجب عليه إما وجوبا عينيا أو وجوبا كفائيا

إن هذا المثل عجيب جدا وكيف لا يكون عجيبا وهو قد ذكر بيت العنكبوت والعنكبوت فبيت العنكبوت شبه به الأصنام المعبودة والعنكبوت نفسها من صنع الله وصنع الله يطلب النظر فيه شكرا لله وتوحيدا له ، ومن أعجب وأبدع ماصنع الله خلق العنكبوت ، فانظر فيها أنت ذا رأيت عجائبها ، رأيت مراكبها وطياراتها ومساكنها وقناطرها فكيف كان هـذا الحيوان الضعيف قد أتمّ الله خلقه وأكمل صنعه وجعله آية للعالمين وكيف كان أعجوبة الدهر ومثال الجمال والكمال وكيف اخترق الآفاق فى الهواء بصناعاته وأبدع منسوجا خيوطه خارجات من جسمه بلا ارشاد مرشدين ولاتعليم معلمين فساح فى الهواء وجرى على الماء وبنى القناطر وربى الذرية وطارد الجيوش الجرارة من الحشرات فاقتنصها وأراح منها زرعنا اللهم اشهد

إنى أسجل على المسلمين جهلهم بهذه المصنوعات التى صنعتها والعجائب التى أبدعتها والطرق التى لنا أهديتها. اللهم إنك أنت الجميل الذى أبدعت الجمال وأظهرته فى هـذه الحشرة التى أتقنت الصنعة وأحكمتها والمسلمون لايعلمون . اللهم إنى أذكر بهذا التفسير كل من اطلع عليه أن يبين للمسلمين حكمة ربهم وصنعه ويفهمهم انه لامعنى لشكر الله ولا لحب الله ولا للاهتداء بآيات الله إلا بهذه العلوم ومعرفتها

انظر كيف كان المثل مضروبا لسخافة عقول الكافرين المحصورة فجاء فيه الأمران بيت العنكبوت ونفس العنكبوت . ولما كان النظر فى أمر العنكبوت نفسها لايخطر بالبال بل يقول الانسان إنه خارج عن الموضوع أفاد ذلك فقال ـ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ـ بكسر اللام ، فهو يقول إن العلماء هم الذين يفهمون هذه الأمثال ، ومعنى هـذا أن العلماء بهذه العلوم كالحشرات مع ما ينضم اليها هم الذين يعقلون هذا المثل والافلماذا يأتى بهذه الجملة بعد مسألة العنكبوت ، ولماذا يختص هذا المكان بأن هذا لايعقله إلا العالمون (بكسر اللام)

اللهم إن المثل من حيث انه يراد به أن الأصنام كبيت العنكبوت واضح للصبيان والعجائز لايحتاج الى علماء ولاحكماء ، ثم زاده إيضاحا فقال ـ خلق الله السموات والأرض بالحق ـ وأتبعه بذكر انه آية للمؤمنين ثم تلاه بأمره بتلاوة القرآن وبالصلاة لماذا يصلى لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والفحشاء والمنكر يمنعان القلب من معرفة جمال هذه المصنوعات الإلهية وأعقبه بقوله ـ ولذكر الله أكبر ـ ومعلوم أن التفكر فى الصنعة أشرف الذكر وهو الذى رمز له بالعنكبوت ونسجه

هنا تبين الأمر وظهر فكأنه يقول هذه الأصنام المعبودة تشبه بيت العنكبوت لاثبات لها والذى ينفع الناس هو النظر فى السموات والأرض ويمثل ذلك كله نفس الحشرة ، فالحشرة العنكبوتية فى المثل من أبدع ماخلق الله فى السموات والأرض ودقة نسجها وعجائب صيدها وقنصها واتقان الغدد التى فى جسمها حتى تخرج خيوطا وغير ذلك دال على جمال الصانع وحكمته ، فالمثل فيه ضعف الصنعة واتقانها ، ضعفها من حيث مقارنتها ببيوت الناس واتقانها وقوتها من حيث نظام الله العام ، ولاجرم أن هذا لايعقله إلا العلماء والجهلاء يكتفون بظواهر القول

الله أكبر ، الله أكبر ، جل العلم الذى أرانا أن هذه الحشرة خلقت لتأكل الحشرات الضارة بزرعنا وهى تكون نموذجا لما يفعله الله فى الأمم ، إن الأمم التى تقل فائدتها فى الوجود وان كثر سلاحها وصحت أجسامها لابد من سقوطها كدولة الرومان وكدولة الأندلس الاسلامية التى غاب عنها عقلها وعلمها وعشقت الشعر وحده وكان الرومان قد شرهوا وقتلهم الترف والبطنة فأخذتهم الأمم وان كانت عندهم الأسلحة وافرة وهانحن أولاء نرى الأمة العربية كيف فتحت مصر بآلاف تعد على الأصابع مع قلة العدد والعدد وقد كان فى مصر مائة ألف من الجند الرومانى فضلا عن جنود القبط بمصر مع وفرة العدد ، إن الله جعل الأمم التى يقل نفعها أشبه بالذباب فهى مهما كثرت جيوشها وعددها مقهورة مصروعة مخذولة بأمم أقل منها سلاحا كما ترى فى العنكبوت الذى قلت عيونه وفى الذباب الذى تعد عيونه بآلاف

فلما سمع صاحبى هذا قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، أما أنا الآن فانى أعتقد أن هذا من أسرار القرآن التى كانت مخبوءة لهذا الزمان و يظهر لى أن هناك مالايتناهى وقد حجب عنا لقوم بعدنا ، لقد ذكرنى هذا مافى ﴿كتاب الاتقان﴾ للسيوطى الذى حدثتك عنه آنفا فانه جاء فيه ما يأتى فى النوع الرابع والستين

« إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة وهى إما حسية واما عقلية وأكثر معجزات بنى اسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لأن هذه الشريعة باقية خصت بالمعجزة العقلية ليراها ذوو البصائر كما قال ﷺ ﴿ مامن نبى إلا أعطى مامثله آمن عليه البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا ﴾ أخرجه البخارى * قيل ان معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة الى يوم القيامة وخرقه العادة فى أسلوبه و بلاغته واخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا و يظهر فيه شئ مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه » انتهى من كتاب الاتقان

قال صاحبى بعد أن قص ماتقدم ، فأنا أرى أن ماتذكره أنت فى التفسير من الذى لم يظهر إلا فى العصر الحاضر ، كيف لا ونحن نرى أن مثل العنكبوت ما كان ليحتمل هذا كله ويدخل فى أبواب العلوم والزراعة والسياسة وفوق ذلك ، يستبين بهذا التفسير أن المثل مقصود به ذلك بدليل انه قال ــ ومايعقلها إلا العالمون ــ بكسر اللام وهذا بلاشك يفيدنا أن ماذكرته أنت من العلم فى تفسير الآية كله مقصود القرآن ، فقلت الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اهـ

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى ــ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ــ ﴾

قدمت الكلام عليها فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ــ ولكن أذكر هنا جوهرة وهى

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ــ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ــ وفى حكم خطرت لى فى الصلاة صباحا يوم السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٩ ﴾

إن هيئة الصلاة فى ديننا الاسلامى موافقة أيما موافقة لهذه الدنيا فاذا رأى ليلا ونهارا وشروقا وغروبا

فاذا كان النهار سعى الناس لمعاشهم وترددوا فى مهامهم ، واذا كان الليل استراحت أجسامهم وسكنت حركاتهم فهكذا فى الصلاة يقول المصلى — إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم — الخ إذن المصلى يعبد ويستغيث بربه فى كل شئ فهذا أشبه به أثناء النهار وهكذا يقول ﴿رب اغفرلى وارحمنى الخ﴾ وذلك بين السجدتين فهو فى هاتين الحالين عامل كعمل الناس نهارا ولكنك تسمعه يقول فى الرفع والاعتدال ﴿اللهم لامانع لما أعطيت ، ولامعطى لما منعت ، ولاراد لما قضيت ، ولاينفع ذا الجد منك الجد﴾ ويقول فى الركوع ﴿خشع لك سمعى و بصرى الخ﴾ وفى السجود ﴿سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه و بصره فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ فهو فى هاتين الحالين مابين واصف النظام الجميل فى جسمه وساكن خاشع لاطلب له ولاعمل ، ففى الأحوال الثلاثة للمصلى قد سكن لعمل ربه فى سمواته وأرضه وفى أعضاء جسمه ، إذن هو مستغرق فى ذلك الجمال فهو يلاحظ الفاعل فى فعله فان رفع رأسه من الركوع تذكر النعم العامة فى السموات والأرض فنطق بالحمد عليها وقال ﴿لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ﴾ وليس ينطق بهذا إلا بعد أن بهره جمالها فلم يبق بعد ذلك إلا أن يغيب عن شهود نفسه ويشهد صانع هذه العوالم فيقول ﴿لامانع لما أعطيت الخ﴾ ذلك لأنى لما رأيت أن جسمى ماهو إلا ذرة من السموات والأرض ونعمك قد شملتهما سكنت اليك لأنك تربينى فى الدنيا تربية ألهمت المرأة نظيرها فى تربية ولدها والاستاذ كذلك فى تعليم تلميذه فبينما المرأة تعلم ولدها الجلوس تارة والقيام أخرى اذا هى تلقمه ثديها تارة وتنيمه فى المهد أخرى . وهكذا الاستاذ بينما هو يعطى التلميذ دروسه ويلقنها له من تلقاء نفسه اذا به يقول له فكرفيها لقنتك واكتب عليه موضوعا انشائيا . إن نظام الله واحد نهار وليل وحركات الطفل بتعليم أمه ثم انامته واراحته وعمل التلميذ بنفسه فى التعلم ثم إلقاء المعلم له الدرس واراحته عقب الدرس هكذا فى الصلاة تسليم لله فى الرفع والاعتدال ودهش من نظام السموات والأرض وهكذا تعجب من نظام الجسم فى الركوع والسجود واستغراق فى ذلك الجمال ثم الاجتهاد فى العبادة وطلب الهداية وطلب المغفرة والرحمة فى حالى القيام وفى الجلوس بين السجدتين

وملخص هذا كله أن هذه التربية فى الصلاة موافقة كل الموافقة لنظام هذا العالم ولنظام التعليم فى مدارس العالم قاطبة فتربية الانسان فى صلاته كالتربية المدرسية ، فليجعل المسلمون الدروس منتظمة وقتا للجد ووقتا للراحة كما تفعل الأمم وكما يفعل المصلى إذ يستغرق تارة فى جمال الله وتارة يفكر بنفسه ويطلب منه الاعانة ، فاذا وجدنا رجلا ترك العمل وقال انى مستغرق فى حب الله وجب تأديبه لأن هذا ينافى التربية ، واذا وجدنا آخر لايفكر فى نظام هذه الدنيا وجمال خالقها بل أصبح مكبا على عمله قلنا له قد أخطأت ان هنا ليلا وان هنا نهارا وأنت جعلت حياتك كلها نهارا وقد خالفت نظام الصلاة الذى يجعلك تارة مستغرقا فى نظام السموات والأرض ونظام جسمك ، وآونة تستفيق فتطلب المعونة والهداية تارة والمغفرة تارة أخرى ، وهذه نفسها حال رسول الله ﷺ ونظام القرآن ، فكان ﷺ يعمل جميع الأعمال ويكل نتائج العمل لله ، هكذا فليفكر المسلمون وليجدوا فى أعمالهم على شريطة ألايذروا علما ولانظاما ولاكمالا إلا أتقنوه ثم يطمئنون لما تجرى به المقادير ، وهذا هوالتوكل بعينه عمل تام واطمئنان قلب لكل ماتأتى به المقادير انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ ايضاح الكلام على الصلاة وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

اعلم أن العلم الذى ينزله الله على القلوب كالماء الذى ينزل من السماء على الأرض فكما أن الماء لاتظهر أنواع تصرفاته ولافنون أعاجيبه إلا باختلاطه بأجسام النبات والحيوان ونحوهما ، فهكذا الوحى الحق الذى ينزل على الأنبياء لاتظهر فنون أعاجيبه ولاصنوف حكمه إلابأن تتداوله عقول العقلاء وتفكر فى معانيه . إذن تظهر أعاجيبه وتبتهج بها القلوب . ومسألة الصلاة فى الآية وانها تنهى عن الفحشاء والمنكر يعوزها البحث والتنقيب فى آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والاوروبيين وحكماء الهند وحكماء الاسلام . فاذا درسنا

ماقاله هؤلاء فى هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها فى فهم هذه الآية ، ومتى تم ذلك لنا أدركنا سر نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لأن القرآن آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . وعليه تكون آراء الفلاسفة فى جميع الأمم أشبه بتفسير للقرآن لأنه آيات بينات فى صدورهم . وعليه يجب على المسلمين أن يفوقوا الأمم فى الفلسفة حتى يظهر سر هذا الدين الذى لاتظهر ثمرته حق ظهورها إلا بدراسة علوم الأمم المعبر عنها بالآيات البينات فى صدور الذين أوتوا العلم واذن فلنبدأ بدراسة حكماء اليونان فنقول . اقرأ ماتقدم فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى ــ واذا مرضت فهو يشفين ــ إذ ذكرت هناك عن طيماوس الحكيم أمراض البدن وأمراض النفس وأن الثانية تابعة للأولى وأن أمراض النفس ﴿ ثلاثة أقسام ﴾ فنها مايتبع إفراط اللذة ومايتبع افراط الألم ومايتبع افراط الأخلاط كالمرارة والبلغم لأنها تعطل سريان النفس فى البدن فيكون ذلك سببا للتهوّر والجبن وجود القريحة والنسيان وهكذا

وملخص كلامه أن الشر غير اختيارى وله ﴿ علتان ﴾ فساد المزاج وسوء التأديب ولاسبيل للخروج من هذه المآزق إلا بحفظ النفس والبدن معا وذلك برياضتهما معا ورياضة البدن بالحركات البدنية ورياضة النفس بالموسيقى . هذا ملخصه فاقرأه هناك

واذ أشرت الى آراء علماء اليونان فلأتبعه بآراء علماء أوروبا وهوماتقدم فى (سورة البقرة) عندقوله تعالى ــ ولاتقربوهن حتى يطهرن ــ وهذا نص ماذكره العلامة (بنتام) الانجليزى فى أصول الشرائع

﴿ ان هناك علاقة بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية وهذا الارتباط لاحظه كثير من المؤلفين فان النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز فى أفعاله والتمسك بالوقار فى أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا حتى إن شرائع المسلمين حثت عليها حثا كليا وجعلتها من الواجبات الأولية وقد ذكر فى نفس كتابه أن هذا من محاسن الدين الاسلامى وقد رتب على هذا ﴿ أمرين ﴾ وجوب نظافة المسجونين ووجوب وضعهم فى عمل من الأعمال لأن المذنبين عنده هم القذرون أجساما الذين لاعمل لهم ، فتى نظفوا وعملوا قلت جرائمهم . انتهى مانقلته عن بنتام الانجليزى

وأما ماقاله علماء الهند فذلك انى قرأت فى كتاب ﴿ راجا يوقا ﴾ المترجم من الهندية الى الانجليزية سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ أن الانسان يجب عليه أن تكون له رياضة خيالية بحيث يتذكر فى كثير من الأوقات الصور الجميلة التى لاتثير شهوة يريد بذلك الأزهار والكواكب وجمال الابداع والنظام وأن ذلك يقوى النفس ويرقيها . وأما ما قاله علماء الاسلام فهو ماذكره العلامة ابن سينا فى أواخر كتاب الاشارات أن الذى يرقى بالنفس الى معاليها الصوت اللطيف والعشق العفيف والعبادة مع الفكر ، ومعنى العشق العفيف عشق الصفات والكمال والأخلاق لاعشق الصور . هذا ما أردت نقله لأشرحه فأقول

تبين من هذه الأقوال أن هذه النفس مع الجسم لايتركان سدى ، ذلك انهما تتجا من عوالم كلها متحركة فالملائكة المحركات للعوالم العلوية لاتفتر لحظة والسموات المرسلات أنوارها لاتنام والعالم كله حركة ونظام ، فهنا نفس وهنا جسم يطلبان كمالهما ، فأولا لابد من النظافة كما قال (بنتام) وهذه النظافة قد أصبحت ركنا فى تربية الأمم وتعليم المسجونين لتدفع عنهم الكسل وسوء الخلق وبها تقل الجرائم والذنوب وهذا السر ظهر فى قوله تعالى ــ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ــ لأن بين التوبة والطهارة علاقة متينة كما تقدم ، ثم إن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وهذه الأفعال حركات وهذه الأقوال دالة على معان . فهنا رياضتان لطفتان رياضة جسمية ورياضة عقلية . واذا وضعت قول ابن سينا مع قول طيماوس الحكيم نتج لنا أن رياضة النفس لاتقتصر على الموسيقى كما قاله طيماوس بل تشمل الفكر الذى تحويه العبادة كما قاله ابن سينا وتشمل الصور البهجة السماوية كما قاله علماء الهند وعليه تكون الصلاة مبدأ

﴿ لأمرين ﴾ رياضة البدن ورياضة النفس فكل منهما لابد له من حركات والصلاة اشتملت على مبادئهما فاذا أتم المسلم الصلاة فليتمم رياضة الجسم بكسب المعاش أوفليمش نحوساعتين كل يوم كما يقول الأطباء فى زماننا . فاذا كان الطبيب يأمرنا بالمشى الذى لاتعقل فيه فهاهى ذه الصلاة اجتمع فيها حركة الفكر وحركة الجسم وهذا أفضل . ألاترى الى مايقوله علماء الطب وقدتقدم فى هذا التفسير أن التمارين الجسمية والألعاب الرياضية التى شاعت فى الأمم الآن أدنى مراتب الرياضة البدنية لأنها لافكر معها . فأما العمل فى البساتين والحقول فانه أعظم الرياضات ويليه المشى وأسفل الجميع تلك الألعاب

إذن ظهرأن الصلاة أعطتنا ﴿ درسين ﴾ درس رياضة الجسم ودرس رياضة النفس ومتى انتظم هذان الأمران أصبح الانسان قليل الذنوب قليل الشرورفان الشرورلاتنجم إلامن قذرالأجسام والطهارة فى الصلاة تمنع ذلك ومن عدم الرياضة البدنية والرياضة النفسية كما قاله طماوس وهاتان الرياضتان اشتملت عليهما الصلاة بحركات الجسم وحركات النفس إذ يقف المصلى فيفكر فى السموات والأرض حين يقرأ ـ وجهت وجهى للذى فطرالسموات والأرض ـ الخ فهمنا تحضرفى نفسه تلك العوالم الجميلة فتقوّى روحه وتنشرح صدره وهكذا يفكر فى العوالم العلوية والسفلية عند آية ـ الحمد لله رب العالمين ـ ويتعجب من الرحمة الواسعة عند قوله ـ الرحمن الرحيم ـ وهذه الرحمة لاحدّ لها فى كل حشرة وطير وأنعام . وهكذا يفكر فى خلق جسمه وأعضائه وسمعه وبصره عند الذكر فى الركوع والسجود إذ يقول ﴿ خشع لك سمعى وبصرى الخ ﴾ ويقول ﴿ سجد وجهى الخ ﴾ فاذا أتم المسلم صلاته اتجه للأعمال فى حياته الدنيوية فتكون على منوال مافى الصلاة وتنصرف نفسه للعمل الجسمى والعمل العقلى وهنالك تنصرف عن الشرّ الى الخير

﴿ بهجة هذا المقال ﴾

اعلم أن أفلاطون فى جمهوريته يقول ﴿ إن حكام الجمهورية لا يكونون عادلين إلا اذا انفتحت عيون بصائرهم ولايتم ذلك إلا بعشق العلوم والمعارف لأن النفوس مغرمة بالشهوات البدنية أوّلا وباللذات كالمطاعم والملابس والمشارب وبالشهوات الغضبية كالفتك بالأعداء ، فهاتان القوّتان هما المسيطرتان على نفوس الناس فاذا لم يفتح للحكام باب اللذة العقلية بعشق العلوم فانهم لامحالة ينصرفون الى اللذتين السابقتين فيشاركون المحكومين لهم فى أعراضهم وأموالهم ، ولاخروج للحكام من ذلك الظلم إلابتلك الخلة الشريفة ﴾ هذا ملخص كلامه فى جمهوريته

وأنا أقول ﴿ إن ملخص الصلاة مفتاح لجميع العلوم فاقرأه فيما كتبناه فى (سورة آل عمران) فان المسلم فى الرفع والاعتدال يذكر السموات فيقول « ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما الخ » وعند الركوع والسجود يفكر فى أمر جسمه وتشريحه . فاذا كان المسلم فى كل يوم يتذكر هذه العوالم فليس لهذا معنى إلا حب البحث فيها وهذا هو الذى يخرج نفسه من حبس الشهوتين الى حب العلم وهو صفة القوّة العاقلة كما يقوله أفلاطون

الله أكبر . ظهر سرّ هذه الآية الآن . فالنظافة تمنع الذنوب وأذكار الصلاة تفتح أبواب العلم المانعة من الشهوة والغضب وهكذا ، فظهر إذن قوله تعالى ـ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ـ أى بنظافتها وحركاتها الجسمية وحركاتها العقلية

﴿ تطبيق على ماتقدّم ﴾

(سبب اسلام الاستاذ عبد الله كويلم الانجليزى)

لقد كان لإسلامه تاريخ وضعه هو فى كتاب وقد ذكر لى بعض الأصحاب ملخص ذلك الكتاب . قال « لقد اعترانى مرض فعرضت نفسى على الأطباء فقالوا لى لابد من انك تسافر الى أقطار حارّة كبلاد الجزائر فتوجه اليها وخالط أهلها فوجدهم يتوضؤن ويصلون فسألهم ماهذا ؟ فقالوا هذا أمر واجب شرعا فترك العامّة

وأخذ يسأل العلماء عما يفعل المسلمون فعلموه قواعد الدين الاسلامى فدهش وقال باعجبا ، إن هـذا الوضوء خمس مرات فى اليوم انما هو نصف اغتسال لأنه غسل أطراف الجسم ولم يبق من الانسان بلاغسل إلا الجذع هنالك أخذ يدرس هذا الدين وقال ان هذه النظافة هى الصحة بعينها وسلامة الجسم بعينه والأطباء يجعلون هذا أوّل علامة على قوّة الأجسام وسلامة العقول ، وما كاد يرجع الى بلاده حتى أخبر زوجته وأفهمها حقيقة الاسلام و بين لها فوائد الاغتسال والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وقال ان هـذا صالح لرقى الانسانية جمعاء فأسلمت معه ، ثم قال لها لنعرض هذا الرأى على فلان وفلانة من أصحابهما فعرضه عليهما فقبلا وهكذا اجتمع له من أصحابه طائفة وأعلنوا اسلامهم ، فلماسمع بهم الجيران سطا عليهم الغوغاء وصاروا يقذفونهم بالحجارة و يعيرونهم بأنهم مسلمون ، ولما كان هو من رجال القانون المشهورين رفع دعوى على الملكة فكتوريا يقول فيها أنت ملكة انكلترا ، فهل ملكك خاص بالنصارى أم هو شامل لأهـل جميع الأديان ؟ فما كادت الدعوى ترفع فى المحكمة و يصـل الخبر الى الحكومة حتى بادرت الشرطة فحافظوا عليه وعلى أصحابه ومنعوا الغوغاء عنهم »

ثم قال « و بعد ذلك سمع بنا أمم الاسلام فأخذوا يرموننا بالنفاق والرياء وإننا انما أسلمنا لنغش المسلمين باسلامنا فندخلهم تحت حكم دولتنا ، قال فقلنا لهم ، أيها المسلمون . نحن لم ندخلكم تحت حكمنا بنفاقنا بل حكمنا كم بمدافعنا وجيوشنا »

هذا ماعرفته من ملخص سيرة الاستاذ (عبد الله كويلم) الذى يعتبره الناس شيخ الاسلام فى بلاد الانجليز وقد كان اسلامه قبل اسلام صـديقنا (اللورد هيدلى) الذى كان سبب اسلامه انه قرأ الاسلام والديانات فرآه خيرها فأسلم ونشر اسلامه فى أوروبا ودعاها الى الاسلام . وقد نقلت من كتابه قطعـة فى سورة مريم قد ذكر فيها أن الألمان كشفوا سنة ١٩٠٣ كتابة فى بلاد العراق ملخصها أن الكشف الحـديث أثبت أن الصلب وابن الله البكر وأمثال ذلك ماهى إلا خرافات سرت للأمم المسيحية من ديانات كانت فى العراق وهكذا فاقرأه هناك والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩

(الصلاة اليوم فى بلاد الاسلام)

لأقصنّ اليوم أيها الذكىّ عليك قصص ماعلمته من الصلاة فى بلاد الاسلام وسأجعل ذلك فصولا وهاك بيانها

(١) فأوّلا أذكر مادار من الحديث بينى و بين التلاميذ بالمدرسة الخديوية

(٢) أذكر ما كتبه كاتب انجليزى أيام النهضـة المصرية ومطالبة البلاد المصرية بالدستور أيام الخديوى السابق عباس حلمى باشا

(٣) وحكاية معلم ولىّ عهد البلاد المصرية أيام كانت تحت حكم الخديويين

(٤) وماقصه علىّ أستاذى الشيخ حسن الطويل

(٥) حديث عن أهل سيلان

(٦) وماذكره (هنرى الفرنسى)

(٧) وصدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات فى بلادنا لهذا الدين

(٨) وطريقة الوهابية ببلاد نجد والحجاز

﴿ الفصل الأوّل فى ذكر مادار من الحديث عن الصلاة بينى و بين تلاميذ المدرسة الخديوية وأنا مدرّس لهم ﴾

ذلك أنى يوما تما سمعت أن وزير المعارف جمع المدرسين وأخـذ يكلمهم فى أمور عامة علمية فصادف أن أحد المدرّسين قام ليصلى المغرب إذ حان وقت صلاة المغرب فقال ماهذا ؟ أتريد أيها الاستاذ أن تظهر أنك أنت

المتدين ونحن لادين لنا ، ماهذا ؟ ولماذا لاتؤخرها . وقال فى مجلس آخر « إن الصالحين فى الاسلام يسهرون الليل ليصلوا وهو مخالف للصحة » فلما سمعت هذا القول خطرلى أن أحادث التلاميذ فى هذا الموضوع فقلت « أيها الأبناء اننا اليوم أرقى ممن قبلنا فالحمد لله الذى رفع عنا الاصر وأزال عنا الضرفأصبحنا بفضل المدنية الحاضرة أعلى كعبا فى المدنيـة وأعز ناصرا وأكثر عددا ومالا وولدا ، كيف لا ونحن نحافظ على صحتنا وننام طول الليل كما يقتضيه علم الصحة ، أما تلك الطائفة القديمة من أمم الاسلام فانهم كانوا لايحافظون على صحتهم ويسهرون طول الليل تعبـدا ويأكلون ماخشن من الطعام ولايسعدون سعادتنا التى نلناها على يد الاوروبيين المتمـدينين أولئك الذين فتحوا لنا المطاعم والمشارب وأنواع اللذات فأكلنا وشربنا وتمتعنا بكل لذة وأصبح النابغون وغيرالنابغين فى بلادنا يكرعون الخرنهارا جهارا وهم فى فرح وسرور ولاينهى أحد أحدا ولايخجل الشارب ولاالزانى ولاغيرهما ، كل ذلك للحرية الواسعة النطاق بفضل هذه المدنية المباركة »

كل هذا وهم سكوت كأنما على رؤسـهم الطير ، ثم قلت ولـكن عندى مسألة واحدة وهى كيف نكون نحن على هذا المقام من العظمة والأبهة ونرى اننا عبيد لـكل الأمم فان جميع أوروبا لها امتيازات عندنا ومن قتـل منا لادية له لأن محاكمهم هى التى تحكم ولاراد لحـكمها لضعفنا وقوة تلك الأمم ، أما هؤلاء فقد حكموا أكثرتلك الأمم وهابها الجميع . أما أنا الآن فانى متحير فى المسألة . أما الرق فنحن والحمد لله راقون وأما الذل فهو نصيبنا والعز نصيبهم . ههنا يا أبنائى حارفكرى . نحن لانتقيد بقيد من شرع ولادين ثم نذل وهـم لايمتعون مثلنا ولـكنهم أعزاء فما قولـكم ؟ فقام شاب فيهم يسمى (بهنساوى) فقال إنك قد فتحت هـذا الباب وقد أثرت فى نفوسنا تأثيرا عظيما ولـكن هل تظن أن مجلسا واحدا كهذا يغـير أخلاقا وعادات ورثناها عن الآباء والأمهات والمدرسين ونظار المدارس . نحن تعلمنا فى الابتدائى ولاصلاة هناك ثم تعلمنا فى التجهيزى الآن وهانحن أولاء معك ولاصلاة أيضا . وكيف نصلى والصلاة عندنا عار . إن التلميذ الذى يصـلى يسخرمنه اخوانه ألا وان النساء فى المنازل يفعلن مانفعل تماما . فالمرأة المصلية يعدونها أقلهن كمالا وشرفا لانتسابها للدين

هنالك نظر اليه التلاميذ جميعا نظر الشزر وردوا عليه وقالوا اسكت لقد كذبت فى قولك . فقال لهم وهـل تظنون أن الاستاذ لايعلم ذلك ؟ ألم يرهو المصلى هنا وقت الظهر لايصلى فيها عدد الأصابع من التلاميذ والمدرسة فيها مئات ومئات . فقلت دعوه فقد نطق بالواقع وماقاله هوالذى أعرفه فى بلادى

هذا ماجرى بينى و بين التلاميذ بالمدرسة الخديوية فى حصة يسمونها المحادثة (أوالانشاء الشفهى) الذى يذكر الاستاذ موضوعا يجعله حديثا بينه و بينهم . و بهذا تعرف أيها الذكى حال بلادنا المصرية فى هـذا الزمان

ولقد كان هذا قبل كتابة هذه الأسطر بنحو (١٤) سنة . أما الآن فقد تحولت الحال قليلا حتى أن الشبان جعلوا لهم ناديا سموه ﴿ جمعية الشبان المسلمين ﴾ وانتشرت هذه الفـكرة من مصر الى بلاد الاسلام وأنا والحمد لله صليت معهم وقد أصبح رقيبها بمصر من أحـد تلاميذى بالمدرسة الخديوية . ومن عجب انه موقن بالاسلام ومحب للصلاح ويصلى بالليل والناس نيام وله حكم عجيبة واسمه (يحيى الدردير) وقد مكث فى ألمانيا (١٢) سنة يكرع من موارد العلم ورجع مغرما بالاسلام غراما لاحد له . انتهى الفصل الأول

﴿ الفصل الثانى فيما كتبه كاتب انجليزى أيام مطالبة بلادنا المصريه بالدستور ﴾

ذلك أن البلاد من أقصاها الى أقصاها فى أول القرن العشرين تحركت لطلب الحرية الداخلية وأخـذت الجرائد فى انكلترا تنقل عن جرائدنا ما يقوله المصريون فـكتب كاتب انجليزى يقول « لايصح للانجليز أن يخرجوا من مصر إلااذا أصبح الخاصة والسياسيون وأهل الرأى فى البلاد فى الأخلاق والعواطف كالفلاحين انى جبت هذه البلاد فرأيت طبقة الفلاحين والجهلاء والخدم عندهم عطف على الأرحام والمساكين وذوى الحاجة ويوقنون بالعقيدة ويخافون ربهـم ، أما هذه الطبقة المتعلمة بمصر فانها تنفر الدين وتتركه والتلاميذ

دائما يقلدون أساتذتهم والأساتذة ﴿ قسمان ﴾ قسم من شيوخ دار العلوم ، وقسم من متعلمي المدارس الأخرى أما الشيوخ فانهم حين يلقون الدرس الديني لايلتفت اليهم التلاميذ لأنهم يرون ناظر المدرسة لايبالي بهذه الامور والعبادات ويضرب بها عرض الحائط وهو لها من الكارهين فكيف نسلم البلاد لأقوام لاخلق لهم ولا كال »

أقول وهذا مغالطة فان هذا التحوّل عن الفضائل انما جاء لجاراتهم واتباع نصائحهم وكيف يصلي الوزير أوالأمير أمام حاكم اذا رآه كذلك حقره وأضمرله السوء طول الحياة . انتهى الفصل الثاني

﴿ الفصل الثالث في ذكر ماقصه عليّ والد أحد المعلمين لوليّ عهد الخديوى عباس ﴾

قال إن ولدى قد اختاره الخديوى مربيا لوليّ العهد وقدقصّ عليّ حديثا فقال «كنت يوما جالسا مع فيلسوف بوذى عند ناظرمدرسة فرنسى فقدّم لنا ذلك الفرنسى القهوة فلم أشرب فسألني ناظر المدرسة قائلا لماذا ؟ فقلت لأنى صائم . فقال وهل أنتم لاتزالون خاضعين لهذه الأوهام . أىّ صيام وأىّ صلاة . دعوا هذه الأوهام ليرتقي الشرق والشرقيون وما أضرّ أهل الشرق إلا الأديان ومثلك راق مهذب فعليك أن تنصح اهل بلادك بنبذ هذه الترهات وانظروا الى أوروبا تركت الدين فلكت رقاب العالمين . فلما أراد القيام قال له الفيلسوف البوذى قابلني ياسيد أفندى يوم الأحد عند كنيسة كذا . فلما قابله يوم الأحد دخل الكنيسة فرأى قوما يصلون و بقيا هناك نحوساعة فلما خرجا معا قال له الفيلسوف البوذى قد لاحظت هنا شيأ فقال من أى وجه قال ألم تر ناظر المدرسة يصلي مع المصلين فقال إى وربى إنه لحق فقال أليس هوالقائل لك دعوا هذه الخرافات فقال السيد أفندى له نعم فقال أتدرى لم قال لك ذلك قال من فك أحلى فقال إن هؤلاء القوم يريدون أن يذمّوا لنا أديان الشرق لنتركها ومتى تركناها انحلت قوانا وذهبت رابطتنا وحينئذ يحتلون بلادنا فهؤلاء القوم عقدوا الخناصر على هذا فهم له أبدا ساعون . انتهى الفصل الثالث

﴿ الفصل الرابع فيما قصه عليّ أستاذى الشيخ حسن الطويل في هذا المقام ﴾

وقبل أن أذكر حديثه رحمه الله تعالى أقدّم مقدّمة فأقول

إن البلاد المصرية قد حكمها المرحوم محمد على باشا ولم يكن في البلاد أكثر من ثلاث ملايين وهؤلاء كانوا يصلون و يصومون وكانت المدارس كلها أستاذ أوتلميذ قائمين بشعائر الدين في بلادنا وفي أوروبا وأمكنه بهذا العدد القليل أن يملك بلاد الحجاز ونجد وأكثر بلاد العرب وهكذا بلاد السودان وزحف بجيوشه على بلاد الترك لولا توسط أوروبا ، فلما مات المرحوم محمد على باشا وابراهيم ابنه ملك البلاد بعده بعض عقبه فغيروا الأوضاع وترك بعضهم الصلاة واتبعوا الشهوات فانحلت العصبية وكان هذا تمهيدا لاحلال الانجليز هذه البلاد . فانظر لما حدّثني به أستاذى الشيخ حسن الطويل

قال رحمه الله تعالى ﴿ لقد كانوا أدخلوني في زمرة الجند وارتقيت الى جاويش وقدكان أستاذى بالأزهر علمني دعاء أدعو به لتفريج الكرب ، قال فلما كنت بالجيش في الاسكندرية أخذت أقرأ هذا الدعاء وأدعو الله أن يخرجني من زمرة هذا الجيش ، قال وكانت هناك أوامر من الخديوى أن كل من صلى أوأظهر العبادة يعاقب فلما علموا بأنى أدعو الله بهذا الدعاء أنزلوني درجة وعاقبوني بأن أحمل سلاحي وعتادى وأرجع من الاسكندرية الى مصر ثم رفتوني ، قال رحمه الله وقدجهل هؤلاء أن هذا الرفت هومطلوب الدعاء الذى كنت أدعو به ﴾

أقول هذه حال الجيش وحال المصريين بعد أيام المرحوم محمد على باشا فكان ذلك توطئة لما نحن فيه الآن وقدكانت هذه الفكرة آتيه لهم من أهل فرنسا إذ قالوا لهم إن الديانات تؤخر الأمم — وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون — انتهى الفصل الرابع

﴿ الفصل الخامس فى حديث محمد بك عرابى نجل المرحوم أحمد عرابى باشا عن أهل سيلان ﴾

لما رجع المرحوم أحمد عرابى باشا الى مصر بعد النفى وقد هرع اليه الناس يسلمون عليه قابلت ابنه ودار الحديث بيننا على أهل سيلان فقال ﴿ إن صلاة الجماعة أمر حتم على كل مسلم والرئيس الدينى هناك يتفقد كل مسلم فى صلاة الجماعة فاذا تأخر شاب عن الصلاة أحضره أكابر البلد وأنذروه أول مرة فان عاد عادوا الى الانذار فاذا كانت الثالثة حكموا عليه بالاعدام . قلت وهل ينفذ . قال نعم . قلت وماذا يفعل الانجليز ؟ قال لودخل عند (الملكة فكتوريا) واحتمى بها لأخرجوه وقتلوه ولا يردون أمر الشرع ﴾ فعجبت وكنت أظن أن بلادنا اذا تركت الصلاة فما هو إلا مجاراة للأوروبيين واذن تمثلت بقول من قال

دواؤك فيك وماتشعر * وداؤك منك وماتبصر

﴿ الفصل السادس فيما قرأته فى كتاب « خواطر وسوانح فى الاسلام » للعلامة (هنرى الفرنسى) الذى ترجمه المرحوم الاستاذ فتحى باشا زغلول ﴾

قال كنت ضابطا على جنود من أهل الجزائر وكنا يوما مسافرين لأعمال الدولة ، قال فبينا الجند راكبون وهم يغنون غناء عربيا ويشيرون نحوى بالمحبة والاجلال فى أثناء النغمات اذا أنا بالعصر قد حضرت صلاته فترجلوا عن خيولهم ونزلوا واستقبلوا القبلة وقالوا بلسان واحد ﴿ الله أكبر ﴾ فسمعت كأن الخيل والجبال والأودية والأنهار والرمال كلها تقول ﴿ الله أكبر ﴾ واعترانى الخجل أن أسمع قوما كهؤلاء يعظمون الله ويقولون فى أنفسهم انى كافر بالله فكدت أنطق وأقول لهم ياقوم أنا أيضا أعبد الله . قال وهنالك تغيرت حالى وأخذت أبحث فى دين الاسلام وتوجهت الى المساجد فوجدت عليها نورا وبهجة وجمالا وبسطة تشرح الصدر فأخذت أدرس هذا الدين فراعنى جماله وبهجته ، ولولا ضيق المقام لنقلت منه فصولا تليق بالمقام ولكن عسى أن أذكره فى مقام آخر . انتهى الفصل السادس

﴿ الفصل السابع والثامن فى صدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات لحقائق الدين فى زماننا وفى طريقة الوهابية ببلاد الحجاز وبعض بلاد الاسلام ﴾

اعلم أن ماسمعته الآن عن بلاد (سيلان) له نظير فى بلاد (بلوخستان) فلقد قرأت فى بعض الجرائد عن سائح ألمانى قال ﴿ لم أجد سعادة أوفى ، ولاعزا أبهى ، ولا كمالا أرفع ، ولاراحة أعظم ، مما رأيته فى بلاد (بلوخستان) قال فهؤلاء يعبدون الله على مذهب الامام الشافعى ، فاذا كانت صلاة الصبح حضر الرجال والنساء والصبيان الصلاة وأخذ الاستاذ يلقى النصائح الدينية ثم اذا طلعت الشمس رجعوا وهم مستبشرون ﴾ قال ﴿ والمرأة هناك مكبة على عملها قائمة بالواجب عليها بيتها نظيف وعرضها نظيف وزوجها عفيف ولم نسمع بالزنا فى بلادهم سنين وسنين بخلافنا نحن فقد يجد الرجل منا أن ابنه يشبه جاره ولايقدر أن ينبس ببنت شفة . وأقول ثم إن الوهابيين بنجد والحجاز اليوم يقيمون الصلاة فى أوقاتها وهم بالدين موقنون ، واعلم أن هذه كلها تدرس فى الجامع الأزهر الشريف ، ولكن الطالب الذى يقرأ هذا فى درسه يخرج فيجد عادات بلاده تخالفها فى زماننا فلايقدر على تغيير الأحوال فيصبح على طبع أهل بلاده ﴾

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام تبصرة وذكرى لأولى الألباب والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٩

(الأحاديث النبوية فى فضائل الصلاة)

جاء فى كتاب « إحياء علوم الدين » للامام الغزالى مانصه

﴿ فضيلة المكتوبة ﴾

قال الله تعالى ــ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ــ وقال ﷺ ﴿ خمس صلوات كتبهن

الله على العباد فمن جاء بهنّ ولم يضيع منهنّ شيأ استخفافا بحقهنّ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهنّ فليس له عندالله عهد إن شاء عذبه وان شاء أدخله الجنة ﴾ وقال ﷺ ﴿ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لاشئ قال ﷺ فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن ﴾ وقال ﷺ ﴿ إن الصلوات كفارة لما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر ﴾ وقال ﷺ ﴿ بيننا و بين المنافقين شهود العتمة والصبح لايستطيعونهما ﴾ وقال ﷺ ﴿ من لقى الله وهومضيع للصلاة لم يعبأ الله بشئ من حسناته ﴾ وقال ﷺ ﴿ الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين ﴾ وسئل ﷺ أىّ الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها * وقال ﷺ ﴿ من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا و برهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان ﴾ وقال ﷺ ﴿ مفتاح الجنة الصلاة ﴾ وقال ﴿ ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبّ اليه من الصلاة ولوكان شئ أحبّ اليه منها لتعبد به ملائكته فنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد ﴾ وقال النبىّ ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد كفر ﴾ أى قارب أن ينخلع عن الايمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة انه بلغها ودخلها * وقال ﷺ ﴿ من ترك صلاة متعمدا فقد برئ من ذمّة محمد عليه السلام ﴾ وقال أبوهريرة رضى الله عنه « من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا الى الصلاة فانه فى صلاة ما كان يعمد الى الصلاة وانه يكتب له باحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة ، فاذا سمع أحدكم الاقامة فلاينبغى له أن يتأخر فان أعظمكم أجرا أبعدكم دارا ، قالوا لم يا أبا هريرة قال من أجل كثرة الخطا » * ويروى أن أوّل ماينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فان وجدت تامّة قبلت منه وسائر عمله وان وجدت ناقصة ردّت عليه وسائر عمله * وقال ﷺ يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لاتحتسب * وقال بعض العلماء مثل المصلى مثل التاجر الذى لايحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلى لاتقبل له نافلة حتى يؤدّى الفريضة * وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول « اذا حضرت الصلاة قوموا الى ناركم التى أوقدتموها فاطفؤها »

﴿ فضيلة إتمام الأركان ﴾

قال ﷺ ﴿ مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى ﴾ وقال يزيد الرقاشى « كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة » وقال ﷺ إن الرجلين من أمّتى ليقومان الى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وان مابين صلاتيهما مابين السماء والأرض وأشار الى الخشوع * وقال ﷺ ﴿ لاينظر الله يوم القيامة الى العبد لايقيم صلبه بين ركوعه وسجوده ﴾ وقال ﷺ ﴿ أما يخاف الذى يحوّل وجهه فى الصلاة أن يحوّل الله وجهه وجه حمار ﴾ وقال ﷺ ﴿ من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتمّ ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولاسجودها ولاخشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى اذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه ﴾ وقال ﷺ ﴿ أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته ﴾ * وقال ابن مسعود رضى الله عنه وسلمان رضى الله عنه « الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طفف فقد علم ما قال الله فى المطففين »

﴿ فضيلة الجماعة ﴾

قال ﷺ ﴿ صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة ﴾ وروى أبوهريرة أنه ﷺ فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم * وفى رواية أخرى ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم

الخطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين لشهدها يعنى صلاة العشاء * وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا ﴿ من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة ﴾ وقال ﷺ ﴿ من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة ﴾ * وقال سعيد بن المسيب ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد * وقال محمد بن واسع ﴿ ماأشتهى من الدنيا إلا ثلاثة ، أخا إن تعوجت قومنى ، وقوتا من الرزق عفوا بغير تبعة ، وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها ﴾ * وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال مازال الشيطان بى آنفا حتى أريت أن لى فضلا على غيرى لاأؤم أبدا * وقال الحسن ﴿ لاتصلوا خلف رجل لايختلف الى العلماء ﴾ وقال النخعى ﴿ مثل الذى يؤم الناس بغير علم مثل الذى يكيل الماء فى البحر لايدرى زيادته من نقصانه ﴾ وقال حاتم الأصم « فاتتنى الصلاة فى الجماعة فعزانى أبو اسحق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا » وقال ابن عباس رضى الله عنهما « من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد به خير » وقال أبوهريرة رضى الله عنه « لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لايجيب » * وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له إن الناس قد انصرفوا فقال - إنا لله وانا اليه راجعون - لفضل هذه الصلاة أحب الى من ولاية العراق * وقال ﷺ ﴿ من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لاتفوته فيها تكبيرة الاحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار ﴾ ويقال انه اذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة ماكانت أعمالكم ؟ فيقولون كنا اذا سمعنا الأذان قمنا الى الطهارة لايشغلنا غيرها ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت ، ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان فى المسجد * وروى أن السلف الصالح كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام اذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعا اذا فاتتهم الجماعة

﴿ فضيلة السجود ﴾

قال رسول الله ﷺ « ماتقرب العبد الى الله بشئ أفضل من سجود خفى » وقال رسول الله ﷺ « مامن مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة » وروى أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة فقال ﷺ أعنى بكثرة السجود * وقيل ﴿ أقرب مايكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا ﴾ وهو معنى قوله عز وجل - واسجد واقترب - وقال عز وجل - سيماهم فى وجوههم من أثر السجود - فقيل هو مايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود * وقيل هو نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر وهو الأصح * وقيل هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء * وقال ﷺ « اذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول ياويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار » ويروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد * ويروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لايسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن اسباط يقول ﴿ يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك ﴾ * وقال سعيد بن جبير ما آسى على شئ من الدنيا إلا على السجود * وقال عقبة بن مسلم ﴿ مامن خصلة فى العبد أحب الى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، ومامن ساعة العبد فيها أقرب الى الله عز وجل منه حيث يخر ساجدا ﴾ وقال أبو هريرة رضى الله عنه ﴿ أقرب مايكون العبد الى الله عز وجل اذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك ﴾

هذا نص ماجاء فى ﴿الإحياء﴾ ومعلوم أن فى الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء ايراد الضعيف فى فضائل الأعمال اهـ

﴿ الفاتحة وعلوم الحكمة ﴾

(سانحة يوم السبت ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩ ضحى)

لم يكن ليخيل الىّ يوما ما أن تصبح الفاتحة بالنسبة للقرآن ولعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة ولكن هذا الخاطر فاجأنى اليوم مفاجأة بهجوم عقلى أوجب علىّ أن أشرحه فأقول .

إنى لأعلم أن النادر من قراء هـذا التفسير يعرفون المقولات لأن المقولات انما جاءت فى الفلسفة القديمة والفلسفة القديمة مهجورة بل الذين درسوها من المسلمين ينظرون للمقولات المذكورة نظرهم الى مستصعب الامور فهى غامضة المعنى ولكنى قد شرحتها فى كتابى المسمى ﴿ بهجة العلوم ﴾ فى الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة وهـذا الكتاب تحت الطبع الآن ، وليس هذا المقام مقام الأطناب فيها ولكنى سأريها لك الآن بطريق سهل ثم أقفى بعدها بمقاصد الفاتحة وهنالك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها فهى فاتحة القرآن والعلوم وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة باجماع حكماء الشرق والغرب وهى الآن تدرس فى جميع أنحاء أوروبا للخواص هناك بلغاتهم المختلفة . المقولات هى كلمات عشر وتلك الكلمات العشر يرجع اليها كل علم من علوم الرياضة والطبيعة وسائر العلوم وهى الجوهر والكم والكيف والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال

(١) فالجوهر يشمل كل مانراه من المادّة كالانسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا

(٢) والكم يشمل علوم المقادير من الحساب والهندسة والجبر والفلك وعلوم المساحة وهكذا كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها ، فعلم المعدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر

(٣) والكيف يرجع الى كل ما نحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات والملموسات وهكذا كل مانحسّ به فى نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا

(٤) والإضافة كل شيئين يلازم أحدهما الآخر كالابوة والبنوّة وهكذا

(٥) و (٦) والمكان والزمان يشملان علوم الجغرافيا وحساب السنين والأشهر والدهور

(٧) والوضع مثل هيئة الانسان فى جلوسه ونومه وهيئة الهواء والضوء والماء والأرض وانتساب كل واحد منها الى الآخر بهيئة خاصة

(٨) والملك مثل كل مايملكه الانسان

(٩ـ١٠) والفعل يشمل كل مؤثر فى غيره كاحراق النار وتبريد الثلج الماء وهكذا والانفعال كاحتراق الحطب وبرودة الماء وهكذا

هذه هى المقولات التى شرحت معناها شرحا وجيزا وقد علمت انهم أجمعوا أنه لاعلم من العلوم إلا وهو مندمج فيها ويقولون انها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الغصون والأزهار والأثمار

كلمات عشر عبر بها الحكماء عن جميع العلوم حتى ان الصناعات كلها ترجع الى مقولة الفعل والأمراض والفرح والحزن ترجع الى مقولة الانفعال وهكذا ، فهذه المقولات العشر نظيرها سورة الفاتحة ، وأنت خبير أن معانى الفاتحة قد تقدّمت عند تفسيرها ، وهناك قد دخلت كل علوم الأمم مثل ان (العالمين) يشمل العالم العلوى والسفلى ولفظ (رب) من ـ ربّ العالمين ـ يشمل كل علوم التربية فى العالم كله وهكذا فارجع الى تفسيرها هناك فانك تجد الفاتحة أشمل لجميع العلوم من فنّ المقولات ، وعليه أصبح المسلم يتلو صباحا ومساء كلمات هى

مفاتيح

مفاتيح العلوم . المسلم فى قراءته الفاتحة تعبدا وهو غافل عن علومها أو بعضها خير ممن يقرأ المقولات العشر ويقول فى كل وقت من الأوقات (جوهر . كم . كيف . الخ) وهو لايعقل معناها ، ولو أن رجلا أخذ يتلو هذه الكلمات العشر صباحا ومساء على مسمع من الناس لعدّوه قليل العقل لأنها غير معقولة ولا مفهومة إلا للنادر من الناس . أما الفاتحة فمعناها الظاهر يكفى العابد فى عبادته بل توجهه لله بها وان كان لايدرى معناها كاف فى العبادة ، والحكماء حين يتلون الفاتحة يحضر لهم اجمال العلوم كما تحضر العلوم كلها فى المقولات العشر . إذن وضع الفاتحة أرقى فى جمع العلوم من وضع الفلاسفة . الفلاسفة يضعونها فى كلمات لايعقلها إلا الخواص والفاتحة تفيد العامة عبادة والخاصة تذكرة للعلوم كلها والحمد لله رب العالمين

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ـ الخ ﴾

تقدّم فى (سورة النحل) عند قوله تعالى ـ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ـ أن الناس ﴿ ثلاثة أصناف ﴾ صنف هم العامة وهؤلاء لاينجع فيهم إلا الوعظ وذلك بما يرغب ويرقق القلوب ويفرحها بضرب الأمثال وذكر الحوادث والمشوقات والمخيفات من الجنان والنيران وما فى معناها وصنف هم العقلاء وأرباب الفكر وهؤلاء لاتكفيهم المواعظ بل لامندوحة من إعطائهم البراهين القولية والأقوال الحكمية حتى يستقر إيمانهم ويثبت يقينهم ، وصنف هم قوم لاهم مع العامة ولامع العقلاء والحكماء وهم أهل الجدل كأهل الكتاب فانهم قوم مقلدون لامفكرون لأن كل من نشأ على دين يعسر عليه الاقلاع عنه فهؤلاء لاتنفعهم المواعظ ولاتقام لهم الحجج وانما يكون القول معهم باستنباط الأدلة من كتابهم لأنهم عليه يعوّلون وبه يثقون فيقال لهم ان النبى ﷺ مثلا ورد ذكره فى كتابكم فجاء فيه كذا وكذا فهذا هو الجدل فهو حجة لاهى يقينية ولاهى وعظية بل هى اقناعية تستند لما يعتقده الخصم غالبا ، واعلم أن القائمين بأمر الأمم ﴿ أربعة أقسام ﴾ أنبياء ووعاظ وحكماء وأمراء ، وبيانه أن الوعاظ هم الذين لاحكم ولاسلطان لهم إلا على قلوب الجهال والعامة كخطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين المعتادين فى الأمم ، فهؤلاء جميعا لايؤثرون إلا على قلوب العامة لأنهم يقومون بتذكيرهم بآيات الله بحسب ظواهر الكتاب والسنة والاخبار بدون كثير بحث ولاتدقيق والعامة لهم مصغون وعلى قولهم معوّلون

﴿ الأمراء ﴾

وبعكس هؤلاء الوعاظ الأمراء ، فاذا رأينا الواعظ قد خلب قلب العامى وخضع لقوله واتعظ وليس لهذا الواعظ من قوّة جسمية تخيفه بل قوّته روحية فانا نرى الملوك والأمراء ورجال الادارات فى الحكومات من قاض وحاكم وجندى فكل هؤلاء لاسلطان لهم إلا على أجسام الناس وظواهرهم لاعلى عقولهم وأحلامهم ألا ترى رعاك الله أن فرنسا تحكم فى تونس والجزائر ومراكش وايطاليا فى طرابلس والانجليز لهم بعض السلطان فى مصر ، ومع هذا ترى هذه الأمم لاتتبع هؤلاء الفاتحين إلا من خوف العقاب ، أما القلوب فانها مع هؤلاء الوعاظ . إذن هنا جسم يحكمه الأمراء وعقل يحكمه الوعاظ

﴿ الحكماء ﴾

فأما قسم الحكماء فهؤلاء قوم خصهم الله عز وجل بنور البصائر وازدياد الفهم وقوّة الادراك وسرعة الخاطر فهم لايصلحون لتعليم العامة والجهلاء ولاسطوة لهم على الناس فيحكمون أجسامهم بل سلطانهم يختص بالعلماء والوعاظ ، فكما خضع العامة للوعاظ بعقولهم وللأمراء بأجسامهم وظواهرهم هكذا يخضع العلماء والوعاظ للحكماء وهم أولئك الذين امتازوا بسموّ المدارك فهؤلاء يقودون بواطن العلماء ويذكرونهم بما نقصهم من العلم ، وهذه الطائفة إن لم يخلقهم الله فى أمة فذلك عنوان على ضياعها وهلاكها ، ولقد قام فى أممنا الاسلامية من هؤلاء كثير وأذكر منهم العلامة الغزالى بالشرق وابن رشد فى بلاد الأندلس فآذاهما المسلمون وأحرق

قوم كتب الامام الغزالى و بصق آخرون فى وجه ابن رشد وكفروه . فهذان وأمثالهما انما خلقا لارشاد العلماء فلما آذتهما الأمة وقامت فى وجههما أذلها الله وعوقبت قرونا وقرونا ودخل التتار من الشرق فخربوا الدولة العباسية وذهب مجد العرب ودخل أهل أسبانيا الأندلس فأذلوا الأمم العربية وأهلكوهم وفرّ منهم من فرّ ومن بقى تنصروا وهم فى نظر القوم مرتدون مذنبون ، ذلك مثل المسلمين السابقين

﴿ الأنبياء ﴾

أما الأنبياء فهم يعظون العامة كالوعاظ والخاصة كالحكماء ويحكمون على أجسامهم بالحبس والقتل وغيرهما كالملوك والأمراء . ألاترى أنه ﷺ أمر أن يعظ كالوعاظ وأمر أن يدعوا الى سبيل ربه بالحكمة وهذا شأن الحكماء وأمر أن يحكم بين الناس بالعدل وهـذا شأن الأمراء والملوك . كتب ليلة الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٩ قبيل الفجر

﴿ جوهرة فى قوله تعالى ــ وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهـم الكتاب يؤمنون به ــ وفى قوله تعالى ــ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ــ الخ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى أنزلت القرآن ، وأنت الذى خلقت أمم الشرق والغرب ، وأنت الذى جعلت هذا القرآن آيات بينات فى صـدور الذين أوتوا العلم ووعدت بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به ، اللهم إنك أنت أنرت بصائر الأمم الحاضرة المعاصرة لنا وأبرزت فى أوروبا أناسا برعوا فى العلم وحذقوا ودرسوا الديانات وهم من الذين أوتوا الكتاب الذين ذكرتهم و بعد ذلك أيقنوا بأن القرآن حق وصدق كما وعدت فى كتابك ، اللهم إن هـذا وحده برهان ، اللهم إنك قد تكفلت بحفظ هذا العالم ونظامه وتكفلت بحفظ القرآن وتكفلت باظهار علماء من أمم أهل الكتاب يؤمنون به ، اللهم إن ظهور ذلك فى زماننا أتم لكثرة العلم وانتشار الحكمة ، إذن يجب علينا نحن الذين خلقنا فى هذا الزمان أن نذكر المسلمين فى أمثال هذا التفسير بما دبجه بعض أولئك العلماء من أوروبا مصداقا للقرآن ، فمنهم صديقنا (اللورد هيدلى) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير مرارا ، ومنهم (الكونت هنرى ديكاسترى) ومنهم العلامة (توماس كارليل) فلأقتصر على نقل نبذ من أقوالهـم ، فهؤلاء منهم مؤمنون ومنهم علماء أيقنوا بالقرآن لأنه آيات بينات فى صـدورهم ولكن ذلك فى ﴿ ثلاثة فصول ﴾

﴿ الفصل الأوّل ﴾

فى الكلام على صديقنا (اللورد هيدلى) الانجليزى رئيس الجمعية البريطانية الاسلامية فى كتابه المسمى (ايقاظ الغرب للاسلام) الذى لقب بحضرة (سيف الرحمن رحمة الله فاروق) وقد ترجمه اسماعيل أفندى حلمى البارودى العضو بالجمعية البريطانية الاسلامية وهذا نصه

﴿ مقدمة ﴾

لكى أقدم الصحائف المقبلة الى القراء لا أجدا خيرا من إعادة نشرى هنا لمقالة صغيرة من قلمى ظهرت فى إحدى جرائد (لوندرا) الأسبوعية فى نوفبر سنة ١٩١٣ وهذا نصها

ظهرت فى جرائد عديدة قطع تشرح معتقدى الدينى وانه ليبهجنى أن أرى أن كل ماوجه الىّ من الانتقاد لغاية الآن لم يكن إلا بلطف متناه ، انه لاينتظر أن تخرج خطوة معلومة عن خط سير مألوف دون أن تستلفت النظر . ورد لى فى أحد الأيام خطاب من أحد المسيحيين المتدينين يخبرنى فيـه بأن الدين الاسلامى انما هو دين لذة وأن النبى ﷺ كانت له زوجات عديدات وأن ذلك قاعدة فى الاسلام فما أغرب هذه الفكرة عن الاسلام إلا انها فكرة راسخة فى عقول تسعه وتسعين فى المائة من البريطانيين الذين لم يعنوا ببحث الحقائق الواضحة لديانة مايذوف عن مائة مليون من رعاياهم ولو درسوا تلك الديانة لـبين لهم أن نبىّ بلاد العرب ﷺ

كان مشهورا فى كبح النفس عن الهوى وردّها عن الشهوات وكان مخلصا لزوجته الوحيدة (السيدة خديجة) التى هى أكبر منه بخمس عشرة سنة والتى كانت أوّل من آمن برسالته السماوية وبعد وفاتها تزوّج بالسيدة (عائشة) وقد تزوّج أيضا ببعض أيامى متبعيه الذين استشهدوا فى إعلاء كلمة الله وذلك لا بدافع الشهوة بل لكى يعولهنّ ويمنحهنّ مساكن ويتزلهنّ منزلة ما كنّ ليحصلن عليها لولاه (يقول مؤلف هذا التفسير وسيتضح لك هذا المقام فى سورة الأحزاب)

نحن معشر البريطانيين نعجب بأننا نحبّ العدل والانصاف ، ولكن ماذا أعظم جورا وحيفا من الحكم الذى يصدره كثير منا على الدين الاسلامى دون أن يجتهد أو يحاول أن يعرف ولو مجملا بسيطا من عقائده حتى انهم لا يفقهون معنى كلمة الاسلام

إنه من المحتمل أن يظنّ بعض من أصدقائى أنى قد غلبت على أمرى أو نسيطر علىّ المسلمون إلا أن ذلك ليس بحقيق لأن اعتقاداتى الحالية ماهى إلا نتيجة بحث سنوات عديدة وان كانت مناقشاتى الحقيقية مع متعلمى المسلمين فى موضوع الديانة لم تبتدئ إلا منذ زمن قريب ، وانى لمحتاج الى القول بأنه قد غمرنى الفرح عندما وجدت أن كل نظرياتى واستنتاجاتى كانت مطابقة مطابقة تامة للاسلام . إن أخى خواجا كمال الدين لم يحاول بتاتا أن يتسلط على فؤادى ولو قليلا فانه كان دائما مثال الأمانة والصدق إذ قد شرح لى فى ترجمة القرآن الكريم الذى ما استطعت أن أفهم معناه من الترجمة المشوهة المنتشرة بين المسيحيين فأنار من هذه الوجهة المحجة الواضحة التى تسير فيها (جمعية التبشير الاسلامية) فانها ما احتالت ولا خدعت أحدا قط والهداية كما جاء فى القرآن الشريف يجب أن تكون بمحض الرغبة والاختيار ومن تلقاء النفس ، لذا لم يرتكب خواجا كمال الدين أى صفة من صفات الاحتيال والخديعة ، وقد أراد عيسى نفس تلك الصفة عند ما قال لحوارييه « وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذى تحت أرجلكم شهادة عليهم »

وقد علمت أمثلة كثيرة جدا من (البروتستانت) المتعصبين الذين ظنوا أن من واجباتهم أن يغشوا بيوت الرومان الكاثوليك فيحتالوا على من يقطنها لنقله الى دينهم ، ومثل هذا العمل المثير الذى لا يليق بكرامة جار هو طبعا عمل كريه جدا أدّى الى اثارة العواطف وإيجاد النزاع الذى جرّ عليهم الازدراء والاحتقار وانى لأتألم جدّ الألم عند ما يعرض لفكرى أن أولئك المبشرين المسيحيين حاولوا ذلك مع المسلمين أيضا وان كان لا يوجد هناك باعث يدعوهم الى هداية هؤلاء الذين هم أصحّ منهم مسيحية وأفضل منهم أنفسهم فى مسيحيتهم وقد عجزت تماما عن أن أعرف لم فعلوا ذلك ، انى لم أقل أصحّ منهم مسيحية جزافا بل بعد اعمال العقل والروية لأن المحبة والألفة والتسامح فى الدين الاسلامى أقرب جدا لما أتى به المسيح مما عليه رجال المسيحية فى الكنائس المتنوّعة ، خذ مثلا العقيدة (الاثانسيانية) التى تختص بالثالوث بحالة مشوشة لا يقبلها العقل تر أنه من الواضح جليا أن هذه العقيدة المهمة عندهم للغاية والتى تعتبر إحدى العقائد الرئيسية للكنيسة تمثل المذهب الكاثوليكى وانا اذا لم نعتقدها نهلك هلاكا أبديا وهكذا نؤمن بوجوب اعتقاد الثالوث إن أردنا الخلاص أو بطريقة أخرى نقول إن الله رحيم وقادر على كل شئ وفى الوقت نفسه نتهمه بالظلم والقساوة الذين لا نستطيع ولا نرضى أن ننسبهما الى أفظع سفاكى الدماء من الطغمة الآدميين كأن الله الذى هو أمام الجميع وفوق الجميع يتغلب عليه اعتقاد مخلوق ضعيف فان فى الثالوث

هنا مثل آخر يدل على عدم وجود الحسى لديهم ، وصلنى خطاب لمناسبة اتجاهى نحو الاسلام أخبرنى فيه كاتبه بأنى اذا لم أعتقد ألوهية المسيح لا يمكننى الخلاص . إن مسألة ألوهية المسيح ما ظهر لى قط انها مهمة ، هل أرسل المسيح رسلا من البشر برسالات إلهية ؟ لو كان عندى الآن أى شك فى تلك النقطة الأخيرة لآلمنى ذلك جدا إلا انى أشكر الله سبحانه وتعالى لعدم وجود هذا الشك وأتمنى أن يكون اعتقادى فى المسيح وتعاليمه ثابتا

جداً كاعتقاد أى مسلم أومسيحى حقيقى آخر لأنى سبق لى أن قلت مراراً أن الديانة الاسلامية والديانة المسيحية كما علمت بالمسيح نفسه هما أختان ولم يفصلهما عن بعضهما إلا المذاهب والاصطلاحات المسيحية فقط التى يمكن الاستغناء عنها بكل سهولة وارتياح

يميل الناس فى هذه الأيام الحاضرة الى الكفر والإلحاد عند ما يطلب منهم أن يعتقدوا هذه المذاهب والعقائد التى لاتفهم وهناك بلاشك رغبة واشتهاء الى ديانة تقبلها العقول والميول ، فمن سمع بمسلم ارتدّ الى الكفر والالحاد ؟ ربما كانت هناك حالات من هذه إلا انى أشك جدا فيها . إنى أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضامسلمين قلبا ولكن يمنعهم خوف الانتقادوالرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشئ عن التعيير تأمرا على منعهم من اظهار معتقداتهم . انى خطوت هذه الخطوة ولوانى أعلم علم اليقين أن كثيرا من اخوانى وأقاربى ينظرون الى الآن كروح ضالة ويصلون من أجلى ، إلا انى لست فى الحقيقة فى اعتقاداتى اليوم إلا كما كنت منذ عشرين سنة تماما ولكن صراحتى فى القول هى التى حرمتنى حسن ظنهم بى

الآن وقد شرحت بعضا من الأسباب التى جعلتنى أتبع الدين الاسلامى وقلت إننى أعتبر نفسى الآن إنى أصبحت باسلامى مسيحيا أفضل مسيحية مما كنت عليه من قبل ، فآمل أن يتبع الآخرون مثالى ويعتقدون أحقية الاسلام الذى أقرّ بكل شهامة وفخر انه أصحّ الأديان وانه ستصل السعادة لأى امرئ ينظر الى هذه الخطوة كخطوة متقدّمة لا كخطوة مضادة للمسيحية الحقة بأى وجه

﴿ سلم الاسلام ﴾

ينظر فى هذا العصر للديانة كأنها شئ مزعج والناس إما ملحدون وإما متبعون اتباعا أعمى لصفوف عقائد من الأفكار التى لاتقبلها عقولهم وتقاومها ، إلا انهم يعترفون بها ظاهرا لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وانه يؤدّى المطلوب . أكد لى رجل من أحسن الرجال الذين عرفتهم (زوج فاضل ووالد) انه ملحد ولاينظر لشئ غير فناء الخليقة ومع ذلك كان سعيدا جدا ولم أجد بوسعى شيأ أستطيع أن أعمله معه ويكون له أقلّ تأثير فى تغيير معتقده الفظيع . وسمعت برجل آخر أخذ الديانة بروح فرحة جدا وكان غنيا للغاية ، ناقشه صديق له يوما من الأيام فى أسلوب حياته المحاول وسأله ألم يفكر قط فى الحالة المستقبلة وفيما ستكون عليه نفسه فى الحياة الثانية فأجاب كلا لم أتعب نفسى وراء هاتيك الأشياء ؟ انى أدفع لطبيبى كذا فى السنة ليعتنى بصحتى الطبيعية وأعطى الكاهن نحو ستمائة جنيه فى السنة ليعتنى باحتياجاتى الروحية ، فلم إذن أصدع رأسى ، وهذا الرجل كان مسرورا أيضا بطريقته وتوفق لأن يدفع مبلغا معينا سنويا لينجو من التفكير ومن كل مايشغل رأسه أو يتعبه . اذا كان يمكننا فقط أن نجد فكرا قويا خاليا من العقائد لكى ينتخب لنا الدين الحق الذى يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدا نحو الاتجاه الصواب . اما اذا ذهبنا الى القسس والرهبان أوغيرهم ممن يقدمون أقوالا توافق مشاربهم لانجد لديهم أى مساعدة لأن العقائد أوالمذاهب المتعددة يناقض بعضها على خط مستقيم . خذ مثلا الكنيسة المسيحية فقط تجد بها أن الارشادات السماوية التى تدهش وتحير العقول تختلف عن كنيسة انكلترا وكنيسة روما وهما تختلفان أيضا حتى انا نخرج من ذلك بلا فائدة أصلا . إذن فكل مارغبه هو مساعدة بعض المتفرّجين خارجا عن هؤلاء وهؤلاء ومن الغير متعصبين الذين عندهم فرص وقدرة على التأمل والتفكير الذين ليس لهم أى صالح أوربح من وراء إبداء رأيهم بصراحة وشرف . كل ماتريده فى الواقع هو دين يعرف ويؤيد قوانين المملكة لأنه فى هذه الأيام أصبحت القوانين مما يجلب الـ[illegible] خرية والضحك وهناك فى الخارج شعور وميل مبك من كل أشكال المظالم والجرائم تمريا . صعوا هناك عدلا تاما فى الديانة لان سلسلة المملكة الفقرية لاتت من وضعها فى هذا الظاهر بالشفقة والحنو الذى لاهو انسانى أى حال ولاهو خليق بأن يرقى أخلاق الأمة . مالرجه إلا سفك دماء عبيد ماتكون [illegible] فى العمر من [illegible] ، [illegible] دلت على هذا الميل

لارتـكاب الآثام ، واننا وان كنا نشعر بحزن عميق من أجل الجرم الذى جعلته تربيته والبيئة الحقيرة التى نشأ فيها يسبب لنا التعب والشغب إلا انه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه من العودة . انه لمن أفظع الأعمال أن نديرله الخد الآخر ، نعم إن ذلك لمريع جدا لأنه يشجع الشريرين على السير فى تيار جرائمهم بينما يتألم باقى أعضاء المجتمع من سوء استعمالنا للرحمة ، اذا لم أك مخطئا فالعدل اللين الممزوج بالماء (المغشوش) الذى يوزع فى هذه الأيام فى هذه المملكة مسؤل عن نصف الشرور التى نشكومنها بحرارة زائدة وانه لخير لنا أن نرجع الى (قانون الثارات) القديم عن أن نسير فيما نفعله الآن

لايمكننا بتاتا أن ننظر للمسيح كمشترع أو واضع قانون فانه لم يسن للعالم إلا سننا ونواميس وديعة طريفة حالة أن ابليس الذى يمشى اليوم لايمكن قمعه بأجوبة ناعمة وادارة الخد الآخر له فيجب إذن أن تتخذ أشد الاجراآت مع كل رسل الشر

كان موسى مشترعا وواضع قانون ، وكان محمد مشترعا وواضع قانون ونحن الآن فى احتياج شديد الى بعض من العدل المطلق الثابت للنبى المقدس (محمد) . انه أى القانون والتشريع الاسلامى شديد إلا انه خال جميعه من توحش انتقام العهد القديم

تعاقب الحكومات الحزبية التى عملت لازدياد القوة لالصالح الأمة أوقعنا فى هذا المأزق الذى لايمكننا فيه ولوأن نعتنى ونحفظ نظام نسائنا ، حقا انها لحالة مفجعة لنسل سادة البحار ووطنى أعظم امبراطورية رؤيت فى العالم . قوانيننا حسنة إن هى نفذت وعمل بها . الخضوع الى الرذيلة يقود الى أكبرمنها . لانريد الرجوع الى طرق التعذيب من أى صنف أوالفظاعة ، ولانريد أن نريق نقطة واحدة من الدماء لنكره الناس على قبول آرائنا فى الدين أوالسياسة بل نرغب أن نرى القوانين مطاعة والعدل مكيلا للجميع

انى لأعتقد اعتقادا راسخا بأنه لواتبعت الشريعة المحمدية التى أتت فى القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدا حكم الشعب ولا يكون ذلك غريبا ما دام أكثر من نصف رعايا جلالته فى ملكه الشاسع هم من المسلمين . مر العصر الذى كان يمكن أن يجتهد فيه لاقامة أى دين بقوة الأسلحة . إننى لمتأكد من أن المسلمين أولئك القوم المتشبعون بالاخلاص والوفاء ماحاولوا قط أن يقيموا الدين الاسلامى بالطرق العنيفة . الفتنة والتردد يحرمهما القرآن ولا إكراه فى الدين فى إحدى مبادئ الدين الاسلامى

لفت الأذهان واصغاء الآذان هوكل ما يرغب به المسلمون وانى لمتأكد من أنه اذا فهم رجال انكلترا تماما المعنى الحقيقى للاسلام (العقل والتمييز والالتجاء الى النهى والشعور) لسعوا فى أن يخفوا سوء فهمهم المخجل السائد فى الوقت الحاضر

ينظر الاوروبيون دائما الى الاسلام كأنه وحشية وهمجية فلوعلموا كل مافعله محمد ﷺ لازالة التوحش والهمجية التى لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالا . انهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعا فى تحريف الديانة الاسلامية وان هـذا لأعظم الكذب الذى يخزيهم وان كانوا ليظنون أن ما يفعلونه حسن ، فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدى للحقيقة وبين الحالة التى يسير عليها المبشر المسلم فى عمله

كثيرا ماأزعجت الهيئات الحاكمة فى هذه المملكة لقبول طلبات الهيئات الدينية ، فكنيسة انجلترا وكنيسة الرومان الكاثوليك وحزب المعارضين وكثير غيرهم معتبرون جدا لأنهم ذوو نفوذ عظيم ولازال الكل يقولون هل من مزيد ، ولكن ليست هناك (بأقصى مايمكن للانسان أن ينظر) أى فصيلة دينية من الفصائل المحمدية تطلب أى سلطة دينية إذ عظمة الاسلام أرفع من أن تسيطرعليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة ، وكل متبع اتباعا حقيقيا للنبى العظيم يتطلع الى جزاء أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدنيوية كرقى ضوء الشمس عن ضوء الفوسفور . ليس هناك اباوات ولاأساقف ولارهبان ولاقسس يطلبون هبات أوأرباحا لأن الله نفسه هورأس

هاتيك النصائح الروحية . أنبأ التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائما بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية ويمكننا هنا أن نشير الى بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة بدون جور أوحيف كى نبين فظاعة الأحوال المريعة التى كان يجب أن تكون أفضل ماتطمح اليه النفس ، وكيف اختلطت باعتبارات لمكاسب دنيوية محضة سافلة . إننا لانذهب بعيدا اذا قلنا بأن القسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يعتبرون أن الديانة هى محض نظام أيام آحاد محترمة وحسنة لأنها تقدم لهم فرصا استثنائية لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم والتكلم عن جيرانهم ، وهذا الدين العجيب يذوى أخذهم الى بعض من الجنة ، ويتوقف مركزهم فى هذه الجنة على المبلغ المدفوع على نظام دخول الناس دور التمثيل تماما ، يجلسون بأجرة معينة فى الأرواج والطابق الأول و بأجرة أخرى فى الصالات والكراسى الخ

معظم ديانة الغرب ماهى فى الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى و بقايا العصور المظلمة ولا تتفق مع تعاليم موسى أو المسيح ، ففى تلك الأوقات المظلمة المكفهرة بين القرن الثالث والقرن الخامس و بعد ذلك عند ما كانت أوروبا ميدانا شاسعا للمصارعات يتبارى فيه الرجال المتوحشون ومن طبعوا على حب القتال مع بعضهم ونشروا الرعب والدمار فى كل الجوانب وكان الحكام العظام للمالك كبارونات ولوردات انكلترا رجالا مشهورين بالمهارة فى استعمال السيف و بلطة الحرب واحكام الدفاع عن أملاكهم وعقارهم و بيوتهم أكثر من شهرتهم فى التعليم والتهذيب وكانوا لأجل أن يحفظوا ادارة ونظام شؤنهم الداخلية يستخدمون الـلمنية والاكليروس الذين كانوا بتعليمهم العالى قادرين على أن يجعلوا لهم نوعا من الوكالة على هذه الممتلكات وأن يحفظوا سجلات الحوادث الجارية الخ

أصبح هؤلاء الاكليروس بعد مضى مدة من اللوازم الضرورية التى لا يمكن لهذه الممتلكات الشاسعة أن تستغنى عنها وأصبح لهم سلطة عظيمة وسلطان قوى وسنحت لهم فى ذلك الوقت فرص زادت سلطانهم باستعمالهم أسرار المجهول لدى البارونات أو اللوردات كمرتكز علة وضعوا عليه عتلات طويلة وتلك العتلات هى الرعب من جهنم والخوف من العقاب المستقبل ، نقل تلك المرعبات بينهم بمهارة فائقة أحدث فى عقول السذج شعورا لايمكن ازالته من الهلع الذى كان مع ذلك يلطف و يخفف بالتأكيدات من أنه باعتناق شكل معين من الدين وابتلاع بعض عقائد وضعت بمكر زائد ينال الخلاص ولكنه اخترع بوجه ما أن الطمأنينة التامة بخصوص النجاة والمركز العالى فى الآخرة لاينال إلا بالعطايا الفاخرة جدا للكنيسة وهذه العطايا أخذت شكل منح واسعة من الأراضى والقصور والابرشيات وهبات عظيمة ، ومن هنا نرى أن ولادة وابتداء الكهنوتية والقسوسية وطلب السلطة الدنيوية المقصودة قد عرف من ذلك الوقت ، فمجىء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريبا كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار كالتكبير والتوسط الكهنوتى والتوسل الى القديسين وكل هـذه الطرق الملتكة المحتوى عليها التقرب من المولى جل وعلا

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية ، ومهما كانت ظرافة ورقة تلك المبادىء الصفوحة التى آتى بها نبى الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التى احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التى تقف فى طريق السالك الى الله

هناك آيات فى القرآن لاتترك شكا فى معناها وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون فى دائرة السيادة الكهنوتية و يتخذون مخلوقات بشرية لارشادهم ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لااله إلا هو سبحانه عما يشركون ــ وقال ــ يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل و يصدون عن سبيل الله ــ

ديانة المسيح ليست تماما ، ديانة (سانت بولس) الذى أضاف اليها وغيرها تغييرا فاحشا وقد توجت هيئات

مختلفة

مختلفة هاتيك التعاليم وغيرت فيها من وقت لآخر ، وليس هناك فى الحقيقة تناسق فى تلك المسيحية المزعومة ولكننا نجد فى الاسلام ما يكفى رغبات المخلوقات من الاتصال بالخالق مباشرة ، الله الموجود أبدا القادر على كل شئ والحافظ لجميع المخلوقات ، ليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه أمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، انه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ورؤية أبيهم القهار المتصل دواما بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أوأولياء مقدسين ، مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ويمكن إدارته بأذل وأقل المخلوقات دون أى مساعدة من نبى أوكاهن أوملك ، انه كالهواء الذى نستنشقه مجانا لكل خلق الله ، أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك مادعاهم الى هذا العمل إلاحب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسس أو بعض فوائد دنيوية أخرى ، ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة المسيحية لأبين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية التى هى خالية فى نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جليا فى كثير من الديانات الأخرى

إن الدين مسؤل عن كثير من الآلام والفظائع وسفك الدماء وتلك حقا لحقيقة مبكية ، أيمكن إذن أن يوجد دين يمكن العالم الانسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيقى الذى هو فوق الجميع وامام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك ؟

فكر لحظة وذلك التفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة ، انه اذا أصبح كل فرد فى الأمبراطورية الانكليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه أصبحت ادارة الأحكام أسهل من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيقى ولن تبقى هناك جمعيات كنائسية ولامنشقون كى يوفق بينهم ولاضرائب ثقيلة تدفع للمرور فى الطريق الموصل الى الفردوس . إن الديانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمد سهلة جدا إلا أن الخلط الذى أتاها من الآخرين الذين سعوا فى أن يحسنوا الوحى الإلهى جعلها معقدة يرتبك وييأس منها من يستعمل عقله فى السعى وراء الحقيقة بجد ونشاط . استفز صنف من أصناف هذا الدين الحروب الصليبية التى ضحى فيها أسلافنا عشرات الآلاف من الأرواح البشرية ، فلم ذلك ؟ معركة معيبة نشبت من أجل ضريح يعتقد أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، هل كان يستحق ذلك أى اهتمام ؟ وصنف آخر من أصناف هذا الدين علمنا أن نعذب كل من يخالفنا ولو على أقل نقطة من نقط هذا الدين وأن نحرقهم أحياء ، هل يستحق ذلك أى اهتمام ؟

وهناك صنف آخر من أصناف هذا الدين وهو شائع ومعلوم للجميع ، ذلك بأن هؤلاء المتعصبين الشديدى التعصب (القسس) يحكمون على تابعيهم بالهلاك الأبدى اذا لم يبتلعوا آراء مذهبية معينة ، فهل يستحق ذلك أى اهتمام ؟ أتريدون أن تصفوا بضد الاحسان الذى هو أبغض شئ عند الله رب الرحمة والذى يلعنه كل من المسيح ومحمد الى حد ليس له نهاية * قال الجنرال غوردون ﴿ لم أر طبقة القريسيين بين المسلمين الذين لايتخذون كل مايتخيلونه أو يمر بباطهم كما يفعل فريسيونا من الحكم على زيد أوعمرو بأن نصيبه النار ، إنك لاترى منهم أبدا عدم الأنس والبشر اللذين تراهما من فريسيينا ﴾

إن (غوردون) عاش طويلا فى الشرق ولم يفلت جلال الشريعة الاسلامية من ملاحظته الدقيقة ، ولاشك فى أنه عند ما كتب ماتقدم كان يشعر حقيقة بأن هناك إحسانا مسيحيا حقيقيا عند المسلمين أكثر مما هو عند المسيحيين أنفسهم فى بلادهم ، وكتب (غوردون) أيضا بنفس هذه الروح مايلى

« ليست هناك سلوى فى العالم أوراحة تعادل تلك التى يملكها من لايعرف غير الله مدة بقائه ولايؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق وأن كل الأشياء دبرت لتحدث ولابد من حدوثها ووقوعها ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد قد ماتوا وتخلصوا من هذه الحياة المتعبة »

واجابة على ماتقدم يمكن أن يقال بأن الأفكار الشرقية لاتتحد مع الآراء الغربية ، ولا يمكن أن يقال أن بينهم أى امتزاج وأن محاولة حكم الشعوب الشرقية للشعوب الغربية حينما اعترف بديانة شرقية وتسيطرت هذه الديانة على عقول الرجال وأفعالهم لم تكن لائقة وكانت خارجة عن المقصود ، والمؤلف يريد أن يشير الى أنه مضى ألفا سنة تقريبا وكل مملكة فى أوروبا محكومة بديانة الشرق أى اليهودية والنصرانية . روح الاسلام تحلق فوق أشياء أرق وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية فى الشرق والغرب ، واذا كانت المسيحية الشرقية التى علمت بنى الناصرة العظيم قد سارت سيرا حثيثا فى إضاءة طريق العالم الانسانى ، فلماذا لايستمر الدين الاسلامى الأوسع والأسهل (كما أتى به النبىّ العربىّ الكريم) فى أعماله الحسنة مادام ليس هناك سبب جوهرى يمنع ذلك

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لكل باحث فى حياة محمد كما ان دراسة دقيقة للقرآن تظهر أنه حقا ليس فى الاسلام شئ يتعارض مع الديانات السابقة وارشادات وشرائع محمد كما جاءت فى الكتاب تقوّى وتعزّز تعاليم الانجيل تعزيزا تاما وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر . إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لاتعرف عنه شيأ كما انه من الظلم أن تفعل مايفعله تسعة وتسعون من المائة من المسيحيين الذين يحكمون على الدين المحمدى دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة (اسلام) فقاعدة ترك الامور تأخذ مجراها هى شعار هؤلاء الذين لايريدون أن تنار عقولهم لأن إنارة عقولهم معناها عندهم تعب وازعاج فيفضلون أن يظلوا يتخبطون فى ديجور العمى والظلام عن أن يمدوا أيديهم ليفتحوا الباب الموصل الى النور . ماحصلت عليه فيه الكفاية لى لا أريد أن أنظر لشئ آخر . ذلك مايقولونه رافضين أن يبذلوا أى مسعى ليتقدّموا حتى ولو فى معرفة الله ورسالاته للجنس البشرى

من عدة سنين خلت كان أحد أفكارى الرئيسية هو « كيف يمكن الاسلام أن يتغرّب (يصبح غربيا) حتى يمارس بالأمم الاوروبية ؟ » أو « بعبارة أخرى » كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعدّ أنفسنا لنكتسب ونفقه معنى الاسلام الحقيقى ؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو « كيف اننا لم نشك من جنسية المسيح الذى نعتقد انه كان أسيويا محضا ؟ كانت أمه العذراء مريم أسيويه وكان موسى وكل الأنبياء الموحى اليهم شرقيين وكان النبىّ الكريم محمد ﷺ شرقيا مثل الآخرين وأنزلت عليه الشريعة من الله ، فالقرآن هو من كلام الله عزّوجل كما كان الانجيل وباقى الكتب المنزلة الأخرى وهو القرآن يثبت ويحق الكتب المقدسة الأخرى والوحى السابق . القرآن يضيف تعاليم أخرى تؤكد أهمية تلك التعاليم الماضية وفوق ذلك فهو يحرّم كل أنواع العبادة الوثنية وروح الوحى هى أن لايقرن اسم الله القوىّ العليم الرحيم بأى اسم آخر

روح الشكر هى خلاصة الدين الاسلامى والابتهال أصل فى طلب القيادة والارشاد من الله . انه وان كان شكرى لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فىّ من صغرى وأيام حداثتى إلا أننى لاأستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التى قرع فيها الدين الاسلامى لى حقا وتملك رشدى صدقا وأقنعنى نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى إذ التقيت بسعادة وطمأنينة مارأيتهما قط من قبل ونجوت من العقائد الغريبة المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت ملك النجاة كما أستنشق هواء البحر الخالص النقى و بتحقق من سلاسة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم الى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار

عند ماقرّرت نهائيا أنه لايمكن الحصول على أى راحة من التعليمات الكهنوتية أتتنى الفكرة بأنه من المؤكد أن الله يلاحظ ويدير كل ارادة وكل حركة وعمل . انه يفعل ذلك حقا إلا أن التعليمات المجموعة من صحائف القرآن مكنتنى من أن أفقه معنى تلك الفكرة المريحة راحة عجيبة بطريقة كانت تستحيل علىّ سابقا

اذا كانت كل حركة فى الحياة لاتحركها إلا القوة الإلهيــة تـكون هناك راحة حقيقية لا لهؤلاء ، المتألمين والمعاقين عن السير فى هذه الحياة فقط بل ولهؤلاء الذين ذهبت أنفسهم حسرات على أعمـالهم العديدة الشيطانية والجنونية . كل هؤلاء الذين أتوا أعمـالا سيئة يجب أن يؤملوا فى أن الله بحكمته غير المحدودة وجلاله سيجعلهم مثلا للآخرين كى يريهم مايجب أن يقلعوا عنه . إنه لفكر مخيف إلا ان المؤمن الحقيقى يواجه كل محنة وخزى وانحطاط فى الدرجة فى سبيل المولى عزّ وجل

روح الاسلام تشير الى خلاص البائسين والتعساء والشريرين إن تبنا وأطعنا وتركنا الشرور والآثام وسعينا فى مساعدة المخلوقات بكل مافى وسعنا حتى بين الآلام العظيمة يجب علينا أن نكون مسرورين جدا بأن جعلنا الله واسطة للارشادات السماوية

دمّر التعصب الدينى الأعمى الكنائس المسيحية فى تنافسها إلاان ذلك لايمكن أن يقال عن الاسلام الذى هو كتلة متحدة ، فما أحسن ذلك اذا كنا نحن معشر الغربيين نهجر فى هـذا الوقت تلك الأصناف الدينية المليكة ونتخذ الدين الاسلامى !

مذ سنين مضت وجد عنـد حكام إحدى الأمم المتنورة جدا فى الشرق الأقصى شك كبير فيما اذا كانت طريقة الدين التى يتبعونها صحيحة أم لا ، لذا عينوا رجالا عقلاء مخصوصين ليدرسوا كل الديانات الرئيسية فى العالم ويضعوا تقريرا عنها ، فكر الرجال الحكماء وتشاوروا وفعـلوا كل مايلزم ثم وضعوا النتيجة بأن ديانتهم هى حسنة كباقى الديانات الأخرى ، لذا ليس لديهم أى ميل لينصحوا بتغييرها

انى لأعتقد اعتقادا راسخا أنه اذا اتبع هـذا الرأى وكلف أحسن الأذهان وأنبه العقول الاوروبية بالبحث عن دين مبنى على الاعتبارات الدنيوية والعقلية ولايخرج عن الوحى السماوى الذى أتى به الأنبياء ما وجدوا باجماع الآراء غير الاسلام دينا فسهولته وعظمته مما لايختلف فيه اثنان

أليست هذه من أعظم النعم أن تسنح لك الفرص بأن تعتنق دينا يتفق والحجا ويرضى الفؤاد والضمير ورغبات المرء الداخلية كما انه خال فى نفس الوقت من القسوسية والكهنوتية وباقى التلبيكات الأخرى ؟

لازال يعيش على ظهر هذه البسيطة فى كلا الشرق والغرب هؤلاء الذين اتضح لهم الوحى المؤسس لحقيقة الدين الاسلامى وتعاليمه بأوضح وأجلى معانيه ، وربما كان الوقت الذى يريد الله أن يتضح الوحى فيه وينجلى لكل عباده الموجودين فى هذا العالم ليس ببعيد إلا أن ذلك يختص بهداية المولى سبحانه وتعالى لأنه لايوجد من يعرف الميعاد . الكنائس المسيحية الكثيرة تناقض إحداها الأخرى مناقضـة عظيمة ومعلمو لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقدة التعاليم المسيحية التى لاتحل ّ ووضعوا تلك العقائد التى تدهش العقول دهشة عظيمة حتى ان العقول السليمة الصافية والقلوب المبصرة تتوق الى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد

مذاهب الكنيسة المسيحية سواء كانت رومية كاثوليكية أو بروتستانية طردتنى مذ طفولتى وانى لأعرف اذا ما كانت عدم ثقتى وأنا غلام صـغير بهذه العقيـدة كما وضعت بسانت اثانسياس أقل ّ قوة من ازدرائى واحتقارى اليوم لهذا الرجل الذى يضع القوانين من أعلى منصة الخطابة ويحكم على الملايين من الرجال بالهلاك الأبدى لأنهم لايوافقونه ، وقد ظهر لى دواما انه من المهم جـدا أن السادة الأشراف المتعلمين اذا أرادوا أن يدخلوا الكنيسة يجب عليهـم أن يشتركوا بسرور وابتهاج فى التسع والثلاثين مقاله المخيفة وهـم يعلمون فى قلوبهم انهم لايستطيعون أن يصدقوا نصف مايضعون أسماءهم تحته

فكرت وصليت أربعين سنة كى أصل الى حل ّ صحيح والرأى السائد عندى هو أن كل تراكيب هذا الدين المزعوم هى من عمل الانسان لامن عمل الله ويجب علىّ أن أعترف أيضا أن زياراتى للشرق ملأتنى احتراما عظيما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لافى أيام الآحاد فقط

الاسلام دين السهولة العظيمة ، انه يرضي أشرف رغبات النفس ولايناقض بأي حال من الأحوال تعاليم موسى أوالمسيح عليهما السلام . انتهى الكلام على الفصل الأول

﴿ الفصل الثاني فيما ذكره العلامة الكونت هنرى دى كاسترى ﴾

(مقدمة)

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية (حوران) بين زرقوم وسجير وخلفى ثلاثون فارسا كريما من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها اذا مسه التالى يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه الى الوراء و يضرب بأرجله فى الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد الى خطاها مطمئنة يسير أمام الكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لايهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مدبح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته الى ارضائه باستعمال ماحفظ الشرق من أسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات وكنت أصغي الى أشعارهم ساعات متتابعة بغيرملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الأطراف غيرتامة المعنى بذاتها فلاتميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشرالغربيين إدراك مراميها ، وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء و يومنا يوم جميل تنشط الأبدان حرارته ويبلغ ضوؤه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعرا بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك إحساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح و يغدو فى أقوال أولئك الشجعان ، و بينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن « سيدى الآن وقت العصر » هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين ، أما أنا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود لوانشقت الأرض فابتلعتنى ، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع ﴿ الله أكبر . الله أكبر ﴾ فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين ، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظا يعبر عنه سببه الحياء والانفعال ، أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم أرفع منى مقاما وأعز نفسا ، ولوانى أطعت نفسى لصحت فيهم « أنا أيضا أعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد » فما أجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسانها على الأرض وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة ، تلك هى الخيل التى كان يحبها النبى ﷺ حبا ذهب به الى انه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام ، وكنت أرى نفسى وحيدا فى عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يبرم فيه الجسم الانسانى بغيراحتشام تلوح على سمات عدم الايمان فى مكان هومسقط رأس الديانات كأننى من الجرأومن الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون الى ربهم صلوات خاشعة تصدرعن قلوب ملئت صدقا وايمانا ، و بينما أنا كذلك إذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله يسكن خيمة سام ويكثرمن أولاد يافث ، وقدكان العريقان مجتمعين فى ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام مجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم ، الله الذى دخل خيمة ابراهيم وأنا ابن يافث الذى يتذكره بالحرب والفتوح ، ولما انتهى بنا الطريق ورجعت الى مكان راحتى جعلت أكتب ماعلق بذهنى من الأفكار فأحسست انى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها أول مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الأكوان وذكرت خيام النصارى حيث لاتعبد فيها غيرالنساء وأخذنى الغضب من كفرأبناء الغرب وقلة إيمانهم

كنت فى سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات و يأخذ الأشياء من ظواهرها و يحل الجبال فيه محل النقد والتنقيب و يعتقد المرء فى الامور بغيرقيد وهوسن لوأنصف أهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت أرى أن جمال الدين

اصدق

أصدق شاهد على أنه الدين الحق وصرت أكتب فى الاسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد

ولوانى اتبعت مجرّد الظواهر وقضيت على الامور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابى ملموما ورمانى المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفى الجزائر من الاوروباويين ، ذلك ان المشتغلين بالاسلام فى هذه الأيام ﴿ فريقان ﴾ المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء ومستعربو الجزائر من الافرنج أيضا ، ومما لاشبهة فيه أن القسم الأوّل قد أفاد العلم أكثر من القسم الثانى فان أعمالهم أنتجت كثيرا من العناصر والمواد التى يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لأن ذلك التاريخ لايزال مع ماتقدّم فى عالم الغيب و بعدهم يأتى مستعر بو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادّة فى العلم وسلامة النظر فى الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين و يفقهون غور أفكارهم و يعلمون حقيقة معيشتهم وكنه ديانتهم معرفة لاتحصل لأحد فى غير تلك البلاد ، و بهذا يرون أن لهم الحق فى أن يكتبوا عن الاسلام كالمستشرقين ، نعم انهم لم يقفوا على جميع ماألفه المسلمون فى الحكمة وعلم الكلام ولكنى لا أرى ذلك نقصا كبيرا إذ معرفة حقيقة الاسلام فى هذا العصر لاتحتاج الى سعة اطلاع دينى ، على أن مطالعة جميع الكتب التى وضعت فى مبدأ ظهور هذا الدين انما تجب على المؤرّخ أكثر من غيره لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثانى عشر حيث أصبح الدين الاسلامى قويا متينا لاتؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين كما أودت بأصول الديانات الأخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا إيمانا لا احتياج لتحكيم العقل فى تحصيله بل هو إيمان وجدانى بسيط قوىّ فى النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد فى الأمم المسيحية إلا عند الفحامين

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التى تخوّلنى حق الكتابة عن الاسلام قبل أن أنشر كتابى هذا ، أنا عاشرت العرب أزمانا طوالا واشتغلت كثيرا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبى مذهب مستعر بى الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوى الاعتبار عفوا ولينا وأطلب منهم قبل كل شئ أن لايجمعوا بينى و بين أولئك الذين يميلون الى العرب فيكتبون عن الاسلام ماتلقفوه أثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولا شعريا حتى إن الموسيو (لوازون) لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات فكان ممن يرى كل شئ فى الشرق جميلا وجاء رأيه فى الاسلام رأى قوّال لا رأى باحث حكيم ، وعليه فلست أقصد بكتابى هذا أن أمجد الاسلام ولكنى لما رأيت انه صار من المسائل الكبرى التى اشتغلت بها أذهان الباحثين فى العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية فى باريس نال بها المسلمون نجاحا أدّى الى أن المسيحيين ومنهم أولاد الصليبيين يساعدونهم بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه الى بعض أغلاط علقت بالأفكار عندنا من حيث النبىّ العربىّ ودينه الاسلامى وهو عمل شاق وموقف حرج إذ من المعلوم كما قيل انه لايرسخ فى الاعتقاد أكثر من خطأ الاعتقاد كذلك أرى انه لا يكفى لأمّة مسيحية متمدينة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها أن تسعى الى معرفة ذلك الدين كما ينبغى فنحن نضحك اشفاقا من سماع الأقاصيص التى نقرأها عن بعض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون وانهم فى بغضهم لنا مخطئون إلا ان المسيحيين هم كذلك فى بغضهم للمسلمين لايعدلون وأشدّ الأوهام رسوخا عندنا بالنظر الى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبىّ ولذلك قصدت أن يكون بحثى أوّلا فى تحقيق شخصيته وتقرير حقيقته الأدبية علنى أجد فى هذا البحث دليلا جديدا على صدقه وأمانته المتفق تقريبا عليها بين جميع مؤرخى الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحى

﴿ صدق سيدنا محمد ﷺ ــ محمد والأغانى المعروفة بأغانى الاشارات ــ محمد والتاريخ ــ أصل الاعتقاد ﴾

(الوحى بالقرآن ــ ليس محمد مبتدعا ــ هل كان على الدوام صديقا ــ وفاته)

كنت كلما بحثت فى الديانات مع صاحب لى من طلبة العلم فى (تلمسان) وأراد الهرب من الجدال يجيبنى

« هم يقولون إن الله واحد وأن محمداً لمن الساحرين » إجابة مملوءة بالاحتقار كما يجيب المعتقد اعتقاداً وثنياً يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغته في احترامي وحسن الصلات بيننا ، وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وأن المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لاينبغي الجدال معهم ولست أدري ما الذي يقوله المسلمون لوعلموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتي في أغاني القوال من المسيحيين بجميع أغانينا حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب في الحرب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين للجهل الكلي بدياناتهم وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان ولايزال بعضها راسخاً الى هذه الأيام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين ، وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم (ماهوم) ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد وهو محمد ﷺ ثم (أبلين) ثم (ترفاجان) وذهبوا الى أن محمداً وضع دينه بادّعائه الالوهية ومن المستغربات قولهم ان محمداً الذي هو عدوّ الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوقنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدّوهم الى أسوار (سرقسطه) عادوا الى أصنامهم فحطموها كما نطق به أحد منشدي ذلك العصر حيث قال ﴿ وكان أبلين إلههم في مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتماً وسباً وصلبوه من يديه في أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضرباً بالعصي حتى هشموه ، وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتمشي عليه وتلك اهانة لم تصب إلهاً قبله ﴾ ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور (كارلوس) بإبادتها لما دخل (سرقسطه) كما جاء في قول ذلك الشاعر وقد أمر الأمبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها (ماهوميد) وجميع الأوثان والأصنام ، وكذلك يقول (ريشار) في أناشيده وهي جملة ﴿ لاشئ من الخراف فيها إلا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين أولئك الذين يعبدون بصورة ماهوم ﴾ ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدّسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين ﴿ قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدّموهم الى ربكم ﴾ وذهبوا الى أن صورة (ماهوم) كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق اتقان . ومن قرأ وصفه في أناشيد رولان كاد يحلف أن ذلك الشاعر انما يصف عن خبر وعيان . يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لوشاهدتها لأيقنت بأنه لايمكن للعقل أن يتصوّر أجمل منها ، عظيمة الشكل ، لطيفة الصنع ، تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالأبصار قد وضع فوق فيل على جلسة من أجل المصنوعات خاوياً من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الأحجار المنيئة ، يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عزّ عن المثال والنظير ، ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسلمون في إحدى غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطلب ربه ، قال الراوون فجاء الإله محمد في موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضرباً يسمع له دوي قاصف وبعضهم يغني بالمزمار والآخر بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع ثم أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذي وصفه بالتجويف وأن لاشئ في باطنه إلا ويرى من الخارج فقال ﴿ وقد وضعوا في جوفه عفريتاً استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون ﴾ ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامي كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي ، فروى (بودوان) في نشيده على الكونتسه (بونيو) لما أرادت أن تعتنق الاسلام أمام صلاح الدين انها قالت ﴿ أريد أن أعبد محمداً فاتوني به فلما صار بين يديها خرت ساجدة

الله

اليه ﴾ ويأخذ القارئ من نشيد آخر يظهر أنه وضع تتمة لأناشيد (بودنوان) وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (بارتوان) و (جوبين) إلا ان الثلاثة الأولين هم الرؤساء ، ولما ردّ أحد قوّاد المسيحيين جيش المسلمين الذي خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين فقال ﴿ وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون وينادون بأعلى أصواتهم يا ترفاجان يا ماهوم ومع ذلك يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى لايرى فيه القارئ رمزا الى محمد بالصنم وهو للقسيس (اسكندروديون) ألفه سنة ١٢٥٨ ميلادية أخذا عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار وعدّ الناس تلك القصة تاريخا صحيحا عن ذلك النبي وقد جاء فيها ﴿ انه من المعلوم أن محمدا كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع ﴾ ثم شبهه بأحد الأمراء المحاط بأتباعه ينشر دينه على أبسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة

ولقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل لأن تاريخ اسكندر المذكور لم يزلها ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل الى أهل هذه الأيام وتشبعت به أفكارهم فى النبى وكتابه

ولو سأل سائل هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة مايقولون لأجابه جواب أهل (نورمندة) لا ونعم إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم فاحتاجوا فى ذلك الى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالأوصاف التى تؤثر فى نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم وأميالهم واذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى الى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين الباحثين فى علم التوحيد الذين يظهر على كتبهم فى ذلك الزمن أنهم ميالون الى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية علاوة بالطعن والشتائم فى نبىّ المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان أيام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحى) أشدّ تعصبا ضده من غيرهم فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهانا على مانقول غير توجيه نظر القارئ الى مطالعة ماجاء فى مقدمة كتاب (ريلان) الذى ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان ﴿ ماهو السبب فى أن الناس عامة لايعرفون من الديانة المحمدية إلا شيأ يسيرا ؟ ﴾ حيث يقول ﴿ لو أراد الباحثون أن يصموا مذهبا أوطريقة بوصمة الخزى والعار نسبوها الى محمد فقالوا مذهب محمدى اوطريقة محمدية وهكذا ﴾

وألف القس (دون مارتينو الفرنسو فيقالدو) كتابا سماه ﴿ سراج الكنيسة المقدسة الذهبى ﴾ جاء فيه أن كتاب محمد لاتلزم قراءته بل يجب أن يسخر به وأن يحتقر ويرمى فى النار أنى وجد ، ولايليق أن يحفظه الناس لأنه عمل بهيمى ، و بعضهم كان لايقول بحرقه ولكنه يرى من العبث أن يجهد الانسان نفسه ويزيد ايلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة منشؤها خيالات شخص اختلّ عقله واضطربت قواه

وأما المسلمون فمن أسمائهم فى تلك الكتب البلدة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والممقوتون الذين يلوثون المنزل بالنساء فى الليل ويطلقونهن فى النهار ، ولو أردت الاطلاع على جعبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين وهو (بروشار) وسماه مرشد السياحة وقدمه الى الأمير (فيليب روقالو) سنة ١٣٣٢ وذكر فيه الأسباب التى تحمله على الدعوى الى حرب صليبية فقال ﴿ من ذا الذى لايذرف عبرات الدمع عند مايعلم أى الرجال هم القابضون اليوم على تلك البقاع التى هى ميراثنا ، أولئك قوم لارب لهم ولادين يهديهم ولاشرع يرجعون اليه ولاعهد ولاحنان ، أولئك قوم أخساء أدنياء وهم أعداء لكل حقيقة فى الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصلب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون فى نسائهم ، الفاسقون الأطفال ، الطاعمون لحم الحيوانات ، المخالفون لطبائع البشر ، القاتلون للفضائل ، المهينون للأخلاق ، العارفون فى القبائح والخطايا . أولئك هم أولياء الشيطان . وأنصار الدنايا . ذوو حقد و بغض .

ذوو أفكار سافلة . وأعمال سخيفة . وعيشة دنيئة . وأقوال بذيئة . وعشرة سوء معدية . لا تنصرف إرادتهم ولا تتجه هممهم إلا الى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع وآذونا فى هذه البقعة الصغيرة التى نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التى هى مهبط شرعنا ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة

ولم يزل هذا الروح سائدا عند المسيحيين حتى ان المستشرق (بريدو) الانكليزى ألف سنة ١٧٢٣ كتابا فى سيرة النبىّ عنوانه ﴿ حياة ذى البدع محمد ﴾ وترجمه بعضهم الى لغتنا وجعل له مقدّمة بين فيها مقصد المؤلف فقال ﴿ إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة المقصد المسيحى الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد ﴾ أولئك كتاب ماقصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة المقصد المسيحى الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد فى تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سبا وشتما وأن يحرفوا فى النقل مهما استطاعوا وأراد (داماسين) أن يخالفهم فى التأليف لكونه تربى فى دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عدّه بدعة فى الديانة المسيحية تقرب من بدعة (أريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته فى رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات فى النبى وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائما فى تأييدها وتمكينها من الأذهان وهى سياسة جعلت الناس عندنا يهزؤن بالدين الاسلامى وأغنت البابوات عن حربه حربا صحيحا فقد كانت الكنيسة اللاتينية فى القرن الثامن مشتغلة بامور أخرى لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضرين هما أحزاب النفس الواحدة فى جسدين وأحزاب النفس فى جسم واحد . ولم يبدأ فى البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع إلا فى زمننا هذا ، ففى القرن التاسع عشر أخذ الباحثون ينظرون الى المسألة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك أن افترق الناس فى القرآن الى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لانزال نرى فى لسان هذا القسم الأخير ماتشم منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية * قال المسيو (دروختى) فى سياحته فى بلاد العرب التى نشرها سنة ١٨٧٨ عن النبى (انه عربىّ خائن دنىء) وقد نسى أن هذه الألفاظ التى يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى . وأوّل مادار البحث فيه مسألة صدق النبى فى رسالته وقد قلنا ان ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتابا منزلا ، ولسنا نحتاج فى إثبات صدق النبىّ الى أكثر من اثبات انه كان مقتنعا بصحة رسالته وحقيقة نبوّته ، أما الغرض من تلك الرسالة فى الأصل فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التى كانت عليها قبيلته مدّة ظهوره . وبيان ذلك أن اسماعيل لما حقت عليه (سارة) وطرد من عائلة أبيه توجه الى بلاد العرب ونقل اليها ديانة أبيه ابراهيم إلا انه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شئ قليل يشبه الخيال إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب ابراهيم هو رب عزيز لا يقبل له شريكا كما حصل ذلك لبنى اسرائيل ولا يزال هذا الاعتقاد يزول شيأ فشيأ ويحل محله عبادة الآلهة التى كانت معروفة فى أمم أخرى حتى تنوسى دين اسماعيل تماما ثم دخلت اليهودية فى بعض القبائل المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق فى تلك البقاع حتى ان (تيث) قس البصرة اعترف فى القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة القالة تمنع من انتشار تلك الديانة فى بحيث جزيرة العرب الى أن قال

ثبت إذن مما تقدم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كتابا مقدسا ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب اليه (اسكندربون) حيث يقول ﴿ انه كان يعرف فى دين اليسوع قراءة وكتابة ﴾ نعم إن البحث عن معرفة المصادر التى عساه يكون تلقى عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التى جاءت بين القرآن وبين التوراة إلا أنه بحث ثانوى إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة لما جرى لنا الأمر بشكل كما كان عليه فى معرفة حقيقة ما اختلج

بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ولقد نعلم أنه مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ، ومن أجل ذلك احتاج الى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدّد الآلهة الذى ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة فى جسمه ﷺ ولكى ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف فى جبل حراء وأرخى العنان لفكره يجول فى بحار التأملات عابدا متهجدا ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التى تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها فى لسان العامة أن الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الأرض اعجابا بجمال الليل فيها وشوقا الى صفاته وجلاله

ولعمرى فيم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين وهو فى ريعان الذكاء ، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيل وقوّة الادراك لا بوضع المقدّمات وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقول مرارا ويعيد تكرارا هذه الكلمات ﴿ الله أحد . الله أحد ﴾ كلمات ردّدها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر فى كلامه على صور مختلفة جاءت فى القرآن — لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد — وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دلّ عليه ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الاسلام ﴿ لا إله إلا الله ﴾

ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزّه عن النقائص يكاد العقل يتصوّره وهو اعتقاد قوىّ يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب ، أولئك حقا هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم ، ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبى ﷺ من مطالعته التوراة والانجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوّته

وأما مسألة الوحى بالقرآن فهى أكثر اشكالا وأكبر تعقيدا لأن الباحثين لم يهتدوا الى حلها حلا مرضيا والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار فى جمالها وكفى رفيع عباراتها لاقناع عمر ابن الخطاب فآمن برب قائلها ، وفاضت أعين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب (سورة آل عمران) وما جاء فى ولادة يحيى وصاح القسس ﴿ إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى ﴾ قال ناقل هذه الرواية (كوزان دى برسوفال) فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفرا وأشار اليه بتلاوة ما فى القرآن عن المسيح ففعل واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل فى أمه مريم ثم تناول قضيبا دقيقا كان أمامه وقال لجعفر ﴿ إن الفرق بين ما سمعناه منك الآن عن عيسى وبين ما تقوله ديانتنا عنه لا يزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب فمنع الحبشة من الاسلام وجعلها مسيحية الى الآن لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معانى القرآن كما هى لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا غير أنه لا ينبغى أن يكون ذلك سببا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب ﴾ ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول ﴿ من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدا ﷺ يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المقنع المشبع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى القلوب والتفت الى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوّة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخرّ ساجدا على الأرض وناداه أيها

النبيّ رسول الله خذ بيدنا الى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والاخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار ﴾ * قال (بولانقيلير) ﴿ إني لأعترف بأنه من الصعب أن يظن الانسان ولا يتحير في أمره أن قوة الفصاحة الانسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصا انها تصدر عالية بغير ضعف أبدا وتحدّد رفيعة معجزة إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء ﴾ وقد أشار المؤلف في كتابه الى الآية الآتية ـ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ـ

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو بنبيّ سلاب كما يقول المسيو (سايوس) نعم قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة في بعض المواضع إلا ان سببه ميسور المعرفة ، ذلك أن محمدا كان يلصق ديانة الاسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما اذا كان مذهبه صحيحا أو موضوعا اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هي ولكن لا نسلم انكار هذه الحقيقة وحينئذ لا عجب اذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع خصوصا اذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما ان النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين

والآن نلخص لك مذهب نبيّ المسلمين في الديانات الثلاث فنقول ﴿ إن دين الأنبياء كان كله واحدا فهم متحدون في المذهب منذ آدم الى محمد وقد نزلت ﴿ ثلاث كتب ﴾ سماوية وهي الزبور والتوراة والقرآن والقرآن بالنسبة الى التوراة كالتوراة بالنسبة الى الزبور أو ان محمدا بالنظر الى عيسى كعيسى بالنظر الى موسى ولكن الأمر الذي تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوي ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبيّ بعد محمد ﷺ ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا ، اذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة فمحمد كعيسى قال انه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله وكان يسمع صوتا من السماء يقول له ـ إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ـ وقال تعالى ـ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ـ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون ـ على أن بعض المشابهات لا تحتاج الى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني اسرائيل وكان يعبد الله الذي عبدوه فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست أنواع الدعاء . إذن لا تمكن أن ننكر على محمد ﷺ في الدور الأول من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه ، فأما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقوّيه على الايمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغا لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب بل ان ما نسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم تكن شعث حال كان كما قال أبو الفداء يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعا خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته

هذا هو النبيّ الذي قال عنه المتشددون من النصارى ﴿ إنه كان مهما يأتي المعيبات في الحالات ﴾ تجرّد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب ولكنه لم يجنح الى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيرا ولا حشما وقد حاز الرفعة والمعالي وبلغ من السلطان منتهاه

ومهما

ومهما اجتهدنا فى ادراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون فلقد وعد ملوك بنى اسرائيل أن يرسل المسيح من أصلابهم ورأينا أن عيسى ولد على غير ماعهدوا . على أن محمدا ﷺ كان يقول عن نفسه انه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران ، وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع ومابه من هول رسالته عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر

هذا ما كان من صدقه وأمانته فى السنين الأولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالأمين . وأما حاله فى بقية مدته بعد أن صار رئيسا سياسيا فالاستدلال عليه أدق وأدعى الى طول البحث والتنقيب * قال ريناردوزى ﴿ يكاد أن يكون من المستحيل الجزم بأن محمدا كان فى آخر حياته يعتقد بصدق رسالته . أما فى الدور الأول فاعتقاده وصدقه لاشك فيهما والأدلة كثيرة من الجانبين ووضع المسألة على هذه الكيفية هو الذى فرّق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى وحجة تبع أمياله ومايشتهى إلا ان الناقد المنصف لايصح له عليه أن يرجح قولا على آخر بدون ملاحظة القرائن التى تتبع الاثنين ، ولكن الناس كما وصفهم المسيو (مونور) محتاجون الى الايقان والاعتقاد وهم فى احتياجهم هذا يميلون الى من يلقى عليهم المسائل كلها كأنها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشئ أونفيه مطلقا بغير تثبت ولادليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير انى أقول انه بفرض صحة المذهبين وان صدق النبى فى آخر حياته وعدمه سيان فى الوضوح والدليل فلايزال عندنا سبيل آخر للوصول الى الحقيقة أوالقرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها وهذا العلم وان لم يبلغ بعد الدرجة التى تزيل كل شبهة علقت بالأفكار لكنه مع ذلك يوصلنا الى الايقان بأن من الأنبياء من لايتيسر للباحثين أن يجزموا بشئ فى أمرهم كأن يؤكدوا أنهم صادقون أوانهم جروا فى أعمالهم على مايخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون ، ومامن كاتب ولاباحث يستطيع أن يجزم بأن الأمبراطور (كونستنتان) الذى رفعه القسس مكانا عليا فى المعابد واختصوه بالمواهب الإلهية كان صادقا بعد انتصاره فى قنطرة (ميلفيوس) ولكن محمدا قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها و بين عبادة الواحد الأحد كما فعل الملك الرومانى وايمانه كان حقا ثابتا على الدوام ، لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولوانه جال بفكره ساعة من زمانه شك فى صدق رسالته لكفى بتصره الدائم منزيلا لهذه الغمة ومؤيدا له فى صحة صوته وصدق رسالته ﴾

وفى الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطؤن ، ولقد عانى محمد ﷺ كثيرا مع نبى قومه إذ كانوا منكرين ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين ، نحن لانصدق بما يقولون بل نرى أن قومه كانوا فى استعمال أمانته من المتطرفين ، ولئن أعجم لهم القول حينا فى مخاطبتهم فذلك لأنه يعز وجود من يحب الحق ولاتلجئه الحوادث الى الاعجام طلبا لتقريره فى ذهن قوم جامدين . إن الذين ينكرون صدق محمد فى آخر حياته لايستطيعون أن ينكروا عليه انه بقى الى آخر لحظه منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا موقنا بأداء رسالته فلقد اتفق مؤرخوالعرب طرا على الحوادث التى تخللت أيامه الأخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لايتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وأمانتهم فى نقلهم ، ولولا زيغ المتشددين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا ﴿ إن محمدا قد مات تنهشه الخنازير إذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير ﴾ تلك جريمة لا تغتفر ، ومما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح فى تاريخ الحرب الصليبية الأولى لمؤلفه (جيبردى نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لايميلون الى التحريف غير انه أتى بهذه الاكذوبة وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبى فى كتب المؤرخين الصادقين

لما قربت المنية خارت قواه وخرج الى الحج بمكة فى شهر مارس سنة (٦٣٢) ميلادية وهى حجة الوداع

وخطب فى الناس على منبر المسجد المقدّس فقال ﴿ ربّ انى أدّيت رسالتى و بلغت أمانتى اليوم قال الله تعالى ـ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلاتخشوهم واخشون * اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ـ ثم رجع الى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضا من زوجاته ، ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع اليه شيأ منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مقدارا يسيرا لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب فى سنة ولما أفاق سألها عما اذا كانت أنفذت أمره أم لا فأجابته : كلا . فأمر بالنقود وأشار الى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال الآن استراح قلبي فانى كنت أخشى أن ألاقى ربى وأنا أملك هذا المال ، وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هوالثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة فتوكأ على الفضل بن العباس وعلىّ بن أبى طالب وقصد منبرالخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال « أيها الذين تسمعون قولى إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضرب به ، وان كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وان كنت سلبت أحدا ماله فاليه مالى فليقتص منه وهو فى حلّ من غضبى فان الغلّ بعيد عن قلبى » ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم دينا له فأداها على الفور قائلا « لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة » ثم دعا لمن حارب معه فى (أحد) وسأل الله لهم الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبىّ بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك انه لما كان فى واقعة خيبر قدمت اليه يهودية اسمها (زينب) شاة مشوية أضافت اليها سما فأخذ منه النبى ﷺ قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول « مازالت تعاودنى أكلة خيبر » وكان أبو بكر نفسه يبكى ويقول للرسول « هلا افتدينا روحك بأرواحنا » ثم أوصله الصحابة الى بيت عائشة واضطجع تعبا مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قدجاء وقت الظهر فأشار الى أبى بكر ليصلى بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبى بكر بعد النبى ﷺ وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت كانت رأس رسول الله ﷺ مستندة الى صدرى و تقربه قدرماء وكان يقوم ليضع فيها يده و يمسح جبينه و يقول « ربّ أعنى على تحمل سكرات الموت أدن منى ياجبريل ، ربّ اغفر لى واجمع بينى و بين أصدقائى فى السماء » ثم ثقلت رأسه ومال ثانية الى صدرى

أما مخلفاته فبيت بناه بيده و بضع نياق آلت الى بيت المال لأنه عليه الصلاة والسلام قال « نحن معاشر الأنبياء لانورث » والى هنا نقصر القول عن ذات النبى فما أردنا أن نطيل فيها إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين إذ الدين يدعو الى الدين وكان من الواجب دقة البحث عن اعتقاده ﷺ قبل أن نتتبع دينه كيف انتشر ولايزال ينتشر فى الوجود

﴿ الاسلام فى زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

قال القديس (بولص) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان أدلة ليؤمنوا ، وأما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة إذ النبى كان يقول لجلسائه على الدوام انه آدمى مثلهم وانه مرسل اليهم وانه مجرد عن كل سلطان فى المعجزات ـ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الىّ أنما إلهكم إله واحد ـ قل لا أملك لنفسى نفعا ولاضرا إلا ماشاء الله ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون ـ

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالأمة التى بعث فيها الا اننا رأينا الاسلام

فى واقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الأنصار إلا ثلثمائة وأربعة عشر نفرا فلم يمض عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال (الالب) وتوسط البلاد الفرنساوية ، وقد أسلمت الشام والعجم ومصر و بلاد الغرب من مراكش الى الجزائر الى تونس الى طرابلس ، نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب فى العمل كثير واضطهاد للناس كبير شأن كل ديانة عامّة فى مبدإ ظهورها ولكن الاسلام لم يلبث أن تغلب على أكبر العثرات فمهد الصعاب حتى صار لايعرف حاجزا ولامانعا

وما أشبه الدين فى انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة ﴿ مؤثرين ﴾ مؤثر داخلى يسمى المقاوم ومؤثر خارجى وهو المحرّك والأوّل خفىّ لايظهر أثره وان كان هو الذى يلتقط جميع الحرارة الواصلة الى الجسم فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء المؤثر الخارجى فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذى يسمى تبخرا وقد احتاج الاسلام فى الانتشار الى التغلب على قوّة العوائد والتقاليد التى وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد إلا انه كان قويا للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم واعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جدا أن يعتنقوا دينا يرى آباءهم غير مطهرين ، ومن الموانع التى قوّت العرب فى استعصائهم على الاسلام ما اشتمل عليه من مبدإ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود ، فالقول بالمساواة بين الناس طرا أمامه كان ثقيلا على آذان العرب مخالفا لتقاليدهم الأوّلية حتى يدينوا اليه بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٢٣ ميلادية أيام وفاة النبى لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب إلا انه كان بين المسلمين الأوّلين رجال من العظماء اعترف بفضلهم الأب (بروغلى) حيث قال ﴿ إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء فأحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وعدل وقناعة وفضل وشدّة عزيمة وكانا أرفع قدرا وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما ﴾

ومن الغريب أن الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات إلا ماقابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدّمنا كانوا مدفوعين الى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحرّيتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل المشورة . وهم رحل فى الوديان غيورون على اطلاقهم فى الفلوات . لايعرفون من الحكم إلا سواق الماشية على المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن وتكوين أمّة واحدة منهم أكبر عقبة قامت فى وجه النبى ﷺ ولولا قوّة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمنا طويلا إلا أنها لم تدم إلا وقتا وعادت بعد ذلك الى التفرّق والانقسام ، غير أن القبائل بعد تفرّق وحدتها لاتزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذا المقام الأوّل بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب الى عائلة من عائلات الجزيرة خصوصا عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع ، وهذا هو السبب فى اطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدّن كذا عربى مع انه لا جامعة بينها و بين بلاد العرب سوى الاسلام . انتهى الكلام على الفصل الثانى

﴿ الفصل الثالث فيما ذكره العلامة توماس كارليل ﴾

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصل الى مايظنّ من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خدّاع مزوّر وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فان الرساله التى أدّاها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظنّ أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والاحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا واذا كان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج و يصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضاوله كان الأولى بها أن لاتخلق

فوا أسفاه ما أسوأ مثل هذا الزعم وما أضعف أهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة (و بعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لايصدق شيأ البتة من أقوال أولئك السفهاء فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا و ينشره ، عجبا والله إن الرجل الكاذب لايقدر أن يبنى بيتا من الطوب ، فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وانما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائة مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وانى لأعلم انه على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة والا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، كذب والله مايذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقا وزور و باطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل وانما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به ، وأى مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح بملء أفواهها « هذه الأوراق كاذبة »

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا فانى أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومحمدة ، وعندى أنه مامن رجل كبير (ميرابو) أو (نابليون) أو (بارنز) أو (كرمويل) كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أوّل باعثاته على محاوله مايحاول أعنى انه رجل صادق النية جادّ مخلص قبل كل شئ بل أقول إن الاخلاص (الاخلاص الحر العميق الكبير) هو أوّل خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه . كلا . فان هذا حقير جدا وأيم الله ، هذا اخلاص سطحى وقح وهو فى الغالب غرور وفتنة انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لايستطيع أن يتحدّث به صاحبه . كلا . ولايشعر به بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم إن الرجل الكبير لايفخر باخلاصه قط بل هو لايسأل نفسه أهى مخلصة ‹ أو بعبارة أخرى › أقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لايستطيع أن يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أوّل أسباب عظمته ، هو يرى الكون ، مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة وهذه الحقيقة لاتفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية بل ماثل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لاشك فيها ولاريب ها هى هاهى

فاعرفوا هذا كم الله أن هذه هى أوّل صفات العظيم وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل انسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا اى الجوهر كريم العنصر فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا ، ثم دل بعد ذلك بكلام هذا نصه بالحرف الواحد كالذى قاله نحن نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، نعم هو يرى باطن كل شئ لايحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والعقائد و... الأوهام والآراء ، وكيف وان الحقيقة اذ طلع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ، ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو ... أو فارسا أو ملكا ، ألا ترى الها ضربا

من الوحى والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دلّ الله على وجوده بعدّة آيات أرى أن أحدثها وأجدّها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى اليه قبل كل شئ . وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرّع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك أوسلطان أوغير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التى أدّاها إلا حقا صراحا ، وما كلمه إلا صوتا صادقا صادرا من العالم المجهول . كلا. ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين

كانت عرب الجاهلية أمّة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم و بين جفاء منظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء وكان الاعرابى صامتا لايتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جرة النهار طوله ويكافح بحر وجهه نفحات القمر ليله

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت * فيضحى واما بالعشى فيخصر

ولاأحسب أناسا شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة و يناجون أسرارها الا انهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبى النظر واذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب لاشك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوّة ادارتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيك أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه و ينحر له فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لايحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص ، وكان العربى أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح ، و يزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة انهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد عليه السلام منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية فكان الأعراب الجفاة ذووالطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد و يجدون لرناتها أى لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش و يتهالكون

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائيليين واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ألا وهى التدين فانهم مذ كانوا مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على عظمته . فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه فان مصنوعات الله مابرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . ألسنا كما قدّمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أوأسرار الجمال الشعرى كما اصطلح الناس على تسميته . وقد كان لهؤلاء العرب عدّة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ماينبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدّد . وأى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين . وقد اتفق النقاد أن (سفر أيوب) أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدّس قد كتب فى بلاد العرب ورأيى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه انه من أشرف ماسطر براع ودوّنت يد كاتب . ولايكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموّها عمومية تخالف التعصب والتحيز

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد النبى محمد عليه السلام عام (٥٨٠) ميلادية وكان من أسرة

هاشم من قبيلة قريش وقدمات أبوه عقب مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا بارا ، وكان ابنه عبدالله أحب أولاده اليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه (وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل) على أحسن نظام عربى

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذلك الذى حدث قبل هذا التاريخ بضع سنين (رحلة الى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره) أعنى الديانة المسيحية وانى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ، ولاماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما فان محمدا لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولاشك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولايفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشؤون فأقامت فى ثنايا ضميره ولوغير مفهومة ربما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة

ثم لاننسى شيأ آخر وهو انه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ماوفق الى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية . وعجيب وأيم الله أمية محمد . نعم انه لم يعرف من العالم ولامن علومه إلاماتيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزربه انه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولاحديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ولم يقتبس محمد من نور أى انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء (أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور) من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وانما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه (الأمين) رجل الصدق والوفاء . الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا انه مامن كلمة تخرج من فيه إلاوفيها حكمة بليغة . وانى لأعرف عنه انه كان كثير الصمت . يسكت حيث لاموجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة . لايتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينه وهكذا يكون الكلام والافلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدإ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رؤفا تقيا فاضلا حرا . رجلا شديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامه مشرقة من فؤاد صادق لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله . هؤلاء لايستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىء الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلألآن . وانى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينتفخ ويسود فى حال غضبه (كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت) وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا النبى حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان

عادلا صادق النية ، كان ذكىّ اللب شهم الفؤاد

لوذعيا كأنما بين جنبيـه مصابيح كل ليـل بهيم

ممتلئا نارا ونورا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقه مدرسة ولاهذبه معلم وهوغنىّ عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدّى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء

الى أن قال (ويزعم المتعصبون من النصارى والملاحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا . وأيم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير (ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وإربة ونهى) أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لايمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادّين ، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة و يسيرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمدا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الامور والكائنات ، لقد كان سرّ الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره لم يك هنالك من الأباطيل مايحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هاأناذا » فمثل هذا الاخلاص لايخلو من معنى إلهى مقدّس ، وما كلمة مثل هـذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء وكل قول جفاء ومازال منذ الأعوام الطوال منذ أيام رحله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار ، ماذا أنا ؟ وماذلك الشئ العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وماهى الحياة ؟ وماهو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعـل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء أوشمارخ طود الطور أوتلك القفار والفلوات . كلا . ولاقبة الفلك الدوّار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة لم يجبه لاهذا ولاذاك وما الجواب عن ذلك إلا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سره ، وهذا ماينبغى لكل انسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحسّ ذلك الرجل القفرى أن هذه هى كبرى المسائل وأهم الامور وكل شئ عديم الأهمية فى جانبها ، وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أوفى روايات اليهود المبهمة أونظام وثنية العرب الفاسد لم يجده . وقد قلت إن أهم خصائص البطل وأوّل صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن . فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فيغبنها جيدة كانت أورديئة وكان يقول فى نفسه « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شئ ماهى إلا رمز له واشارة اليه والافهى باطل وزور وقطع من الخشب لاتضر ولا تنفع » وما لهذا الرجل والأصنام وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ولوعبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير . أى خير له فى هذه ولوعبدها الناس كافة ؟ انه فى واد وهم فى واد . هم يعمهون فى ضلالهم وهو مائل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقه الهائلة فإما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يامحمد . أجب لابدمن أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هوالذى أقام محمدا وأثاره . حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أىّ فائدة لمثل هـذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع مابالأرض من تيجان وصولجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أوفى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة . كلا . إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل ان محمدا كاذب ونعدّ موافقتهم عارا وسبة وسخافة وحمقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع الى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم ونعمت العادة ما أجلّ وأنفع ولاسيما لرجل كمحمد لقد كان يخلوالى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية .

أجل حبذا تلك عادة ونعمت . فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا الى نفسه فى غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى اذا هو قد خرج الى (خديجة) ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر وانه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء وأن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ماسواه باطل، خلقنا ويرزقنا ومانحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدي والرونق السرمدى ، الله أكبر ولله الحمد ثم الاسلام وهو أن نسلم الأمر لله ونذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه وأن القوة كل القوة هى فى الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته ، أية كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه باسم ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لا خير إلا هو ، ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جايتى) « اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا إذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم » وقد ماقيل « إن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة (فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها) بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة هى خير مايقع للانسان وأفضل مايناله وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وانه من الافن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله بل عليه أن يعتقد أن الكون قانونا عادلا وان غاب عن ادراكه وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة ، ثم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكوت وتقوى »

الى أن قال « وجعل يذكر رسالته هذا ولذلك فما كان يصادف إلا جمودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وانه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علي وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة انه ذلك النصير والظهير . ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبوطالب عم محمد وأبوعلي ولكن رؤية رجل كهل أمي بعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر أما علي فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أوصى فى قاتله « إن أعش فالأمر الي وان أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وان تعفوا أقرب للتقوى »

الى أن قال « فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعا وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر الى (يثرب) حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن (المدينة) أى مدينة النبى ﷺ وهى من مكة على (٢٠٠) ميل تقوم وسط صخور وقفار ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق (٦٢٢) ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد فترون انه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا وكان أصحابه يموتون واحدا بعد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر

بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عواس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات وهكذا شأن كل انسان فى مثل هذه الأحوال وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلاينطق بالرسالة عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول « واما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن » وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرّم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والاناة فأبوا إلاعتوّا وطغيانا، فليجعل الأمر إذن الى الحسام المهند والوشيج القويم والى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشرسنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولامدر" فواق وكانت النتيجة ما تعلمون ﴾

﴿ ولقد قيل كثيرا فى شأن نشرمحمد دينه بالسيف فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا فهم يقولون « ما كان الدين لينتشر لولا السيف » ولكن ماهو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق والرأى الجديد أوّل ماينشأ يكون فى رأس رجل واحد ، فالذى يعتقده هو فرد ، فرد ضد العالم أجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا وحسبكم مافعل (شارلمان) بقبائل السكسون ، وأنا لا أحفل أكان انتشارالحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط أن تفنى ماهوخيرمنها بل ماهو أحط وأدنى فانها حرب لاحكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط وماكان أعمق جذرا فى الحق وأذهب اعراقا فى الطبيعة فذلك هوالذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده ﴾

الى أن قال ﴿ نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولونظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ، تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا ، على انه قد كان فيها عنصرمن الحق ولكنه ضئيل جدا و بفضله فقط آمن الناس بها وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى" بين الاصلاء ولكنها ضرب حى" على كل حال ذوحياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة ، ونظرمحمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم و براهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ، نظرابن القفار والصحارى بقلبه البصيرالصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه « الوثنية باطل وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضر" ولاتنفع وهى منكر وفظيع وكفر لوتعلمون ، انما الحق أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له خلقنا و بيده حياتكم وموتكم وهوأرأف بكم منكم وما أصابكم من شئ فهو خير لكم لوكنتم تفقهون »

وأن دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم المارية لجديرأن يكون حقا وجديرأن يصدق به وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشئ الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به وهذا الشئ هو روح جميع الأديان ، روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شئ واحد ، و باتباع هذه الروح يصبح الانسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر (الكون) جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها و يدافعها ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السيرعلى منهاج

الدنيا فإن الفلاح فى ذلك (إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر . أما انه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن انتاجها واعماهو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل مالم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب

أما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لاعجب اذا قلت ان الأوروبى يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لايزال يقطع فى صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلام لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة . أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته و بين أذواقهم من الملاءمة ولأنه لاترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه أتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع فى شؤن الحياة ومسائلها والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتفاسمه ثلاثون قارئا على التوالى وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الالوف من خلق الله وفى أفواههم اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة * ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة . اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم (براديه) وأمثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل ، والقرآن لو تبصرون ماهو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال فى الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لاتكاد تجد مخرجا وقل مانطق به فى جانب ماكان يجيش بنفسه العظيمة القويه

هذا وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتمبيق الكلم ، و يالها من خطوب كانت تطيح به وتطير فقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ، حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهاج نفسه وثورانها ، كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرساله قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تململ طول الليل الساهر يطمو بها الوجد و يرسب وتدور بها دوامات الفكر حتى اذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه (كذا) . يرعم الأفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال . كلا . ثم كلا . ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ . لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة . والاخلاص المحض الصراح يظهر لى انه فضيلة القرآن التى حببته الى العربى المتوحش وهى أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهى منشأ فضائل غيرها بل لاشئ غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر (١) يجرى فيه من بداينه الى نهايته ثم يتخلله نظرات ناقدات . نظرات نبى وحكيم .

(١) أى البلاغة

أجل لقد كان لمحمد فى شؤن الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع فى أذهاننا كل ما أبصره ذهنه . أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبها ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الامور فهذا أعظم مايلذنى ويعجبنى وهوما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء

وكان محمد ﷺ اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال « حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كأرد أسود ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحوّل الكلأ لبنا وهى فخر لكم ، والسفن (وكثيرا مايذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح ، و بينا تسير اذا هى قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأى معجزات بعدها تريدون . ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ثم لكم جمال وقوّة وعقل ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات وتهرمون و يأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غيرموجودين ثم وهبكم الرحمة ، لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ » هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ، وكذلك أرى فى محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا ، لوشاء لكان شاعرا فحلا أوفارسا بطلا أوملكا جليلا أوأى صنف من أصناف البطل . نعم لقد كان العالم فى نظره معجزة أىّ معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو أن هذا الكون الصلب المادّى انما هوفى الحقيقه لاشئ . انما هوآية على وجود الله ، منظورة ملموسة . وهوظلّ علقه الله على صدر الفضاء لاغير . وكان يقول « هذه الجبال الشامخات ستنحل وتذوب مثل السحاب وتفنى » وكان يقول « الجبال أوتاد الأرض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وأن الأرض فى ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شئ وامتلاء كل مكان بقوّة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هوالقوّة الصادقة والجوهر والحقيقة » وهذا مايسميه علماء العصر (القوى والمادّة) ولايرونه شيأ مقدسا بل لايرونه شيأ واحدا وانما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل فى تسيير السفن البخارية فسرعان ماتنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن فى الكائنات من سرّ الله وما أفحش ذلك النسيان عارا وأكبرهذه الغفلة إثما ؟ واذا نسينا ذلك فأى الامور يستحق الذكر . إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة . نعم وما أحسب العلوم لولاذلك إلاخشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولابالغابة الكثيفة الملتفة التى لاتبرح تمدّك بالخشب أثر الخشب فيما تمدّك وتعطيك . ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أوّلا الى العبادة أعنى انه لاعلم إلا لمن عبد والا فما العلم إلاشقشقة كاذبة و بقلة كما قلت ذابلة

الى أن قال « وما كان محمد أخا شهوات برغم ماأتهم به ظلما وعدوانا . وشد مانجور ونخطئ اذا حسبناه رجلا شهويا لاهمّ له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا . فما أبعد ما كان بينه و بين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار . وانهم ليذكرون ونعم مايذكرون انه كان يصلح و يرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد فى الله قائم النهار ساهر الليل دائبا فى نشر دين الله غيرطامح الى مايطمح اليه أصاغر الرجال من رتبة أودولة أوسلطان غيرمتطلع

الى ذ كرأوشهرة كيفما كانت . رجل عظيم ورب بكم والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وا كبارا واعظاما وما كان تمكنه أن يقودهم و يعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة و بادرة وعجرفية وكانوا سماة الانوف ، أباة الضيم ، وعرالمقادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولاأذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ، وظنى انه لوكان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار مانا له محمد فى ثو به المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال ، وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعدالى ر به ولا تحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله ، كلا . بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزىء غلامه « العين تدمع . والقلب يوجع . ولانقول مايسخط الرّب » ولما استشهد مولاه زيد (ابن حارثة) فى فى غزوة (مؤتة) قال محمد « لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده وقد لقى الله اليوم فلابأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها . وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه المشيب يذوب قلبه دمعا فقالت ماذا أرى ؟ قال صديقا يبكى صديقه

مثل هذه الأقوال وهذه الأعمال تر ينا فى محمد أخا الانسانية الرحيم . أخانا جميعا الرؤف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الأول . وانى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الر ياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لايعوّل إلا على نفسه ولايدّعى ماليس فيه ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا فهوقائم فى ثو به المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحرّ المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لايعتذر من الأولى ولايفتخر بالثانية إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولاشعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لايؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر (يوم تبوك) إذ أبى رجاله السيرالى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد و بالحر فقال لهم الحصيد انه لايلبث إلا يوما فماذا تتزوّدون للآخرة والحر ؟ نعم انه حر ولكن جهنم أشدّ حرا (ور بما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية) إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم و يوزن لكم الجزاء ثم لاتبخسون مثقال ذرّة

وما كان محمد بعابث قط ولاشاب شيأ من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء و بقاء ولم يك منه إزاءها إلا الاخلاص الشديد والجدّ المرّ . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل مايستنكر من مثل هذا الانسان هوأن جميع أقواله وأعماله أكاذيب بل انه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف (شعاع الله) متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت فهو رجل كاذب لا أنكر انه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لاتؤذيك بادرته لين الملمس رقيق الملمس كمحض الكربون تراه على لطفه سما نقيعا وموتا ذريعا . وفى الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس فى الاسلام سواء والاسلام لايكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزأ من أر بعين من الثروة تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكو بين . جميل والله

كل

كل هذا وماهو إلاصوت الانسانية . صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل (ابن القفار والصحراء) . وينكر البعض تغلب الحسية والمادّية على جنة محمد وناره فأقول « إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لاعلى ماجاء فى الكتاب فان القرآن قد أقلّ جدا من اسناد الحسيات والمادّيات الى الجنة والنار ، وكل مافيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولاعذابا بدنيا وألما جثمانيا حتى أسندوه الى النار ، ثم لاتنسوا أن القرآن جعل أكبرملاذ الجنة روحانيا إذ قال — وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين — فالسلام والامن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشئ الذى عبثا يتلمسه الانسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا — ونزعنا مافى صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين — وأىّ رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شئ أهنأ من التآلف والتصافى ، وأى دليل أشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها . وهذا هومنتهى العقل والحزم فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكرهوأن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ، ولعلّ أمجد الخصال وأشرف المكارم هوأن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وأن لايجعل من لذاته سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه اذاهمّ أن يصدعها بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولاأسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أوكان وحى الغريزة وإلهامها فطريا فهو والله نعم الأمر . ويمكننا القول على كل حال أن الجنة والنار هاتين هما رمزلحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثل ماصادفت فى القرآن ، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها — يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى — ماذا ترون كل هذه إلاظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب وجسامة أمره ، لقد كان هذا النبى يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لكل عمل انسانى مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سيء فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وأن المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار . وكل ذلك قد حاول فى أشدّ اخلاص وأحدّ جدّ أن يخرجه للناس ويصوّره لهم فأخرجه وصوّره فى صورة تلكم النار والجنة . وأىّ ثوب لبسته هذه الحقيقة ، وأى قالب صبت فيه فلاتزال أولى الحقائق مقدّسة فى أى أسلوب وأى صورة . وعلى كل حال فهذا الدين فيه للبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ولاتبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهوالدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارّة (من السائر؟) فيجيبه السائر (لاإله إلا الله) وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيمة وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية الهند والصين والملاى فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم مايفعلون . ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة وهل كانت إلا فئة من جوّالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لايسمع لها صوت ولاتحسّ منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فاذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوّة والشرارة حريقا . وسع نوره الأنحاء وعمّ ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب

والمشرق بالمغرب ، وماهو إلاقرن بعد هـذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنورالفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهـدى على نصف المعمورة ، وكذلك الايمـان عظيم وهومبعث الحياة ومنبع القوّة ، ومازال للأمّة رقى فى درج الفضل وتعريج الى ذرى المجد مادام مذهبهااليقين ومنهاجهاالايمـان ، ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومجدهم وعصرهم كأنمـا قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لايبصر بها فضل ولايرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وماهى برمل ميت واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى . ولطالمـا قلت ان الرجـل العظيم كالشهاب من السماء وسائرالناس فى انتظاره كالحطب فمـا هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا . والى هنا تمّ الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين

(من هو توماس كارليل)

(من كتاب السيد عبد الرحمن البرقوقى مترجم هذا الفصل)

ولد (توماس كارليل) فى قرية (اكلفكان) باقليم (اناندال) بجنوبى (اسكوتلانده) لأربع خلون من شهر تشرين سنة ١٧٩٥ وذلك قبـل نهضة (نابليون) لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة (روبرت بارنز) شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر ولوأنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لـكان رجلا انكليزيا وكان أبوه بناء و بيديه بنى البيت الذى ولد فيه ابنه . دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوّة نفسه . وكان قليل الـكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولـكنه ليس بفظ ولاغليظ فـكأن قلبه بمر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه أن تجاور

* خلائق اصغار من المجد خيب *

﴿ جوهرتان ﴾

﴿ الجوهرة الأولى ﴾ فى ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات التى نحن بصددها

﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى ثناء المؤلف على الله وحمده له على نعمة العلم

﴿ الجوهرة الأولى ﴾

إن الآيات التى نحن بصددها هى قوله تعالى ــ وكذلك أنزلنا اليك الـكتاب ــ الى قوله ــ أولئك هم الخاسرون ــ فقوله تعالى ــ وكذلك أنزلنا اليك الـكتاب فالذين آتيناهم الـكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الـكافرون ــ قد ظهرت آثارها فى هؤلاء المؤمنين من المسيحيين وهم (اللورد هيدلى) و (الـكونت هنرى دى كاسترى) و (توماس كارليل)

وأما قوله تعالى ــ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون ــ فهذا قد ظهر ظهورا واضحا فى كلام العـلامة (الـكونت هنرى) إذ قال ﴿ إن محمدا ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا « نبيا أميا » وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولاشك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العـلم بحيث لايعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والـكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارئ أوكاتب سوى رجل واحد ذكره (جاسين دى ناسى) فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤ م ﴾ الى أن قال ﴿ ثبت إذن ممـا تقدّم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كتابا مقدّسا الخ ﴾ وانظر الى ماقاله (توماس كارليل) قال ﴿ ثم لانسى شيأ آخر وهوأنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا ﴾ الى آخرماتقدم وقوله تعالى ــ بل هوآيات بينات فى صدورالذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون * وقالوا لولاأنزل عليه آيات من ربه قل انمـا الآيات عند الله وانمـا أنا نذير مبين * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الـكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى و بينكم شهيدا

يعلم ما فى السموات والأرض ـ الخ فان هذا ظاهر فى كلام هؤلاء المؤمنين من علماء النصارى . ألاترى الى ماذكره (توماس كارليل) فيما تقدّم قال ﴿ وكان محمد اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح بمائه ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا ، أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحوّل الكلأ لبنا وهى تغزلكم ، والسفن (وكثيرا مايذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير اذا هى قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأىّ معجزات بعدها تريدون ، ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوّة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين . ثم وهبكم الرحمة . لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا يكون أمرهم . هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة ﴾ اهـ

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى ـ قل انما الآيات عند الله ـ وقوله ـ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ـ الخ

﴿ يامعشر المسلمين ﴾

أليس هذا هو الذى قلته لكم فى هذا التفسير . هذا التفسير ميزته الخاصة أنه يوجه هممكم الى معرفة هذه الدنيا ومخلوقات الله تعالى فأنظر فأجد هذا العالم الفرنجى يقول إن معجزة محمد هو هذا الكون والنظر فيه . إن هذا العالم لم يقيد عقله كما قيدت عقول آبائنا المتأخرين فى الاسلام الذين تركوا الكون ظهريا وراءهم واكتفوا بعلم الفقه . أليس هذا هو الذى أناديكم به فى هذا التفسير . امتاز هؤلاء العلماء بأنهم ينظرون للقرآن نظرا مجردا فحكموا بأن معجزة النبى ﷺ هو الكون أما نحن فى القرون المتأخرة فقد أغمضنا أعيننا ولم ننظر للكون واكتفينا بكلمات جدلية فى علم التوحيد والحمد لله قد آن لنا أن نرجع الى القرآن كما قدّمت وقد بينت فى هذا التفسير أن فى القرآن (٧٥٠) آية فى وصف الكون وهذا كله هو المعجزة الحقيقية لا الاكتفاء بما جاء فى كتاب الشفاء للقاضى عياض وغيره . فنظر المسلمين فى الكون هو الذى يجب العامة به

ياسبحان الله . هل نبينا ﷺ يحتاج فى أداء رسالته الى جميع تلك الخوارق وان كان حصل بعضها بل معجزاته باقية هى القرآن والكون

ومن أعجب العجب انك ترى صديقنا (اللورد هيدلى) يشكو مرّ الشكوى من القسيسين ويقول هم يأكلون أموال الناس بالباطل ويقرأ ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ـ فهذا هو العجب أن نرى حقيقة أن دين الاسلام قد جاء لاصلاح الأمم جميعها بشهادة هؤلاء الأفاضل الذين عرفوا حقائق لم تكن لتخطر بالبال . هذه هى المعجزات التى لاتفنى بل تتجدّد بتجدّد الزمان اهـ

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة وأشهد انك أجبت دعائى وأعطيتنى أجل ما أتمنى فى الحياة . فهل كان يدور بخلدى وأنا شاب أطوف على شواطئ الأنهار وفى الخلوات وفى الحقول وأبحث فى هذه الدنيا الجميلة . دنياك البديعة . دنياك المملوءة زينة وبهجة وجمالا . أقول هل كان يدور بخلدى أن السؤالين اللذين كنت أسألكهما قد أجبتهما إجابة تامة وهما هل العالم منظم حتى أعرف أن له صانعا وماذا يقول أهل أوروبا فى وجودك . هل هم يقولون إنك موجود لأنى رأيت هم تفوّقوا على المسلمين . فهل هؤلاء الذين فاقوا الشرقيين يعرفون أن للكون صانعا . هذان هما السؤالان اللذان كنت فى شبابى أثناء انقطاعى من الجامع الأزهر فى شغل بهما كما ذكرته مرارا فى هذا التفسير . وهناك سؤال ثالث وهو لماذا تأخرت أمم الاسلام . هذه هى

الأسئلة الثلاثة التي كانت ترد على خاطرى وذهبت بلبي وأقضت مضجعي وحرمتني النوم في أكثر الأوقات والآن أقول وأصرح بأعلى صوتي انى عرفت أن العالم منظم وله صانع وهذا التفسير هو الذى جمع أجل ما اطلعت عليه ووقفت به ، وما أسعد حظى إذ كتبت فيه ماسمعته الآن أيها الذكى من آراء علمائهم وكيف أدركوا أن الديانات التي تقدمت الاسلام مرتبكة ضائعة ، أفلا أكون الآن سعيدا اذ كتبت فى هذه الآيات ما أبان أن المسيحيين يعتنقون الاسلام و بأى سبب أسلموا ، وكيف أدركوا حقائق الاسلام ، وكيف يقول اللورد هيدلى انه الآن سعيد لأن الله معه فى كل حركاته وسكناته ، وكيف يبرهن الاستاذ (توماس كارليل) ومثله (هنرى) الفرنسى أن دين الاسلام هو الحق وهو يعلو ولا يعلى عليه ، وكيف نرى أن المسيحيين فى زماننا قوم لايفكرون مطلقا فى حقائق الديانات ويسيرون تبع القسيسين بلا تفكير . إنى أعلن اليوم أنى قد نلت ما كنت أطلبه من الله وهو الوقوف على حقائق نظام الدنيا بقدر طاقتى البشرية واطلاعى على آراء الأمم المحيطة بنا فى الديانات وما الحق منها ثم ادراجى فى هذا التفسير بنور الاصلاح والاسعاد لأمم الاسلام وأنا موقن أن الذى نصرنى فى أدوار حياتى وأنالنى ما أتمنى من تلك الآمال الثلاثة هو الذى سينصر أمم الاسلام بعد قراءتهم أمثال هذا التفسير وستتغير خريطة الأرض ذلا وعزا وسعادة وشقاء ، ثم أقول من ذا الذى كان يظن أن أوروبا التى ملأت الآفاق بمدارسها وعلومها تكون عقول رجالها نائمة الى هذا الحد ، فانظر مايقوله (اللورد هيدلى) فيمايلى

﴿ التحريف العمدي ﴾

كنت أطلع من وقت لآخر على كتابات (الارساليات المسيحية) التى يطبعونها بشكل كراسات صغيرة ويدعون فيها أنهم يعطون معلومات حقيقية عن الدين الاسلامى ، وانى لفى شدة الأسف لأن أعترف بأنى أشعر بذلة عظيمة وخجل كبير عند ما أجد أن أحد رجال وطنى ينحنى للرياء والتمويه والتحريف لكى يعزز آراءه نحو الدين . إن الدين الذى يمكن أن يدعى انه دين يجب أن يعلم العدل الدقيق والحب للحق وانه ليذهل جدا الى أى مدى تسير (التعصبات الدينية المسيحية)

انظر الى وجه الصورة الآخر ، ألاندهشك رؤية مظاهر روح الحسنى التى يقررها القرآن وملاحظة الهدوء الذى يلاقى به المجتمع الاسلامى الشاسع الحملات عديمة القيمة التى تحمل عليهم وعلى دينهم باسم عيسى الكريم أحد أنبيائهم . اننا لانجد كما أعلم أى جور أو تحريف فى أعمال محمد لأنه حتى وان كانت هناك كلمات شديدة من جهة المسلمين (يعذرون من أجلها) إلا أنهم لم يلجؤا الى مثل هذه التهم المكذوبة كى يكونوا منها أهم أسلحتهم التى يهاجمون بها خصومهم . انى وان لم أبين أسماء هذه الكراسات المشار اليها آنفا إلا أنه يمكن الحصول عليها بسهولة من الناشرين الذين أخذوا على عاتقهم طبع مثل هذا النوع من الأدبيات

انى سأذكر الآن بعض قطع من كراسات وضعت خصصا لتشويه أخلاق النبى الكريم وسوف يرى كل شخص ذو عقل مستقيم أن سفالة الحقد وطلب الانتقام هو السلاح الذى استعمل وليس فى تلك الكراسات حجج ولا اشارات الى حقائق تاريخية بل ولاشئ أكثر من تقارير مثيرة متوالية يعرف المؤلف لها بأنها ليست ولايمكن عدها تقارير جوهرية أومبنية على أى أساس ، وسيرى القارئ منها هنا بعض أمثلة مقيتة إلا انى أعتذر اليه لذكرى مثل هذا الهذيان الغير الصحى وعذرى فى ذلك أنه يجب أن يعرف العالم مقدار تعصب وغرابة شكل الهجمات التى توجد ضد المسلمين المتألمين من زمن بعيد والذين لاتسمح لهم حسناهم وصبرهم وطول اناتهم وحسن ذوقهم بأن يقابلوهم بنفس هذه السفالة والأعمال المبتذلة ، وهاهى تلك القطع التى ظهرت فى جريدة (نور آفشو) وهى جريدة مسيحية أسبوعية تطبع فى (لوديانا)

(١) الوحى الذى نزل على محمد أتى من عند الشيطان

(٢) المحمديون فى الواقع حمر وأعمالهم كأعمال الجحوش
(٣) محمد كان غلما يحب بجمال النساء وحيبا
(٤) المسلمون مربوطون بحبال الشيطان من رقابهم
(٥) كل نساء بلاد العرب المتزوّجات زانيات
(٦) إن إله القرآن والحديث ، هوالذى خلق رجالا مملوئين بالخطيئة والذى ليس فقط لايدلهم على الطريق السوىّ بل يضلهم دائما
(٧) خلاص المسلمين مبنى على ارتكاب الخطايا وجعلت الأعمال الطيبة عندهم كوسيلة للحرمان . أما الخطيئة فقد نظمت كغرض وحيد لحياتهم الطبيعية
(٨) أسس محمد أمة جعلت ارتكاب الخطايا ديدنها وعلامتهم أن قوادهم يتعمدون الكذب ويسفكون الدماء ويرتكبون السرقة وقطع الطرق ويظنون أن الزنا من البشائرالمفرحة وكل منهم مصحوب بالشيطان ومصيرهم الى جهنم جميعا
والآتى أيضا قد جمع من مصادر مختلفة وظهر فى المجلة الاسلامية تحت العنوان التالى
﴿ انباقى كفاره ــ بقلم ت . هويل راعى الكنيسة الانكليزية بلاهور ﴾
(٩) قال الكاتب مخاطبا المسلمين بتعيير وتوبيخ « ذلك لأن قوادكم مجرمون شريرون وعقولهم ضعيفة » (صحيفة نمرة ٣)
(١٠) بذورالجريمة التى تدعى نصيب الشيطان نبعت فى كل وقت وآن من عقل محمد (صحيفة نمرة ١٠)
(١١) من محض رغبته أوغوايته الشيطانية شكر محمد الأصنام وسجد لها (صحيفة نمرة ٢٠)
(١٢) انه (أى محمدا) ظل خاضعا دائما للشيطان والسحر (صحيفة نمرة ٢٠)
﴿ حضرة محمد ــ بقلم القس . ج . ه . راوس — دكتورفى الكهنوت ﴾
(١٣) هناك أشياء كثيرة تبرهن على أنه (محمد) مجرم أثيم (صحيفة نمرة ٦)
(١٤) الطمع والغضب كانا من الشرورالقوية الغريزية فى محمد (صحيفة نمرة ١٠)
(١٥) كان مجرما (صحيفة نمرة ١٤)
(١٦) انه نفسه (محمد) مفتقر الى الخلاص (صحيفة نمرة ١٤)
(١٧) انه (محمد) لايستطيع أن يتخلص من جهنم بأى طريقة (صحيفة نمرة ١٧)
(١٨) كان مجرما وسيلقى فى جهنم كباقى الخاطئين الآخرين (صحيفة نمرة ١٤)
﴿ حمرا شفيق كون هاى ــ بقلم القس ه . راوس . دكتوركهنوتى ﴾
(١٩) كان محمد مجرما ورغب فى أن يمدح بعدم الخطيئة (صحيفة نمرة ٥)
(٢٠) سيحتاج محمد الى شفيع ومخلص كباقى الخاطئين العادين (صحيفة نمرة ٦)
﴿ دفع البهتان ــ بقلم القس روكلين ﴾
(٢١) لانستطيع أن ندعو محمدا إلا نفس الرجل الغنى . يقصد الرجل الغنى الذى كان (كقول سانت توما) من نسل ابراهيم وعاش عيشة فاخرة ولما مات ألقى فى جهنم (صحيفة نمرة ٦٩)
(٢٢) أصحاب محمد (الصحابة الكرام رضى الله عنهم) يوصفون بأنهم سفاكو دماء وظلمة متوحشون وزناة وغشاشون ولصوص وقطاع طرق وفاعلوكل أصناف الآثام وهلم جرا (صحيفة نمرة ٨٧)
(٢٣) كان (محمد) رجلا دنيويا متبعا لشهواته ومثل هؤلاء الرجال عادة يغرقون فى مثل هذه الأشياء ، الويل لكل أمثال هؤلاء الرجال لأن لهم مثل تلك الخاتمة وسيلقون جميعا فى غضب الله أعنى فى بحيرة النار

والكبريت (صحيفة نمرة ١٥٤)

﴿ صراط المسيح والمحمد — بقلم القس (تاكرداس) المبشر الأميركي ﴾

(٢٤) كان محمد في شخصه مخطئا بل كان مخطئا حقيقيا (صحيفة نمرة ٦)

(٢٥) شكل محمد الحقيقي كما صوّره العرب كان أعظم الغارقين في الشهوة البهيمية وحب النساء (صحيفة نمرة ١٤)

(٢٦) كان محمد رجلا ضالا جهنميا (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٧) يظهرانه (محمد) اصطيد بالشيطان (صحيفة نمرة ٣١)

(٢٨) حضرات القراء انتبهوا لئلا تؤخذوا بغش محمد (صحيفة نمرة ٣٥)

﴿ انجيل أندرونا ﴾

(٢٩) حامل علامة المسيح الدجال هو نفس الثعبان القديم الا أنه عند ما يفتح فمه يظهره فكأنه مشخصا في البابا ونبي بلاد العرب (صحيفة نمرة ٧٠)

(٣٠) دين محمد ودين البابا هما فكا ثعبان واحد (صحيفة نمرة ٧٤)

﴿ محمدى تواريخ اجمال . بقلم القس وليم من ربوارى وطبعت بمطبعة الارسالية المسيحية ﴾

(٣١) محمد هو زعيم اللصوص والنشالين والسفاكين والغشاشين (صحيفة نمرة ١)

(٣٢) كان محمد من أعظم الخطاه (صحيفة نمرة ٨)

(٣٣) ولو أن جبريل اجتهد في أن يزيل طلمة قلب محمد الذى كان يحتوى على بذور الجريمة أو السائل المنوى أوقسم من الشيطان بالغسيل المتكرر إلا أنه لم يزل أبدا منه ، فحمد قد سوّد فؤاده بالانهماك في ارتكاب الجرائم المتعددة دون أن يرجعه عقله (صحيفة نمرة ٢٥)

(٣٤) قد سجن محمد في داخل بخارجهم إلا أن كل ذلك حصل له لارتكابه الجرائم التى ظل يمارسها الى أن مات (صحيفة ٢٧)

(٣٥) علماء المسلمين ارتكبوا جرائم من الزنا والسرقة ومثل هاتيك الأشياء وقد أتوا هذه الخطايا والتعديات اطاعة لرغبات محمد تحت ستار مبدئه « لا إله إلا الله » (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٦) لم تخلق الشرائع المحمدية الزانيات المحمديات بكثرة زائدة فقط بل حتى الجنة لامتلائها بالحور والغلمان قد أصبحت (كرخانة) منظمة (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٧) ليست فقط الكلمة المحمدية هي التى تشجع المجرم على ارتكاب جريمته بجسارة فائقة بل تخدمه أيضا كحبة (بلبوعة) للهضم يهضم بها جرائمه و يشد بها عزمه لينكب على عيشة الجرائم التناهية و بركات الكلمة المحمدية تعم وتغمر الكرخانات (صحيفة نمرة ٤٩)

(٣٨) حالة إله القرآن كحالة البلد التى دمرت والراجا الأعمى تماما (صحيفة نمرة ٥٥)

(٣٩) ملعون من لم يعتقد في كفارة المسيح (صحيفة نمرة ٢٩)

(٤٠) القرآن مجموع من الحكايات التوراتية والانجيلية واليهودية والمسيحية والقرشية الغير موثوق بها وفرائض الجهل وتقليدات غير معتمدة (صحيفة نمرة ٣٩) وهكذا دواليك

ليس في وسع الانسان في الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدعيى وناسجى هذه الافتراآت لم يتعلموا حتى ولا أوّل مبادئ دينهم والا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق . إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت وموّرست في حياة محمد الذى (سواء في أيام تحمله الألم والاضطهاد أوفي زمن انتصاره ونجاحه) أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لا يتسنى لمخلوق آخر اظهارها ، فكل

صفات

صفات الصبر والثبات فى مقصده كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تأملها فى مجاهداته الأولى بمكة ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى ثقته بالله وأتم كل واجباته بشمم وحمية

كان ﷺ مثابرا ولايخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه وقد أثارت تلك الشجاعة التى لاتعرف الجفول (تلك الشجاعة التى كانت حقا إحدى مميزاته وأوصافه العظيمة) اعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله ومع ذلك فقد انقبضت مشاعرنا وزاد اعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عند ما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثار ولم يفعل بل عفا عن كل أعدائه

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك المكارم كانت ترى منه فى كل تلك المدة حتى ان عددا عظيما من الكافرين اهتدوا الى الاسلام عند رؤية ذلك

عفا بلاقيد ولاشرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه . آوى اليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة وأغنى فقراءهم وعفا عن ألد أعدائه عند ما كانت حياتهم فى قبضة يده وتحت رحمته ، تلك الأخلاق اللاهوتية التى أظهرها النبى الكريم أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلامن عند الله وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم حولتها تلك الأخلاق الشريفة الى محبة وصداقة متينة

فكل المحاولات عديمة القيمة فى تحقير عظمة شريعة النبى العظيم بالبذاءة وسوء الاستعمال والحجج المموهة المتضمنة كثيرا من طمس الحقائق والآثارات المكذوبة تقدمت كثيرا بتعمد القصد فى إضلال الناس وإبعادهم عن الحقائق ، وهؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأساليب يجب أن يتذكروا (اذا كانوا قد نصروا مسيحيين) بأنه يجب عليهم على الأقل أن يقلدوا المسيح فى عدم الكذب الذى كان أكره شئ فى نظر أعظم معلمى الناصره (عيسى) . هناك أصناف عديدة من الكذب . الكذب الأبيض وهو غيرمهم حيث انه لايضر وغالبا مايقال لحماية سمعة جار أومساعدة صديق . وهناك الكذب الخبيث الضار الذى يهلك صديقا أوجارا ، الا أن ألعنها مايقال باسم الدين لانه يحمل على تقليل أهمية المولى عز وجل وهى جريمة لايوجد أعظم منها

فى حلقة التمويهات المستمرة سعى فى اظهار أن الدين الاسلامى هو المسؤل عن الآثام والسلب والنهب الذى أتته القبائل المتجولة التى صدف أن كانت مسلمة اسما فقط . انه من العدل أن يلام المسيح مثل ذلك تماما على التعذيب واحراق الأساقف والآخرين أحياء فى بلادنا هذه السعيدة وليس ذلك من سنين بعيدة . حقا إن الديانة المسيحية الصحيحة ماصادقت قط على شرور (محاكم التفتيش) الخبيثة المريعة أو الفظائع التى لا يمكن عدها التى فعلها المسيحيون فى بعضهم وفى اليهود والمسلمين الآخرين الذين كانت لهم أفكار دينية تخالفهم . انى لاأطيق أبدا أنه يمكن اظهار أن المسلمين اجتهدوا قط أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية فى حلوق الناس بالقوة والفظاعة والتعذيب . واذا كان هناك مثل هذه الحالات فحينئذ يمكننا فقط أن نقول ان مرتكبى هذه الآثام ليسوا بمسلمين حقيقة لأننا لانستطيع أن نشير الى أن القرآن الشريف يصادق على أعمالهم . إن محمدا كان قانونيا ومحاربا وعند ماامتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط ولم يعتدوا قط إذ كان النبى نفسه وديعا رحيما بأعدائه المقهورين . لكى نستطيع أن نكون الرأى الصواب عن صفات شخص يجب علينا أن ننظر اليه أيام شدته وأيام رخائه فاذا كانت حالته دائما حالة شدة وظل دواما بين أيدى مضطهديه تكون الظروف حينئذ لم تسمح له بأن يفعل شيأ نحو أصدقائه أوأعدائه وهنا يستحيل أن يعرف تماما ما كان يمكن أن يفعله كما ان أرقى الصفات لايمكن أن تدل عليها الوداعة والخضوع فقط بل يجب علينا أن نرى أيضا ضبط النفس وعفو الرجل الذى يتغلب على حواس الانتقام ويصل رفقه الى أقصى منتهاه . حقيقة ان العفو لم يقسع دائما ليشمل أعداء الاسلام الذين جعلوا قصارى جهدهم محاربة واخماد

الدين الاسلامى وأعملوا السيف فى رقاب المسلمين ثورة وعصيانا لأن الرحمة من هذا النوع لاتدل إلا على مد المطاعة وازهاق الأرواح

قوّة أخلاق الرجل تظهرها المحن والتجارب وصفاته النبيلة الكريمة يستدل على أنها فى أتم كمالها عند مايظهر رحمة وعفوا فى يوم مسرّته بالنجاح والقوّة وليس القلب الرقيق فقط هوالذى يحتاج اليه رجل الله إذ لايستطيع أن يزعم أىّ كان بأنه يمكنه الوقوف ليكون مثالا أونموذجا للجنس البشرى وهو لم يختبر تصاريف الدهر وتقلبات الحياة من فاقة وعزّ وتعاسة وسعادة وضعف وقوّة . لايمكنك أن تكون معلما حقيقيا للصبر مالم يمرّ عليك الغضب أوالألم أوالنصب الذى يحتاج الى ممارسة الصبر . الضيق فقط هوالذى يظهر أعظم المواهب العالية فى الرجل الذى يحب الله من كل قلبه ومثل هذا المخلوق المحزون ينظر لكل نازلة أومصيبة تقطع الفؤاد كأنها تأديب من إله الرحمة وكلما عظمت المصيبة والبلوى ازداد احترام وتذلل وندامة ذى الاعتقاد الصحيح الذى يعرف أن ربه القادر الحفيظ يقوده بذلك الى الصراط المستقيم ، انه يؤمن بالحكمة غير المحدودة والحب غير المحدود والرأفة غير المحدودة التى لهاديه الوحيد فى هذا العالم ، انه يعلم أن خالقه عالم بأنه يبغض الشيطان وحيله الشريرة وهذا الاعتقادفيه الكفاية لشد عزائمه فى أية معركة مع الشيطان مهما كانت شديدة لأنه يعتمد على معونة مولاه فى كل شئ ، فالرجوع الى الله (القدير ذى الجلال والاكرام الرحمن الرحيم الذى لم يقترن اسمه بأى اسم آخر تنزّه عن مثيل أوشبيه) يمدّ المؤمن بثقة تفوق ادراك البشر

كل الأنبياء المقدّسين فى كل الأزمان والأوقات الذين كانوا بتبليغ الرسالات للبشر قاموا بتبليغها بكل صدق وأمانة إلا انه لم يكن فى كل هؤلاء الرسل من هوأرفع مركزا من محمد ﷺ

انه يفهم ويعرف جيدا أنه لايتمكن من العفو إلا من أصبح قاهرا وله القوّة التى تمكنه من أن يصب جام غضبه وانتقامه على أعدائه الذين كان بين أيديهم ضعيفا حتى يقدّر الظروف التى كان فيها تحت رحمة الآخرين ، لايمكن لأحد أن يدّعى الرحمة وهو لم يقع تحت طائل رحمته أى انسان قط ، وليس هناك فى التاريخ من يمكن أن تنسب له تلك الخاصية كمحمد النبى الكريم الذى رأى أعظم الاذلال وابتدأ حياته يتيما وان كانت عين الله ترعاه ومرّت عليه كل أطوار الحياة المختلفة وهو مستسلم الاستسلام الكلى لمولاه ، ولم تتلوّث أخلاقه العذبة أبدا بأى عمل دنئ أوخسيس ، ولم يرتكب الظلم قط

نحن نعتبر أن نبىّ بلاد العرب الكريم هوأخلاق متينه وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطى حياته ولم ير فيها أقلّ نقص أبدا ، وبما اننا فى احتياج الى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة فحياة النبىّ المقدّس تسدّ تلك الحاجة

حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا العمل الراق والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكوّن الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة . خذ أى وجه من وجوه الآداب وأنت تتأكد بأنك تجده موضحا فى إحدى حوادث حياته ، ومحمد وصل الى أعظم قوّة وأتى اليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لاتجارى وكان ذلك سببا فى هدايتهم ونقائهم فى الحياة

إن الغيرة الشديدة التى لاتعرف الكلل التى كان يبذلها مؤسس الاسلام لاخماد عبادة الأصنام قد أثارت معارضة سريعة ضده فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمى ، وقد أشعلت كل قبيلة لظى الحرب كى تؤيد وتحمى أصنامها ، حصل ذلك عندما كان النبى بالمدينة وفى الواقع قد قضى هناك أياما أصعب من أيام مكة ، ولما كان أعداؤه يشنون عليه الغارة دائما من جميع الجهات أخذ فى كل وقت وآن فى مقاتلتهم أوارسال رجاله لمقابلة التعديات فكانوا طورا ينتصرون وتارة ينهزمون ، وكانت كل حادثة تخلق فرصة مناسبة للنبىّ الكريم ليظهر وجوه أخلاقه العظيمه المختلفة التى لوجمعها الانسان ونسقها لوجد العالم فيها قوانين وأحكاما

للحرب

للحرب أكثر انسانية وملاءمة مما يمكن لمروّجي مؤتمر لهاي أن يتصوّروا

ما أشهر السلاح محمد قط إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادّعى بأن الاسلام استعمل السيف فى نشر الدين ولكن ألد أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقلّ دليل أومثل من الأمثلة التى أثر فيها الحرب على هداية أى قبيلة أوشخص الى الاسلام

إن هذه الوقائع ما أفادت بلاشك إلافى اظهار كرم أخلاق محمد الذى امتلك كل قلوب مواطنيه وكانت أشد تأثيرا فى الهداية من أى شكل من أشكال الاكراه ، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة التى كان يعاملها النبي للمنهزمين عجائب وغرائب فما أتاه ملتمس إلا ونال أكثر مما كان يؤمل أو يشتهى انتهى

﴿ تذكرة ﴾

ظهر الحق واستبان السبيل . أيها المسلمون — الآن حصحص الحق — وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — هاأناذا الآن أقول بأعلى صوتى وأجهر بأن أهل الشرق وأهل الغرب الذين نحن معهم على هذه الأرض جميعا يعوزهم قول الحق والصراحة واظهار الحقيقة فلنجهر لهم جميعا ولنخاطب أوّلا المسلمين فنقول لهم هاهوذا كلام العظماء من أوروبا فى ديننا الاسلامى ، فأى شهادة هذه وأىّ عظمة لدينا ولنبينا ﷺ وأىّ حكمة أبدعت فى القرآن . هؤلاء نظرهم فى الاسلام نظر عال سام شريف لم يطأطئوا رؤسهم عند دراسة الدين ويدرسوا القشور ويدعوا اللب ، لم يتوجهوا لمباحث المعتزلة وأهل السنة والصوفية والثلاث والسبعين فرقة الاسلامية ولاالخلاف فى البيوع والرهن والحج والصلاة والصوم والزكاة وماأشبهها ، بل هؤلاء درسوا نفس الدين ونفس الروح المحمدية فشهدوا بما علموا ورأوا أن هذا الدين يعلو الى سماء المجد والشرف ويبحث فى الأفلاك والكواكب والطبيعة ومركز العلم . أليس هذا بعينه هو الذى حواه هذا التفسير . سبحانك اللهم وبحمدك . نحن قوم محصورون فى جدليات وعلوم جزئية وخلافات مذهبية وآراء سوفسطائية فنقول حنفية أوشافعية أومالكية أوحنبلية أوشيعية أو وهابية ونتسكع فى هذه الجزئيات ونذر الكليات أو يقول المتعلمون تعلما ظاهريا فى المدارس المصرية والفرنجية ، هل ديننا يوافق العلم ، إن العلم شئ والدين شئ آخر وقد جهل هؤلاء هذه الحقيقة التى قالها (توماس كارليل) و (هنرى) وغيرهما وقالها الامام الغزالى وابن رشد قبلهما وهى أن معجزات الاسلام هى نفس العلوم لا انه ضدها إذن الاسلام غير الديانات الأخرى فالاسلام خاصته العلوم وهى برهانه وهل برهان الشئ ضدّه ولولا هذه الحجب التى أسدلت على العقول الاسلامية ماأعوزنا أن نقول فى (سورة طه) ان عبادة بنى اسرائيل للعجل السامرى بعد ماراوا معجزة العصا برهان على أن خوارق العادات لاتكفى فى الايمان فلابد من العلوم العقلية وقد وجدنا الامام الغزالى أوضحها وهاهم أولاء علماء الفرنجة يقولونها ويقولون إن معجزة نبينا هو الكون ، فهذه حالنا التى كان من نتائجها أن المرحوم العلامة (ادوارد براون) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير قال لى ﴿ لقد ذهبت الى تركيا والى بلاد الفرس بأمر حكومتنا الانجليزية لأعرف هل تتحد هاتان المملكتان فوجدت أن أهل ايران مشغولون بقتل الحسين والروس إذ ذاك يجوسون خلال ديارهم ويحاولون احتلالها ذلك أيام حكم القياصرة قبل اليوم بنحو ٢٥ سنة ﴾ ويقول طالب من الطلاب الفارسيين ﴿ لقد حاربت مع الروس ضد الترك الكلاب الكفار لأنهم من أهل السنة الذين قتلوا الحسين ، فقال لى لقد ضحكت من عقول هذه الأمم وقلت الحسين مضى له ١٣ قرنا ولكن الروس يدخلون عليهم الآن ، فهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، قال وحكمت بأن هذه الأمم لاتتحد ﴾

أقول وقد تغيرت الحال الآن وتعاهد الفرس مع مصطفى كمال باشا بعد أن زالت تلك العقول الصغيرة . هذه حال المسلمين وأنا وأنت أيها الذكى منهم ، فنحن حصرنا فى إبان الصغر وزمن الجهل فى الجزئيات فلم يتضح لنا جمال الله فى سمواته وأرضه ولم نعرف جمال النبوّة ولابهجة الكمال المحمدى بطريقة مشوّقة مثل الذى يقوله

أمثال (هدى) وأمثال (توماس كارليل) وأغمضنا أعيننا عن كل ماحولنا من جمال وكمال ، وما نحن إلا قوم أشبه بمن حبسوا فى سجن ضيق مظلم فيه قنديل ضئيل النور وفى خارجه أنوار الشمس البهجة الجميلة فهؤلاء الاوروبيون الذين نظروا فى ديننا ، نظروا وهم خارج هذا السجن فعقلوه وأحبوه وأحبوا نبينا ﷺ و بينوا ظاهره على مقدار طاقتهم ، أما نحن الذين حبسنا فى سجن التقليد والكتب الفقهية والجدلية وأمثالها فان كل من تخلص منا من ذلك السجن الذى لم يستضىء إلا بالضوء الضئيل الخارج من ذلك المصباح الضعيف عدّه القوم خارجا عن زمرتهم ورموه بالجهالة ومن هؤلاء العلامتان ابن رشد والغزالى ، هنالك بقى المسلمون فى سجونهم وانحصروا فى جلودهم حتى جاءت هذه النهضة المباركة فخرج من السجن جماعة فى أقطار الاسلام ومن هؤلاء قراء هذا التفسير فهم والحمد لله اليوم قابلوا مع من خرجوا من ذلك السجن ورأوا ما رآه الخارجون عنه وعرفوا ربهم وجمال نبيهم ﷺ ومزية كتابهم وهم لايأبهون بسفاسف العقول الصغيرة المحبوسة الجاهلة النائمة من أمم الاسلام ، هذا كلامى مع أمم الاسلام ، أما أمم الفرنجة فانى أقول ولى الحق ان أقول انهم الى الآن عباد التقاليد ، فلئن حبس المسلمون فى ظلمات التقاليد واكتفوا بالعلوم الدينية الجزئية وهم الآن يريدون الخروج ، فهاهم أولاء الفرنجة محبوسون فى دين قديم قد أكل الدهر عليه وشرب وقد عرف عقلاؤهم الحقيقة ولايقدرون أن يجهروا بها فهم والمسلمون سواء فى الجهالة ، المسلم محبوس فى ظواهر الدين والفرنجى محبوس فى دين قد نسجت عليه عناكب النسيان وذلك كله بشهادة هؤلاء العلماء الأوروبيين فيما تقدم ، أليس هذا هو قوله تعالى — وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون —

أليس هذا أيضا هو قوله تعالى — واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولوكان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولايهتدون — وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، فأهل الأرض إذن فى الشرق والغرب قوم مقلدون فأين العقل إذن . الاوروبيون يعرف بعضهم حقيقة الاسلام فيخاف من أهله وذويه والمسلم يدع مذهبا ويخاف مخالفة أسرته وأهل بلدته ولكن الاوروبى فتح له باب العلم . فيارب أنت خالق الشرق وخالق الغرب وخالق كل شئ وأنت عالم بهم ومقدّر هذا عليهم ، ولقد وضعت كلا فى درجته التى لايستحق سواها ولقد قضت حكمتك اليوم أن تفتح البصائر وتلهم بهذا التفسير الذى سيقرؤه قوم فى أنحاء هذه الكرة الأرضية ويكون هو وأمثاله بذورا لرقى العقول فى الأمم ويصبح الناس فى مسرة وحبور وحكمة ونور . هذا من جهة الدين . أما السياسة فان أهل الغرب وأهل الشرق لم يصلوا حتى كتابة هذه الأسطر الى سياسة تسعدهم وهذه أوروبا لها جمعيات كجمعية الأمم ، ويظهر لى أن أهل الشرق الآن يريدون أن يكوّنوا جمعية أخرى و يظهر أن الأمم ستتلاقى فى السياسة ولا أدرى متى يكون ذلك . واذا قرأت كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ عرفت ماهى سياسة الأمم الحالية والتى قبلها ، فسياسات الأمم تقليدية لاعقلية ودياناتهم كذلك بالتقليد لابالعقل . ومن درس هذا التفسير ودرس كتابى ﴿ أين الانسان ﴾ وقف على حقائق الديانات وحقائق السياسات و مع الأمم الشرقية والغربية فى أديانهم وسياساتهم ، فلتكن أيها الذكى منهم ولما وفقك الله لقراءة هذا الكتاب كان ذلك علامة على انك من المصلحين النافعين للأمم الشرقية والغربية والله عزّوجل يحب المصلحين — والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين — اهـ

﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى — وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم — الخ ﴾

قد مرّت عجائب كثيرة فى هذا المعنى كالذى فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى — إن فى خلق السموات والأرض — وكالذى فى (سورة آل عمران) عند قوله تعالى أيضا — وترزق من تشاء بغير حساب — وكالذى فى (المائدة) و (الأنعام) و (الحجر) وغيرها من السور ، ولكن لابد من ذكر عجائب هنا لم نقدم هناك لتبتهج

بها المفكرون و شرح بها العلماء العاملون وهي جوهرة يتيمة في هذه الآية

إن عناية الله بكل حيوان وكل نبات قد تجلت في هذا التفسير وظهرت أيما ظهور في (سورة البقرة) و (آل عمران) و (المائدة) و (الأنعام) و (هود) و (النحل) و (طه) و (النمل) و (مريم) وغيرها من سور القرآن ، ولقد جاء في كل سورة مما ذكرنا وغيره مافيه حكمة وعبرة ونور وهدى وجمال وبهاء ولكن الذي أريد أن أنبه هنا تلك العجائب المخبئة التي تفسر لنا قوله تعالى ـ قال ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ـ وتفسر قوله تعالى ـ والذي قدر فهدى ـ والحق يقال ان الانسان لاسعادة له إلا بأن يقف على جمال هذه العوالم ويعرف أن هنا عناية فائقة وحكمة تامة شملت أدنى الحيوانات الدنية وتكملت سعادة كل مخلوق ، ولعمري متى أدرك الانسان أن هناك هذه العناية التامة والحكمة الشاملة فانه لايشك انه مغمور بتلك الرحمة مشمول بتلك النعمة ويصبح ويمسي وقد رأى رحمة الرحيم العليم الحكيم في كل يابس وخضراء وجبل و بطحاء وكأن صانع هذه العجائب معه أينما حل أوارتحل ، وليس يصده عن تذكره في غدوه ورواحه إلا ذلك الحجاب الذي ألقى بين هذه العوالم الأرضية و بين مبدعها فاذا ارتقت النفس وبحث في هذا العالم فانها تصبح وقد أحست بالسعادة الأبدية قبل أن تزور الرمس ، ومن ملكت هذه الآراء فؤاده في الدنيا سعد السعادة التامة وليس يزحزحه عنها إلا قواطع الفواجع ثم يزدالها وهو في حبور ، فمن ذا الذي لايدهش إذ يسمع ماجاء في مجلة مصرية

(١) أن الفأر الذي يسكن سفينة إذا أحس أن السفينة الذي يسكن فيه يريد أن ينقض يفر منه حالا قبل سقوطه بساعات ، وإذا أحس بذلك في المركب هرب قبل وقوع الكارثة فيها * روت سيدة انجليزية كانت تعيش في زمن الحرب في منزل قديم في (نورفلك) في انجلترا أن الجرذان كانت تقلق راحتها كل ليلة بصريرها ففي إحدى الليالي شعرت بضجة خارقة من الجرذان وكان صوت الضجيج يتجه الى خارج المنزل فاستنتجت السيدة منه أن (الجرذان) تبرح المنزل ثم انقطعت الحركة وساد السكون و بعد ساعة واحدة سقطت قنبلة من منطاد ألماني وأصابت جانبا من المنزل فدمرته ، أما الجرذان فكانت قد نجت كلها

وقد شوهدت الجرذان تبرح إحدى القرى في زمن الصيف وتقيم على ضفاف النهر المجاورة لها وتحفر هناك أوكارها ، ولكن قبل سقوط الأمطار بمدة قريبة تعود الى أوكارها السابقة في القرية فعند مايراها الأهالي راجعة يتوقعون هطول الأمطار وفيضان النهر فهي لهم بمثابة ميزان الطقس تصدق كل الصدق في الدلالة عليه * ويروى عن إحدى المطاحن أن الجرذان برحتها فجأة واتجهت راكضة الى الغابة المجاورة و بعد وقت قريب طغى النهر على المطحنة واضطر صاحبها الى الفرار بنفسه من دون أن يستطيع أن ينقذ شيأ منها (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ ـ فأر المنزل شعر بما يهدد المنزل الذي يسكنه من الخطر فهرب منه قبل وقوع الكارثة)

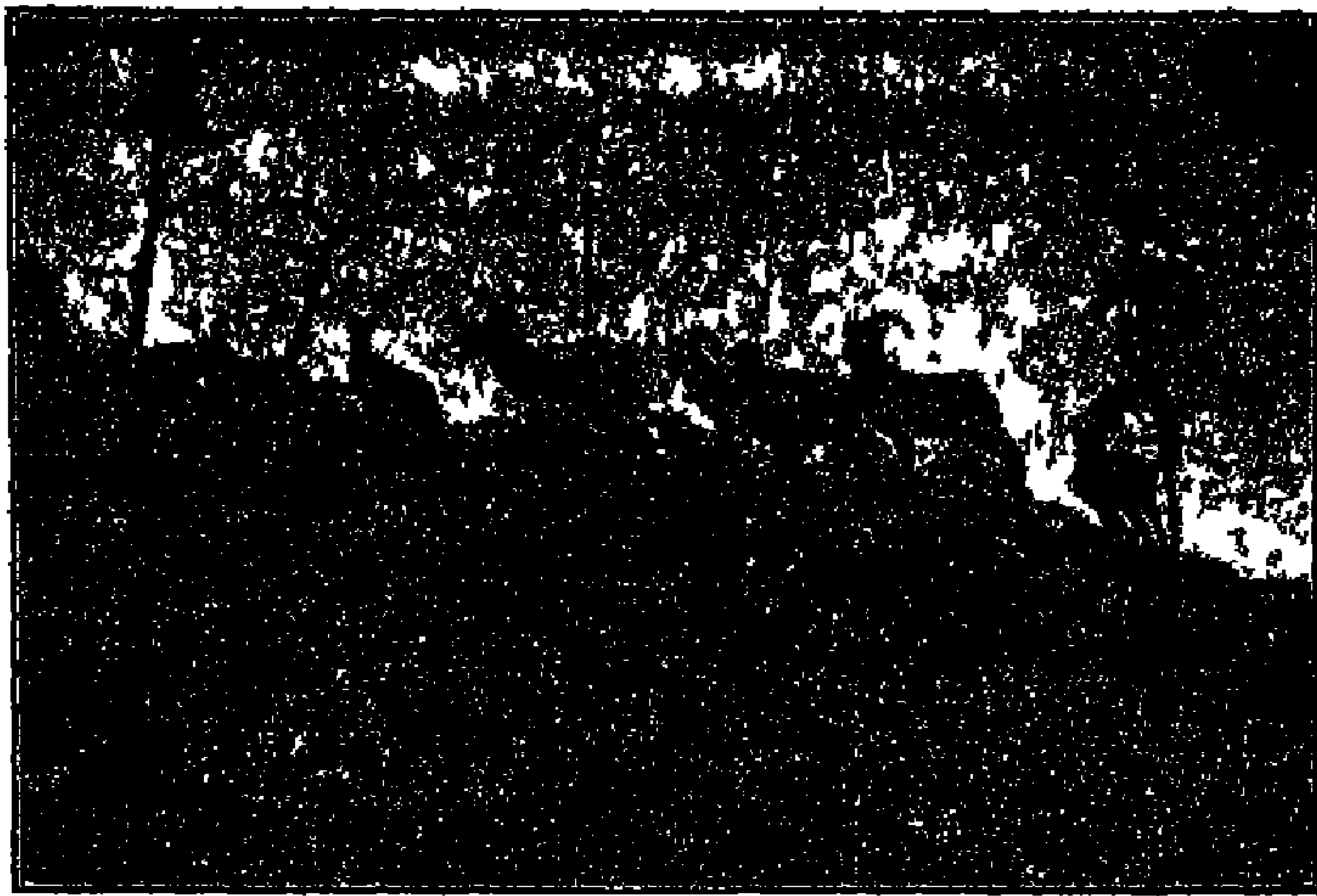
(٢) إن الجمل فى الصحراء يمرغ رأسه فى الأرض و يشخر شخيرا متواصلا قبل هبوب عواصف الرمال بوقت قصير فيكون شخيره منذرا باقتراب العاصفة من دون أن تظهر فى الجو دليل ما على ذلك

(٣) ويعرف الذين ألفوا صيد السمك (بالصنارة) أن هناك نوعا من السمك يختفى من النهر فى أحد الأيام فجأة فلا يعثر له أحد على أثر و بعد احتفائه بقليل تطغى و تحدث فيضان كبير، فاختفاؤه خير نذير للصيادين بأن النهر على وشك الفيضان . ثم إن هذا السمك يمتنع عن الأكل الى أن تصل اليه مياه الفيضان فكأنه يتوقع أن تحمل اليه هذه المياه أغذية جديدة تستحق أن يصوم سلفا و يستعدّ لالتهامها

(٤) ويعزى السبب فى مهاجرة كثير من أنواع الطيور الى التدوّق عن الطقس فبعضها يتبع الربيع أينما سار والبعض الآخر يتبع الشتاء . ومن المشهور عن الهنود الحمر فى أمريكا انهم يتنبؤن عن الطقس بدقة عظيمة ، ولكن ثبت بعد التحقيق انهم يستندون فى تنبؤهم الى تنقلات الطيور والحيوانات . ومن المشهور عن الحيوانات التى تسكن الجبال أن لها خبرة عظيمة فى تقلبات الطقس ، فالوعول والأرانب البرية و بعض أنواع الدجاج البرّى تنزل من أعالى الجبال الى منحدراتها قبل حلول عواصف الأمطار و يكون الجوّ عندئذ صافيا والسماء مشرقة ولكن لايكاد ينقضى يوم أو بعض يوم حتى تتلبد السماء والجوّ بالغيوم وتسقط الأمطار . ومن المعروف عن الأرانب البرية التى تسكن الجبال انها تهجرها فى بعض الأحيان وتغيب عنها بضع سنوات فلا تجد فيها أثرا لأرنب ، ويحدث فى خلال ذلك أن الأمطار تبقى غزيرة وتكون فصل الشتاء قاسيا ولكن تلك الأرانب لاتلبث أن تعود فتكون عودتها دليلا على توقع طقس حسن وشتاء محتمل ولاشك أن أنواع الطيور والحيوان التى لها غريزة التدوّق عن المستقبل كثيرة جدا فلا نرى بنا حاجة الى الكلام عن كل نوع منها بمفرده . انتهى ملخصا من تلك المجلة المصرية (انظر شكل ٢٣) و (شكل ٢٤)



(شكل ٢٣ ـ صورة نوع من الأوز البرّى يرحل عن المنطقة الى سكنها وقعا اشتداد الشتاء وسوء الطقس فيه مع انه لايوجد أى دليل ظاهر على ذلك عند رحيله)



(شكل ٢٤ ـ صورة انحدار الوعول من الجبال الى السهول)

هـذا هو الذى أردت تلخيصه ورسم صوره فى تفسير قوله تعالى ـ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ـ أكتبه فى تفسيرها وأنا أعلم أن كثيرا من الناس يطلعون على هذا وهم لا يفكرون ولكن بيانه وتفصيله فى تفسير الآية هنا يجعل له رونقا وحكمة يعقلها أولوا الألباب

﴿ خطاب المؤلف لصانع هذا العالم ﴾

(١) اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على العلم وعلى الفهم

(٢) يارب هاأنا ذا أتيت الى الأرض وسكنت فيها وعشت فى أمم ودول وممالك وهم يتفاخرون وأكثرهم لا يذكرون

(٣) بحثت عن الحقيقة أمد الحياة فعرفت انك خبأتها فى صور المخلوقات ودفنتها فلم يطلع عليها إلا الطالبون

(٤) علمت من صنعك أن الغـذاء والدواء والأوصاف والقتال والحروب والقضايا وأعمـال الأمم ، كل ذلك دخان قد غشيت به عقول الأمم والأفراد فأكثرهم لا يعقلون

(٥) يتطاحنون و يتقاضون و يتقاطعون على زاد قليل وهم غافلون

(٦) وفى أثناء ذلك تظهر طائفة من تلك الأمم جمالك الباهر وعلمك البديع وحسن صنعك الجميل فيبهرهم جمالك و يسحرهم بهجة صنعك ، فهؤلاء لأجلهم خلقت الدنيا ولاسعادهم أرسلت الدين ، هؤلاء هـم الذين يقومون باسعاد أممهم علما وعملا ابتغاء وجهك و يتصرفون بحسابهم فى فهم سمواتك وأرضك ولا يرون لك بدلا

(٧) يسخرون من الزخرف والجاه والمال والناس حولهم بها فرحون وهؤلاء لا يطلبون جزاء على عملهم إلا ما يحسون به فى نفوسهم من الجمال والبهجة والنور ، قد استوى الماضى والحال والاستقبال عندهم وهم بذلك راضون ساكنون

(٨) يرون لطفك وعطفك ورحمتك ورأفتك بالجرذان إذ أتت أعلمتها أن قتلة ستسقط عليها من مدافع الألمان لئلا فهاجت وماجت وخرجت ثم ساد السكون و بعد ذلك سقطت قنبلة الألمان ، فهذه الطائفة اذا سمعت هذا فرحت وانشرحت وعلمت أن لطفك محيط بالعظيم والحقير والجليل والصغير والانسان والفيران و يرون لطفك بها وقد أعلمتها بأن النار ستشب فى مخازن الخارك التى عاشت فيها فهاجرت وتركت المكان

(٩) وأى عجب أكبر من أن الوعول والأرانب البرية تنزل من أعالى الجبال قبـل هطول الأمطار ولا علامة فى الجو وانما هى حكمة الحكيم الرحيم أعلمتها بما سيكون

(١٠) الجهلاء من الناس لايعبؤن بهذه الرحمات إلا على سبيل الروايات ، أما الفضلاء من الناس فانهم يرون هذه العوالم فصلت تفصيلا وقد شملها كلها من سموات وأرضين تدبير محكم منتظم لايشغله العظيم عن الحقير ولا الكبير عن الصغير فهو مع الفأر فى جحره ومع الطير فى جوّه ومع الكوكب فى مداره فكأن هذه الدنيا جسم واحد له رأس وقلب وحواس وأحشاء وأعضاء والروح لاتغفل عن الصغير ولاعن الكبير

(١١) فهؤلاء الحكماء الذين ظهرت لهم هـذه المعانى وحضرت فى أكثر أوقاتهم هم المصطفون الأخيار ، هؤلاء يدركون فى هذه الحياة انهم فى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمفكرين الذين يعقلون . وأىّ سعادة أكبر من الوقوف على الحقائق ، هذه هى السعادة التى تصغر فى جانبها جميع السعادات ، هذه هى سعادة كلية من نالها فهو الآن فى جنة العرفان ، يرى أن الرحمة والعلم والنعمة تحيط بالعالم الذى هو فيه وهو يحس بها وسواه من الناس بها لايعلمون . إن فى الأرض حجابا حجب أكثر الناس عن هذا الجمال كما قال تعالى ـ و بينهما حجاب وعلى الأعراف رجال ـ فالحجاب مضروب على قلوب أهل هـذه الكرة الأرضية ، ظهرت لهم الرحمة نقمة والسعادة شقاء ، وذلك لأنهم فى عالم من العوالم المتأخرة هذا قوله تعالى ـ ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ـ

بعد أن كتبت هذا حضر عندى قاضى محكمة (دكرنس) من أعمال (الدقهلية) بالوجه البحرى من القطر المصرى ولما اطلع على عجائب هذه الحيوانات وعلمها بما سيحصل لها قال وأنا أحدثك حديثا شاهدته بعينى رأسى ، ذلك انى كنت قاضيا فى (مديرية سوهاج) من مديريات الوجه القبلى ومن عادتهم هناك أن المدير وأعيان المديرية يحضرون اجتماعا عاما لافتتاح الترعة المسماة ﴿الترعة السوهاجية﴾ وهذه الترعة لاتفتح إلا أيام تمام النيل ، قال وقد حضر المغنون والطبالون والزامرون وما حضرت أنا معهم ليلا فمرّ المدير على منزلى صباحا فلم يجدنى فتوجه لى بالمحكمة وقال تعال معى لنفتح الترعة اليوم ، قال فذهبت معه فوجدت أنواع الحشرات والحيات والعقارب وما أشبهها تجرى جريا حثيثا مسرعة لتدخل البلدة فسألت عن ذلك فقيل لى إن هذه الحشرات والزواحف كل سنة قبيل فتح الترعة بساعات نراها أخذت تهاجر من مساكنها التى استقرت فيها بهذه الترعة اليابسة ، فهذه الحال نراها كل سنة انتهى

هذه هى الحادثة التى حدثنى بها القاضى وهو أدرك مغزاها ولكن العامّة لم يدركوا مغزاها ولم يعقلوها ولم يفكروا فيها ، فهم رأوها كما يرون شروق الشمس وغروبها ويرون الولادة والموت . إما العبرة والجمال واما الحكمة فلا ، لهذا ترى المسلم اليوم انما ينقل هذه العجائب عن الأمم الفرنجية لأن كثيرا من الناس هناك يعقلون مايرون ، هذا ما اتفق لى عند كتابة هذا الموضوع ، وهنا يسأل سائل فيقول « كيف ألهمت هـذه الحيوانات أمرا غائبا كهذا فأما الانسان فلا » ونحن نجيب عليه فنقول

(١) إن الله قدّر فهدى وأعطى النعم والحكم بقدر ، أعطى الانسان دولا وممالك وحكماء وعلماء فليس من المصلحة أن يشغله بامور قامت بها دولته التى وزعت الأعمال عليها

(٢) إن علم المستقبل لهذه الحيوانات مقدّر بقدر وهو الأمر العام لعمومهم ومستقبلهم بدليل اننا نقتل الحيات ونصطاد الطيور ولاعلم لها بما سنفعله معها . فهـذا العلم بالمستقبل مقدّر بقدر وهو النظام العام لها لا لأفراد خاصة

(٣) إن الانسان يتنبأ عند التنويم المغناطيسى كما تراه فيما تقدم فى (سورة البقرة) عند آية السحر هناك إذ ترى رجلا منوّما (بفتح الواو) قد أخبر بسير مرضه ووصف الدواء لدائه ثم فاجأه عارض فمات فاستنتج العلماء أن نفوس الناس فى حال ازالة الموانع الجسمية تعرف كل أحوالها المستقبلة ولكنها لاتعرف ما يصادفها من العقبات الخارجية

(٤) إن العلم بالمستقبل يصرف الانسان عن العمل له و يقعده فى الكسل وذلك لايرقيه ومارقى الناس

الا

إلا بأن يجهلوا مستقبل الامور ويلهموا إلهامات جزئيـة كالهام أم موسى ثم هم بعد ذلك يبنون على هذا الإلهام علما وعملا . فأما اذا كان كل شئ ممهدا فلاسبيل الى رقيهم إذن الرقى بالعمل ولاعمل إلا لمن حجبت عنـه الامور المستقبلة فسارع لاسعاد نفسه المجهول عنـده ـ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ـ لتجدّوا فى عملكم حتى تلقونى . انتهى صباح يوم الاثنين (٨) يوليو سنة ١٩٢٩ عند طبع هذه السورة

﴿ لطيفة فى قوله تعالى ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ـ ﴾

هل لك أيها الذكى أن أحدثك عما خبرته بنفسى وعرفته من أحوال الناس فى زماننا من حيث طول الأمل بسبب الوسواس الخناس فأحدثك حديث وزير عظيم ومدرّس كبير ورجلين فى بلاد الفلاحين بالشرقية

﴿ الوزير ﴾

كنت أعرف وزيرا من عظماء الأمة المصرية وكانت لى معه مجالس علمية فحادثنى يوما قائلا « هل أنت موقن ياشيخ طنطاوى بأن كلام الديانات حقّ وأن هناك جنة ونارا وسعادة وشقاء بعد الموت ، فقلت نعم ، فتعجب غاية العجب وقال وكيف ذلك فأخذت أذكر الحجج المعروفة فقال هو إن العلم الآن ينفى ذلك وماهذه الدنيا إلا دار مغالبة ومكابرة ومصابرة وجهاد ، فالغالب فيها هو الذى ازداد بها استمتاعا كما هو مذهب النشوء والارتقاء كما جاء فى كتاب (بخنر الألمانى) شرحا على مذهب (داروين) وملخص المذهب أن العوالم التى نراها آخذة فى الارتقاء وأقواها يغلب أضعفها وهناك يحصل الانتخاب الطبيعى ، فالطبيعة لاتبقى إلا ماهو أكمل وتفنى ماهو أقل كمالا وجمالا . خذ لك مثلا . نحن الآن نركب العربات فى الطرقات ولانركب (الترام) كالعامة واذا ركبنا فى قطار السكة الحديدية تربعنا فى الدرجـة الأولى بخلاف الناس جميعا وهانحن أولاء نسكن فى مساكن جميلة ونتمتع بنعم عظيمة ويضرب العسكر لنا سلاما بالسلاح . هذا هو الانتخاب الطبيعى وهذا هو مذهب (داروين) وأنا به أدين . فهذا الوزير لم يوصـله العلم الى أكثر من أنه يعيش فى نعيم فى الدنيا وليس هناك عالم آخر وهو يكذب جميع الأنبياء . وأنت تعلم أيها الذكى من هذا التفسير أن نفس النعيم الدنيوى عذاب على صاحبـه فمن لم يروّض نفسه ويتعلم القناعة فى المآكل والمشارب الخ أحاطت به الأمراض وذلّ فى حياته ، ولـكن هذا وأمثاله لايعقلون أكثر مما أسمعتكه فى هذا المقام »

﴿ المدرّس العظيم الممتاز ﴾

لقد كان بمدرسة دار العلوم مدرّس كبير تخرّج على يديه مئات من المدرّسين فحدّثنى أحدهم مفيدة قال ناقلا عن أستاذه ذلك المدرّس العظيم ، قال لقـد كنت فى أوّل حياتى مجاورا بالجامع الأزهر ولم يكن لى مال واذا جاء زمن البطالة توجهت الى قريتنا بالصعيد فكنت اذا أردت أن أذاكر الدروس أجلس تحت شجرات بالقرب من منزلنا ، فلما أن صرت موظفا ومنّ الله علىّ بالثروة والغنى اشـتريت نفس تلك الأرض التى فيها الشجرات التى كنت أجلس تحتها للمذاكرة أيام الفقر ، فلما أن أشتريت هـذه الأرض استأجرها مؤجرون من الفلاحين فزرعوها قطنا فتوجهت يوما لتلك الأرض وأخذت أجوب جنباتها وأجول فى عرصاتها وقد أعجبنى القطن فتذكرت أيام الفاقة إذ كنت أجلس تحت الشجرات ولا أملكها فأخذت من شدّة الفرح أغنى لهذه النعمة التى نلتها . فهذا المدرّس رأى أن غاية نعم الحياة انه يملك هذه الأرض ولما أحسّ بالنعمة أخذ يغنى ونسى انه من الجامع الأزهر وانه كبرت سنه وان الله يقول ـ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ـ ونسى قوله تعالى ـ إن الله لايحب الفرحين ـ وكان خيرا له حينما رأى هذه النعمة وتذكرها أن يكثر من الاستغفار كما قال تعالى لنبيه ﷺ ـ اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا ـ

فأما الرجلان ببلاد الفلاحين بالشرقية فان أحدهما وكان له مقام واحترام بينهم قال « ما القصد من

الحياة ، القصد منها أنى اذا كنت ألبس قفطانا لا أنزل الى ملابس الفقراء ، وأما الثانى فانى سمعته يقول ماالقصد من الحياة عندنا الجاموسة والبقرة وفيهما اللبن وعندنا الذرة فنحن والحمد لله أغنياء

وانما ذكرت هذا لك أيها الذكى لأذكرك بما تعرف من الناس حولك فجميع أهل الأرض لايخرجون عن أمثال ماذكرته الآن ولكن العلم والحكمة والدين تخرج الانسان من فكرة العامة الى مقام العلماء وآداب الحكماء واذ ذاك يعرف الانسان قوله تعالى ــ وان الدار الآخرة لهى الحيوان لوكانوا يعلمون ــ

فياليت شعرى ماهى الوزارة قصيرة الأجل وماهى الثروة والمال لاسيما لمن كبرت سنه فهى إن دامت له فرضا فان حياته وصحته لايدومان . انتهى والحمد لله رب العالمين

﴿ خاتمة السورة ﴾

(خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام فى زماننا والذين سيقرءون أمثال هذا الكتاب ومن بعدهم)

تقول العنكبوت . أيها العلماء إنى آية لكم لا للجهال . ألم تروا انكم تبنون بيوتكم بطين تحرقونه فيصير آجرا وبه تبنون القصور والسور وتلبسون ملابسكم مما تستنبتونه فى الأرض من الكتان والقطن وماتستخرجونه من الحرير الذى ينسجه الدود وتستعينون بالحديد والخشب على اكمال البناء وتشييد القصور وصنع السفن فى البحار والطيران فى الهواء . فأنتم تبنون وتلبسون وتركبون بآلات مختلفات . أما أنا فلى مصنع واحد فى جسمى منه أبنى بيتى وأصنع طيارتى وأصطاد فريستى وأبنى قنطرتى فأم مقام الخشب والحديد والطين وأحراقه والقطن وغزله ونسجه ومايتبع ذلك من آلات تنسج وتغزل وأخرى لسقى الأرض ولتنقية الحشيش الخ فدنيا كم كلها قد حيزت لى بأكملها وهذا المصنع الذى فى جسمى انما هو من غذائى الذى تستقذرونه . أنا التى أكلت الحشرات الفاتكات بزرعكم الملطفات لجوكم بتعاطى المواد العفنة فأنا أتلفتها وافترستها بعد أن أدّت وظيفتها لكم ولم يبق إلا ضررها . فهذه تنقلب فى جسمى فى محل مخصوص مايشبه الحرير أوالقطن أو الكتان . هذا هو المصنع الذى أعطانيه ربى فأم مقام آجركم وخشبكم وحديدكم وقطنكم ونيلكم ولم أحتج الى نجار لبناء سفينتى ولا بناء لبيتى ولامهندس لجدرانه ولا آلة بخارية لسقى قطنى . بل مخزنى الذى اختصنى به الله هو الذى كفانى كل ما أحتاج اليه وهذا أيها العقلاء فى كتابكم . يقول الله ــ وان من شئ إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم ــ فهذه إحدى خزائنه خصنى بها وحرم سواى وهو باطرالى راحتى بها . أفلستم ترون أيها المفكرون فى هذا العالم انى أكفيكم فى معرفة منظم هذا الكون الذى أحسن كل شئ خلقه . أفلاترون أن هذا هو الحسن والجمال فقد أحسن الله خلقى ولكن لايعرفنى إلا العلماء المفكرون . فان أردتم دليلا على ربى فأنا أكبر دليل بل نظامى وحده كنظام السموات والأرض وان نظرتم الى أمر المدنية والرقى فأنا مع ضعفى وان بيتى أضعف البيوت . بنيت على الشجر فى أرضكم بيوتى واتخذت سفنا فى بحاركم وأنتم تجهلون وظيفتى بينكم ولاتعلمون انى حارسة لحقلكم وطرت فى الجوّ بطيارتى . أفلاتخجلون أيها المسلمون أن أطير بآلتى المنسوجة من غزل جسمى وقد قلدنى الفرنجة وأنتم لاتقلدون وفى آيات ربكم لاتفكرون

هذا هو بعض معنى قوله تعالى ــ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ــ انتهى تفسير هذه السورة ليلة الخميس الخامس من شهر مارس سنة ١٩٢٥ م والحمد لله ربّ العالمين

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع عشر من كتاب «الجواهر» فى تفسير القرآن الكريم
ويليه الجزء الخامس عشر * وأوّله تفسير سورة الروم)

(الخطأ والصواب)

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلاتنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك وهاهوذا

صحيفة	سطر	خطأ	صواب	صحيفة	سطر	خطا	صواب
٣	١١	فهم كيفية	كيفية فهم	٨٠	١٤	وامضت	وأقضت
٥	١٤	مع	مع جواز	٨١	٢٣	الاستغفار	الاستغفار وسنزيده
٧	١١	لازمة	لازمه				ياماقريبا فى الجوهرة
٩	٨	طيبيا ومهندسا	نبيا وملكا				الثانية
		و إلهيا	وحكيما	٨٤	٣٥	مينا	مينا كما تقدم
١٤	٣	لينذر	لتنذر	١٠٠	١٤	ثلاث	ثلاثا
٢٠	٢١	مذبذبين	مذنبين	١١٦	١٧	غارات	قارات
٢٢	٢	ان موسى	ان موسى لما هم	١٢٣	٢٥	ماهوماتحته	ماهو تحته
٢٢	٤	لما هم		١٢٥	٦	الضيقة	الضيعة
٢٨	٣٢	المربعة	المكعبة	١٢٦	٤	٤ر١٢٦	٤ر٢٢٦
٢٩	٢٩	غربية	عربية	١٣٠	١٣	يربح	يربح
٣٢	١٣	بغيرهذه المباحث		١٣١	٣	الطبيعة	الطبيعية
٣٢	٣٣	ه	ها	١٣٩	٧	كرتين	كرتين
٣٤	٦	عن	من	١٣٩	٢٢	عنكبوتا	
٣٩	١٩	حاسة الذوق هى	حاسة الذوق	١٤١	١٨	التفسير	الكتاب
٣٩	١٩	ليتشاوروا معه	ليتشاوروا	١٤١	٢٠	النمل	النحل
٤٠	١٠	بصناعة يدها	بصناعة اليد	١٤٤	٧	النمل	النحل
٤٦	٢٢	البطين	الأذين	١٤٤	٧	النمل	النحل
٤٧	٩	الأعلين	الأعليين	١٤٩	١١	فهذه القوة المرسومة	فهذه الكرة
٥١	١١	هذه	هذا			أمامنا	المرسومة المتقدمة
٥١	١٨	تغذوها	تغذوها	١٦٤	٤	محى	محى
٦٦	١٥	بقوله	بتنوء	١٦٨	٢٦	الصواب	الى الصواب
٦٨	٦	فى المراتين	فى المرائين	١٦٨	٢٩	مختلفان	مختلفتان
٦٩	٢	وجهل	لجهل	١٦٨	٣٠	ومن الغيرمتعصبين	ومن غيرالمتعصبين
٧٢	٢٨	ويحضوهم	ويحضونهم	١٦٩	١٤	ولو	
٧٣	٢٧	وهوذلك	فى قوله تعالى	١٧٤	٣٣	العرب	الغرب
٧٤	٣٥	ولاتتجزأ	ولا تتجزأ الى	١٧٥	١٣	ياصول	باصول
			عناصر أخرى	١٧٧	٧	المحاط	المحوط
٧٥	١١	فدمّا	فدما	١٧٧	٣٤	الأطفال	بالأطفال

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨٠	١٣	وهى الزبور والتوراة والقرآن الخ (هذا منقول من أصل الترجمه)	وهى التوراة والانجيل والقرآن ، والقرآن بالنسبة للانجيل كالانجيل بالنسبة للتوراة
١٨١	٩	عليه	
١٨٣	٢١	سواق	سوق
١٨٤	١٦	قدتنصروا مسيحيين	مسيحيين حقا
١٨٥	٥	حقا صراحا	حق صراح
١٨٨	٩	وعطامهم	وعظمائهم
١٨٨	١٤	السكون	للسكون
١٨٨	٣٤	بعد	بعد واحد
١٩٠	٦	يذهب	تذهب
١٩١	٨	يهصب	يهطل
١٩١	١١	قيص	قمص
١٩١	١٥	شاعريه	شاعر به
١٩١	١٨	الموحشه	المتوحشه
١٩١	٣٠	أتهم	اتهم
٢٠٧	٢٣	أحدهم معيده	أحد تلاميذه

﴿ تمت ﴾

فهرس

فهرست

الجزء الرابع عشر

(من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم)

صحيفة

صحيفة

مستنتجة من آيات هذه السورة تراها مفصلة

١٣ فأما العشرة التى هى من الله فهى الإلهام ، إجابة الدعاء ، شدّ الازر ، النصر والنجاة من الضر ، الهداية حسن السمعة ، القرب من الله ، التمكن من الخلافة فى الأرض ، انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ، فهذه من الله فى مقابلة العشرة الأولى

١٤ تقسيم السورة وهى ﴿ أربعة أقسام * القسم الأول ﴾ من أولها الى قوله ـ لعلهم يتذكرون ـ

١٦ التفسير اللفظى لهذا القسم

١٧ ﴿ الفصل الأول ﴾ فى قوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ الخ وملخص هذا الفصل علوّه فى الأرض . استضعافه حزبا من أحزاب مصر . قتل الأبناء . استبقاء النساء . انه مفسد . فهذه خمسة قابلها بنظيرها وهى (انه يمنّ على المستضعفين . ويجعلهم أئمة ، ويجعلهم الوارثين ، ويمكن لهم فى الأرض ويرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)

١٧ رأى (سقراط) فى السياسة وهى عنده ﴿ خمس درجات ﴾ درجة الفلاسفة فقوّاد الجيوش فالأغنياء فالحكم الديموقراطى أى حكم المجموع فالحكم الاستبدادى

١٨ البولشفية فى مصر قبل (٤٠٠٠) سنة مصداقا لهذه الآية ـ ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ـ و بيان أن فرنسا لم تقم ثورتها إلا بعد أن تهيأت لها الأذهان فى القرن الثامن عشر وهكذا دولة الروس لم يقتلوا القيصر فى زماننا إلا بعد شيوع الآراء البلشفية فيها هكذا حكم الأمة المصرية قديما فالأسرة التاسعة كان فيها مفكرون فزعزعوا العقائد فلما جاءت الأسرة العاشرة هزم فرعون مصر أمام جيوش الخارجين عليه وأصبحت البلاد فوضى . و بيان ما قاله الكاتب (ابفور) للملك وهو غائب « ان الفقراء أخذوا مال الأغنياء وأصبح من كان يلبس الملابس الفاخرة لا يلبس إلا الأهدام البالية » فالأغنياء قديما فى حزن والفقراء فى فرح . وأبان أن الحاكم بعثروها وخربت وأن الأمراء والأميرات جاعوا الخ هذه هى الحادثة الأولى . أما ﴿ الحادثة الثانية ﴾ التى جاءت مصداقا لهذه الآية فهى أن الأمة الانجليزية اليوم قد انتصر فيها العمال بالاضرب والوزير اليوم عامل منهم كان فقيرا يسمى (ما كدونالد) ومعه من الوزراء عاملة كانت فقيرة تسمى (مس بوند فيلد) . الكلام على اللطائف الإلهية لانقاذ بنى اسرائيل

٢٠ وهذه اللطائف (١٣) بتمامها أنقذ بنو اسرائيل من الوحى الى أم موسى والتقاط آل فرعون له وخوف أم موسى وانه أوتى علما وحكمة وقتله القبطى ووروده ماء مدين وسقيه لابنتى شعيب وتزوّجه باحداهما وارسال موسى عليه السلام وظهور المعجزات وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وأن موسى أوتى الكتاب فهذه (١٣) لطيفة

٢٦ بيان أن هذه الحوادث ابتدئت بفكرة خطرت لأم موسى فاتبعتها ولم تيأس من رحمة الله . و بيان أن هذا الخاطر يخطر كثيرا لأمم الاسلام الحاضرة الآن ليخرجوا من الذل ولكن يعرضون عنها ولكن الله معونته عامّة ولاينالها إلا من تعرّضوا لها

٢٧ ﴿ نظرة المسلمين فى هذا الزمان ﴾ سينظر مسلمو هذا الزمان فى القصص فيقولون « اذا نجا بنو اسرائيل بإلهام خطر لأم موسى ولم تتركه فرفع منار أمّتها ؟ فكيف نترك نحن خواطرنا الشريفة للخروج من الذل ؟ أليس هذا يأسا من رحمة الله الذى ملأ العقول بالأفكار الجليلة ولامثبط للمسلمين إلا بعض الشيوخ الجاهلين فهم كسحب حجبت نور شمس الرحمة و بعض أولئك الذين يضيعون أوقاتهم فى تحقيق أصل هذه القصص

صحيفة

٢٨ هنا لطائف مثل ان الناس يتعجبون من أم موسى والوقائع التى بها نجا بنو اسرائيل . وماهذه العجائب بعجائب السحر الحلال فى غرائب المخلوقات وبدائعها إلا كواحد بالنسبة لآلاف . ومثل ان الله فى كل زمان أناسا لهم نزعات بها يرفع الضعفاء ويذل الأقوياء مثل ماحصل (ماركس الألمانى) الذى قال للناس « إن نظام الحكومات فاسد » فهذه الفكرة سرت فى بلاد الروس وقتلت القيصر وبانقلاب هذا النظام استقلت أمة الفرس التى كانت نهبا مقسما بين انكلترا وروسيا القديمة القيصرية . فهذه فكرة ألمانية امتدت آثارها الى بلاد الفرس وغيرها فهى كامتداد إلهام أم موسى من نجاة ابنها الى نجاة أمتها

٢٩ ذكر البلاغة التى رآها الأصمعى فى كلام الفتاة عند الكعبة وقولها له « أتعد هذا بلاغة بعد قول الله تعالى ـ وأوحينا الى أم موسى ـ الخ » ولكن مانكتبه فى هذا التفسير هو المقصود لا البلاغة اللفظية التى عكف عليها الكثيرون

٣٠ بيان أن البلاغة المشهورة للمبتدئين ووراءها خزائن العلم ومنها ماجاء فى هذا التفسير فالاقتصار على الايجاز والاطناب والجناس نقص وكيف تستوى البلاغة اللفظية والمعانى الكامنة فى مسألة العصا وعجل السامرى وأن ذلك جاء لتعليمنا أن المدار على الحقائق لاعلى الظواهر . إن الاسلام رحمة للشرق والعرب فانظر الألفاظ العربية فى لغات أوروبا مثل العود وأمير البحر والحبل والخزن ، وهكذا أخذت أوروبا الأرقام الهندية والجبر والهندسة وهكذا

٣١ جوهرة فى قوله تعالى ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ أنت يا الله رفعت آباءنا العرب فبذروا بذور العلم فى الأمم ثم دالت دولتهم وهاهى ذه تريد الرقى وهذا كتابك أقرءه وقد جاء فى زمان اطلعت فيه على سياسات الأمم قديما وحديثا ففهمنا يارب معنى قولك ـ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ـ ومعنى ـ إن الملوك اذا دخلوا قرية ـ الخ وذلك موافق لقولك هنا ـ إن فرعون علا فى الأرض ـ . أول هذه السورة علو وافساد وآخرها بغى قارون على قومه وفرحه وفساده فى الأرض فأولها كآخرها ، إن إفساد بعض المسلمين فى الأرض جاء فى قوله تعالى ـ فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا ـ الخ وقد جهل كثير من الأمم الاسلامية أمر الغنائم التى أحلت لرقى الانسان فلما اتخذوها للذات أزال الله ملكهم ، ويشير لذلك خوفه ﷺ علينا من فتوح البلدان وقال انه أخوف مايخاف علينا وقد تم ذلك فعلا وقد فهم أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وعلى أمثال قصة قارون هنا وفهموا قوله تعالى ـ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ـ فلذلك تورعوا عن الأخذ من الغنائم ولم يتورع كثير من الملوك ومن قرأ (الكوخ الهندى) و (الغزقابس) أدرك أن العلم والدين متحدان فى هذه الآداب

٣٣ وهكذا ستقرأ أيها الذكى رسالتى (مرآة الفلسفة) عند قوله تعالى ـ فاعلم أنه لا إله إلا الله ـ اجمال الفلسفة وأن (أفلاطون) و(سقراط) اتجها لترك زينة الدنيا وهكذا (كنت) الألمانى وهذا عجيب

٣٤ ﴿ القسم الثانى ﴾ من قوله ـ ولولا أن تصيبهم مصيبة ـ الى ـ فعسى أن يكون من المفلحين ـ ثم تفسيره اللفظى

٣٨ جوهرة فى قوله تعالى ـ ولقد وصلنا لهم القول ـ وبيان أنواع التوصيل فان الحرارة والبرودة تصلان بحاسة اللمس والمذوقات بحاسة الذوق والمشمومات توصل بحاسة الشم والألوان والأضواء والأشكال بحاسة البصر والأصوات والموسيقى بحاسة السمع ولكن التوصيل بالوحى أبعد مدى من توصيل الألوان بالبصر لأن نور الكواكب آت من مدى بعيد جدا يصل لنا بطرق البصر ولكن الوحى أبعد مدى لأنه أتى الى الروح من الله تعالى لامن الكوكب فهذه هى الحكمة فى ذكر التوصيل ، ولهذا المقال ﴿ نتيجتان ﴾

صحيفة

أولاهما ﴾ ان العلوم يجب أن تتنوّع طرقها كما نوّع الله لنا التوصيل بطرق مختلفة ﴿ثانيهما﴾ ان جسمنا يستفيد من كل مايحيط به وهذا هداية لنا أن نستفيد من كل حادث يحدث لنا

٤١ ﴿القسم الثالث﴾ من قوله — وربك يخلق مايشاء ويختار — الى قوله تعالى — وضل عنهم ما كانوا يفترون — ثم تفسيره اللفظى

٤٣ عجائب القرآن فى هذه الآيات — وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون — وبيان أن حمد كل امرئ على مقتضى إحساسه بالنعمة كالفقير والمريض والدليل اذا أحسّ بالغنى والشفاء والعزّ وهذه صفة عبيد السوء ألا يعرفوا النعمة إلا بضدها ، أما المصطفون الأخيار فليس يتوقف حمدهم على ايذائهم فهم يدرسون الكواكب والعوالم كلها ويفهمون الحمد فى الفاتحة ، ومتى حمد المسلم فى الدنيا حمد يوم القيامة وأغلب حمد الناس اليوم لفظى وبيان معنى الحمد فى الفاتحة فهو على رحمة موجهة للأجسام وأخرى للعقول ، وفى هذه الآيات تقديس وتوحيد وحمد

٤٤ النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر وهذه الآية ذكر فيها أعظمها . نمط آخر فى تفسير هذه الآية ، بيان أن الشكر أعمّ من الحمد وأن الشكر يكون باللسان والقلب والعمل وأسّ هذه الثلاثة العلم ومجامع النعم وأضدادها جمعت هنا ، النعمة موهبة والنقمة تسوق اليها ، وهذا كله جمع فى الليل والنهار ، النهار نعمة والليل عدمها ، وهذا كله بالحركة ، فالحركة كان منها الليل والنهار وفيهما الخير والشر ، ونتج من ذلك كله الأضداد جبل واد بحر برّ خصب جدب وهكذا ، وفى الناس (أعمى . بصير . أصم . سميع) وهكذا وهذا قوله — ومن كل شئ خلقنا زوجين — الخ ثم بيان أن الله يغضب على كل أمة نامت عن علوم الانسان والحيوان والسماء الخ

٤٦ هنا ﴿أربع جواهر * الجوهرة الأولى﴾ فى قوله تعالى — وربك يخلق مايشاء ويختار — ومما اختاره الله انه وضع القلب مقسما أربع تجويفات والدم متى قابل الهواء الجوّى دخل فى الجهة اليسرى من أعلى ثم نزل الى أسفل ثم ينتشر فى البدن ثم يرجع بالكربون فيدخل فى أعلى الناحية اليمنى ثم فى أسفلها ثم يتجه الى الرئتين وهكذا ، ولكن هذه الدورة تكون فى الجنين على غير هذا الأسلوب لأن الدم الذى يدخل اليه يكون شريانيا لا مادّة فحمية فيه لأن رئة أمه تقوم مقام رئته ، انظر وتعجب كيف تكون الدورة مختصرة فيه وعند الوضع يغير نظام الدورة حالا وتصير تامة فان الحاجز الذى بين الأذين الأيمن والأذين الأيسر لا يكون له وجود فى الجنين ولكن عند الولادة يقفل هذا الحاجز حالا لتتم الدورة ولولا هذا الاقفال لاتصل الدم الوريدى بالدم الشريانى وعاش الناس مرضى أمد الحياة ضعاف الأبدان

٤٨ ومما اختاره الله انه خلق الفيل (المصوّر فى صفحة ٤٨) وخلق أباقردان ينقى الدود الذى يؤذيه فهنا اتحد ساكن الأرض وساكن الهواء على نظام الحياة ، فأما نوع الانسان الذى اتحد فى المسكن والخلق فقد عجز عن هذا الاتحاد ، ويؤخذ من هذا ﴿درسان * الدرس الأوّل﴾ دراسة أسماء الله الحسنى على هذه الصورة مثل (القدّوس السلام العزيز الخ) فهو مقدّس عن أن يخلق داء إلا خلق له دواء وهو السلام الذى أعطى الأمان للفيل ولأبى قردان وهو الجبار حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه الخ

﴿الدرس الثانى﴾ خطابى لأهل الشرق والعرب وتذكير الأمم كلها بأن أخلاقهم كأخلاق النمل فهو يأسر ويستخدم أعداءه ولم يقدروا أن يصنعوا ماصنعه أبو قردان والفيل فى الاتحاد على المنافع

٥٠ ﴿الجوهرة الثانية﴾ — وهو الله لا إله إلا هو — الى قوله — واليه ترجعون — ومناسبة هذه الآية لمحاورة (طيماوس الحكيم) مع (سقراط) واستعانته بالله فى شروعه فى معرفة مبدأ العالم ثم أثبت أن العالم حادث

وان

صحيفة

وأن المادة كانت مضطربة فثبتها الله بالعقول والنفوس والعالم كله صورة حيوان واحد فهو عقل جعل فى نفس جعلت فى مادة وهذا الحيوان من العناصر الأربعة فى نظره ، قال وقبل هذا التكوين لم يكن ليل ولا نهار ، فهما ما حصلا إلا بعد تكوين الأفلاك ، والليل والنهار كانا بسبب الشمس وبهما كانت الشهور والسنون ، ثم إن الشمس والقمر والكواكب كلها فيها أرواح تديرها وهم الملائكة ، ثم أسكن الله تلك الكواكب أرواحا جزئية وخاطبها قائلا « أنتم من عنصر الملائكة وسأنزلكم الى المادة واركب فيكم الشهوة فمن اتبعها نزل الى الحضيض بحسب الشهوة التى غلبت عليه ومن استقام أرجعه الى كوكبه وقال للملائكة أنتم دائمون قربوا هذه الأرواح الجزئية » وهنا بيان ما هو موافق للاسلام وما لا يوافق ، ثم أبان طاوس فائدة البصر وانه نار فى العين يلاقى نارا من الشمس يعيدنا معرفة السماء والعالم ، وبهذا نعرف الشهور والأعوام ويحدث فينا عشق الفلسفة ، وهنا دهش مؤلف هذا التفسير من هذا البيان العجيب فى صنع الله تعالى الذى لا يفطن فيه كثير من المسلمين

٥٢ ﴿ الجوهرة الثانية ﴾ فى قوله تعالى — قل أرأيتم — الخ ههنا حديث الحارث بن همام الذى رأى انه مات وارتفعت روحه وجاءت فى نور بهيج وكان الحق يخاطبه وانه قال له « ياعبدى أنا أحبك » وبرهن له على ذلك بأنه شغله مدة حياته فى البحث عنه والتفكر فى أعماله وانه لن يحب أحد الله إلا اذا كان الله أحبه من قبل ، وأفاده أيضا انه خلق العالم كله لأجله فدهش من هذه الجملة وضرب له المثل بالأب والأم وباقى الأسرة فان كل واحد منهم يقول جميع الأسرة مخلوقون لى بدليل أن كل واحد من الأسرة جعل نافعا للجميع . فهكذا الأمم والدول والأرض وما عليها والشمس والقمر والكواكب كلها تخدم الانسان الواحد وليس يعقل هذا إلا من درس أمثال هذا التفسير بل كل الانسان فى الأرض أشبه باليتيم لاحتياجه الى كل العوالم فآواه الله بها ، ومن أحس من الناس بهذا الحب حقيقة فان روحه قد ارتقت وغيرها لا تزال ناقصة وبيان أن هذا الحب يظهر عند مناظر الابداع فى الطير والنبات وغيرهما وبيان أن الناس بالنسبة للجمال على ﴿ قسمين ﴾ قسم بهيم به وقسم بليد لا يهيم ، ثم أبان أن الأرواح الأرضية لها صلة بأرواح عالية وهذه الأرواح الأرضية لا قدرة لها على استيعاب هذا الجمال فسلط عليها المرض والحسد والذل الخ لئلا تهلك بسبب هذا الجمال

٥٥ ﴿ الجوهرة الرابعة ﴾ — ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار — الخ وبيان أن قواطع الانسان عن الكمال إيذاء الأعداء من الخارج ومطامع النفس من الداخل فلابد من صبر على الأول وعن الثانى . ثم إن أمر الله بالتسبيح والتحميد لا تقوم به حقا إلا بالعلم . فالحمد على نعمة غير معروفة حمد لفظى والعلم لا يتم إلا بعد زوال هذه القواطع . يقول المؤلف ليقف الانسان قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويتأمل هذا الجمال البديع والنفس لما كانت من عوالم عالية لم ترض من العلم إلا باستيعابه فهى أبدا مجدة فيه ومتى عرفت اطمأنت . وقراءة هذا التفسير كافية وبقراءته هو وأمثاله يعرف سر كون رضوان خازن الجنة ففيه معنى الرضا . وهذا الذى اتصف بما ذكر يعرف أن الموت نقمة مقدمة لنعمة . إذن هو وكل شر مقدمات للنعم . هذه هى الرحمة العلمية . أما الرحمة العملية فان الانسان يرى كل طير وكل حشرة متمتعات بنعم ربها فى الهواء والشمس والانسان هو الذى حكم عليه بالحجاب عنهما فى منازله وضل بالتكاثر بالمال والولد والزينة والزخرف واللذات البدنية والاكثار من الملابس وغيرها ولذلك الاشارة بقصة آدم فى سور كثيرة . ولقد عمهم الله بنور الشمس فحرموا منه عما تقدم وحظى به كل حيوان ولقد علم الناس ذلك اليوم فى ألمانيا وفرنسا فأخذوا يعلمون التلاميذ فى الخلاء

صحيفة

٧٣ وهنا لطائف فى قوله ــ فخرج على قومه فى زينته ــ وفى قوله ــ تلك الدار الآخرة نجعلها ــ الخ وفى الموازنة بين فهم الصحابة و بين فهمنا ، وذكر حكاية الربيع بن زياد ويرفأ مولى عمر وترك عمر المآكل الفاخرة اتباعا للقرآن

٧٤ الكشف الحديث فى قوله تعالى ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ الخ و بيان النظرية القديمة وهى « إن السموات قديمة لاتنحل ولاتفنى » ثم بطلت هذه النظرية وقال لافوازيه « المادة لاتنعدم ولاتتجدد » الرأى الحديث للعلامة (جوستاف لوبون) إذ قال « إن الراديوم يخرج ضوءه فتنحل به العناصر الأخرى و ينقص وزنها » ومعنى هذا أن الم[illegible]نعدم . إذن كل شئ هالك حتى المادة تنعدم . ظهور الوحدة فى النبات والحيوان

٧٧ هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ؟ وهل العوالم صائرة الى الزوال ؟ يقول قدماء الفلاسفة « إن المادة وجودها ضعيف » مستدلين بأننا لم نعرف إلا الأوصاف كالثقل والخفة الخ ويقول علماء العصر الحاضر « إن كل مانراه من المخلوقات الأرضية والسماوية ماهو إلا حركات فى الأثير ، وتنوع هذه الحركات يظهرها لنا شمسا وقمرا وقمحا وقطنا وذهبا وفضة

٧٨ بيان أن الأوضاع مقلوبة ، نرى الشمس جارية حول الأرض والحقيقة هو العكس ونرى المادة موجودة والحقيقة أن لا مادة ، آراء أفلاطون يقول « إن هذه المادة لاثبات لها ولاتصح مناطا للعلم » وأرجع العلم للمثل الأفلاطونية

٧٩ يسبح المؤلف ربه ويحمده إذ عرفه أن أهل الهند يقولون « إن أصل المادة عقل » وأن علماء اليونان يقولون « إن الكيفيات المحسوسة البالغة (٣٦) مفرقة على حواسنا فأين المادة ؟ » وهكذا أقوال علماء العصر الحاضر ونظرية (اينشتين) الألمانى . كل هؤلاء يقرءون ــ كل شئ هالك إلا وجهه ــ هل العوالم صائرة للزوال ؟ أما عند العلماء . فهى زائلة الآن فلاشئ إلا الحركات . وأما عند حواسنا جميعا فان هذه المظاهر التى تتأثر بها تلك الحواس ستذهب فى مستقبل الزمان . إذن كل شئ هالك الآن باعتبار وفى المستقبل باعتبار آخر

٨٠ الرأى الحديث « لاشئ يزيد على المادة ولكن كل شئ صائر الى الزوال » . ضرب مثل لفهم ما تقدم برجل أصيب بمرض عصبى فظهرت له الأشباح والناس لايرونها فاذا شفى من مرضه أصبح كالناس لايراها فنحن بهذه الحواس كذلك العصبى فاذا تركناها ظهرت لنا الحقائق . فالمادة بالتحقيق العلمى هالكة الآن وفى الظواهر ستهلك

٨١ ذكر سؤالين وردا على المؤلف إذ جعل النوع الانسانى أشبه بالمريض وجوابه على ذلك أن روحه من عالم النور وسقوطه فى الأرض كالمرض ولهذا رمز بقصة آدم و بهذا يفسر ــ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك ــ فلاذنب هنا إلا السجن فى المادة الطينية . أما السؤال الثانى فهو «كيف كان الكون صائرا للزوال » والجواب عليه مايصلح كلام (جوستاف لوبون) و بيان أن سرعة النور عند انحلال الرادوم (٢٠٠ر٠٠٠) كيلومتر فى الثانية ولوانهم قدروا أن يحولوا جراما من الحديد الى نور حين يعدم لكان عندنا قوة (٦٠٠٠) مليون و (٨٠٠) مليون حصان يجر قطارا حديديا حول الأرض أربع مرات

٨٣ خطاب المؤلف للأمة الاسلامية . يقول لها « هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا » وهذا سر قوله تعالى ــ قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم ومن عنده علم الكتاب ــ وهكذا

﴿ جوهرتان ＊ الجوهرة الأولى ﴾ فى سر ــ طسم ــ . طاء طس إشارة للطائفة والسين اشارة لذلها

صحيفة

واستعبادها والسين فى يستضعف و يستحيي والمفسدين وهذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها ولذلك
ترى الميم فى قوله ـ ونريد أن نمنّ ـ وفى ـ ونجعلهم أئمة ـ وفى ـ ونمكن ـ إذن ـ طسم ـ ملخص
السورة لأن ملخصها ﴿غرضان * الغرض الأوّل﴾ ان الطوائف الضعيفة لابدمن فوزها فالطاء للطائفة
والسين لذلها والميم لنصرها ﴿الغرض الثانى﴾ أن تحترس الأمم الاسلامية وغير الاسلامية من الغرور
واستضعاف الأمم فاذا قويت أمم اسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاداذا ظلمت ، واذا أصبحت فى ذل فالله
يقتص من الظالم للظلوم . كل ذلك فى (طسم)
﴿الجوهرة الثانية﴾ فى الكلام على الصلة بين آخر القصص وأوّل العنكبوت ، لقد ختمت الأولى بأن
قارون ابتلعته الأرض هو وأمواله وأن العوالم هالكة ، لذلك ابتدئت (سورة العنكبوت) بالتحريض
على الجهاد لنخلص من المادّة الطينية لنلقى الله
٨٤ نحن الآن ننتقل من سجن الى سجن فاذا خرجنا من سجن الجوع والشبق دخلنا فى سجنين آخرين
كحوز المال والترف وكالذرية التى نسعى لها ، فنحن خلقنا فى كبد . وقد ضرب له المثل بقصة آدم وقصة
قارون . وماجيع الذنوب التى فى الشرائع إلا آثار لما كمن فى هذه النفوس من الشهوة والغضب الخ
٨٥ بيان مايشير الى هذا المعنى عند الأمم السابقة وأن دين المسيحيين ماهو إلا صدى صوت ديانات تقدّمت
كما نقله علماء الألمان من لوحة بالعراق سنة ١٩٠٣ وهكذا
﴿تذييل﴾ حكمة ألقاها الله على قلوب بعض الصوفية وأن الشيخ الشعرانى سأل أستاذه الخوّاص عن
الذى يقول انى استغنى بالله عن الدنيا فقال «وجاهل لأن الاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله
٨٧ ﴿سورة العنكبوت﴾ وهى ﴿قسمان * القسم الأوّل﴾ من أوّل السورة الى قوله تعالى ـ ولكن كانوا
أنفسهم يظلمون ـ
٨٩ التفسير اللفظى وأن الجهاد يكون للشهوات ويكون للوالدين برّهما وللأصحاب اذا كفروا فلايطيعهم .
و بيان أن أسباب النزول فى هذه الآية مرتبكة
٩٠ تفسير ـ ولقد فتنا الذين من قبلهم ـ الخ
﴿جوهرة﴾ فى قوله تعالى ـ ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ـ وأن الجهاد ﴿نوعان﴾ جهاد داخلى
وجهاد خارجى . ومن الخارجى الذى يذكرنا بسعادة نوع الانسان وفيه صحة البدن واجتماع الأمم وترك
المخيط من الثياب وشرح حال هذا الجهاد بما جاء فى « الرحلة الحجازية » من أن لباس الاحرام والتعرض
للشمس راجع لأحوال الانسان الأولى كتمثال (كوفرين) من قدماء المصريين وكذلك التماثيل
الرومانية . فالأمم القديمة كلها كانت ملابسها كالاحرام الآن وهذا هو الذى ينشده علماء أوروبا الآن إذ
يعمد القوم كل سنة الى الجبال والى شواطئ البحار فلايسترون إلا عورتهم ويتلقون برودة الجوّ وحرارة
الشمس لتذهب الأمراض جمعا . إذن الحج أنزل ليرجع الناس كلهم الى حال واحدة فيصبحوا أمة
واحدة يتحدون فى الملابس والمدارس والتعاليم والأخلاق والاسلام دين الفطرة
٩٥ ﴿خطابى للمسلمين﴾ بيان أن الجهاد فى هذه الآية يشمل العادات والأعمال المدنية والصناعات و بيان
أن الله لم يدع الحاوت بلا إلهام إذ ألهمهم أن ينقشوا مايزاولون على الأحجار ليقرأه الخلف . فالحشرات
ملهمات والديانات أوحى الله بها وديننا فيه كنوز تظهر الآن وهذا التفسير نعمة وفى الصلاة كنوز العلم .
و بيان أن المؤلف قد عوتب فى النوم على أنه لم يحضر قلبه فى الصلاة فاتعظ بهذا واستفاد فوائد فى نفس
هذا التفسير

الى ملك عمان فدعاه ودعا أخاه الى الاسلام وأرسل الكتاب مع عمرو بن العاص . وفى هذا المقام محاورة بينهما و بين عمرو بن العاص وانتهى الأمر باسلامهما
١٠٦ وبعث العلاء بن الحضرمى الى المنذر بن ساوى أمير البحرين فأسلم وأسلم أكثر أهل بلاده . والى ملك الحبشة النجاشى فأسلم
١٠٧ والى عظيم الفرس كسرى فدعاه الى الاسلام فمزق الكتاب فمزق الله ملكه فى زمن عمر اجابة لدعائه ﷺ عليه والى المقوقس ملك مصر مع حاطب بن أبى بلتعة . وهنا تعجب أيها الذكى من هؤلاء الصحابة الكرام وكيف يحاورون هؤلاء الملوك والأمراء ويقنعونهم فى الخطاب ويحاجونهم وأكثرهم أميون
١٠٨ والى ملك الروم وقد أمره ﷺ بالاسلام فأطل على قومه فأشار عليهم بالاسلام فغضبوا ثم أرضاهم بأنه كان يختبرهم . وهنا يتعجب العقلاء فى الاسلام من قول حاطب بن أبى بلتعة للمقوقس « لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به »
بيان عام فى أمر الجهاد وذكر أن المصلى يكرر الرحمة والتربية فى الصلاة وأن هذه الرحمة بها تآلفت الطيور والحمامات وتعلم الفلاسفة بها ضرب الأمثال لتآلف العالم وهكذا نبينا ﷺ إذ خاطب الملوك للاتحاد العام
١٠٩ زيادة ايضاح و بيان أن المهديين الى الصراط المستقيم المذكورين فى الفاتحة يجب أن يكون لهم السلطان على المغضوب عليهم والضالين ولهذا قال ــ قل يا أهل الكتاب ــ الخ ثم إن هؤلاء الصحابة كانت لهم لذة روحية بها تحملوا هذه المشاق و بها حرم سيدنا عمر أموال العالم عليه وعلى ابنه فخلف من بعدهم خلف افتتنوا باللذات بعد الغزوات وجهلوا آية ــ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ــ الخ
١١٠ وقد شرع العتق ليكون الغالب والمغلوب أمة واحدة فلما ظلم المسلمون خربت بيوتهم وانكمشوا لأنهم أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا . فانظر مايقوله (سديو) الفرنسى فى سبب انحطاط أسلافنا العرب فى اسبانيا فانهم لما طردوا الموحدين تفرقوا هم شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فأخذهم الفرنج مملكة مملكة . وقاتل (فريننـد) مع محمد الجار أهل أشبيلية المسلمين فخضعت لفريننـد
١١١ ذكر بعض ممالك شرق الأندلس إذ حاصرها جيش الأردمليش وقصر بن هود فى حاميتها وسد الماء الداخل لها فسلم القوم أنفسهم للفرنجة ومات كثير منهم بالعطش وكثير بالسيف
١١٢ ذكر بهجة ابنة أحد الموسرين إذ أسرها علج من العلوج فى منزل أبيها وعلى فراشه نفسه وهكذا فتاة أخرى كانت تغنى له لأنها كانت مغنية لأبيها وهكذا يفعل المسيحيون فى المسلمين ما فعله المسلمون بالمسيحيين ــ كل يوم هو فى شأن ــ
١١٣ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الاسلام . و بيان أن أمثال (روسو) و (فلتير) انما أيقظوا أوروبا بما قرؤه فى كتب المسلمين المنهوبة من مصر والأندلس كما تقدم وأن القسيسين والرهبان كانوا ظالمين وحركة الاسلام هى التى أوقفتهم عند حدهم
١١٤ بيان أن أهل فرنسا يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٦ م نالوا حقوق الانسان التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحيت امتيازات الأشراف
١١٥ ﴿ قصة نوح عليه السلام وتفسيرها ﴾ و بيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى وأن قارة (ليموريا) كانت تتصل بآسيا وقارة (اتلنتس) كانت وراء جبل طارق وكانت فدرافو يديا وآسيا معا ثم غطاها الاوقيانوس فغرقت . وهناك قارة كانت فى الاوقيانوس الباسيفيكى قرب سواحل أمريكا الجنوبية وأغرقها

صحيفة

الماء . وهناك قصة الطوفان فى ﴿ سجلات جلجميس ﴾ فى بابل ، وهناك قصة فى الصين ﴿ جغرافية العالم القديم ﴾ و بيان أن حيوانات مداغشقر مغايرة لحيوانات افريقيا مع قربها منها وحل هذه المشكلة أن هناك قارّة اختفت وهى (ليموريا) وانتقل حيوانها أيام وجودها الى مدغشقر

١١٦ وأما قارّة اتلنتس وقارّة الاوقيانوس الباسفيكى فان الأولى ذكرها أفلاطون والثانيـة عرفت بنقوش وجدت على صخور (جزيرة يستر) و بيان قصة التوراة وأوّلها « ورأى الرّب أن شرّ الانسان قد كثر فى الأرض الخ »

١١٧ القصة البابلية والصينية والهندية ، فالبابلية فيها أن (جلجميس الجبار) زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت فقصّ عليه قصص الطوفان و بناء الفلك وهى القصـة السومرية بعينها ، والقصتان الهندية والصينية تشيران الى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر كالبابلية عن فيضان دجلة والفرات وهناك فى شمالى العراق بعثة انجليزية تبحث فى بلاد (اور) عن قصة الطوفان

١١٨ الأدوار والأكوار فى اخوان الصفاء إذ يقولون إن البحر يصير برا و بالعكس فى مدة (٣٦) ألف سنة وهذه المدّة التى حدّدوها لادليل عليها بل هى أطول جدا . قصة ابراهيم عليه السلام وتفسيرها

١١٩ قصة لوط عليه السلام وقصة شعيب وعاد وثمود وموسى وتفسيرها اللفظى

١٢٠ الـكلام على معنى ــ أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ــ الى قوله ــ قل سيروا فى الأرض فانظروا ــ الخ و بيان أن السير ﴿ قسمان ﴾ جسمى وعقلى والثانى مرتب بعد الأوّل

١٢١ بيان انى كنت أشك فى هـذا الوجود وأنا شاب وأراه مبعثرا لانظام له وانى قلت انى اذا وقفت على الحقائق سعدت ، ولقد عرفت الحقائق بقدر طاقتى وألفت هـذه الـكتب كما عاهدت الله على ذلك . و بيان السلسلة المنظمة من الـكواكب ثم المواليد فالعناصر وأن الانسان مختص بمعرفة ذلك وأن الصلاة فى أدعيتها هذه المعانى الخ

١٢٢ نظام السموات ووضع الـكواكب فيها منظمة بأبعاد على مقتضى المتوالية الهندسية ونظام المواليد ونحوها هكذا (تراب . جص . ذهب . خضراء الدمن . كشوثى) وهكذا ثم (القرد وأدنى الانسان وأعلاه فالملائـكة والله فوق الجميع)

١٢٣ النظر فى المعادن مثل الاسفيداج والاسرب والاسمنديرى والفيروزج ومثل ان الألماس اذا دقّ بالمطرقة على الحديد لم ينكسر والياقوت لايعـمل فيه إلا الماس والسنباذج ولـكن الأسرب وهو جنس من الرصاص غير ناضج مسلط على الألماس . إذن الياقوت سيد المعادن و يعلو عليه الألماس و يحكم الألماس الاسرب . و بيان أن المعـدن كلما كنا أكثر احتياجا اليه كان أكثر والعكس بالعكس كالنحاس والذهب ، بيان العناصر عند علماء العصر الحاضر وانهم وجدوا أن الله قدرتبها بحسب وزنها الذّرى بحيث يزيد العنصر عمـا قبـله ذرّتين اثنتين تقريبا فى الصف الأفقى و يزيد ١٦ عما تحته فى الصف الرأسى وقد اشتركت الصفوف الأفقية كلها فى الخواص الـكيمائية والصفوف الرأسية تشترك فى الخواص الطبيعية كاللون والطعم والرائحة وهذا عجب أن ترتب ترتيبا أفقيا بحسب الذرات ويكون الاشتراك فى الصفوف الأفقية غـير الاشتراك فى الصفوف الرأسية . وهنا موازنة بين هذه الصفوف و بين صفوف الأوفاق المعروفة المنظمة عددا وأن هذه الصفوف المعدنية أدق وأعجب و بهذا نعرف بدائع الحكم الإلهية (انظر جدول وفق مخمس فى صفحة ١٢٥)

١٢٦ جدول العناصر

صحيفة

١٢٧ بيان أن (منديليف) الروسي الذي اخترع هذا الجدول سنة ١٨٦٩ أخبر بمعادن وعين محلها في الجدول قبل كشفها وقد تم ذلك كما أخبر ، و بيان أن ترتيب العناصر كترتيب الأفلاك

١٢٨ الكلام على الروديوم وعلى الذهب ونظام النفوس الإنسانية والملائكة وانه اذا كانت المعادن منظمة هذا النظام فمن باب أولى يكون نظام الأرواح ، وأن الناس يوما ما سيبحثون عن نظام أنفسهم ومتى عرفوه رتبوا لها جداول فارتقى الانسان ارتقاء لايعلم به الناس اليوم إذ يوضع كل امرئ في مركزه في العالم كما وضع كل معدن في مربعه في الصف

١٢٩ ذكر البارود والعناصر التي ركب منها عند الأمم وأن ذلك من كيفية بدء الخلق وكيف كان عند الفرنسيين والألمان والانجليز تلوين السواريخ بالبياض و بالزرقة و بالخضرة و بالصفرة ، و بيان الجمال في العالم والجمال في الوجوه والجمال في الموسيقي وأن ذلك كله بالنسب الهندسية وكله راجع للآية ـ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ـ فالله بدأ الخلق بهذا الحساب والنظام العجيب

١٣١ تعريف ابن المقفع للتربية وتعريف أفلاطون لها وملتون وجيمس وسبنسر و بعض علماء (بروسيا) كل هذه التعريفات ترجع للحركة الجسمية والعقلية في التربية وهما يرجعان لقوله تعالى ـ قل سيروا في الأرض فانظروا ـ أي بالحركة الجسمية والحركة العقلية فالآية شملت هذه التعريفات كلها

١٣٢ ﴿ اللطيفة السادسة ﴾ مقاصد الصلاة في الاسلام ، وتلخيص معاني أقوال المصلي في الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والاعتدال مثل ان الحامد عند الرفع لدراسة العالم العلوي وهي عند الركوع والسجود للحث على علم الطبيعة و بيان أن هذا تقدم في (سورة آل عمران)

١٣٣ بيان أن قول المصلي في آخر الصلاة « إنك حميد مجيد » لايتم إلا بمعرفة هذه العلوم ، و بيان أن نظام الدراسة في الأمم الآن جار على مقتضى ترتيب أدعية الصلاة ، فالابتدائي والثانوي نظير الثناء في الرفع والاعتدال الخ والمدارس العالية للتخصص كما ان الثناء في الركوع والسجود فيه تخصيص فهو كالمدارس العالية

﴿ اللطيفة السابعة ﴾ بيان أن المصريين كانت لهم أوفاق للكواكب السبعة يكتبون عليها أسماء الملائكة و يدعون لقضاء حاجاتهم

١٣٤ مثال ذلك الجدول المسبع المرقوم في هذه الصفحة ، ولعمري لم يكتب قدماؤهم تلك الأوفاق إلا ليشوقوهم لجمال الله فانحطت أخلاقهم فجعلوها لطلب الرزق كما انحطت عقول بعض المسلمين فجعلوا القرآن لأجل قضاء الحوائج وهذا هو الانتكاس

١٣٥ ﴿ القسم الثاني ﴾ من قوله تعالى ـ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ـ الى آخر السورة

١٣٧ التفسير اللفظي لهذا القسم

١٣٨ ﴿ اللطيفة الأولى ﴾ في قوله تعالى ـ وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت ـ

١٣٩ العنكبوت البناء وعنكبوت البساتين ، وكيف كانت أعمالها منظمة مهندسة ، وكيف أمسكت الشبكة الذباب ، وكيف أمكن النسيج أن يقاوم الرياح الهابة ، وكيف كان أبرع المهندسين يخطئ والعنكبوت لاتخطئ ، و بيان دقة خيط العنكبوت وأن غلظ خيطها يساوي واحدا من ١٦ مليون مليون من شعرة الذقن ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان شعرة من شعرات ذقن الانسان غلظها يساوي غلظ ١٦ مليون مليون خيط من خيوط العنكبوت

١٤١ و بيان أن هذا تشير له آية ـ لو كانوا يعلمون ـ و بيان أن خيط العنكبوت عند خروجه لايفهم منه

يكاد يجعل القرآن كله علما كالقرطبي ، وجواب المؤلف بأن هؤلاء أساتذتنا ، ولكن هذا زمان ظهور حقائق القرآن

١٥٣ ضرب مثل بالعنكبوت عرّفنا ﴿ أمرين ﴾ صنع الله بخلق العالم وصنع المخلوق وهي الأصنام و بيان أن كل من وقفت عقولهم مقهورون ، بيان تسجيل المؤلف على المسلمين جهلهم بمصنوعات الله تعالى

١٥٤ بيان أن الأمم التي تقلّ فائدتها أشبه بالذباب والتي تنفع تكون كالعنكبوت ، و بيان ماجاء في الاتقان أن معجزة نبينا ﷺ بالقرآن لأن فيها معاني تظهر في كل زمان

١٥٥ الكلام في آية — إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر — و بيان أن أدعية الصلاة وأذكارها قسمان قسم يعطى فكرة التسليم لله وذلك كزمان الليل مثل ذكر الرفع والركوع والسجود وقسم يعطى مثال الحركة والعمل وذلك كالنهار مثل طلب الهداية في الفاتحة والغفران في الجلوس بين السجدتين ، إذن بين الصلاة و بين الزمان موازنة وموافقة ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ انها أشبه بالعالم الذي نعيش فيه

١٥٦ بيان ما قاله طيماوس الحكيم « ان أمراض البدن يتبعها مرض النفس وهذا ثلاثة أقسام ، و يقول إن الشرّ تابع لسوء المزاج » و بيان ماقاله بنتام ﴿ ان النظافة والعمل تقللان الجرائم والعكس بالعكس وهذه النظافة من خواص الاسلام ﴾ و يقول علماء الهند ﴿ إن الانسان يجب عليه أن يكون في خياله صور جميلة لا تثير شهوة ﴾ ومثل ذلك مافي كتاب الاشارات (لابن سينا) إذ يقول « عشق الشمائل لا الصور يرقى النفوس وكذا العبادة مع الفكر ثم إن الصلاة مبدأ الأمرين رياضة البدن ورياضة النفس » و بالصلاة تقلّ الشرور لعدم القذارة والبطالة وتوجيه وجه المصلي للذي فطر السموات والأرض يجعله مفكرا في تلك العوالم الجميلة كما يقوله أهل الهند وابن سينا . إذن الصلاة مبدأ لصحة البدن وقوّة الروح . الكلام على سبب اسلام عبد الله كويلم الانجليزي وانه كان في الجزائر ورأى الوضوء والصلاة فدهش من أن ذلك نصف استحمام ودرس الاسلام ثم أسلم

١٥٨ ﴿ الصلاة اليوم في بلاد الاسلام ﴾ محادثة بيني و بين الطلبة بالمدرسة الخديوية وأنا مدرّس لهم إذ قلت « اننا اليوم قد خلعنا ربقة الروابط القديمة وأصبحنا نقلد أوروبا في كل شئ وتركنا الصلاة ولكنا أذلاء لكل الأمم ، أما أجدادنا المصلون الصائمون الذين يعتبرهم صغار العقول في زماننا غير جديرين بأعظم كمال فقد احترمتهم جميع الأمم » وجواب تلميذ بأن التلاميذ هنا لم يتعوّدوا الصلاة من الصغر فهم تاركوها الآن كما يتركها النساء ، و بيان ما كتبه كاتب انجليزي في إبان النهضة الوطنية إذ يقول ﴿ إن المتعلمين بمصر في هذا الزمان ليس عندهم مكارم أخلاق كالتي عند الفلاحين الذين ورثوا حبّ الله والفضائل والأهل والأقارب عن آبائهم ودينهم ، أما هؤلاء فقد تركوا ذلك ﴾

١٦٠ ذكر ما قاله والد معلم وليّ عهد الخديوى السابق (عباس باشا حلمى الثاني) و بيان ما قاله ناظر المدرسة الفرنسي له من تهكمه بالديانات وما أظهره له الفيلسوف البوذي يوم الأحد بالكنيسة وقوله ﴿ هاهو ذا يصلي فما قاله يقصد به هو وغيره أن نترك دياناتنا ليأخذوا بلادنا ﴾ ثم ذكر ما قاله أستاذنا الشيخ حسن الطويل ﴿ انه لما كان جنديا عاقبوه على انه كان يدعو الله لأن المتدينين ليسوا ينفعون في الجندية وذلك بعض أوروبا لهم وقد رفتوه وفرح

١٦١ بيان ماقاله محمد بك عرابي المشهور والده أن أهل سيلان يحافظون على الجماعة ومن أبي قتاوه ، و بيان ماقاله (هنرى) الفرنسي انه لما رأى المسلمين يصلون هاله الأمر وأدهشته الصلاة ، وممن يحافظون على الجماعة والصلاة الوهابية بنجد والحجاز وطالب الأزهر يقرأ ذلك ولكن عمل الناس على خلافه

صحيفة

١٦٢ ذكر ماجاء فى (كتاب الإحياء) من فضائل المكتوبة من الأحاديث والآثار مثل إن الصلوات الخمس كنهر بباب أحدكم الخ ومثل من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد الخ
الكلام على فضيلة اتمام الأركان وعلى فضيلة الجماعة وانها أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة
١٦٣ وههنا أقوال عثمان بن عفان وسعيد بن المسيب وأبى عبيدة بن الجراح والحسن وحاتم الأصم وابن عباس وميمون بن مهران والكلام على فضيلة السجود وأن العبد يكون أقرب الى الله وهو ساجد
١٦٤ الفاتحة وعلوم الحكمة و بيان أن علوم الحكمة كلها قد جمعت فى عشر كلمات وهى المقولات المعروفة مثل الجوهر والكم والكيف الخ وهذه الألفاظ شملت العلوم كلها فهكذا هذه الفاتحة شملت العلوم كلها كما تقدم فى تفسيرها مثل (رب) ومثل (العالمين) التى شملت العالم العلوى والسفلى كما ان الجوهر فى المقولات يشمل جميع الأفلاك والمواليد وهكذا ، والفاتحة لها مزية وهى أن الجاهل يتعبد بها أما المقولات فلا تصلح للعبادة وتكرارها لا يفيد معنى
١٦٥ (لطيفة) فى قوله تعالى ــ ولا تجادلوا أهل الكتاب ــ الخ و بيان أن الواعظ يسيطر على عقل الجاهل والحكيم يسيطر على عقل الخواص والأمراء على أجسام الناس والأنبياء على الجميع
١٦٦ جوهرة فى قوله تعالى ــ وكذلك أنزلنا اليك الكتاب ــ وفيها ﴿ ثلاثة فصول * الفصل الأول ﴾ فيما قاله اللورد هيدلى صديقنا ، يقول « إن أهل انكلترا يحبون العدل ولكن كان يجب عليهم أن يفهموا ماهو الاسلام » و بيان انه فى صغره درس القرآن واستنتج منه ما وافقه عليه الخواجه (كمال الدين) وذم المتعصبين من المسيحيين
١٦٨ بيان ميل الناس الى الالحاد لما يرون من أن عقائد الدين المسيحى غير صالحة للتعقل ، وهنا أبان تناقض العقائد المسيحية . قال اللورد هيدلى « المسيح لم يكن مشترعا ولا واضع قوانين فكيف اتبعناه فى أوروبا ، إن شريعته توجب ألا نأخذ بالثأر ولكن نحن ملزمون أن نعاقب الجانى زجرا للآخرين وهذا هو قانون الدين الاسلامى ، نحن فى أوروبا عجزنا عن حفظ المرأة وحفظ النسل ونحن أعظم أمة فى فى البحار وقوانيننا جلية ولكنها لا تنفذ ونحن لا نريد التعذيب للمجرمين فلو اعتنقنا الاسلام لسهل حكم مملكة نصف رعاياها من المسلمين ، لو عرفت أمتى الانجليزية أن الدين الاسلامى دين يرقى العقل لسعت الى اتباعه ، الاوروبيون ينظرون الى دين الاسلام كأنه وحشية وذلك بسبب المبشرين ، الاسلام أرفع من أن يكون له قوم مسيطرون غير الله بخلاف الدين المسيحى »
١٧٠ ثم قال أيضا ﴿ رؤساء الدين المسيحى يطلبون السلطة ولا عبادة لهم ولأتباعهم إلا نظام أيام الآحاد المحترمة عندهم لأنها تظهر فيها الملابس الجيلة ولهؤلاء الرؤساء أجرة من الجالسين فى المعبد على مقتضى الدرجات كدور التمثيل سواء بسواء ، إن ديانات أوروبا كلها خرافات القرون الوسطى فلا هى كدين المسيح ولا موسى الحقيقيين وانما البارونات واللوردات فى انكلترا كانوا يستعملون الشجعان للارهاب الجسمى والكتبة والاكليروس للارهاب الروحى ليحفظوا ما يملكون باحداث الهلع والفزع فى القلوب . إن شريعة محمد أعظم من شريعتى عيسى وموسى وان عظمتا . مصداق آية ــ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم ــ حاصل فى أوروبا حقا وصدقا
١٧١ وقال ﴿ديانة المسيح غيرها (سانت بولس) ثم ترجمت تلك التعاليم بتراجم مختلفة مغيرة ولكن الاسلام يكفى رغبات العالم ، فيه ان الله واحد قدوس ، أليس من المخجل أن نرى العقول البشرية الراقية تخضع لإفك الكهوتية وتحجب عن نظر السماء ومعرفة رب الجميع القهار الذى لا يفرق فى رحمته بين

الأولياء والقوم العادين الجهلاء ، إن مفتاح السماء في كل مكان وأقل المخلوقات يديرهذا المفتاح ، ولعمري ما دعا رؤساء المسيحية الى التوسط بين الناس وربهم إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسيسين ، الدين مسؤل عن فظائع كثيرة في العالم ، وهل في العالم دين يمكن العالم الانساني من أن يجمع أمره غيرالاسلام ؟ لوأن الأمة الانجليزية كانت مسلمة لكانت ادارة الاحكام أسهل ولحلت الجمعيات الكثيرة الكنيسية ولم يبق هناك شقاق حزبي ولا كانت هناك ضرائب ثقيلة لتوصل الناس الى ربهم ، دين المسيح وموسى كان أسهل الأديان ولكن الخلط عقده وجعله سببا في الحروب الصليبية التي مات فيها عشرات الالوف ، لهذا ؟ لأجل ضريح ظن الناس أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، إن المتعصبين وهم القسيسون يحكمون على من لم يتبعهم بالهلاك الأبدي * ويقول (غوردون) ﴿ انه لم يجد بين المسيحيين إحسانا كالذى رآه عند المسلمين ، ليس في الدنيا سلوى كالتي يجدها من يؤمن بالحقائق لا بمجرد الأقوال ﴾

١٧٣ وقال ﴿الدين المسيحي شرقي وقد بقي في أوروبا ألفي سنة ولاجرم أن الدين الاسلامي أرقى منه أفلا يسوغ أن يحل الثاني محل الأول مع انه شرقي أيضا ، واذا أنارت المسيحية العالم ألفي سنة فلم لايحل الأسهل منها وهوالاسلام محلها إذ ليس هناك مانع ؟ دين الاسلام يؤيد التوراة والانجيل ويوسع تعاليمهما ، أليس من الجور والظلم أن يحكم قومي على الاسلام وهم لم يدرسوه بل هم لم يفهموا معنى كلمة (اسلام) وكأنهم يرون أن إثارة عقولهم ازعاج لهم ، منذ سنين كنت أقول إن الاسلام يحرم الوثنية والقرآن كلام الله وهكذا الانجيل فلم نترك أحدهما معا انا قبلنا الآخر ؟ أنا مدة حياتي شاكر لله ولكن في السنين الأخيرة زدت انشراحا وأصبحت في طمأنينة عظيمة لاحد لها وأنا سعيد جد سعيد ، ولكم كنت أقول إن تعاليم الكهنوتية لا فائدة منها ولكن أثق بأن الله هو الفاعل المختار ولكن لما قرأت القرآن اطمأننت جدا ، القرآن يعطي السلوى للمتعبين في الحياة وللجناة والخاطئين أصحاب الأعمال الشيطانية فهؤلاء أيضا لهم أمل في الله رب الجميع ، القرآن يعطي رجاء لكل تائب من هؤلاء ، تعصب الكنائس الأعمى وتنافسها دمرها ولكن الاسلام لم يفعل ذلك ، منذ سنين طلب بعض الحكام العظام في الشرق أن يبحث عن دين حق فبحثوا ثم قالوا لانترك ديننا ولوانا شكلنا لجنة لتبحث عن أرقى الأديان لم تجد غيرالاسلام ، إن من أعظم الظلم أن نعتنق دينا خاليا من الكهنوتية موافقا للعقل وهوالاسلام ، في الشرق وفي الغرب رجال يعرفون أن الاسلام هوالحق ولاأدري في أي وقت سينشرالله هذه الفكرة للناس أجمعين ، ولعله يكون قريبا ، الكنائس المسيحية يناقض بعضها بعضا مناقضة عظيمة ومعلمو اللاهوت وضعوا التعاليم معقدة وجعلوها تدهش العقول ، الكنائس الثلاثة الرومية والكاثوليكية والبروتستانية كلها طردتني منذ صغري ولا أدري ما الذي وضع في نفسي عدم الثقة بها في تلك الأيام ، كنت ولاأزال أحتقرذلك الذي يقف على منصة الخطابة ويحكم على الملايين بالاعدام لأنهم لايوافقونه طلبت من الله أربعين سنة ليعرفني الحقيقة فعلمت بعد ذلك أن هذا الدين من عمل الناس لامن عمل الله ، وأن زيارتي للشرق ملأتني احتراما واعظاما للدين المحمدي الحنيف ﴾ اهـ

١٧٤ ﴿ الفصل الثاني ﴾ فيما كتبه (الكونت هنري دي كاستري) قال ﴿ كنت أجوب في جوف الصحاري في ولاية حوران وورائي ثلاثون فارسا وأمامهم واحد يغني ويمدح في كاتب هذه السطور وكنت أصغي الى مديحهم الذي يدل على الانحطاط النفسي بالأراجيز المحبوكة وسني ٢٥ سنة وكان اليوم جميلا وبينما أنا في تلك الحال الجميلة إذ سمعت المنشد يقول (سيدي الآن وقت العصر) فرأيتهم حالا نزلوا عن

صحيفة

الخيول واصطفوا لصلاة العصر وقالوا بلسان واحد ﴿ الله أكبر ﴾ فرأيت ماحولنا كأنه يقول الله أكبر وداخلني إحساس وشعور جيل جدا وخشية ورأيتني محتقرا عند هؤلاء الذين يرون أن الله خاص بهم أما أنا فكأني هناك فكرت في الاسلام إذ رأيت جماله الفتان ﴾

١٧٥ ﴿ أدهشتني ظواهر الاسلام ولوانى كتبت إذ ذاك لعققت الناس غير محقق ولكنني أكتب الآن بتحقيق إن الكاتبين عن الاسلام ﴿فريقان﴾ المستشرقون ومستعر بوالجزائر وكلهم من الافرنج والمستشرقون أغزر علما ، وأنا وان كنت من القسم الثاني أسأل المستشرقين عفوا ، فأنا لست ممن كتبوا من غير إمعان فكر مثل المسيو (لوازون) . أنا لست بهذا الكتاب متعصبا للاسلام ولكن الاسلام صار مسألة من المسائل الكبرى شغلت أذهان الباحثين حتى أسست لها مجلة علمية في باريس يحج بها المسلمون وساعدهم المسيحيون بالمال على اقامة مسجد يعبدون الله فيه ، فأنا أريد بهذا الكتاب أن أبين كثيرا من الخطأ في الاعتقاد بالنبي العربي ودينه وهذا الخطأ أملاه التعصب الأعمى من بعض المسيحيين الذين يقولون عن المسلمين انهم يبغضون المسيحيين مع انهم هم يبغضون المسلمين ﴾

﴿ صدق سيدنا محمد ﷺ ، محمد والأغاني المعروفة بأغاني الاشارات ، محمد والتاريخ ، أصل الاعتقاد ، الوحي بالقرآن ، ليس محمد مبتدعا ، هل كان على الدوام صديقا ، وفاته ﴾

كان لي صديق في تلمسان وكلما بحثنا في الدين قال الله يلد عند المسيحيين ومحمد نبي المسلمين ساحر فلادين إذن ، هل يعلم المسلمون أقاصيص الأغاني ضد الاسلام في القرون الوسطى وقد كانت سببا في الحروب الصليبية ؟ هل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد فيها دين الاسلام هو عبادة الأصنام وأن لهم ثلاثة آلهة و بعضهم زاد له إلهين والآلهة هم (ماهوم) و (ابلين) و (ترفاجان) و (بافوميد) و (ماهوميد) وهو محمد ، وهل يعلم المسلمون أن تلك الأناشيد تقول ان محمدا جعل نفسه إلها ، أفلايدهشون أن محمدا عدو الأصنام يطلب منهم عبادة نفسه في صورة وثن ، هل يعلمون أن هؤلاء المتعصبين يقولون ﴿ إن الإله (ابلين) كان في معارة ولما انكسر جيش الاسلام سبوه وداسوه بأقدامهم وهشموه . وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتهينه . ثم تاب المسلمون واستغفروا واصطلحوا مع آلهتهم ولذلك كسر تلك الأصنام الأمبراطور (كارلوس) في سرقسطه ﴾ . كل ذلك في تلك الأشعار . وقال (ريشار) في أناشيده قوموا ونكسوا صنم ماهوميد الخ وذكر أن صورة ماهوم صنعت من أنفس الأحجار والمعادن وهناك وصف بديع جدا لتلك الأصنام يظن من سمعها أن الواصف شاهدها عيانا وماهوم هذا كان جوفه خاليا فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار . ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدة وقد انهزم المسلمون بعث قائدهم فطلب الإله من مكة وحوله الطبل والزمر والغناء والرقص . وقد وضعوا في جوفه عفريتا فكلم الخليفة . وهذا الصنم جعلوه علامة الدين الاسلامي كما ان الصليب علامة الدين المسيحي

١٧٧ وفي تلك الأناشيد أن المسلمين لما انكسروا أخذوا ينادون تلك الأصنام وهم في هرج ومرج . إن هؤلاء المنشدين لايعتقدون صحة تلك الأناشيد وانما هؤلاء هم شعراء القرون الوسطى . فأما المؤرخون بعدهم فقد حشوا كتبهم بالأقاصيص الخرافية وان سموا أنفسهم معتدلين . ومن عجب أن البروتستانت أيضا متعصبون على الاسلام يذمونه . انظر الى كتاب (ريلان) و (دون ماتينو) صاحب سراج الكنيسة إذ يقول إن كتاب محمد هزؤ والمسلمين حمير وحمر وحشية وكسالى وهكذا . و يقول (پروشار) المسلمون فاسقون مفرطون في نسائهم الخ

١٧٨ إن المسلمين لاهمة لهم إلا اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ولم يتغير أسلوب المسيحيين إلا سنة ١٧٣٣ م
إذ ألف (بريدو) المسيحي سيرة حياة محمد ذى البدع وقال إن غرض الكتاب خدمة الدين المسيحي
وكان سلاحه الوحيد الشتم والقم ، وجعل (داماسين) الاسلام بدعة مسيحية ، إن مسألة صدق النبي
متفق عليها بين المستشرقين تقريبا ، وهنا ذكر اسماعيل وديانته وانها تلاشت وحل محلها عبادة الأصنام
ثم دخلت اليهودية والنصرانية ، وبيان أن النبي ﷺ لم يكتب ولم يقرأ ، وهنا يعجز الباحث عن معرفة
المصادر التي عرفته ماجاء في القرآن من الديانات المختلفة ، على انه لو قرأ تلك الكتب لأقر بالتثليث مع
انه موحد
١٧٩ لما وجد ﷺ الأمم العربية عابدة للأصنام وهناك قوم يعتقدون التثليث وهكذا لزم الخلوة مفكرا في
الكون ولما بلغ الأربعين جاءه صوت من الحق ﴿ الله أحد ﴾ أما الوحي بالقرآن فهو مشكلة لم يحلها
أحد من الباحثين ، إن العقل يحار كيف تصدر آيات عن رجل أمي أصغى اليها عقبة بن ربيعة وأقنعت
عمر بن الخطاب وأبكت النجاشي . إن فصاحة القرآن لا يعرفها الفرنجي بالترجمة
١٨٠ إن العقل ليدهش كيف تؤثر الفصاحة هذا التأثير وكيف كان يتحداهم بسورة و بعشر سور مفتريات .
القرآن متمم للكتب قبله فلذلك يذكر بعض مافيها فهذه وظيفته . القرآن للانجيل كالانجيل بالنسبة
للتوراة . وهنا ذكر الآيات الدالة على أن دين الله واحد . إن النبي ﷺ في أول حياته معتقد بصحة
نبوته ولاجرم أن نصره في آخر حياته يثبت هذه العقيدة . لما قهر العرب لم يظهر العظمة ولا اتخذ وزيرا
١٨١ اننا مهما اجتهدنا فنحن به جاهلون . وقول (ريشار) انه كان في آخر حياته شاكا خطأ محض . وكيف
لا يكون كذلك وهو باجماع المؤرخين الصادقين قد بقي بحاله الى الموت فأصل المنشدين من النصارى
الذين قالوا إن محمدا قدمات تنهشه الخنازير وهو نشوان وليس عنده نصير ولا معين وأن المسلمين حرموا
لحم الخنزير لأجل ذلك
١٨٢ وكيف يقولون ذلك وهو ﷺ لما مرض خطب خطبة قرأ فيها آية ـ اليوم أكملت لكم دينكم ـ
ثم رجع الى بيت عائشة وأمرها بتفريق ماعنده من المال للمعوزين ثم قال للناس من له علي حق
فليأخذه وقال ـ لخزي الدنيا أهون من خزي الآخرة ـ ومات بمعاودة سم الشاة المسمومة عند اليهودية
زينب في خيبر وصار يقول (يارب أعني على سكرات الموت)
١٨٣ الاسلام في زمن الفتح لم يكن له من الأنصار سنة ٦٢٤ هـ في واقعة بدر إلا ثلثمائة وأربعة عشر فما مضى
قرن حتى اجتاز الالب وتوسط البلاد الفرنسية وأسلمت الشام والعجم ومصر و بلاد الغرب من مراكش
والجزائر وتونس وطرابلس بعد اضطراب شديد وانتشار الدين كانتشار السوائل . وأكبر المعاندين للدين
كانوا هم العرب لشدة تمسكهم بعوائدهم . والأب (بروغلي) يقول إن أبا بكر وعمر كانا أعقل من القياصرة
والحكام خاربوهم وانتصروا عليهم ولما ذهبت دولة العرب بعد قليل بقي الدين معهم
١٨٤ ﴿ الفصل الثالث ﴾ فيما ذكره العلامة (توماس كارليل) يقول « إن من أكبر العار والسبة على المتمدينين
أن يقولوا ان محمدا خداع مزوّر كذاب . وأنا أعجب كيف يروج الكذب بين الناس الى هذا الحد ومن
عرف علوم الكائنات دهش من هذه الأكاذيب على نبي العرب . وهل يستطيع الرجل الذى يجهل فن
البناء أن يبني بيتا ؟ كلا . فضلا عن انه يدوم (١٢) قرنا ومحمد بيته مضى له (١٢) قرنا يعيش فيه مائة
مليون من الأنفس فلو لم يكن هو بناء لانهارت أركانه ! ما أكذب الذين يكذبونه وما أجهلهم وما كذبهم
إلا من قبيل الأوراق المالية المزورة . هل يكون الرجل العظيم كاذبا ؟ كلا . إن الصدق أساسه أن المخلص

صحيفة

لايتوقف اخلاصه على ارادته هو مبعوث من الأبدية لايعتبر الاصطلاحات وانما يسير الى الحقيقة رأسا

١٨٥ الرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا ، بلاد العرب وعرة فيها بعض الرياض فهكذا العربى صامت كثيرا واذا تكلم كان كلامه قليلا وهو مملوء حكمة ، العربى متدين كاليهودى ولكن العربى ذو محامد جمة

١٨٦ مات أبو النبي ﷺ عقب مولده وتوفيت أمه بعد (٦) أعوام وكفله جدّه ثم عمه فصحبه فى التجارة تارة وفى الحرب أخرى ولم يقابل (بحيرا) إلا وهو صغير فكيف يتعلم منه . صناعة الخط لم تكن فى بلاد العرب إذ ذاك إلا قليلا ، إن محمدا ﷺ غنى عن المعلم وعن الخط . هو أمين صادق صامت بشوش الوجه

١٨٧ وقد كذب من قال ان محمدا ﷺ يريد الشهرة والمفخرة له وهو الاخلاص كله . يحقر جدليات اليونان وأصنام العرب وروايات اليهود المبهمة وأوثان العرب والعادات والاصطلاحات . ويحقر تيجان كسرى وقيصر وجميع المظاهر

١٨٨ كان يخلو بنفسه فى (غار حراء) لينظر فى هذا الكون فلما ظهرت له الحقيقة أخبر بها السيدة خديجة وأن الله واحد فتوكل عليه وسلم الأمر اليه فلم يصادف إلا سخرية من القوم فلم يؤمن به فى ثلاثة أعوام إلا (١٣) رجلا ولم ينصره من أسرته حين خطب فيهم إلا على وجمع القوم يضحكون ويسخرون من رجلين يقومان لاصلاح العالم كله . وفى سنة (١٣) من رسالته تألبوا عليه جميعا إذ اتفق أربعون رجلا من جميع القبائل على قتله فرحل الى المدينة

١٨٩ وهناك لم يجد مناصا من حربهم . ومن زعم أن محمدا نشر دينه بالسيف فقد أخطأ وهل أوجد السيف إلا ذلك الرأى الجديد ؟ ولقد فعل (شرلمان) بقبائل السكسون مثل ذلك . إن النصرانية أيام ظهور الاسلام تصدّع الرأس لاحياة فيها إلا قليلا

١٩٠ هذا الدين حق . جاء محمد وشيع النصارى فى جدال وتخبط بالحجج العقيمة فأنار الوجود وأزال الظلام . القرآن معجز أعظم اعجاز ولكن الاوروبى لايقدر أن يدرك ذلك الاعجاز لأن الترجمة ذهبت برونق القرآن القرآن كتاب تشريع فى كل زمان ومكان دام (١٢) قرنا . لقد كذب (براديه) وأمثاله إذ يقولون إن القرآن أناديع وتزاويق . كانت حياته ﷺ كلها خطوبا فى مدة (٢٣) سنة التى بلغ فيها الرسالة ومحاربات ومحاورات ومخاصمات داخلا وخارجا

١٩١ كان ﷺ يكتفى من المعجزات بالكون فيذكرهم السحاب المسخر يخرج بسببه النبات والشجر . ويذكرهم السفن التى تجرى فى البحر والجبال الشامخات ويقول انها ستفنى . ووالله ان العلوم التى يقرؤها الناس فى العصر الحاضر لتذهب برونق الكون انها ميتة وهل يذوق لذة جمال هذه الدنيا إلا العابد ذلك هو الذى انفتحت بصيرته فعشق الوجود أما العلوم العصرية فهى وحدها ميتة فى النفوس . لم يكن محمد ﷺ أخا شهوات وكيف يكون أخا شهوات من كان عفيفا قانعا متقشفا فى كل أطواره . خشن اللباس والطعام ساهر الليل عابد ربه يحقر الملك والمال والصولجان عما يتطلع له أصاغر الرجال . عاشر القوم فغلب ألبابهم بلطفه . بكى على زيد مولاه برقة وعطف . انه كان شفيقا رحيما . انى أحب محمدا لأنه رجل لايتصنع . كان ماضى العزم لم يكن عابثا . أما الرجل الكاذب فهو ذلك الذى قد تضاءل شعاع الله المنبعث فى روحه فأصبح ظاهرا لينه ولطفه كامنا لؤمه وخبثه . إن نفس المؤمن ترجح بجميع دول الأرض

١٩٣ صوت محمد ﷺ صوت الانسانية كلها وليست الجنة كلها مادية بل ذكر أن فيها السلام والامن والامن

لاوجود له في الدنيا وهكذا الشفاء وعدم الغل وما أجله وفي القرآن عظمة العمل الانساني وأن له أجرا كبيرا بعد الموت وهو حق . كان قلبه ملتهبا يتوقد واخلاصه لانظير له . ما أشرف هذا الدين وأعظمه وقد مضى له (١٢٠٠) سنة وخمس العالم الانساني يتبعه ولم تعتصم أمم بدينها كاعتصام المسلمين بالاسلام محمد ﷺ أخرج أمة من العدم أحياها بعد موتها ، فهل أحياها بالكذب ؟ كلا . انه حوّل الخمول الى نشاط والتفرّق الى اجتماع ولم يمض على رسالته قرن حتى أصبح للعرب رجل في الهند ورجل في الأندلس ، كل ذلك منبعه الايمان ، أفلاترى ذلك شرارة من السماء تأججت واشتعلت بين غرناطة ودهلى انتهى . الكلام على (توماس كارليل) مؤلف هذا الكتاب وانه من (اسكوتلانده) ولد سنة ١٧٩٥ وهنا ﴿ جوهرتان * الأولى ﴾ في ايضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات ﴿ الثانية ﴾ في ثناء المؤلف على الله وتبيان قول (توماس) أن محمدا ﷺ لا يكتب ولايقرأ وقوله انه لم يتعلم وقوله « إن محمدا ﷺ كان يقول هذا الكون هوالمعجزة » وأن هذه الأقوال هي عين آيات القرآن . و بيان أن هؤلاء الغربيين لم تتقيد عقولهم بقشورالاسلام فأمكنهم الوصول الى الحقائق الأصلية بخلاف صغار العلماء من المسلمين الذين غشت على عقولهم العلوم الجزئية وجهلوا الكليات ثم الكلام على شكوى اللورد هيدلى من أكاذيب القسيسين على نبينا ﷺ وأن هذا هوقوله تعالى ـ اتخذوا أحبارهم ـ الخ وهنا يحمد مؤلف التفسير ربه أن هذا الزمن قد ظهرت فيه معاني القرآن واضحة عملا في أوروبا وانه قد نال ما كان يتلمسه صغيرا من معرفة نظام العالم ومعرفة وجود خالقه ومعرفة ماتقوله أوروبا في ذلك ومعرفة مابه يرتقي المسلمون

١٩٦ ويقول مؤلف هذا التفسير أيضا انه دهش جدا من أن أوروبا التي بهرت العالم بصناعتها وعلومها تمشي وراء هؤلاء القسيسين بلاعقل ، وكيف يحرّف الكلم عن مواضعه أولئك القسيسون . وكيف عجزوا عن البراهين واكتفوا بذم سيدنا محمد ﷺ والمسلمين مثل قولهم « المحمديون حيرونبيهم يحب النساء والمسلمون مربوطون بحبال الشيطان ونبيهم مرتكب الخطايا يحتاج الى من يخلصه لأنه كان دنيويا الخ ودين الاسلام يشجع على الزنا والجنة أصبحت كرخانة » وذلك بأقلام كتاب هؤلاء القسيسين في أمريكا وأوروبا

١٩٩ ثم هنا ذكر (اللورد هيدلى) أن هؤلاء لم يتعلموا مبادئ الدين المسيحي الذي يحقرالكذب فقد كان ﷺ يحتمل الاضطهاد بصبروثبات وهو في مكة (١٣) سنة لايخشى أعداءه وهو عفو محسن شجاع كريم . ومن العجب انه عفا عن الذين أرادوا قتله . لقد عاب هؤلاء الكاذبون المسيحيون الاسلام لأجل السلب والنهب اللذين أتت بهما القبائل المتوحشة . إذن فلتعب المسيحية على محاكم التفتيش التي يرفضها الدين المسيحي . إن قوّة أخلاق الرجل تظهر في المحن ومن لم تصادفه المحن فمن أين تظهر أخلاقه ؟ هل يمكنك أن تعلم الصبر إلا اذا أوذيت فصبرت . لا فضائل إلا أثناء المحن . إن محمدا كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي . كان ﷺ شديد الغيرة على دين الله فكسر الأصنام وقاوم عبادتها مع شدّة صلابة العرب وتمسكهم بعبادة آلهتهم

٢٠١ ما أشهر محمد السلاح إلا عند الحاجة القصوى ـ لا اكراه في الدين ـ

﴿ تذكرة ﴾ يقول المؤلف لابد من الصراحة وقول الحق وخاطب المسلمين والفرنجة . أما المسلمون فانه يقول لهم « هاهم أولاء كتاب أوروبا نظروا الى الاسلام من حيث جوهره ولم تقعهم المسائل الجزئية ولاالمذاهب المختلفة كالشيعة وأهل السنة ولذلك قالوا ان جوهره هي علوم الطبيعة والفلك وجميع الموجودات

ان

صحيفة

إن هنرى وكارليل يقولان مايقوله الغزالى وابن رشد بخلاف أكثر المسلمين الذين تمادوا لأجل أمور جزئية كقتل الحسين رضى الله عنه الذى كان سببا فى كره جهلة الشيعة لأهل السُّنة والعكس وكان لذلك أثر فى السياسة العامة . إن المسلم أشبه بالمحبوس فى مكان فيه نور ضئيل بعد القرون الأولى وفلاسفة أوروبا نظروه فى ضوء الشمس وقد قابلهم قراء هذا التفسير . ولقد حبس الاوروبيون فى دين عتيق أكل الدهر عليه وشرب ودحضه عظماؤهم . إذن أهل الشرق وأهل الغرب قتلهم التقليد . هذا من جهة الدين . أما السياسة فهاهم الى الآن لم يقوموا بما يجب فيها وكتابى (أين الانسان) شاهد بذلك ﴿ الجوهرة الثالثة ﴾ فى قوله تعالى ــ وكأين من دابة لاتحمل رزقها ــ الخ

٢٠٣ بيان أن عجائب الحيوان ذكرت فى أمثال (آل عمران) وغيرها ولبين هنا أن سعادة الانسان موقوفة على العلم * أوليس من المدهش أن يرى الانسان الجرذان قبـل هطول الامطار بعدة قريبة تعود من أوكارها على صفاف النهر الى أوكارها فى القرية فهى أشبه بميزان للطقس . وهكذا الفأر فى البيت قبل أن ينقض عليه بزمن يسير يفر حالا (انظر شكل ٢٢) والجمل فى الصحراء يمرغ رأسه قبيل هبوب العواصف حيث لاعلامة تدل عليه و بعض السمك قبل أن يطفى النهر لايأكل لعلمه أن غذاءه سيحضر مع الفيضان القريب والطيور تعرف حال الطقس قبل تغيره كالوعول والأرانب إذ تكون السماء صافية فتنحدر من الجبال و بعد يوم واحد يظهر السحاب والمطر . وفى (شكل ٢٣) صورة نوع الأوز الذى يرحل من المنطقة قبل اشتداد الشتاء

٢٠٥ (شكل ٢٤) صورة انحدار الوعول من أعلى الجبال . خطاب المؤلف لله يقول انه سكن الأرض وأهلها يتقاتلون و بحث عن الحقيقة فوجد أن أكثر الناس فى شهواتهم مشغولون وهم متقاطعون وفى أثناء ذلك يظهر أناس يعرفون آثار جمالك ويسخرون من الزخرف و يعجبون من لطفك بالجرذان وعطفك على الأرانب البرية والوعول وهذه المزايا لايعرفها الجهلاء . أما المفكرون فى أمثال هذا فلا سعادة إلا لهم بل هم فى جنة العلم والعرفان فى هـذه الحياة . ولقد رأى قاضى (صوهاج) الحيات والعقارب تفر مسرعة قبل فتح الترعة الصوهاجية بساعات وأخبره أهل البلدة أن هذه دأبها كل سنة . ولاجرم أن هذه الحشرات والزواحف لاتعلم بالمستقبل إلا ماكان لعمومها أما مايخص أحـدها فلا بدليل قتلنا للحيات وصيدنا للطيور . وقد يعلم الانسان مستقبل نفسه فى التنويم المغناطيسى وانما حرم من هذا العلم عادة لأنه يغرى بالكسل فجهل المستقبل حثا على العلم والعمل

٢٠٧ (لطيفة) فى قوله تعالى ــ وان الدار الآخرة لهى الحيوان ــ الخ وحكاية وزير مصرى قال للمؤلف « إن مذهب النشوء والارتقاء به تمتعنا بالقصور والعظمة والمال أما الآخرة والجنة ونحوها فلا . وحكاية مدرس عظيم اشترى أرضا كان فى فقره يجلس تحت شجرها فلما اشتراها فى كبره فرح بها وغنى وهو مخطئ فى فرحه وهكذا رجلان فلاحان كل منهما فرح بما عنده ملابس أو أنعام اوحبوب

٢٠٨ ﴿ خاتمة السورة ﴾ خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسـلام تقول « إنكم تحرقون الطوب لتبنوا وتزرعوا لتأكلوا وتلبسوا أما أنا فسأكنى ومأكلى بسبب هذه الخيوط فنها مراكبى فى البحر ومناطيدى فى الجوّ وشبكة صيدى فى الأشجار . فهذا مخزن من مخازن الله تعالى وقد طرت فى الجوّ فقلدنى أهل أوروبا أما أنتم فانكم فى آيات ربكم لاتفكرون »

(تمت)

صحيح مسلم

جمع

إمام الأئمة الحفاظ . وعلم المحدثين الأفذاذ

أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى النيسابورى

الكتاب أشهر من أن يوصف . يحتوى على نيف وسبعة آلاف حديث صحيحة فى غاية الثقة والاتقان

وهو الصحيح الوحيد الذى تلقته الحفظة المحدثون بالقبول وأذعنت له العلماء الفحول وعليه مدار الصحاح فى المعقول والمنقول

لذلك تهافت العلماء على شرحه ودرسه لما فيه من الفوائد الجمة . كيف لا وهو كلام سيد الأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم

وقد طبع عدة طبعات مختلفة . وبالنظر لتهافت المسلمين على اقتنائه أصبحت نسخه أثرا بعد عين

وقد طبع أخيرا طبعة مصححة بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف على ورق جيد وحرف جميل بأشهر المطابع المصرية مذكورا بها الأبواب فى صلب الكتاب (لأول مرة) وعليه شرح وجيز حل المشكل من ألفاظه انتخب من شرح الامام النووى والأبى والسنوسى وغيرهم من الشراح المشهورة بمعرفة لجنة من العلماء برآسة العلامة المرحوم الشيخ محمد ذهنى رحمه الله . وهو فى مجلدين